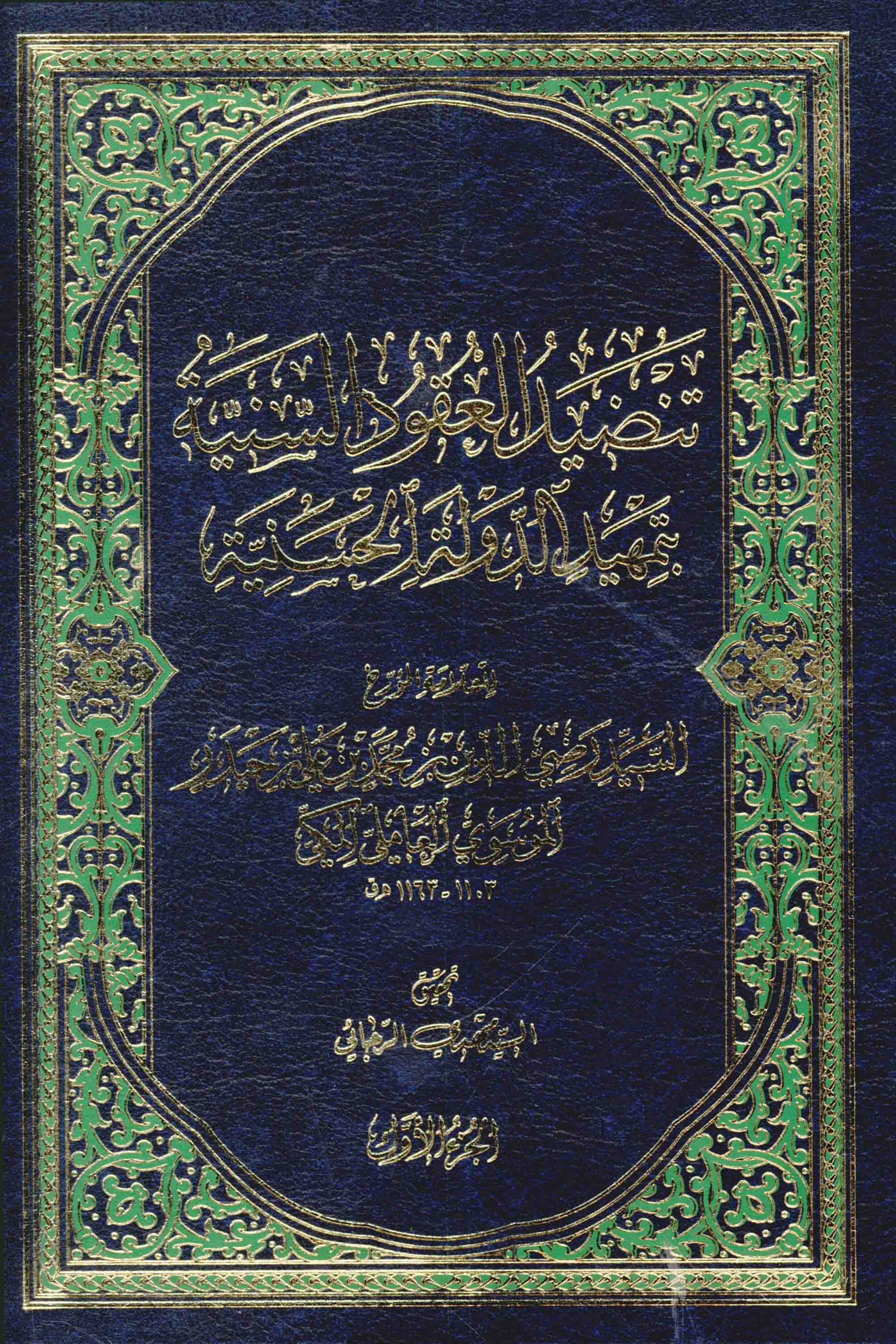

تنضيد العقود السنية
بتمهيد الدولة الحسنية
للعلامة المؤرخ
السيد رضي الدين بن محمد بن علي بن حيدر
الموسوي العاملي المكي
١١٠٣ - ١١٦٣ هـ ق
تحقيق
السيد مهدي الرجائي
الجزء الأول



للعلامة المؤرخ

السيد رضي الدين بن محمد بن علي بن حيدر

الموسوي العاملي المكي

١١٠٣ - ١١٦٣ هـ ق

تحقيق

السيد مهدي الرجائي

الجزء الأول

موسوي عاملي ، رضي‌الدين بن محمّد ، ۱۱۰۳ _ ۱۱٦۳ ق.
تنضيد العقود السنية بتمهيد الدولة الحسنية / للسيّد رضي الدين بن محمد بن علي بن حيدر الموسوي العاملي المكي ؛ تحقيق السيّد مهدي الرجائي . — قم: معهد الدراسات لتحقيق انساب الاشراف ، نشر الانساب ، ۱٤۳۱ق. = ۱۳۸۸ش.
۲ ج. : نمونه

ISBN: 978 – 600 – 90140 – 8 – 8
ISBN: 978 – 600 – 90140 – 6 - 4
ISBN: 978 – 600 – 90140 – 7 - 1

فهرست نويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
كتابنامه به صورت زيرنويس.
۱.مكه — تاريخ . ۲. مكه — سرگذشتنامه. ۳. سادات — مكه — سرگذشتنامه. الف. رجايي ، سيّدمهدي، ۱۳۳٦ش.— ...، محقق. ب. معهد الدراسات لتحقيق انساب الاشراف. ج. عنوان.
۸م ۷م/ DS ۲۴۸ ۹۳۹/۴۹



الكتاب : تنضيد العقود السنية ج ۱
المؤلف : السيّد رضي‌الدين الموسوي العاملي
المحقق : العلامة السيّد مهدي الرجائي
الناشر : نشر الأنساب التابعة لمعهد الدراسات لتحقيق أنساب الأشرف
الطبعة : الاولى سنة ۱٤۳۱هـ . ق — ۱۳۸۸ش
ليتوغرافي : تيزهوش — قم
المطبعة : ستاره — قم
عدد : ۱۰۰۰ نسخة
شابك الدورة : (۸-۸-۹۰۱٤۰-٦۰۰-۹۷۸)
شابك المجلد ۱: (٤-٦-۹۰۱٤۰-٦۰۰-۹۷۸)
مركز النشر : ايران — قم — شارع صفائية — زقاق رقم ۲۵ — كوچه قائمي پلاك ۳٦
معهد الدراسات لتحقيق أنساب الأشراف
رقم التليفون : ۷۷۳۲۰٦۷

بسم الله الرحمٰن الرحيم

ترجمة المؤلّف

اسمه ونسبه:

هو العلاّمة المؤرّخ الأديب السيّد رضي الدين بن محمّد بن علي بن حيدر بن محمّد بن نجم الدين بن محمّد بن محمّد بن محمّد بن الحسن بن نجم الدين بن الحسين بن محمّد بن موسى بن يوسف الأمير بن محمّد بن معالي بن علي الحائري ابن عبدالله بن محمّد بن علي الديلمي بن أبي‌طاهر عبدالله بن أبي‌الحسن محمّد المحدّث بن أبي‌الطيّب طاهر بن الحسين القطعي بن موسى الثاني أبي‌سبحة بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم العاملي السكيكي المكّي.

أقول: وبيته بيت علم وثقافة وأدب، يقال لهم: بيت آل نجم الدين، نسبة إلىٰ جدّهم الأعلىٰ السيّد نجم الدين، المجاز من صاحب المعالم المحقّق العلاّمة الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني بالإجازة الكبيرة، وأوردها العلاّمة المجلسي ﷺ بتمامها في إجازات البحار، فراجع[١].

نبع في هذا البيت جمع غفير، ذكرهم أرباب التراجم والمعاجم.

---

(١) وطبعت الإجازة مستقلاً في كتاب الإجازات لجمع من الأعلام والفقهاء والمحدّثين، المطبوع بتحقيقي، نشر مكتبة العلاّمة الفقيه السيّد المرعشي ﷺ.

وجدّه السيّد حسن أوّل من سكن قرية سكيك، قرية من قرى الشام.

ووالده السيّد محمّد كان فاضلاً عالماً أديباً شاعراً، وله كتاب تنبيه وسنى العين، طبع هذا الكتاب بتحقيقي، وكتبت ترجمة مفصّلة عن حياته العلميّة والاجتماعيّة والأدبيّة، فراجع.

الإطراء عليه:

قال السيّد عبدالله الجزائري في إجازته، عند ذكر مشايخه: ومنهم السيّد الجليل الفقيه، السيّد رضي‌الدين بن محمّد بن علي بن حيدر العاملي المكّي، أجازني بالمشافهة في مكّة شرّفها الله، لمّا استجزته بمحضر من مولانا الشيخ إبراهيم المجاز، ثمّ كتب لي إجازة مبسوطة مشتملة علىٰ جميع طرقه وطرق أبيه وأسانيدهما، وقد ذهبت في أثناء الطريق، ولم أحفظ منها إلاّ روايته عن والده المذكور، عن العلاّمة المحقّق محمّدشفيع بن محمّدعلي الأسترابادي، عن والده، عن المولىٰ محمّدتقي المجلسي.

وكان السيّد رضي‌الدين رحمه الله مهذّباً، أديباً، شاعراً، فصيحاً، حسن السيرة، مرجوعاً إليه في أحكام الحجّ وغيره.

وسمعت والدي طاب ثراه يصف أباه السيّد محمّد بغاية الفضل والتحقيق، وجودة الذهن، واستقامة السليقة، وكثرة التتبّع لكتب الخاصّة والعامّة، والتبحّر في أحاديث الفريقين، ويطري في الثناء عليه لمّا اجتمع معه في مكّة، والذي وقفت عليه من مصنّفاته في الكلام والفقه يدلّ علىٰ فضل غزير، وعلم كثير، رحمة الله عليه[1].

---

(١) الإجازة الكبيرة للجزائري ص ٩٦ ـ ٩٨.

وقال ابن عمّه السيّد عبّاس المكّي: السيّد النسيب، الشريف الحسيب، الأديب الأريب، المصقع المنير الخطيب، الذي بذكره ينشرح القلب ويطيب، العلم السامي الأكبر، الرئيس الكريم البرّ، السيّد رضي‌الدين ابن العلاّمة الفهّامة الحبر البحر السيّد محمّد حيدر، هو مقدام البلغاء المترجمين في هذه الرحلة، عالم عامل رحلة، تشدّ إلىٰ جنابه الرحال، وتزدحم علىٰ بابه الرجال، لتحصيل الفوائد، وتنويل الصلات والعوائد، يسعىٰ إليه كلّ ذي أمل، إذا نادىٰ مناديه بحيّ علىٰ خير العمل.

كيف لا؟ وهو فاضل أقرّت له الفضائل بالوحدة، وذلك فضل الله يؤتيه عبده، وأديب تربّىٰ في حجر الآداب، ورضع لبان العقل والصواب، ونام في مهد البلاغة فأيقظ بفصاحة تحريره وتقريره قلوب الطلاّب.

وعلىٰ كلّ حال، فإليه في البلاغة المرجع والمآب، ونحريرٌ ما سمعنا بمثله ولا رأينا، ورئيسٌ كريم ينشد لسان حاله، إنّ آثارنا تدلّ علينا، تفرّد بالأريحيّة والفضل، فما جعفر لدىٰ جوده وما الفضل، كان والده معدناً لكلّ فضل وإفادة، وتاج الأماجد السادة، وهو من بعده أخلفه وزيادة، علىٰ رغم كلّ حلاّف حنّاث مشّاء بنميم نفّاث، له التصانيف الحالية، الفريدة المفيدة الغالية[(١)].

وقال السيّد الصدر في تكملة أمل الآمل: ترجمه ابن عمّه السيّد عبّاس بن علي ابن حيدر بن محمّد في نزهة الجليس، وقال: السيّد النسيب، الشريف الحسيب، الأديب الأريب، المصقع المبين الخطيب، الذي بذكره ينشرح القلب ويطيب، العلم السامي الأكبر، الرئيس الكريم البرّ، إلىٰ آخر ما تقدّم.

---

(١) نزهة الجليس ١: ١٨٦ ـ ١٩٢.

وقال عمر رضا كحّالة: هو عالم أديب[١].

مشايخه ومن روىٰ عنهم:

١ ـ الشيخ عيد المدرّس المصري بالمدينة الشريفة المنوّرة، قال في كتابه هذا في حوادث سنة (١١٤٢) وهي سنة وفاة أُستاذه: قرأنا عليه ألفية الإمام ابن مالك، وجانباً من جمع الجوامع، واستفدنا منه فوائد كثيرة.

٢ ـ والده العلاّمة السيّد محمّد العاملي المكّي، يروي عن شيخيه العلاّمة أبي‌الحسن الشريف الاصفهاني، والعلاّمة محمّدشفيع بن محمّدعلي الأسترابادي بإسنادهما.

٣ ـ الشيخ محمّد العناتي المغربي المالكي، قال في كتابه هذا في حوادث سنة (١١٤٠) وهي سنة وفاة أُستاذه: قرأت عليه شرح مختصر التلخيص، وبعض رسائل الاستعارات، وسمعت منه جانباً من صحيح البخاري يمليه من محفوظه.

٤ ـ الشيخ محمّدباقر بن المولىٰ حسين النيشابوري المكّي. وهو جدّه الرضاعي، صرّح بكونه من مشايخه في إجازته العامّة التي كتبها في سنة (١١٥٤) للمولىٰ أحمد الشريف الخاتون آبادي الآتي، وشيخه هذا يروي عن العلاّمة محمّدباقر المجلسي صاحب بحار الأنوار، والعلاّمة محمّد بن عبدالفتّاح التنكابني السراب المتوفّىٰ سنة (١١٢٤).

تلامذته ومن روىٰ عنه:

١ ـ المولىٰ أحمد بن محمّدمهدي الشريف الخاتون آبادي.

أجازه في سنة (١١٥٤) هـ وكان سافر في هذا التاريخ إلىٰ مكّة المشرّفة،

---

(١) معجم المؤلّفين ٤: ١٦٧.

فالتقىٰ بالسيّد الشريف صاحب الترجمة، واستجازه فأجازه، وتوفّي في الطريق راجعاً من مكّة المكرّمة إلىٰ وطنه الشريف.

قال السيّد عبدالله الجزائري: المولىٰ أحمد بن محمّدمهدي الشريف الخاتون آبادي، كان فاضلاً محقّقاً، عابداً ورعاً، متعفّفاً مهذّباً، محمود الأخلاق، من شركاء والدي في الدرس باصبهان، ثمّ خرج بعياله إلىٰ مشهد أميرالمؤمنين عليه السلام وسكن به سنين، وقدم علينا سنة سبع وثلاثين بعد المائة والألف، وأقام عندنا سنتين. وكان متقناً للرياضيات سيما الهيئة، واشتغلت عليه من الزيج بالقدر المتعلّق باستخراج التقويم، وصار ذلك سبباً لانتشار هذا الفنّ في هذه البلاد. ثمّ سافر إلى اصبهان، وحجّ منه مراراً، وتوفّي أخيراً في الطريق رحمة الله عليه[١].

وقال في الذريعة: إجازة السيّد رضي الدين ابن العلاّمة السيّد محمّد بن علي ابن حيدر بن محمّد بن نجم الدين الموسوي العاملي المكّي المولود بها سنة (١١٠٣) لميرزا أحمد بن محمّدمهدي الشريف الخواتون آبادي، تاريخها سنة (١١٥٤) وهي كبيرة، أوّلها: حمداً لمن تنزّه بجلاله عن مشابهة الأنام[٢].

أقول: ولم أعثر علىٰ هذه الإجازة.

٢ ـ السيّد شبّر بن محمّد بن ثنوان المشعشعي الحويزي، صاحب كتاب الذخيرة في العقبىٰ في مودّة ذوي القربىٰ، المطبوع هذا الكتاب بتحقيقي، ويروي عنه إجازة بتاريخ سنة (١١٥٥) هـ ق.

قال في الذريعة: إجازة السيّد رضي‌الدين للسيّد شبّر بن محمّد بن ثنوان ...

---

(١) الإجازة الكبيرة ص ١٢٦.

(٢) الذريعة ١: ١٩٢.

وللسيّد نصرالله بن الحسين المدرّس الحائري الشهيد، تأريخها سنة (١١٥٥) متوسّطة، أوّلها: الحمد لله مستحقّه. كتبها لهما، وأحال التفصيل إلىٰ ماكتبه في السنة الماضية لميرزا أحمد الشريف، وزاد هنا فهرس تصانيف والده[١].

٣ ـ السيّد عبدالله بن نور الدين بن السيّد نعمة الله الجزائري.

قال في إجازته الكبيرة: أجازني بالمشافهة في مكّة شرّفها الله لمّا استجزته بمحضر من مولانا الشيخ إبراهيم المجاز، ثمّ كتب لي إجازة مبسوطة مشتملة علىٰ جميع طرقه وطرق أبيه وأسانيدهما، وقد ذهبت منّي ولم أحفظ منها إلاّ روايته عن والده، عن العلاّمة محمّدشفيع بن محمّدعلي الأسترابادي، عن والده، عن المولىٰ محمّد تقي المجلسي[٢].

٤ ـ الشهيد السيّد نصرالله المدرّس الحائري.

قال السيّد الصدر: وقفت له علىٰ إجازة كتبها للسيّد نصرالله المدرّس الحائري، وذكر في آخرها مصنّفات والده ومصنّفات نفسه الخ[٣].

وقال المحقّق الطهراني في كتابه الكواكب المنتشرة: أجازه له مع السيّد شبّر في تاريخ سنة (١١٥٥) هـ[٤].

أقول: الظاهر أن تكون الإجازة في سنة (١١٥٨) وذلك أنّه صرّح في هذا الكتاب ـ كما سيأتي ـ أنّ الشهيد السيّد نصرالله الحائري سافر في هذا التاريخ إلىٰ

---

(١) الذريعة ١: ١٩٢.

(٢) الإجازة الكبيرة ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) تكملة أمل الآمل ص ٢٠٩ – ٢١٠.

(٤) الكواكب المنتشرة ص ٢٧٦.

مكّة المكرّمة، ولعلّه التقىٰ في هذه السنة بالسيّد الشريف صاحب الترجمة، وذكر في حوادث سنة (١١٥٨) إرساله رسولاً من طرف السلطان نادرشاه إلىٰ شريف مكّة، والقبض عليه في مكّة وإرساله مقيّداً إلىٰ استانبول، وبها استشهد رحمه الله تعالىٰ، إلاّ أن يقال: إنّه سافر أيضاً في سنة (١١٥٥) والله العالم .

تصانيفه الرائعة :

١ ـ إتحاف ذوي الألباب .

٢ ـ تنضيد العقود السنيّة بتمهيد الدولة الحسنيّة، تاريخ جليل القدر جمّ الفوائد، وهو هذا الكتاب الذي بين يديك، سيأتي الكلام حوله .

٣ ـ جاف ذوي الأشراف .

٤ ـ الحاشية علىٰ مفاتيح الشرائع للفيض الكاشاني .

٥ ـ الحاشية على المدارك للسيّد محمّد العاملي .

٦ ـ الحاشية على المسالك للشهيد الثاني .

٧ ـ الدلائل النهاريّة على المسائل الصحاريّة .

٨ ـ منسك صغير كافل لجميع الاحتياطات .

٩ ـ نهج السداد في أحكام الحجّ الإفراد .

١٠ ـ نوادر لبّ اللباب .

١١ ـ الوسيط بين الموجز والبسيط، مقصور على الحجّ وما يتعلّق به، وهو يقارب نصف كتاب الحجّ من المدارك مع فوائد زائدة عليه .

وغيرها من الكتب والرسائل والقصائد .

أدبه وشعره :

قال السيّد عبّاس المكّي: له شعر يزري بعقود الجواهر في أجياد الأبكار

الخرائد، بليغ الألفاظ، لطيف المعاني، يطرب لسماعه الحسن بن هاني، فمنه قوله مادحاً شريف مكّة المشرّفة السيّد الأنجد الشهم الأمجد الشريف مبارك بن أحمد:

لعلوي ربوعٌ باللوىٰ وخدور فهل لك يا حادي الظعون تزور[1]

وسيأتي تمام شعره نقلاً عن كتابه هذا.

ومن قصيدته في ولاية علي بن سعيد الحسني علىٰ مكّة المكرّمة في سنة (١١٣٠) قال: وممّن أرّخ له هذه الولاية، ونشر عليه من الثناء أفخر راية، مؤلّف هذه الكلمات ومنشيها، وحائك بردها وموشيها، تقرّباً إلىٰ ذاته، ومتعرّضاً لجزيل برّه وصلاته، وهو:

يا سيّداً قد حاز فخر الأُولىٰ سبحان من بالملك قد كمّلكْ
ويا فريد العقد مجداً وما درّة تاج الملك ما أعدلك
بسطت عدلاً شايعاً في الورىٰ بمنهجٍ يحمده من سلك
لذا أتىٰ تاريخ عام الهنا بملكك الصاعد أوج الفلك
من بعد إظهار لجنٍ علوا وأسعد الرحمٰن مستقبلك
فهاك تاريخاً غدا مفرداً ما تمّ للعالم ما تمّ لك

ثمّ قال: الشطر الأخير وهو التأريخ للبهاء زهير، وإنّما ضمّنته لمطابقته مقتضى الحال، مع كونه صالحاً لأن يكون تاريخاً، وإنّما زاد ثلاثة وثمانين، فاستثنيتها بقولي «من بعد إظهار لجنٍ علوا» وهو لفظ «لجن» بمفرده، وهو ثلاثة وثمانون، ولا يخفىٰ ما في ذلك من التورية اللطيفة، وهذا النوع من التاريخ كثير جدّاً لطيف، ويسمّىٰ التاريخ المستثنىٰ.

---

(١) نزهة الجليس ١: ١٨٦ ـ ١٩٢.

ومن قصائده الطنّانة ما مدح به الشريف مبارك بن أحمد بن زيد بن محسن بن حسين بن الحسن بن أبي‌نمي، قال: فمن جملة من مدحه، وأفعم من برّه قدحه، جامع هذا التأليف ومنشيه، وحائك بروده وموشيه، بقصيدة رائيّة، سمت بمديحه على القصائد الطائيّة، وهي :

لعلوي ربوعٌ باللوىٰ وخدور ... فهل لك يا حادي الضعون تزور

تجدّد عهداً باللوىٰ جاده الحيا ... فلي في رباه روضةٌ وغدير

ونذكر أيّاماً تقضّت بسفحه ... وعصراً به غصن الشباب نضير

سقىٰ مربعاً للعامريّة باللوىٰ ... ملثٌّ يعمّ الأرض منه بحور

فلم أنس سرّاً قد أذاعته عندما ... تدانىٰ فراقٌ بيننا ومسير

عشية قالت بالحمىٰ سوف نلتقي ... وقال لها الواشي أبوك غيور

فدتها الغواني كيف تفشي حديثها ... أما علمت أنّ الوشاة حضور

أطعت الهوىٰ في حبّها ولو أنّه ... يؤجّج ناراً في الحشا ويثير

طرقت حماها حين طال بي النوىٰ ... وفي كبدي منه لظىً وسعير

وقلن محبٌّ قد أتىٰ يطلب الثوىٰ ... فقالت يقيم اليوم ثمّ يسير

فقلت لها يا علو في غير أرضكم ... أسير وأمّا عندكم فأسير

أما ملكتي[١] لا فرّق الله بيننا ... إلىٰ كم صدودٍ في الهوىٰ ونفور

أفي كلّ يومٍ لي إليكم وسيلة ... أقدّمها إنّي إذاً لصبور

علىٰ أنّني لم أفش سرّاً ولم أخن ... عهوداً ولم تسند إليّ أمور

فقالت حماك الله من كلّ شيمةٍ ... تشين ولكنّ الوشاة كثير

---

(١) في نسخة: أهاجرتي.

إذا ظفروا يوماً بحرٍّ تبادروا … إلىٰ ذمّةٍ إنّ اللسان عثور
فقلت دعيهم لا أباً لأبيهم … فإنّي مليكٌ في الهوىٰ وأمير
فقلت نعم قد أيّدتك شواهد … لدينا وأخبارٌ بذاك تسير
ولكن إذا فاض الحديث بمحفلٍ … وأرّجنا منه شذاً وعبير
رأيتك للآداب تصغي وللعُلا … تميل وذا ودٌّ لديك تمير
وتنظم من حرّ الكلام قلائداً … تحلّىٰ بها للغانيات نحور
ألست الذي تطوي القفار لماجدٍ … له بين سادات الأنام ظهور
فقلت بلىٰ لله درّك هذه … مطامح مثلي لا طلاً وبخور
فقالت إذن فاقصد أخا المجد والعلىٰ … ومن بالخصال الصالحات شهير
مبارك نجل الشهم أحمد من له … بغاة المعالي بالأكفّ تشير
فقلت هو المولى الذي قطّ ما له … كما صحّ بين الخافقين نظير
مليكٌ عظيمٌ ماجدٌ متواضع … عليمٌ بأعقابٍ بالأمور خبير
مليكٌ رقىٰ هام السماكين واغتدىٰ … لبان العُلا والمجد وهو صغير
وساد بني السبط الذين هم هم … ملوك الورىٰ بالسيف وهو كبير
مليكٌ له يومان يومٌ لبؤسه … فكلّ الفيافي للعصاة قبور
ويومٌ ندىٰ عمّ الخلائق برّه … فلم يلف بين العالمين فقير
مليكٌ عريقٌ فاطميٌ مهذّب … علاً أورثاه شبّرٌ وشبير
مليكٌ خطيبٌ مصقعٌ ذو بلاغةٍ … يقصّر عنها دعبلٌ وجرير
مليكٌ زهت أمّ القرىٰ بقدومه … وحفّ جميع الخلق منه سرور
فيا ملكاً تروي أحاديث فخره … ثقاة عدولٍ في الورىٰ وصدور
عن السبط عن مولى الأنام بأسرهم … عليٌ كما قد أوضحته سطور

ويـا مـاجداً حـاز القـلوب بـلطفه   وكـلّ ودادٍ قـد حـواه ضـمير
ألم تـدر أنّـي لم أزل مـنذ أشـرقت   عـليّ شـموسٌ مـن عـلاك تـنير
وأصـفيتني مـحض الوداد تـفضّلاً   وظـنّاً بأنّـي عـالمٌ وبـصير
رجـوت بأنّـي أرتـقي كـلّ رتـبةٍ   ذراهـا يـردّ الطـرف وهـو حسـير
فكان جزائـي ضـدّ مـا قـد رجـوته   عـلىٰ أنّـني بـالفضل مـنك جـدير
علىٰ حظّي المـنحوس عـتبي لأنّـني   أرىٰ أنّ حـظّي قـد عـراه قـصور
فـإن تـولني مـنك الجـميل فأهـله   وإلاّ فـإنّي عـاذرٌ وشكـور
وهـاك لآلٍ فـي سـموطٍ نـضمتها   عـقوداً وفـي أثـناء تـلك شـذور
هـديّة رقٍّ مـخلصٍ قـد طـغىٰ بـه   زمـانٌ لأربـاب الكـمال كـفور
فـجد بـقبولٍ لا بـرحت مـعظّماً   مـهاباً عـزيزاً والعـدوّ حـقير
ودم مـالكاً للـمجد ثـمّ مـتمّماً   له بـفخارٍ لم يـصبه دثـور

ومن قصيدته ما أرسله إلى السيّد عبدالمعين الهجاري حين غلب علىٰ قبيلة آل حرب، وهي هذه:

تبسّم ثـغر النـصر بـالبيض والسـمر   وأورق غـصن الفـخر بـالسادة القـرّ
هـم فـتيةٌ مـن آل طـه تـملّكوا   حـصون العُـلا بـالزاعـبيّة والبـتر
وشادوا مـباني العـزّ بـالطعن فـي العـدا   وسـادوا البـرايـا بـالصلاة وبـالبرّ
مطاغير في الهيجاء حجاجيح في الوغـا   مكـاشيف للـغمّاء فـي مـلتقى الكـرّ
فأحيوا رسوم المجد بـعد انـدراسـها   وأعـلوا لواء الفـاطميين بـالنصر
فـهم سـادةٌ فـاقوا هـجاراً أبـاهم   وفـاقوا جـدوداً مـن كـنانة والنـضر
بـحزمٍ وإقـدامٍ ورأيٍ وهـمّةٍ   وجـزل هـباتٍ لا تـنهنه بـالزجـر
وفـيهم فـتىً يـدعىٰ لكـلّ مـلمّةٍ   وخـطبٌ إذا ضـاقت بـه سـبل البـرّ

قريع المعالي الشمّ بيت قصيدهم ... وواسطة العقد المنضّد بالدرّ
مجيب الندىٰ عبدالمعين أخو الندىٰ ... ومُردي العدا جون المهامة والقفر
أخو كرمٍ قد ساد كلّ قبيلةٍ ... عطاءً وطعناً بالردينيّة السمر
فأضحىٰ أمير الشام مع أرض ينبع ... ومقصد من يأتي من البرّ والبحر
لقد شنّ في حربٍ وصبحٍ غوائراً ... يقصّر عنها حرب تغلب أو بكر
أتاه شويخ الشام أعني مباركاً ... بسبعة آلافٍ من البدو والحضر
وخان بعهدٍ قد تقادم ربطه ... فأضحىٰ إماماً للخيانة والغدر
وسار لحرب الهاشميين دافقاً ... دماء بني الزهراء والأنجم الزهر
علىٰ أنّهم في العدّ عشرون فارساً ... ولكنّهم في الحرب أشجع من عمرو
فوافتهم الأقوام من كلّ جانبٍ ... ودبّوا دبيب النمل في السهل والوعر
فثارت لهم أبناء موسىٰ ومالك ... تيار محبٍّ مخلصٍ صادقٍ برّ
وضمّ إليهم قوفة جياد قوفةٍ ... ملثٌّ يروّي القاع من وابل القطر
كذا عروة لا شتّت الله شملها ... ولا حلّ في ساحاتها كلكل الدهر
وأزرق قد وافوا بأبيض باترٍ ... وأسمر خطّي على الإبل الحمر
فجالت بمضمار الوغىٰ خيل معشرٍ ... نشاوىٰ قراعٍ لا نشاوىٰ من الخمر
لهم فتكة البراض في كلّ مأزقٍ ... وعزم عليٍّ يوم خيبر أو بدر
فخرّت لهم أبطال حربٍ وأحجمت ... وقالت دهانا الخطب من حيث لا ندر
فولّوا سراعاً قائلين لشيخهم ... لك الويل دع هذا وهيّا بنا نسري
فساروا وهم ما بين سلمٍ وهارب ... وآخر ملقىً للغراب وللنسر
فيا لك حرباً لم يصر قطّ مثلها ... تريك نجوم الليل تسطع في الظهر
فيا ابن مضيان علتك سحابةً ... لابن هجارٍ برقها في الدجا يسري

غـدوت بـهـا قـنّاً وعـبداً مـملّكاً ... وذي يا أخا العـصماء عـاقبة المكـر
حربت ولم تظفر وقـد عـدّت هـارباً ... وأذهبت عزّاً ثـمّ صـرت أخـا ذعـر
فـهلاّ اتّـقيت الله فـي آل أحـمد ... بني الهدىٰ غوث الورىٰ من لظى الحشـر
بـغيت ولم تـعلم بأنّ أبـاهم ... عـلياً سـيعليهم عـليك مـدى العمر
فـقد قـيل قـدماً للـبغاة مـصارع ... وانّ مـثير الشـرّ يـوقع فـي الشرّ
فـتبّاً لكـم يـا حـرب إنّ شـيوخكم ... زعانف من نسل ابن مـلجم والشـمر
يـجرّون جـيشاً للسـراة ذوي العـلا ... بني السبط بغياً مزمعين عـلى الكـفر
لعـمري لم تسـر الركـاب بـمثلها ... ولا نـظمت أنـظارها قـطّ فـي شـعر
فـعودوا بـني حـربٍ إلىٰ نـخلاتكم ... وخـلّوا طـعان الخـيل للسـادة الغـرّ
ودونك يـا عـبدالمـعين خـريدةً ... أتـتك تـجرّ الذيـل كـالغادة البكـر
تبثّ إليك الشوق والمـدح مـن فـتىً ... رآك لهـا أهـلاً وتـنطق بـالشكر
هـديّة خـدنٍ فـاطمي مـهذّب ... تـذلّ له الألفـاظ فـي النـظم والنـثر
يـنضّد مـن درّ الكـلامٍ قـلائداً ... تـناط بأعـناق الكـعاب وبـالنحر
يدير على الألباب مـن سـحر نـطقه ... كؤوس سلافٍ تستميل ذوي السكـر
فـها هـي قـد وافـتك يـبسم ثـغرها ... سـروراً وتأيـيداً وتـعلن بـالنصر
فخذها عـروساً قـد تكـامل حسـنها ... ومـنّ عـليها بـالقبول وبـالبشر
ودم صـاعداً فـي أوج عـزٍّ مـؤطّدٍ ... عـظيماً مـهاباً رافـعاً عـلم الفـخر

ومن شعره في تاريخ وفاة الشيخ عبدالوهّاب بن أحمد بن بركات الأحمدي الطنطاوي المكّي، قال:

أقـفر المـنزل وازداد ظـلاما ... وعـفت آثـار مـن فـيه أقـاما
وخـلت دار التـقىٰ مـن عـالمٍ ... كان بالأمس بها صـلّىٰ وصـاما

ودروسٌ عــطّلت مـن بـعد مـا ... كــان يـمليها جـلوساً وقـياما
فــعدى الدهــر عـليه حـاسداً ... لبـنيه إذ رقــوا فــيها مـقاما
بــإمامٍ عــالمٍ قــد زانــه ... منطق عذبٍ وفـضلٍ لن يـرامـا
فــدنت مــنه المــنايا شــرّعاً ... وقــضت مــنه مـراداً ومـرامـا
لا ســقى الله زمــاناً بــعده ... عارض الرحمة تـحدوه النـعاما
بــل ولا عــيشاً زهت نـضرته ... لفـتىً مـن بـعده يـرجـو مـقاما
بــل ولا كــتبٍ لعــلمٍ صنّفت ... فــهي اليـوم حـيارىٰ تـترامـا
بــل ولا حـلقة درسٍ نـضدت ... قد خلت من عالمٍ يبري السقاما
كـان فـي الدنـيا إمـاماً واحـداً ... ثمّ في الأُخـرىٰ تسـرّ وتسـاما
وبــذا أخــبرنا تــاريخه فـي ... جنان الخلد قد سمّي إمـاما(١)

ومن قصيدته في الشيخ عمر بن عبدالقادر المكّي، قال: وكان قـد صـنع فـي عمارته بمكّة أيواناً عظيماً، حوىٰ من اللطافة وحسن الوضع منزلاً جسيماً، قـد حفّته الأشجار، وأحدقت به أنواع الأزهار، فالتمس من مـخلصه تـاريخاً لعـام عمارته، مع ذكر أوصافه ونزاهته، فقابلت أمره العالي بالطاعة، وجلبت إلىٰ سوق بلاغته هذه البضاعة، وهي:

غـنّىٰ عـلىٰ فـنن الغـصون هـزار ... فــتمايلت طــرباله الأشــجار
والنور يـضحك والغـمام كـعاشقٍ ... يــبكي فـيسكب دمـعه المـدرار
والورد يـحكي خـدّ شـادٍ شـادنٍ ... خـجلٌ تـمشّت فـي مـطاه عـقار
والروض يشكـر للـغرام صـنايعاً ... شكــراً بــه تــترنّم الأطــيار

---

(١) وهي سنة (١١٥٦).

والمــاء كــالمرآة يـزهو مـنظراً | فــي بــركةٍ قــدرانــها الفــوّار
فاغنم زمانك حيث دهرك بـاسم | عــن نــعمةٍ مــا شـابها أكـدار
في مجلسٍ ضحك السرور لصحبه | عــن نــاجذيه وأشـرقت أنـوار
قد شاده عين الوجود أخـو العُـلا | عــمر بـن عـبدالقـادر المـعمار
فــخر الأنــام سـراج كـلّ ملمّةٍ | دهــماً فــهو لهــا ذكــاً ونـهار
ذو الهــمّة العــليا بـل ذو الفـطـ | ـنة الغـرّاء بـل هـو صـارمٌ تـبّار
إن قال فـهو أبـو المـحاسن كـلّها | أو طـال فـهو أبـو النـدا المـغمار
مفتي الأنـام أبـوه مـن قـد زانـه | عــلمٌ وفــخرٌ نــاله ووقــار
مــحيي العــلوم إمـامها عـلاّمها | مــصباحها وشــجاعها الكــرّار
ولّــىٰ وخــلّف للــمكارم فـتيةً | يــتناسقون كأنّــهم أقــمار
فــاهنأ أبــا حـفصٍ بـما شيّدته | أثــراً يــدوم ونــزهةً تــختار
لا زلت تـجمع فـيه كـلّ مـهذّبٍ | ذي هــمّةٍ عــليا إليــه يشــار
فــلقد تـجمّعت المـحاسن كـلّها | فــيه وحــفّت حــوله الأزهــار
فــبغاية اليــمن المـخلّد أرّخـوا | هــو نـزهةٌ حـفّت بـه الأشـجار

وله أيضاً في الشيخ علي بن عبدالقادر بن أبيبكر الأفندي في ضيافته لشريف مكّة الأمير مسعود:

لك الســعادة يــا ذا الفـخر والنسب | والجود والمجد والافـضال والحسب
زفّت رئــاسة هــذا الوقت خـاضعةً | إليك في العلم فاصعد أشـرف الرتب
فأنت مأوى الورىٰ فـي كـلّ مـعضلةٍ | وهــماً تــحطّ فـي أثـوابـها القشب
وأنت مـغنى المـلا فـي كـلّ حـادثةٍ | عنها وفي فكـر ذي كـدٍّ وذي طـلب
خــدن العــلوم ومـحييها وفـارسها | وقطبها حـيثما دارت رحـى الكـتب

تجمّعت فيك أوصافٌ عرفت بها ... ورثتها عن أبٍ للفخر منتدب
مفتي مكّة قاضيها محدّثها ... إمامها المرتضىٰ في الشرع والأدب
ربّ الفضائل عبدالقادر بن أبي ... بكرٍ أخي الجود والاحسان والقرب
فطل وقل فيه وانشد قول مفتخرٍ ... بمجد والده في سالف الحقب
هذا أبي حين يدعىٰ سيّدٌ لأبٍ ... هيهات ما للورىٰ يا دهر مثل أب
فاشكر أباحسنٍ مولاك ملتمساً ... منه دوام الذي أولاك من نحب
فاغنم زمان العلا والعزّ مقتطفاً ... زهر الهنا من رياض الانس واقتضب
واهنأ بدار سرورٍ أنت واضعها ... قد زخرفتها يد الأقدار بالذهب
حوت من الطرف أيواناً علا شرفاً ... بالعلم والفضل والتفريج للكرب
وزاد فخراً بسلطانٍ سمىٰ نباً ... إذا زار صاحبه في موكبٍ نجب
شريف مكّة مسعود الذي نطقت ... بمدحه ألسن الأقلام والخطب
وساد كلّ ملوك الأرض قاطبةً ... بخدمة الحرم السامي ذرى الركب
ففاق أيواننا العالي بشائده ... علىٰ مباني الورىٰ طرّاً بلا تعب
لذا غدا طائر الإقبال ينشدنا ... تاريخه ضمن بيتٍ محكم الحسب
أيوان عزّزها حسناً مصاحبه ... عين الوجود علي القدر والنسب

ولادته ووفاته :

قال السيّد عبّاس المكّي: كانت ولادته عام ألف ومائة وثلاث، واسمه تاريخه، كما لا يخفىٰ لذي عينين، لكنّه زاد في العدد اثنين، فاستثناها ولده؛ بقوله :

رضي الدين تاريخٌ ... لعام فطامه الشرعي

وقال السيّد الصدر: كانت ولادته عام ألف ومائة وثلاث، واسمه تاريخه كما لا يخفىٰ علىٰ ذي عينين، ولكنّه زاد في العدد اثنين فاستثناهما ولده رحمه الله بقوله :

رضي الديـن تـاريخ　　　لعام فـطامه الشـرعي

وانّه منطبق علىٰ سنة (١١٠٥) وقال أيضاً:

رضـــي الديـن تـاريخ　　　بحذف اثنين من عـدده

وتوفّي على الأظهر الأصح عندي في سنة (١١٦٣) كما صرّح الكاتب لنسخة «د» وذلك حيث تمّ تحرير تاريخ مكّة إلىٰ نهاية سنة (١١٦٢) قال: إلىٰ هنا انتهى ما وجد من التاريخ المذكور، فإنّ صاحبه رحمه الله في أوائل سنة (١١٦٣) صار من أصحاب القبور.

وقال في الأعيان: توفّي قبل سنة (١١٦٨) ولا ينافي أن يكون فـي التـاريخ المزبور، حيث يطلق عليه القبليّة.

حول الكتاب:

قال المحقّق الطهراني في الذريعة: تنضيد العقود السنيّة بتمهيد الدولة الحسنيّة، تاريخ جليل القدر، جمّ الفوائد، للسيّد رضي الدين بن محمّد بن علي بن حيدر آل نجم الدين الموسوي العاملي المكّي، ولد سنة (١١٠٣) وفطم في سـنة (١١٠٥) المطابق لجمل اسمه «رضي الدين» كما فصّل ترجمته السيّد عبّاس بن علي بـن حيدر آل نورالدين في نزهة الجليس، وتوفّي قبل سنة (١١٦٨) لأنّه دعا له السيّد عبدالله التستري في إجازته الكبيرة الصادرة في هذا التأريخ بـ«رضي الله عنه».

وذكر هو نفسه فهرس تصانيفه وتصانيف والده المشهور بالسيّد محمّد حيدر المكّي في إجازته للسيّد نصرالله المدرّس الشهيد الحائري، والسيّد شبّر بن محمّد المشعشعي الحويزي في سنة (١١٥٥) وعدّ في الإجازة مـن تـصانيفه «تـنضيد العقود» هذا الذي رأيت منه نسخة في مكتبة السيّد أحمد العطّار البغدادي التـي وقفها حفيده السيّد عيسىٰ.

وممّا استطرفت منه قوله: توفّي في سنة (١١١٣) رئيس المحقّقين، وسلطان المدقّقين، العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة أحمد أفندي الشهير بالمنجّم باشي، ثمّ ذكر ترجمته عن كتاب لسان الزمان، ثمّ قال: ورأيت له تعليقة على الحديث الشريف «إنّي تارك فيكم خليفتين» وقد أورد على العامّة من هذا الحديث اثني‌عشر إشكالاً وبحثاً، ثمّ قال بعد تمام الأبحاث: رحم الله من يكشف القناع ويرفع الحجاب عن وجوه هذه النكات الجليلة، ويزيل كلمة الشبهة بالتنوير والتوضيح.

وينقل عن التنضيد هذا في العبقات كثيراً، منها: ترجمة الشيخ أحمد بن الفضل ابن محمّد باكثير المكّي المتوفّىٰ سنة (١٠٤٧) مؤلّف وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل[١].

وقد ذكر هذا الكتاب النفيس في عدّة من المعاجم والتراجم:

منهم: عمر رضا كحّالة في كتابه معجم المؤلّفين (٤: ١٦٧).

وإسماعيل باشا في إيضاح المكنون (١: ٢٦٠) ولكن اشتبه عليه عنوان الكتاب حيث حرّف الضاد بالفاء، فقرأ «تنفيد العقود» وهو تحريف واضح.

والسيّد حامد حسين في كتابه العقبات (١: ٢٨٤ و ٢٩٢ و ٢٩٥).

والمحقّق الطهراني أيضاً في كتابه الكواكب المنتشرة (ص ٢٧٦).

أقول: ألّف كتابه هذا لشريف مكّة المكرّمة، السيّد محسن بن السيّد حسين بن عبدالله بن الحسن بن أبي‌نمي الحسني.

أقول: قول صاحب الذريعة «وممّا استطرفت منه» الخ، إشارة إلىٰ ما ذكره في

---

(١) الذريعة ٤: ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

هذا الكتاب بعد ما أورد ترجمة العلاّمة أحمد أفندي المعروف بمنجّم باشي، قال بعد ذكر ترجمته:

قلت: وقد رأيت له تعليقة على الحديث الشريف، وهو قوله صلى الله عليه وآله «إنّي تارك فيكم خليفتين: كتاب الله تعالىٰ، حبل ممدود بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، وإنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض» الحديث. وفي بعض الروايات زيادة: فاعرفوا كيف تخلفوني فيهما[1].

قال رحمه الله: وقد نقلها سيّدي الوالد دام فضله من خطّه رحمه الله، ومن خطّه نقلت: لا يخفىٰ أنّ في هذا الحديث الشريف مواضع ينبغي للناظر المتبصّر أن يقف فيها حتّىٰ يقف علىٰ ما فيها من النكات والمزايا:

أوّلها: تصدير الكلام بالجملة الإسميّة المؤكّدة بكلمة «إنّ».

ثانيها: وجه نصب الخليفتين، وعدم الاكتفاء بواحدة منهما.

ثالثها: أنّ الظاهر من خلافة الكتاب أن تكون في إفادة الأحكام الشرعيّة الاعتقاديّة والعمليّة، وسائر ضروريات الدين.

وأمّا خلافة العترة، ففيها احتمال إلىٰ أُمور:

منها: كونها في بيان ما خفي من أحكام الكتاب، وتوضيح مشكلاته.

ومنها: أن يكون في إجراء الأحكام بين الأُمّة.

ومنها: تعليم الأخلاق المحمّديّة، والصفات الأحمديّة، بطريق الحال لا المقال، وعلىٰ سبيل الإرادة دون الرواية.

ومنها: الوقوف علىٰ أسرار النبوّة وباطن الشريعة.

---

(١) وقد ذكرنا مصادر الحديث في محلّه من هذا الكتاب، فراجع.

ومنها: المحبّة الخالصة التي تجب علىٰ كلّ مؤمن؛ لأنّ أصل الإيمان إنّما يحصل بتصديق النبي صلى الله عليه وآله في جميع ما جاء به، وكمال الإيمان إنّما يحصل بالمحبّة الخالصة في حقّه، كما نطق به بعض الأحاديث الشريفة، فتكون المحبّة لتلك الخليفة عين المحبّة في حقّه عليه الصلاة والسلام.

رابعها: تشبيه كتاب الله تعالىٰ بالحبل، ثمّ وصفه بكونه ممدوداً بين السماء والأرض.

خامسها: تأكيد العترة بأهل البيت.

سادسها: تعليق النجاة عن الضلال بالتمسّك بهما جميعاً، وهذا يشعر بأنّ كلّ واحدة من الخليفتين في أمرٍ غير ما استخلف فيه الأُخرىٰ، وإلاّ قيل: بأيّهما أو بأحدهما.

سابعها: تعقيب هذا الكلام بعد تمامه بقوله «وإنّهما لن يفترقا» الخ، ووجه ارتباطه بما سبق.

ثامنها: إثباته بجملة إسميّة مؤكّدة، بأنّ خبرها جملة فعليّة منفيّة بأداة دالّة علىٰ تأكيد النفي.

تاسعها: تخصيص الحوض بالذكر من بين سائر المواضع.

عاشرها: ما وقع في الزيادة المرويّة من قوله «فاعرفوا» الظاهر منه أن يكون للتنبيه، فعلىٰ أيّ شيء نبّه وما قصد بقوله «كيف تخلفوني فيهما».

والحادي عشر: أنّ العترة إن أُريد بها معناها الحقيقي علىٰ ما يقتضيه التأكيد بأهل بيتي، كان الحديث نصّاً في خلافة أهل البيت عليهم السلام، وهذا خلاف ما عليه أهل السنّة. وإن أُريد بها المعنى المجازي، كان التأكيد لغواً، بالنظر إلىٰ ما هو الأغلب في التأكيد؛ إذ الغالب فيه دفع توهّم المجاز، وكلامه عليه الصلاة والسلام مبريءٌ عن

الاشتمال على اللغو .

والثاني عشر: أنّ هذا الحديث الشريف يدلّ بطريق المفهوم علىٰ وعيد عظيم، وهو أنّ من لم يتمسّك بشيء من الخليفتين، أو تمسّك بأحدهما ولم يتمسّك بالأُخرىٰ يقع في الضلال ولا ينجو منه، مع خفاء ما هو المراد من الخليفة الثاني؛ إذ لولم يكن فيه خفاء لم يقع الخلاف بأنّ المراد من العترة هل هو المعنى الحقيقي كما يقتضيه التأكيد، أو المعنى المجازي كما يقتضيه ما اتّفق عليه أهل السنّة، والله تعالىٰ أعلم .

رحم الله تعالىٰ من يكشف القناع، ويرفع الحجاب عن وجوه هذه النكات الجليلة، ويزيل ظلمة الشبهة بالتنوير والتوضيح، ومن الله التوفيق للتحقيق. إنتهت الرسالة المشار إليها، وهي تدلّ علىٰ تمكّن عظيم في علم العربيّة وغيره رحمه الله تعالىٰ .

وأورد في هذا الكتاب للشيخ الجليل الصالح الورع النبيل الشيخ محمّدجواد ابن الشيخ عبدالرزّاق البغدادي من لطيف شعره الدالّ علىٰ علوّ قدره، ونقلها من ديوانه، يمدح بها أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي :

أما وليالٍ قد شجاني انصرامها	لقد سحّ من عيني عليها سجامها
تولّت فما حالفت في الدهر بعدها	سوىٰ لوعةٍ أبدىٰ بقلبي كلامها
وصرت أُمنّي النفس والقلب عالمٌ	بأنّ المنايا مخطئاتٌ سهامها
فلا حالفت قدري المعالي ولا رعت	ذمامي إن لم يرع عندي ذمامها
بها بلغت نفسي إلىٰ جلّ قصدها	علىٰ أنّها في القصد صعبٌ مرامها
وما كلّ من رام انقياد العلىٰ له	بملقىً إليه حيث شاء زمامها
ليالٍ بأكناف الغريّ تصرّمت	فيا ليتها بالروح يشري دوامها

سـقى الله أكـناف الغـري عـهاده وحـيّاه مـن عزّ الغـوادي ركـامها
ربوعٌ إذا مـا الأرض أضـحت ركـوبةً فـما هـي إلاّ أنـفها وسـنامها
تباهي دراري الشهب حـصباء درّهـا ويـزري بـنشر المسك طـيباً رغـامها
بها جيرةٌ قد أرضعوا النـفس وصـلهم فأودي بـها بـعد الرضـاع فـطامها
سأرعىٰ لهم ما عشت مـحكم صحبةٍ مدى العـمر لا يـنفضّ عـنها ختـامها
إذا شـاق صـبّاً ذكـر سـلعٍ وحـاجرٍ فـنفسي إليـهم شـوقها وهـيامها
فكـم عـاذلتني فـي حـماهم غـزالةً يـليق عـقوداً للـنحور كـلامها
أقـول وقـد أرخت لثـاماً بـوجهها هـل البـدر إلاّ مـا حـواه لثامها
أو اللـيل إلاّ مـن عـذائـر فـرعها أو الصـبح إلاّ مـا جـلاه ابـتسامها
ومـا المشـرفي العـضب إلاّ لحـاظها ولا السـمهري اللـدن إلاّ قـوامـها
فـيا ليـتها لمّـا ألمّت تـيقّنت بأنّ سـويدا الفـؤاد مـقامها
فوالله مـالي عـن هـوى الغـيد سـلوةً وإن جار في قلبي الشجي احـتكامها
فلله نـفسي كـيف تـبقىٰ وفـي الحشـا تـباريح وجـدٍ لا يـطاق اكـتتامها
وأنّـىٰ لهـا تسـلو الهـوىٰ وغـريمها إذا أزمـعت نـحو السـلو غـرامـها
ألا ليس منجي النفس من غمرة الهوىٰ ولا ركن يرجـىٰ فـي ذراه اعـتصامها
سـوىٰ حـبّها مـولى البـريّة مـذعناً بـحقٍّ هـو الهـادي لهـا وإمـامها
عـلي أمـير المـؤمنين ومـن بـه تـقوّض مـن أهـل الضـلال خـيامها
مقام النـدىٰ ركـن الهـدىٰ كـعبةٌ غـدا على الناس فرضٌ حـجّها واسـتلامها
هـو العـروة الوثـقىٰ فـمستمسكٌ بـها لعـمري لا يـخشىٰ لديـه انـفصامها
وصـي الرسـول المـصطفىٰ ونـصيره إذا اشتدّ مـن نـار الهـياج احـتدامـها
له الهـمّة القـعسا والرتب التـي تـجاوز مـا فـوق السـماكـين هـامها

يـنير بـه المحراب إذ بـات قـائماً ... بـجنح ليـالٍ جـفنه لا يـنامها
وإن نـار حـربٍ يـوم روعٍ تسعّرت ... وشـقّ علىٰ قـلب الجبان اقـتحامها
سـطىٰ قـاطعاً هـام الكـماة بـصارمٍ ... غـدا فـيه يـغتال النفوس حـمامها
فكـم فـلّ جـيشاً للـطغاة بـعزمه ... يهدّ الجـبال الشـامخات اصـطدامها
وأفـناهم غـزواً بكـلّ كـتيبةٍ ... عـلىٰ منهل الأقـدام يـبدو زحـامها
تـثير ريـاح الخـيل فـيها سـحابياً ... مـن النـقع يـهمي بـالنجيع ركـامها
بكلّ فتىً مـاضي العـزيمة قـد غـدت ... له السـابغات الفـهد وهـو حسـامها
ألا إنّـما أحكـام ديـن مـحمّدٍ ... بـحيدر أضـحىٰ مستقيماً قـوامها
له مـعجزاتٌ يـقحم الخـصم ذكـرها ... ويسـجع بـالحقّ المـبين حـمامها
فمنها رجوع الشمس في أرض طـيبةٍ ... وفـي بـابلٍ إذ كـاد يـغشي ظـلامها
فـيا نـبأ الله العـظيم الذي بـه ... قد اشـتدّ مـا بـين البـرايا خـصامها
فـمن فـرقةٍ بـالخلد فـازت بـحبّه ... وأُخرىٰ رمـاها فـي الجـحيم أثـامها
فأنت لعـمري فـلك نـوحٍ وجـذوةٍ ... لموسىٰ بدا من طـور سـينا ضـرامها
لقـد فـزت مـن عـهد النـبي بـرتبةٍ ... كهارون مـن مـوسىٰ أُتـيح اغـتنامها
وأعـظم مـن ذا أن رقـيت مـناكـباً ... له قـد تـناهىٰ مـجدها واحـترامها
فكسّـرت أصـناماً خـفضت دعـاتها ... بـرفعك حـتّىٰ ليس يـرجىٰ التآمـها
وكـنت له فـي ليـلة الغـار واقـياً ... بـنفسٍ لنـصر الحـقّ طـال اهـتمامها
عشـية إذ رام العـداة اغـتياله ... فـخابت ولم تـدرك مـراماً لئـامها
وجـود الفـتىٰ بـالنفس أنـفس جـودةٍ ... وأفـضل مـن سـاد الرجـال كـرامها
أبـاحسنٍ يـا مـلجأ الخـاطىء الذي ... خـطاياه قـد أعـيا الأسـاة سـقامها
أغث مـوثقاً فـي قـيد نـفسٍ شـقيّةٍ ... تـعاظم مـنها أصـرها واجـترامها

فليس لها حسني سوىٰ حبّها لكم   سيغدوا عليها بعثها وقيامها
وكن مسعفاً في الحشر منك بشربةٍ   يبلّ بها إذ يجتبيها أوامها
فأنت قسيم النار والخلد في غدٍ   إذا آن ما بين العباد اقتسامها
إليك أبا السبطين منّي مدحةً   يفوق علىٰ سمط اللآلي نظامها
هي الروضة الغنّاء باكرها الحيا   وذكرك أزهار مديحي كمامها
غدت دون مدح الله فيك وإنّما   بذكرك يبهىٰ بدؤها وختامها
عليك سلام الله ما انهلّ بارق   وما ناح في أعلى الغصون حمامها

في طريق التحقيق :

قوبل هذا الكتاب الشريف علىٰ نسختين نفيستين كاملتين، وهما:

١ ـ نسخة كاملة مصوّرة من مكتبة جامع الحكمة ببغداد، تاريخ نسخها يوم الخميس المبارك سابع عشرين ذي‌القعدة الحرام سنة (١٢٠٠) كاتبها مسعود بن عبدالمحسن بن علي ما خريب (كذا)، وجعلت رمز النسخة «د».

٢ ـ نسخة كاملة مصوّرة من إحدىٰ مكتبات الهند، بخطّ جيّد، تاريخ نسخها (٢٥) رمضان المبارك سنة (١٢٦٤) استنسخها كاتبها للشريف عبدالله باشا بن الشريف محمّد بن عبدالمعين بن عون الحسني، وجعلت رمز النسخة «ن».

ولم آل جهدي في تحقيق الكتاب وتصحيحه، وعرضه على الأُصول المعتبرة النسبيّة والتاريخيّة، واستخراج مصادرها، فخرج بحمد الله حسب وسعي خالياً من الغلط، إلاّ ما شذّ وندر، فإنّ الإنسان محلّ السهو والخطأ، والمرجوّ من الإخوان الأعزّاء أن يتفضّلوا بما لديهم من الالتفات بما وقعنا فيه من السهو والخطأ.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله علىٰ سيّدنا محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

قم المشرّفة ـ ٥ ـ محرّم الحرام ـ ١٤٣١ هـ   **السيّد مهدي الرجائي**

بسم الله الرحمن الرحيم وبه [illegible] أمان من زوال الإيمان .
نحمدك اللهم بأن أقمت قواعد الإسلام بالرضي من عباده ، ونحمده
عقود مبانيه على أكمل نظام ، فكان أحمد عباده ، وشيدت الشريعة [illegible]
أركان العترة الطاهرة ، ونصبتهم للهداية فأصفوا موارد الدين وصا[illegible]
وجعلت أهل البيت النبوي الكريم سفينة النجاة ، ووسيلة النيل المنوط [illegible]
وانتشر من النسب الهاشمي نباتاً حسناً فكانوا أزهر ذلك الروض ورد
[illegible] الجناب الذي لا يفارق [illegible] أن يرد [illegible] ، ونص على فضلهم بعلم
وتدرهم العلي وعمهم برحمته الواسعة ، وشملهم بأنوار بركته الماطرة
فقال وهو العزيز الحميد : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد
وحث على محبتهم المعلن في التنزيل بقوله قل لا أسألكم عليه أجرا
المودة في القربى [illegible] بعد علمه ما تفضلت به من سوابغ النعم ، شكر
الرياض صنائع الديم ، ونصلي على رسولك الذي حنت لما جبته الأملاك
وخاطبته بلولاك لولاك لما خلقت الأفلاك ، وعلى آله ثمرة فؤاد الزهراء ونجوم
سماء الشريعة الغراء ، وأصحابه الباذلين بين يديه نفائس الأرواح والأموال
والخاذلين أعداءه لديه بأعمال [illegible] [illegible] فيتوسل
اللائذ بأعتاب الصراط السوي ، رضي الدين محمد بن حيدر الموسوي ، إنه لما
رأيت علم التاريخ من أجل العلوم مقداراً ، وأرفعها مناراً ، وأعذبها [illegible]
وأتمها للمحاضرة ، وألطفها معنى ، وأشرفها مبنى [illegible] لأن [illegible] منه
بذي الشرف والسيادة ، فإنه أجل رتبة وأعم سعادة ، لكونه [illegible] على نشر
جميل مناقبهم ، وتشييد مآثرهم [illegible] [illegible] الوقت في هذا
الدهر سعادة فاخرة ، كافلة بنيل الحسنى في دار الدنيا والآخرة ، [illegible] سولت
لي نفسي بأن أنزع [illegible] من الطروس [illegible] [illegible] من طبعي [illegible]
وبرزت من نبعي [illegible] أشرعت أجمع [illegible] وأتمم [illegible]

الصفحة الأولى من نسخة «د»

الصفوي فهو صفوي من جهة الامهات، واجتمع عليه الرعية من جميع الجهات، فاطاع السلطان
ابراهيم شاه علمها اشار به ذلك الامير ورآه عين الرأي والتدبير، فبعث وجمع جميع
الاعيان من البلدان من قطر ايران من القضاة ومشايخ الاسلام والامراء والولاة والحكام،
وطلب شاه رخ من قطر خراسان، وجلوسها خلافة بيعة واجماع فاستقرت له
السلطنة على كل الاراضي والطاعة الرعية في جميع البلدان، وكسرت عصا المخالفة
والعصابة، وصار ابراهيم خان وزيره الاعظم ومشيره الافخم وكان جلوسه في سابع
عشرين شهر شوال سنة [illegible] كما تقدم بيانه في حوادث السنة المذكورة ثم بعد استقرار
الاحوال وبيعة لدى شاه رخ ووزيره ابراهيم خان العساكر الرجال طلب [illegible]
اصلان خان حضرة الشاه فامتنع عن الحضور حذرا من القبض عليه فسار عليه ابراهيم
خان بالعساكر السلطانية وقاتله في اطراف اذربيجان وتغلب عليه فقتله واستقل استقلالا
في خدمة ابن عمه شاه رخ ثم رمى الله بينهما بسهم العداوة [illegible] ورجع الى
دعوى السلطنة في تبريز فبهرز على الشاه رخ اعظم امرائه الاعيان
مع عساكر القزلباش فتوجهوا اليه وقاتلوه
وكان اغلبهم الافاغنة والازبك واخذوهم اخذا شديدا وتبصروه واتوا به الى الشاه
رخ فقلع عينيه ثم قتله واستقرت تلك الاقطار وارخصت الاسعار وحسن حال
الرعايا واستمرت روايح الدولة الصفوية [illegible] جميع ما كانوا عليه منها ومالهم
حسنة والامور المستحسنة وكان منتهى الاخبار بهذا الاستقرار في اواخر هذه السنة
المباركة التي هي ثمان وستين وفي اواخر هذه السنة توفي الى رحمة الله تعالى [illegible] السيد
الجليل والامير الاصيل ذو الآداب العلية [illegible] السيد احمد [illegible] الازهرية
المدني جاور في الحرمين اعواما [illegible] مع اخلاق حسنة
وسيرة مستحسنة [illegible] من ايدي الناس [illegible] رحمه الله [illegible]
[illegible] ولم يعقب من الذكور [illegible] تم

الصفحة الأخيرة من نسخة «د»



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

نحمدك اللهم يا من اشد قواعد الاسلام بالرضى من عباده ونضد به
عقود مبانيه على اكمل نظام، وكان احمد عباده ورفع قبة الشريعة الغراء
على اركان العترة الطاهرة، ونصبهم للهدى فاوضحوا موارد الدين ومصادره
وجعل اهل البيت النبوي الكريم سفينة النجاة، ووسيلة الى نيل الفوز
وعلو الدرجات، وانبت روض النسب الهاشمي نباتا حسنا، فكانوا ازاهر
ذلك الروض، وصيرهم قرناء الكتاب الذين لا يفارقونه الى ان يردوا الحوض
واظهر فضلهم الجلي، وقدرهم العلي، وعمهم برحمته الواسعة، وشملهم
بانوار بركته الساطعة فقال وهو العزيز الحميد: رحمة الله وبركاته عليكم
اهل البيت انه حميد مجيد، وحث على محبتهم المسعدة في العقبى بمضمون
قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى، ونشكرك بعد على ما
تفضلت به من سوابغ النعم، شكر الرياض اذ الغيث انسجم ونصلي على رسولك
الذي خفضت لهيبته اجنحة الملائكة الاملاك، وميزته بلولاك لولاك
ما خلقت الافلاك، وعلى آله ثمرة فؤاد الزهراء، وسناء الشريعة الغراء
واصحابه الباذلين بين يديه نفائس الارواح والاموال والخاذلين
اعداءه لديه باعمال القاضب والعسال وبعد فيقول الفقير الى ايد
باصحاب الصراط السوي رضي الدين بن محمد بن حيدر الموسوي، اني
لما رأيت علم التاريخ من اجل العلوم مقدارا، وارفعها منارا، واعذبها
مذاكرة، واقربها للمحاضرة، والطفها معنى، واشرفها مغنى، خصوصا

الصفحة الأُولىٰ من نسخة «ن»

الاحوال وتجمعت لدى شاهرخ ووزيره ابراهيم خان العساكر والرجال طلبا لامر اصلان خان
حفيد الشاه فامتنع عن الحضور خوفا من البطش عليه فسار عليه ابراهيم خان بالعساكر
السلطانيه وقاتله في اطراف اذربيجان وتغلب عليه فقتله واستقل استقلالا تاما
في خدمة ابن عمه شاه رخ ثم دعا الله بينهما سهم العداوة والبغضا
ورجع في دعوى السلطنة في تبريز وانقطار على الشاه رخ اعظم له تجهيز على الشاه رخ اعظم
مراتب الاعيان عساكر القزلباش فتوجهوا اليه وقاتلوه في مملكته وكسروه
مكان اعظمهم الافاغنه والازبك واخذوهم اخذا شنيعا وقبضوه واتوا به
الى الشاه رخ فقلع عينيه ثم قتله واستقرت مملكته وارخصت الاسعار وحسن حال الرعايا
وشملوا بسنه رواج الدولة الصفوية لانه امر برد جميع ما كانوا عليه من الاوضاع الحسنه
والامور المستحسنه وكان وصول الاخبار بهذا الاستقرار في اواخر هذه السنة المباركة
التي هي ١١٦٢ اثنتين وستين ومائة والف في ذي الحجه الحرام من السنه المذكوره توفي
بمكه المشرفه المقام الاجل والامام المبجل العالم العامل الفاضل الكامل الشيخ عبد الكريم
الانصاري المدني المجاور بمكة المشرفه واعقب من الذكور رجالا نجبا وفحولا ادبا
قد ظهرت شموس معارفهم بين الاعيان وشوهدت هممهم العليه بالعيان وهم اربعة
قدرهم علي وفضلهم جلي الشيخ يوسف والشيخ ابو البركات والشيخ عبد الرحمن والشيخ
علي فالى هنا وقف المورخ رحمه الله تعالى

ثم لما اطلع على ما في هذا التاريخ من الالفاظ العجيبه • والوقايع الغريبه • وما حوى
من اخبار ملوك مكة المعظمه • المتحلين بشرافتها المنظمه • من اجداد الاشراف الكرام
الحامين لحمى البيت الحرام • بادر الى تجديده ونقله • اذ كل فرع يرجع الى اصله •
وذلك لكمال ادبه • وعلو قدره ورتبته • مولانا الشريف عبد الله باشا
بلغه الله من الخير ما شا • نجل مولانا وسيدنا فخر الاشراف الكرام • حامي حمى البيت الحرام
ملك مكة المشرفة • والمتحلي بشرافتها المفوفه • الراجي من ربه التوفيق والعون
مولانا الشريف محمد ابن عبد المعين بن عون • لا زال السعد نازلا بارجاهم • والنصر
واقفة على ابوابهم • والملك بهم مؤيد • والعز لهم مسرمد • ما دام غاية الامال
موفقين لصالح الاعمال امين وكان تمام تحريره في ٥ رمضان المبارك سنة ١٢٨٤

وصل
في حوادث ١١٦٢
في ذي الحجة ١٢٨٤

الشيخ عبد الكريم
الانصاري

الصفحة الأخيرة من نسخة «ن»



للعلّامة المؤرّخ

السيّد رضي الدين بن محمّد بن علي بن حيدر

الموسوي العاملي المكّي

١١٠٣-١١٦٣ هـ ق

تحقيق

السّيّد مهدي الرّجائي

الجزء الأوّل

بسم الله الرحمٰن الرحيم وبه الأمان من زوال الإيمان[1]

نحمدك اللّهمّ يا من أطّد قواعد الإسلام بالرضا من عباده، ونضّد به عقود مبانيه علىٰ أكمل نظام، فكان أحمد عباده، وشيّد[2] قبّة الشريعة الغرّاء علىٰ أركان العترة الطاهرة، ونصبهم للهداية[3] فأوضحوا موارد الدين مصادره، وجعل أهل البيت النبوي الكريم سفينة النجاة[4]، ووسيلة إلىٰ نيل الفوز وعلوّ الدرجات، وأنبت روض النسب الهاشمي نباتاً حسناً، فكانوا أزاهر ذلك الروض، وصيّرهم قرناء الكتاب الذين لا يفارقونه إلىٰ أن يردوا الحوض.

ونصّ علىٰ فضلهم الجلي[5]، وقدرهم العلي، وعمّهم برحمته الواسعة، وشملهم بأنوار بركته الساطعة، فقال وهو العزيز الحميد: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل

---

(١) في «ن» بعد البسملة: وبه نستعين.

(٢) في «ن»: ورفع.

(٣) في «ن»: للهدىٰ.

(٤) روى الحافظ الطبراني في معجمه، بإسناده عن سعيد بن المسيّب، عن أبي ذرّ الغفاري، قال: قال رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوحٍ، من ركب فيها نجا، ومن تخلّف عنها غرق. فهو حديث صحيح متواتر مستفيض عن الفريقين. راجع حول مصادر الحديث: كتاب إحقاق الحقّ ٩: ٢٧٠ ـ ٢٩٣.

(٥) في «ن»: وأظهر فضلهم الجلي.

البيت إنّه حميد مجيد﴾[١].

وحثّ علىٰ محبّتهم المسعدة في العقبىٰ، بمضمون ﴿قل لاأسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربىٰ﴾[٢].

ونشكرك بعدُ علىٰ ما تفضّلت به من سوابغ النعم، شكر الرياض صنائع الديم[٣].

ونصلّي علىٰ رسولك الذي خفضت له أجنحة الأملاك[٤]، وخاطبته بـ«لولاك» لولاك لما خلقت الأفلاك. وعلىٰ آله ثمرة فؤاد الزهراء، ونجوم سماء الشريعة الغرّاء، وأصحابه الباذلين بين يديه نفائس الأرواح والأموال، والخاذلين أعداءه لديه بإعمال القاضب[٥] والعسال[٦].

وبعد: فيقول اللائذ بأصحاب الصراط السوي **رضي الدين بن محمّد بن حيدر**[٧] **الموسوي**: إنّي لمّا رأيت علم التأريخ من أجلّ العلوم مقداراً، وأرفعها

---

(١) سورة هود: ٧٣.

(٢) سورة الشورىٰ: ٢٣. روى الثعلبي في تفسيره، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس، قال: لمّا نزلت ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربىٰ﴾ قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: علي وفاطمة وأبناؤهما. الكشف والبيان ٥: ٣٨٨. وراجع: إحقاق الحقّ ٣: ٢ ـ ٢٢ و٩: ٩٢ ـ ١٠١.

(٣) في «ن»: شكر الرياض إذا الغيث انسجم.

(٤) في «ن»: خفضت لهيبته أجنحة الملائكة الأملاك.

(٥) سيف قاضب وقضيب: أي: قطّاع.

(٦) العسل: الشديد الضرب، السريع رفع اليد.

(٧) نسبة إلى الجدّ الأعلىٰ، فهو السيّد رضي‌الدين بن محمّد بن علي بن حيدر الخ.

مناراً، وأعذبها مذاكرةً، وأقربها للمحاضرة، وألطفها معنىً، وأشرفها مغنىً، خصوصاً ماكان متعلّقاً منه بذوي الشرف والسيادة، فإنّه أجلّ قربة، وأعظم سعادة؛ لكونه منطوياً علىٰ نشر جميل صفاتهم، وتقييد مواليدهم ووفاتهم، ولا ريب أنّ صرف الوقت في هذا الأمر سعادة فاخرة، كافلة بنيل الحسنىٰ في دار الدنيا والآخرة.

فحينئذ سوّلت لي نفسي بأن[1] أفرغ في بياض الطروس نقسي[2]، فشحذت من طبعي مرهفاً[3]، وبريت[4] من نبعي مثقفاً، وشرعت أجمع وأُؤلّف، وأُقدّم وأُخلّف، وانتخبت من النقول ما رقّ وراق، وأودعته بطون هذه الأوراق.

وقصّرت هذا المجموع، حال الاهتمام بالشروع، علىٰ ذكر تراجم من استقام بولاية مكّة المعظّمة، وتحلّىٰ جيده بعقود الشرافة المنظّمة، من دولة ذوي الشرف والسيادة، الشريف قتادة، إلىٰ هذا العصر، وهو أوائل القرن الثاني عشر[5].

وإن كان إلىٰ أواخر المائة الحادية عشر، قد اعتنىٰ به بعض العلماء الأعلام[6]

---

(١) في «ن»: أن.

(٢) النقس بالكسر: الذي يكتب به، ويجمع علىٰ أنقس وأنقاس، أي: في القرطاس تقول منه: نقّس دواته تنقيساً.

(٣) أرهفت سيفي، أي: رقّقته، فهو مرهف.

(٤) في «ن»: وانتضيت.

(٥) ذكر تواريخ الأُمراء الشرفاء من آل قتادة في كتابه هذا إلىٰ نهاية سنة (١١٦٢).

(٦) كالعلاّمة باكثير الحضرمي في كتابه وسيلة المآل، والعلاّمة الشيخ محمّد بن أحمد عقيلة في كتابه لسان الزمان، والطبري في كتابه إتحاف فضلاء الزمن، والعلاّمة عبدالملك بن حسين العصامي، وغيرهم.

فاتّضح وظهر، لكن ما صار بعد ذلك، من الحوادث والحروب الواقعة بين ملوك هذه الأقطار والممالك، وتتويج مفارق الطروس بأسمائهم الشريفة، ومكارمهم الوريفة.

وترجمت كلّ منهم مع ذكر مولده ووفاته، ومدّة دولته، وعدله المقرون بجميل صفاته، فهو أمر لم يدوّنه أحد من ذوي العلم والأدب، مع أنّ ذلك من أجلّ العلوم وأفضل القرب.

فاستطردت تراجم الملوك الأعاظم، والأُسود الضراغم، من دولة جدّهم ذي خدين الإقبال والسعادة[١]، إلىٰ عصرنا المؤلّف هذا التأريخ بقصده، ونظم درر ملوكه في سموط عقده، لحيث المناسبة وطلب الكمال، والبعد عن أن يقال فيه إهمال، بأن يكون تأريخاً جامعاً من دولة ذلك الأصل العظيم إلىٰ هذا الزمن، ومحتوياً على العجائب من الحروب والفتن.

كلّ ذلك علىٰ طريق الاقتصار، طلباً للاختصار، حتّىٰ نصل إلىٰ ما نحن بصدده، وضبط مدده، فنعدل من ذلك إلى التطويل والاطناب؛ لأنّه في هذا الفنّ من أجلّ مطالب بني الآداب.

هذا، وقد وضعت علىٰ ما جمعت إسماً أحرز من حلبة القريض[٢] خصله، إذ قد طابق[٣] معناه أصله، وهو **تنضيد العقود السنيّة بتمهيد الدولة الحسنيّة**.

---

(١) في «ن»: ذي الإقبال والسعادة.

(٢) في «ن»: الفريص. لا معنىٰ له. والقرض: قول الشاعر خاصّة، ويقال: قرضت الشعر أقرضه إذا قلته، والشعر قريض.

(٣) في «ن»: رجاء أن يطابق.

فإذا أزهر روضه الممطور، وتنضّد درّه المنثور، وجـرت مـياه البـراعـة فـي جداول صفحاته، وتلت ألسن البراعة ببيّنات آياته، وأشرق بدره المنير من أُفق تمامه، وأورق غصنه[١] النضير وتبسّمت أفواه كمامه، وترنّم شحرور[٢] بستانه، علىٰ عذبات أفنانه[٣].

وبرزت غادته المحجّبة من خلل ستورها، ورفلت فـي حـلل مـحاسنها[٤]، متزيّنة بقلائد نحورها، وتمتّعت الأسماع والأبصار بما حواه من ملح[٥] الأخبار، ورقيق الأشعار، جلوته علىٰ منصّات الأرائك السنيّة، وقدّمته علىٰ سبيل الهديّة، رجاء أن يتشرّف مؤلّفه ومنشيه، وحايك بـروده ومـوشيه، فـينال بـذلك مـحلّه ومكانة، يشيّد بها من مجده أركانة.

وذلك لدىٰ حضرة السيّد الشريف، والهـمام الغـطريف، مـالك أزمّـة المـجد، والراقي من المعالي كلّ رُبىً ونجد، أحد السـادة الذيـن تسـنّموا ذروة غـارب السعادة، وخلاصة الساسة، الذين رووا أحاديث الرئاسة.

قومٌ تخال وجـوههم إن أسـفرت ... يـوم الفـخار أهـلّة الأعـياد

رضعوا لبان المجد في حجر العلا ... فـصلوا عـلى الأكـفاء والأنـداد

---

(١) في «ن»: روضه.

(٢) الشحير: ضرب من الشجر، والشحرور: طائر أسـود فـويق العـصفور يـصوّت أصواتاً.

(٣) في «د»: بانه.

(٤) في «ن»: حبورها.

(٥) في «ن»: دقائق.

معهد الكمالات الجليّة، ومعقد خناصر ذوي الهمم العليّة، الملك العظيم جلالة ومهابة، والملك الكريم تقدّساً وإنابة.

ملكٌ إذا ضاق الزمان بأهله ... بخلاً توسّع في المكارم وانفسح

خدين الصلات العميمة، والهبات الجسيمة، والمراحم الكاملة، والمكارم الشاملة، المنشد فيه قاصده وآمله، حين تجفّ عليه مناهله.

هو البحر من أيّ النواحي أتيته ... فلجّته المعروف والبرّ ساحله

ولو لم يكن في نفسه غير كفّه(١) ... لجاد بها فليتّق الله سائله

الفاضل الأديب، والفائز من العلوم بأوفر نصيب، والحائز من الأدب ما لم يحوه البحتري وابن قريب، فهو الذي قيل فيه:

إن هزّ أقلامه يوماً ليعملها ... أنساك كلّ كميّ هزّ عامله

وإن أقرّ على رقٍّ أنامله ... أقرّ بالرقّ كتّاب الأنام له

حضرة مولانا وسيّدنا، وملتجأنا وسندنا، ومرتجاها ومقصدنا، السيّد الشريف، ذي الحسب الباذخ المنيف، السيّد محسن(٢) بن السيّد حسين بن عبدالله بن الحسن بن أبي‌نمي، أدام الله شريف وجوده، ومنيف آبائه وجدود، ووريف إفضاله وجوده.

ولا زال قمر(٣) سعادته متضاعف الإشراق، وعزّ سيادته ممدود الرواق، ولا

---

(١) في «ن»: ولولم يكن في كفّه غير روحه.

(٢) سيأتي تفصيل ترجمته، وذكرنا تفصيل ترجمته في كتابنا الأُمراء والحكّام من آل أبي‌طالب، فراجع.

(٣) في «ن»: بدر.

برح جنابه الأجلّ[١] الأسمى الأسنىٰ، مقرّ الرئاسة العظمىٰ، والأيالة الحسنىٰ[٢]، ولا انفكّت الأقدار مطابقة لنواهيه وأوامره، والأيّام خادمة[٣] له في موارده ومصادره.

بقيت بقاء الدهر ياكهف أهله ... وهذا دعاءٌ للبريّة شامل

فالمأمول من حضرته العليّة والمسؤول، أن ينظر إلىٰ هذا التأليف بعين القبول، جبراً لخاطر خادم جنابه، ورقّ وداده، وعبد أعتابه[٤]، وإلاّ إذا نظرت إلىٰ ما حواه هذا الكتاب، المتشرّف بالمثول لدىٰ ذلك الجناب، وأمعنت نظرك في أوّله ومنتهاه، قلت: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه؛ إذ هو في الخُبر والخَبر، برق ولا مطر، وشجر ولا ثمر.

وإن أحاط فيه فكرك[٥] لما فيه من المسائل، قلت طول بلا طول ولا طائل، وإنّما شملته[٦] عين العناية من ذلك المقام العالي، حلّ عند ذوي التوفيق والهداية محلّ النجوم العوالي؛ لأنّه حوىٰ من الأخبار والأشعار ما لم يحوه الذهبي ولا بشّار، ومن علم المحاضرة الحلو المجاني، ما لم يطلّع عليه أبوالفرج الأصفهاني.

---

(١) في «ن»: ولا برح رفيع مكانه الأجلّ.

(٢) في «ن»: والأيالة إليه أبداً تنمىٰ.

(٣) في «ن»: مطاوعة.

(٤) في «ن»: ورقّ وداد رحابه.

(٥) في «ن»: وإذا ألقيت فكرك.

(٦) في «ن»: ولكن إذا شملته.

وإنّما سلوك الأدب اقتضىٰ أن أقول في هذا المقام، سيف كهام[١]، وغمام جهام[٢]، تنزّلاً عن رتب ذوي التأليف، تواضعاً لدىٰ ذلك الجناب الشريف.

ثمّ الملتمس من أرباب الفضائل الزكيّة، والأفهام الذكيّة، إسبال الستر والإغضاء من الانتقاد، وإصلاح ما عثروا عليه من الفساد، فقد قيل: إختيار الكلام أصعب من تأليفه، حال جمعه وتأليفه، فالجواد قد يكبو، والحسام قد ينبو.

ومن ذا علىٰ تُرضىٰ سجاياه كلّها   كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه

أصل مؤصّل وعقد مفصّل

ترجمة الشريف قتادة

السيّد الشريف، والهمام الغطريف، خدين الإقبال والسعادة، ودرّة تاج ذوي الشرف والسيادة، الشريف قتادة، أناله الله تعالىٰ من دار الآخرة الحسنىٰ وزيادة.

قال الفاضل العلاّمة الشيخ أحمد[٣] بن الفضل باكثير في تأليفه وسيلة المآل في

---

(١) سيف كهام أي: كليل.

(٢) الجهام بالفتح: السحاب الذي لا ماء فيه.

(٣) ذكره العلاّمة السيّد علي خان في كتابه سلافة العصر ص ٢٠٤، وقال: شهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمّد باكثير المكّي، ابن الفضل وأبوه، والمذعن لفضله أعداؤه ومحبّوه، مقداره في الأدب جليل، ومثل باكثير في الأنام قليل، إن عدت فرسان اليراعة، فهو ملاعب أسنّة الأقلام، أو ذكرت فرسان البراعة فهو ثاني أعنّة الكلام، ملك زمام القريض فاقتاده حيث شاء، وتلا لسان قلمه إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وكان له في التصدير والتعجيز، إعجازاً أفحم مصاقع البلغاء بالتعجيز، إلىٰ آخر ما قال، وقد طوّل في ترجمته في عدّة صفحات، فراجع.

أقول: توفّي سنة (١٠٤٧) سبع وأربعين وألف.

عدّ مناقب الآل[١]: هو الأمير الجليل قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم ابن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبدالله بن محمّد الثائر بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليهما السلام[٢].

قال سيّدنا الوالد[٣] ـ دام فضله ـ في تعليقاته على الكتاب المذكور، عند ذكر هذا النسب الشريف: الصواب سليمان بن علي بن محمّد، وهو أبوجعفر ثعلب بن عبدالله الأكبر بن محمّد الثائر بن موسى الثاني بن عبدالله الثاني بن موسى الجون

---

(١) قال المحقّق الطهراني في الذريعة (٢٥: ٨٣): وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل، لشهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمّد باكثير المكّي المترجم في سلافة العصر، أورد فيه فضائل أميرالمؤمنين عليه السلام ما لا يعتقده إلاّ الشيعة، واسمه تاريخه، وهو سنة (١٠٢٧) نسخة منه من موقوفات السيّد علي الايرواني المتوفّىٰ سنة (١٣٢٤) بتبريز، ونسخة أُخرىٰ في موقوفة السيّد البروجردي بالنجف.

أقول: هو كتاب قيّم في ذكر تاريخ شرفاء مكّة، وذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام، وقد أورد المرحوم العلاّمة السيّد المرعشي النجفي رحمه الله في ملحقات كتابه إحقاق الحقّ، من هذا الكتاب ما يرتبط بفضائل أهل البيت عليهم السلام، وهناك نسخة مصوّرة من الكتاب في مكتبته العامّة، وهي موجودة عندي، والكتاب مع نفاسته غير مطبوع إلىٰ هذا التاريخ، وأسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يوفّقني لتحقيقه ونشره.

(٢) وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل ص ٣٥ مخطوط.

(٣) هو العلاّمة الأديب الفاضل السيّد محمّد بن علي بن حيدر الموسوي العاملي المكّي، ذكرت تفصيل ترجمته في مقدّمة كتابه تنبيه وسنى العين، فراجع.

ابن عبدالله المحض بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط، كما في عمدة الطالب[١] وغيرها، فقد أسقط في هذا المكان، وأسقط في تشجير الخطبة عبدالله الأكبر ومحمّد الثائر[٢]. إنتهىٰ.

قلت: وهو تنبيه حسن، وتمهيد مثل[٣] هذا النسب يفرض إذ تمهيد غيره يسنّ.

وما أحسن قصيدة للشيخ أحمد باكثير المذكور، نظم في سلكها هذا النسب السامي، وكتبت في محلّ يمناه[٤]، السيّد علي[٥] بن بركات بن أبي‌نمي، وهو مخدومه الذي أتحفه بتأليفه وسيلة المآل[٦]، والغرض من نقلها ما نحن بصدده من ضبط نسب الشريف قتادة، وما زاد علىٰ ذلك يكون من باب الاستفادة، وهي:

سيّدنا ذو الفخر والتطوّل ... جامع أنواع الكمالات علي

ابن المليك ذي العُلا بركات ... ابن أبي‌نمي ذي الهبات

وهو ابن بركات الأجلّ الأكمل ... ابن محمّد بن بركات العلي

ابن الهمام المرتجى البدر حسن ... وهو ابن عجلان الشريف ذي المنن

ابن رميثة بن أبي نمي ... ابن أبي سعيد الوفي الصفي

---

(١) عمدة الطالب ص ١٧٣ المطبوع بتحقيقي.

(٢) التعليقة علىٰ كتاب وسيلة المآل للسيّد محمّد العاملي ص ٢٤ بخطّه الشريف.

(٣) في «ن»: أصل.

(٤) أي: في يمين هامش الصفحة حين يسرد نظمه، كما هو المترآىٰ من النسخة المصوّرة.

(٥) في «ن»: وكتبت باسم السيّد علي.

(٦) في «ن»: بتأليف نظمها فيه.

ابـــن عـــلي جـــامع الســـيادة ابـــن المـــليك المـــرتضىٰ قـــتادة
وهـــو ابـــن إدريس الذي أبـــوه مـــطاعنٌ لا بـــرّ مـــن يـــجفوه
ابـــن الزكـــي عـبدالكـريم الأكـرم وهو ابن عيسى بن الحسين الأفـخم
ابـــن ســليمان المــنيف بـن عـلي وهو ابـن عـبدالله ذي القـدر العـلي
ابـــن مـــحمّد بـــن مـوسى الأمـجد وهـــو ابـــن عـبدالله زاكـي المـحتد
وهـــو ابـــن مـــوسى بـــن عـبدالله ابـــــــن الولي الحســـــن الأوّاه
وهو ابن سبط المصطفى المولىٰ حسن ريـــحانة النـبي ذي الخـلق الحسـن
ابـــن الإمـــام المـــرتضىٰ عـــلي ابـــــــن أبـــيطالب الزكـــــي
أكـــــرم بـــــها ســـــلسلة شـــريفة فـــــي نســـــبةٍ بـــــاذخةٍ مـــنيفة
قـــــد فـــــخرت بســـــيّدٍ عـــلي فـــــي مـــبدءٍ ومـــنتهىٰ بـــهي[1]

قلت: وفي هذه القصيدة لم يذكر محمّداً، الذي هو أبوجعفر ثعلب بن عـبدالله الأكبر، فتنبّه.

ونسب أميرالمؤمنين علي بن أبي‌طالب عليه السلام إلىٰ آدم، فسيأتي ذكره، إذا ضوّع هذا التأليف عرفه ونشره.

عوداً إلىٰ ذكر صاحب الترجمة رحمه الله:

قال الشيخ أحمد باكثير: وكان يكنّىٰ أباعزيز، صاحب مكّة وينبع، وغير ذلك من بلاد الحجاز، وهو أوّل من ملك مكّة المشرّفة من هذاالفخذ الشريف، فإنّه كان ذا بأس ونجدة وشوكة، فجمع قومه[2] وأركبهم الخيل قبل أن يملك مكّة، وحارب

---

(١) وسيلة المآل ص ٢٥ ـ ٢٦ مخطوط.

(٢) في «ن»: فجمع بني عمّه.

الأشراف بني حراب من ولد[١] عبدالله المحض بن الحسن المثنّى بـن الحسـن السبط، وبني علي، وبني أحمد، وبني إبراهيم، ثمّ إنّه استألف[٢] بني أحمد وبني إبراهيم، وذلك بعد أن ملك ينبع والصفراء[٣].

وسبب طمعه في ملك مكّة: ما بلغه من انهماك ولاتها الهواشم[٤] بني فليتة على اللهو، وتبسّطهم في الظلم، وإعراضهم عن صونها ممّن يريدها بسوء، اغتراراً منهم بما هم فيه من العزّ والعنف لرعاياهم[٥] في مرادهم (وإن كان ظلماً أو غيره)[٦] فتوحّش عليهم لذلك خواطر جماعة من قوّادهم.

ولمّا عرف قتادة ذلك منهم استمالهم إليه، وسألهم المساعدة علىٰ ما يرومه من الاستيلاء علىٰ مكّة، وبعثه على المسير إليها أنّ بعض الناس فزع إليه مستغيثاً به في ظلامة ظلمها بمكّة، فوعده بالنصر، وتجهّز إلىٰ مكّة في جماعة من قومه، فما شعر أهل مكّة إلاّ وهو معهم بها، وولاتهم[٧] علىٰ ما هم عليه[٨] من اللهو والانهماك، فلم تكن لهم بمقاومته طاقة، فملكها دونهم سنة (٥٩٧) سبع وتسعين وخمسمائة.

---

(١) في «ن»: أولاد.

(٢) في الوسيلة: استأنف.

(٣) ما ذكره العلاّمة باكثير الحضرمي هنا، فهو مأخوذ من كتاب العقد الثمين للفاسي ٥: ٤٦٣ – ٤٧٥ برقم: ٢٣٣٧، فراجع.

(٤) في «ن»: ما بلغه من عكوف أُمرائها الهواشم.

(٥) في الوسيلة: والهسف لمن عارضهم.

(٦) الزيادة من الوسيلة.

(٧) في «د»: ولاتها.

(٨) في الوسيلة: فيه.

وقيل: إنّه لم يأت إليها بنفسه في ابتداء ملكه لها، وإنّما أرسل إليها ابنه حنظلة، فملكها وأخرج منها مكثر بن عيسى بن فليتة إلىٰ وادي نخلة.

ثمّ في سنة ستمائة: مات مكثر بنخلة، وجاء ولده محمّد بن مكثر وقاتل حنظلة ابن قتادة عند المتكا، ولم يحصل لمحمّد ظفر، وتمّت البلاد لقتادة، وجاء إليها قتادة بنفسه بعد ولده حنظلة، ذكر ذلك ابن محفوظ[١]، وابن فهد في إتحاف الورىٰ بأخبار أُمّ القرىٰ.

ثمّ في سنة إحدىٰ وستمائة: وقع الحرب بين الشريف قتادة الحسني سلطان مكّة وبين الأمير سالم الحسيني والي المدينة، وفي ذلك يقول الشريف قتادة:

مصارع آل المصطفىٰ عدن مثل ما بدت[٢] ولكن صرن بين الأقارب[٣]

ثمّ حارب أهل الطائف وتملّك البلاد منهم، واتّسع ملكه، وأحسن السيرة، واتّسعت ولايته من بلاد اليمن إلىٰ مدينة النبي ﷺ، وكانت له قلعة بالينبع، وعظم شأنه جدّاً، وصار له صيت في العرب لم يكن لغيره، وكان أديباً، وله الشعر البليغ.

وولد الشريف قتادة بالينبع في حدود سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وتوفّي بمكّة المشرّفة في جمادي الأُولىٰ سنة سبع عشرة وستمائة في سنّ التسعين، مات شهيداً بيد ولده الحسن، قيل: خنقاً، وقيل: سمّاً. وكان مدّة ولايته علىٰ مكّة عشرين سنة، وله من الأولاد: الحسن، وراجح، وإدريس، وعلي، وغيرهم. انتهى النقل من

---

(١) عنه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٥: ٤٦٤.

(٢) في «د»: بدأن.

(٣) إتحاف فضلاء الزمن للطبري ١: ١١٠.

وسيلة المآل[١].

قال صاحب النفحة العنبرية: أولاد قتادة ثمانية: الحسن، وراجح، ومحمّد، وإدريس، وعلي الأكبر، وعلي الأصغر، والقاسم، وجسّار. والمعقبون من ولده ستة: الحسن، وراجح، وإدريس، وعلي الأكبر، وعلي الأصغر، وجسّار.

أمّا الحسن بن قتادة، فهو صاحب ينبع، وهو إسم لبندر المدينة الشريفة، وله من الأولاد أربعة: أحمد، ومحمّد، وإدريس، وجمّاز.

أمّا أحمد بن الحسن (فله من الولد ستّة: مسعود، وسعد، وحمزة، وإدريس، وشُبَل، وعَرادة. وأمّا محمّد بن الحسن)[٢]، فله من الولد ثلاثة: فاضل، وجمّاز، وأبوعالي[٣].

وأمّا إدريس بن الحسن، فأولاده خمسة: راجح، وقتادة، وجسّار، وسالم، ومنيف.

وأمّا جمّاز بن الحسن، فأولد القاسم، والحسين.

المعقب الثاني من ولد قتادة: السيّد راجح، وأولاده سبعة: غانم، ومطاعن، وقتادة، والهادي، ومحمّد، وعبدالكريم، وقاسم. أعقب منهم الهادي بن راجح، وله ثمانية[٤]، وهم: المهدي، ومحمّد، وعلي، والحسن، وأحمد، والهادي، وقاسم،

---

(١) وسيلة المآل ص ٣٥ ـ ٣٧ مخطوط. وراجع: العقد الثمين ٥: ٤٦٣ ـ ٤٧٥.

(٢) ما بين الهلالتين ساقطة من النسختين، وأظفناها من المصدر.

(٣) في النفحة: أبو عال.

(٤) في النفحة: أعقب منهم الهادي، وراجح له ولد يسمّىٰ إدريس. والشريف قتادة ⇩

وأحمد الأصغر. ومطاعن بن راجح أعقب ولدين: القاسم، ومحمّد الحلي بفتح الحاء وكسر اللام. وعبدالكريم بن راجح أعقب ولداً اسمه راجح.

والمعقب الثالث من ولد قتادة: علي الأكبر، أولد ولداً، وهو أبوسعد الحسن بن علي، وأولد من الذكور السيّد أبونمي، وعبدالكريم[١]. إنتهىٰ.

قلت: قد نقص صاحب النفحة ولداً عمّا ذكره صاحب العمدة؛ لأنّه قال: وأعقب تسعة رجال، ويقال لعقبه: القتادات[٢]. إلىٰ آخر ما ذكره.

وأيضاً يرد عليه في قوله عند ذكر الحسن بن قتادة، وهو صاحب ينبع، وهو خلاف ما ذكره صاحب العمدة، وغيره من أهل التواريخ، من أنّه ولي مكّة المشرّفة مدّة من الزمان[٣]، كما ستقف عليه في كتابنا هذا.

ولقتادة شعر يشهد بنبله، وتسمو الهمم العليّة إلىٰ مثله، منه ما كتب به إلى الخليفة الناصر لدين الله، لمّا أرسل إليه يستدعيه إلى العراق بعد مسيره إليه، وقد تلقّاه أهل الكوفة ومعهم أسد مربوط في سلسلة، فرجع من فوره، وقال: لا أدخل بلداً تذلّ فيه الأُسود[٤]، ثمّ لمّا وصل أرض الحجاز كتب بهذه الأبيات للخليفة الناصر، وهي:

ابن راجح أولد ثمانية الخ. ولعلّ الصحيح من العبارة: أعقب منهم الهادي بن راجح له ولد يسمّىٰ إدريس الخ.

(١) النفحة العنبريّة في أنساب خير البريّة ص ١٢٤ ـ ١٢٦ المطبوع بتحقيقي.

(٢) عمدة الطالب ص ١٧٤.

(٣) عمدة الطالب ص ١٧٤.

(٤) في «ن» والعمدة: الأسد.

بلادي وإن جارت[١] عليّ عزيزة ولو أنّني أعرىٰ بها وأجوع
ولي كفّ ضرغامٍ إذا ما بسطتها بها أشتري يوم الوغا وأبيع
معوّدة لثم الملوك لظهرها وفي بطنها للمجدبين ربيع
أأتركها تحت الرهان وأبتغي بها عوضاً إنّي إذاً لرقيع
وما أنا إلاّ المسك في غير أرضكم أضوع وأمّا عندكم فأضيع

إلىٰ آخر ما ذكره صاحب العمدة[٢]، ولخّصت ذلك منها، وفيما أوردناه كفاية ونهاية بعد تصحيح سنده بالرواية، والله أعلم.

فصل وجيز وعقد عزيز

خلافة السيّد الشريف حسن بن قتادة

قال الفاضل المؤرّخ السيّد السمرقندي في تاريخه المسمّىٰ تاريخ خلفاء الزمن وولاته وملوكه السالكين أحسن سنن، وهو تاريخ جيّد لا بأس به، قال فيه: قال في عمدة الطالب: كان الحسن بن قتادة شجاعاً شديد الأيد، فاتكاً، ملك مكّة المشرّفة، وقبض في بعض السنين علىٰ أمير قافلة العراق، فقتله وعلّق رأسه في ميزاب الكعبة، ودامت ولايته إلىٰ عشرين وستمائة[٣]. إنتهى النقل من تاريخ السيّد السمرقندي[٤].

---

(١) في «د»: ولو أسنت.

(٢) عمدة الطالب ص ١٧٤، وراجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ١١٥.

(٣) عمدة الطالب ص ١٧٤، تحفة الطالب للسمرقندي ص ١١٥.

(٤) تاريخ خلفاء الزمن للسيّد السمرقندي ـ مخطوط. ولعلّه هو صاحب كتاب تحفة الطالب المطبوع، أو ابنه، أو غيرهما.

وذكر غيره من أهل التواريخ أنّ الذي أخرج السيّد حسن بن قتادة من مكّة هو الملك المسعود يوسف الأيّوبي، وذلك أنّه سار إلىٰ مكّة المشرّفة والسيّد حسن بن قتادة بها في سنة عشرين وستمائة، فاقتتلا في بطن مكّة المشرّفة، فهرب الشريف حسن، ونهب عسكر الملك المسعود مكّة، إلىٰ أن مات سنة ستّ وعشرين وستمائة.

ثمّ من بعد هذه السنة وليها ملوك اليمن وعساكرها أصلاً ونيابةً، وجرت بينهم وبين آل قتادة حروب فاحشة لم تصف لهم، بل كان آل قتادة معهم: إمّا أُصولاً، وإمّا نوّاباً، هكذا ذكر السمرقندي وغيره[١].

قلت: ومن العجب أنّ الفاضل العلاّمة الشيخ أحمد باكثير لم يجعل لهذا السيّد حسن بن قتادة ترجمة برأسه، كما هو دأبه مع غيره من ملوك مكّة المشرّفة في كتابه وسيلة المآل، بل أهمله وأهمل غيره ممّا سيأتي ذكره، كخلافة السيّد راجح ابن قتادة، ثمّ بعده ولده السيّد غانم، والسيّد جمّاز بن السيّد حسن بن قتادة، ولم يذكر شيئاً من وقائعهم ولا أحوالهم ولا أفعالهم، بل أضرب عن جميع ذلك، ولم يذكر بعد الشريف قتادة إلاّ أباسعد الحسن بن علي بن قتادة، وهو شيء غريب، فتنبّه، والله أعلم بولادته[٢].

---

(١) راجع: تفصيل ترجمته إلىٰ كتاب العقد الثمين ٣: ٤٠٢ – ٤٠٦ برقم: ١٠٠٨، وكتاب إتحاف فضلاء الزمن ١: ١١٩.

(٢) أي: بولادة الشريف الحسن بن قتادة، حيث لم يذكر أرباب التراجم تاريخ ولادته.

فصل متين وعقد ثمين
خلافة السيّد الشريف راجح بن قتادة

قال في عمدة الطالب: ولي مكّة المشرّفة في شهر رمضان، ودامت ولايته إلىٰ آخر ذيالحجّة الحرام عام إحدىٰ وخمسين وستمائة[1]. إنتهىٰ.

قلت: قول صاحب العمدة «ودامت ولايته إلىٰ عام إحدىٰ وخمسين وستمائة» هذا إجمال تحته تفصيل، ينطوي على العجائب من همّة هذا السيّد الجليل، وإن كان فيها تطويل، فها أنا أذكر لك وقائع هذا السيّد الشريف علىٰ طريق الاختصار من عام وفاة الملك المسعود الأيّوبي إلىٰ آخر سنة إحدىٰ وخمسين وستمائة التي أشار إليها صاحب العمدة، وأُرتّبه لك على السنين إلىٰ سنة اثنين وخمسين، فيندرج تحت ذلك خلافات أشخاص إلىٰ أبينمي محمّد بن أبيسعد الحسن بن علي بن قتادة.

فإذا وصلنا إليه عدلنا عن هذا الترتيب إلى الترتيب الأوّل الذي بدأنا هذا الكتاب به، والذي أركبنا ذلك هو الاختباط الواقع في هذه المدّة بين آل قتادة وبين ملوك اليمن وعساكرهم وعمّالهم وبين أُمراء مصر، فهذا اختباط كبير لا يمكن معه ترتيب إلاّ على السنين، وإن طال الكلام، فما يخلو من فوائد وعبر.

فنقول: ذكر أهل التواريخ المعتمدة[2]: إنّ في سنة (٦٢٦) ستّ وعشرين

---

(١) عمدة الطالب ص ١٧٤، وليس فيه ما نقل عنه، بل قال: ومنهم: الأمير راجح بن قتادة أمير مكّة بعد أخيه الحسن.

(٢) لعلّه ناظر إلى كتاب العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، للتقي الدين الفاسي المكّي ٤: ٧٨ – ٨٢ برقم: ١١٧٢.

وستمائة، التي توفّي بها الملك المسعود، ونائبه علىٰ مكّة المشرّفة نور الدين، وصل جيش من ناحية مصر، ومعه أمير عظيم من أُمراء مصر يسمّىٰ طويكين[١] ودخل مكّة، ففرّ نور الدين نائب صاحب اليمن، واستمرّ بها جيش مصر إلىٰ سنة (٦٢٧) سبع وعشرين وستمائة، فوصل جيش صاحب اليمن علي بن رسول وصحبته الشريف راجح بن قتادة، فاستولوا علىٰ مكّة المشرّفة .

فجهّز صاحب مصر الملك الكامل جيشاً كبيراً وقاتل[٢] الشريف راجح، فانكسر، واستولوا علىٰ مكّة بأميرهم الأوّل طويكين، فأسرف في القتل، ونهب البلاد، وأخاف مكّة خوفاً شديداً .

ثمّ عاد الشريف راجح بجمع عظيم، وأمدّه صاحب اليمن بعسكر، فقدم مكّة وطرد أمير صاحب مصر، فلمّا بلغ الكامل صاحب مصر ذلك جهّز عسكراً مع الحاجّ، فلمّا بلغ ذلك الشريف راجح خرج من مكّة ودخل أهل مصر من غير محاربة، وذلك في سنة (٦٣٠) ستمائة وثلاثين، وأراحوا البلاد، وذهب عن أهلها الخوف والرعب، وعدلوا فيهم، وأحسنوا إليهم .

وفي سنة (٦٣١) إحدىٰ وثلاثين وستمائة: جهّز الملك المنصور صاحب اليمن عسكراً جرّاراً، وخزانة عظيمة، ومعهم الشريف راجح بن قتادة، فدخلوا مكّة وأخرجوا أمير صاحب مصر، فلمّا أن وصل الحاجّ بلغ الشريف راجح أنّ السلطان الكامل صاحب مصر واصل إلىٰ مكّة بنفسه علىٰ نجائب، فخرج منها، فلمّا رجع الملك الكامل عاد إلىٰ مكّة .

---

(١) كذا في النسختين، ولعلّ الصحيح: «طغتكين» كما في العقد الثمين .

(٢) في «ن»: فقاتلوا .

وفي سنة (٦٣٢) اثنين وثلاثين وستمائة: وصل عسكر من مصر، وأخرجوا الشريف راجح، فتوجّه إلى اليمن، فبعث معه المنصور بخزانة وعسكر، فخرج إليه عسكر مصر، ووقع بينهما قتال كبير، إنكسر فيه عسكر السيّد راجح، هذا كلّه إلىٰ عام أربعة وثلاثين وستمائة.

وفي سنة (٦٣٥) خمس وثلاثين وستمائة: قدم السلطان نورالدين علي بن رسول في ألف فارس، فتلقّاه الشريف راجح في ثلاثمائة فارس، ودخلوا مكّة وخرج عسكر مصر، فتصدّق نورالدين علىٰ أهل مكّة بأموال كثيرة.

وفي هذه السنة: مات السلطان الكامل صاحب مصر، وخطب بمكّة لصاحب اليمن المنصور، وأقام راجح في ولاية مكّة إلىٰ سنة سبع وثلاثين وستمائة.

وفي هذه السنة: أرسل صاحب مصر الصالح الأيّوبي ألف فارس، ومعهم شيحة ابن قاسم أمير المدينة الحسيني، فلمّا سمع بهم راجح خرج من مكّة ودخلها شيحة، فلمّا بلغ صاحب اليمن جهّز عسكراً إلىٰ مكّة مع راجح، فلمّا أحسّ بهم الحسيني فرّ هارباً من مكّة وأخلاها.

وفي سنة (٦٣٩) تسع وثلاثين وستمائة: أرسل صاحب مصر عسكراً إلىٰ مكّة، فلمّا بلغ صاحب اليمن تجهّز وخرج إلىٰ مكّة بجيش كبير، فهرب المصريون وأحرقوا دار السلطنة بمكّة، فدخل السلطان نورالدين علي بن رسول، وصام رمضان بها، وأبطل المكوس والجبايات والمظالم، وأرسل يطلب الشريف أباسعد الحسن بن علي بن قتادة، وولاّه مكّة، وأقام بها نحو أربع سنين، كلّ ذلك إلىٰ سنة خمسين وستمائة.

وفي سنة (٦٥١): قدم الشريف جمّاز بن حسن بن قتادة بعسكر من الشام، وكان قد وعد صاحب الشام الناصر ابن العزيز أن يخطب له بمكّة، فدخل مكّة

وقتل الحسن بن علي بن قتادة، واستولىٰ علىٰ مكّة، وذلك في شهر رمضان[١].

وفي شهر ذيالحجّة: قدم عمّه راجح إلىٰ مكّة، وفرّ جمّاز بلا قتال، وكانت هذه السنة آخر ولايته علىٰ مكّة المشرّفة، وإن وقع منه بعد هذه السنة أُمور وأحوال، فإنّما هي خالية من الاستيلاء علىٰ مكّة، إلىٰ أن انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ.

وقضيّة استنجاده بأخواله بني حسين وما وقع لشيخهم الحرون[٢]، فستأتي في ذكر خلافة أبينمي إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ وفي سنة (٦٥٢): هجم مكّة المشرّفة السيّد الشريف غانم بن راجح المذكور، وأخرج أباه منها، واستمرّ بها إلىٰ شوّال من السنة المذكورة، فأخذها منه أبونمي وإدريس بن قتادة بالقتال، إلىٰ آخر ما أردنا نقله، وتلخيصه وذلك إلىٰ آخر سنة ثنتين وخمسين وستمائة[٣].

لخّصت ذلك من كتب معتبرة في فنّ التأريخ والسير، كتاريخ خلفاء الزمن للفاضل السمرقندي[٤]، وكتاب لسان الزمان[٥] لأفضل المتأخّرين ببلد الله الحرام، وشيخ مشايخ الإسلام العالم العلاّمة والفاضل الفهّامة سلطان العارفين،

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ١٢٤.

(٢) ذكرها النسّابة ابن عنبة في كتابه عمدة الطالب ص ١٧٥، فراجع.

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ١٢٩.

(٤) تاريخ خلفاء الزمن للفاضل السمرقندي ـ مخطوط.

(٥) كتاب لسان الزمان للشيخ محمّد بن أحمد عقيلة ـ مخطوط. وقد نقل المؤلّف من هذا الكتاب كثيراً، وسيأتي من المؤلّف ذكر هذا الكتاب في سرد ترجمة مؤلّفه.

شيخنا ومقتدانا، الشيخ محمّد بن أحمد عقيلة[(١)]، حرسه الله تعالىٰ وأولانا ببركته فما توالىٰ، وكتاب عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب[(٢)]، وغير ذلك من الكتب المشهورة المعتمدة في جميع الأقطار المعمورة[(٣)]، ونسأله التوفيق للتحقيق والاستقامة علىٰ أوضح طريق، إنّه كريم وهّاب .

فصل عالي وعقد غالي

ترجمة[(٤)] السيّد الشريف محمّد أبي نمي بن أبي سعد الحسن ابن علي بن قتادة رحمه الله تعالىٰ ورحم أباه وأجداده

قال صاحب وسيلة المآل: وكان يقال له: أبو مهدي، ويلقّب بـ«نجم الدين» ولي مكّة المشرّفة نحو خمسين سنة، إلاّ أوقات يسيرة زالت ولايته عنها، وكانت ولايته مع أبيه وبعده[(٥)]. إنتهىٰ .

وقال العلاّمة الشيخ عبدالقادر الطبري في نشآت السلافة بمنشآت الخلافة[(٦)]،

---

(١) سيأتي ترجمته مفصّلاً من المؤلّف في هذا الكتاب .

(٢) عمدة الطالب ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٣) راجع: كتاب العقد الثمين ٤: ٧٨ – ٨٢ برقم: ١١٧٢، وكتاب إتحاف فضلاء الزمن ١: ١٢١ .

(٤) في «ن»: خلافة .

(٥) وسيلة المآل ص ٣٩ ـ ٤٠ مخطوط .

(٦) ذكره في كتاب إيضاح المكنون في الذيل علىٰ كتاب كشف الظنون ٥: ٥٣٨، وفيه: نشأة السلافة بمنشأ الخلافة .

وذكره أيضاً إسماعيل باشا في هدية العارفين المطبوع ذيل كشف الظنون (٦:

⇩

نقلاً عن بهجة الزمان[١]: إنّ ولايته تنوق علىٰ خمسين سنة، مشاركاً لأبيه وعمّه إدريس ومنفرداً، وأمّا مشاركته لأبيه، فكانت أيّام صباه وصغر سنّه نحو سبع عشرة سنة.

وسبب ذلك: أنّ راجحاً عمّ والده أبي‌سعد الحسن استنجد أخواله بني حسين سكّان المدينة، وطلب منهم الإعانة علىٰ إخراج ابن أخيه أبي‌سعد من مكّة المشرّفة وأخذها منه، فسار معه من المدينة سبعمائة فارس من بني حسين وجماعتهم، وعليهم الأمير عيسىٰ الملقّب بـ«الحرون» فارس بني حسين في زمانه، وكان أبونمي حينئذ بالينبع.

فلمّا بلغه خروج راجح مع بني حسين[٢] من المدينة إلىٰ أبيه، قصد مكّة لنصرة أبيه في أربعين فارساً، فصادف راجحاً وعيسىٰ وجماعتهم سائرين إلىٰ مكّة المشرّفة، وليس لهم به خبر، فلمّا ترآىٰ الجمعان حمل أبونمي عليهم، فما حملوه لحظة وولّوا هاربين إلى المدينة.

ولمّا هرب عيسى الحرون انتشرت عمامته، وذهب يجرّها علىٰ خلفه.

---

٥٣٨) قال: محيي الدين عبدالقادر بن يحيى بن مكرم بن محبّ الدين الطبري الشافعي المكّي الخطيب الإمام بالمقام والمفتي ببلدة الحرام، ولد سنة (٩٧٦) وتوفّي سنة (١٠٣٣) من تصانيفه: الرايات المنصورة على الأبيات المقصورة شرح على الدريدية، إلىٰ أن قال: ونشأة السلافة بمنشآت الخلافة في التاريخ. الخ.

(١) هو كتاب بهجة الزمان بعمارة الحرمين لملوك آل عثمان، لجار الله محبّ الدين محمّد بن عبدالعزيز بن محمّد القرشي الشافعي المعروف بابن فهد المكّي، المتوفّىٰ سنة (٩٥٤) أربع وخمسين وتسعمائة.

(٢) في الوسيلة: فلمّا بلغه خبر راجح وخروج بني حسين.

فقال السيّد جعفر الحسني النسّابة رحمه الله[١]، وهو لسان بني حسن بالعراق، قصيدة يذكر فيها الواقعة، منها :

ألم يبلغك شأن بني حسينٍ ... وفرّهم وما فعل الحرون
فيا لله فعل أبي نمي ... وبعض الناس تشبهه الجنون[٢]
يصول بأربعين علىٰ مئاتٍ ... وكم من كثرةٍ طلبت تهون[٣]

ثمّ دخل مكّة مسروراً منصوراً، فقابله أبوه بالإعزاز والإكرام، وشاركه في الملك، ولم يزل مشاركاً لأبيه حتّىٰ مات أبوه، ثمّ شاركه عمّه إدريس بن حسن بن قتادة، ثمّ استقلّ بالولاية بعد قتله لعمّه إدريس، فإنّه جرىٰ بينه وبين عمّه بسبب ولاية مكثر أُمور ومنازعات :

منها: أنّ في سنة تسع وستّين وستمائة وقع بينهما خلف، فاستظهر إدريس علىٰ أبي‌نمي، فخرج أبونمي هارباً من بين يدي عمّه إدريس، ووصل إلى الينبع، فاستنجد بصاحبها، وحشد العساكر وقصد مكّة، فالتقىٰ هو وعمّه في خليص[٤]، وتحاربا بها، وطعن أبونمي عمّه إدريس، وألقاه من جواده، فنزل وحزّ رأسه

---

(١) هو النقيب تاج الدين أبو عبدالله جعفر بن محمّد ابن معيّة الحسني النسّابة، وهو أُستاذ العلاّمة النسّابة ابن عنبة الداوودي صاحب عمدة الطالب .

(٢) في الوسيلة: الجفون .

(٣) راجع: عمدة الطالب ص ١٧٦ .

(٤) خليص: حصن بين مكّة والمدينة، وخلص: موضع بآرة بين مكّة والمدينة واد فيه قرىٰ ونخل. معجم البلدان .

واستقلّ بالولاية. إنتهى النقل من وسيلة المآل[١].

قال السمرقندي: وأخذ أبونمي وعمّه إدريس الولاية من السيّد غانم بن راجح بالقتال في شهر شوّال سنة ثنتين وخمسين وستمائة، ودامت لهما إلىٰ خامس عشرين ذيالقعدة من العام المذكور.

ثمّ وليها ابن برطاس نيابة من الملك المظفّر صاحب اليمن، وقاتله أبونمي وإدريس المذكوران، وأسرا ابن برطاس، ثمّ فدي نفسه وخرج من مكّة مع عسكره منهزماً، وذلك عام ثلاث وخمسين.

ثمّ وليها أبونمي بمفرده عام أربعين وخمسين، ثمّ شاركه إدريس المذكور، ثمّ انفرد إدريس أربعين يوماً، ثمّ قتل إدريس المذكور في عام تسع وستّين وستمائة، ثمّ تفرّد بها أبونمي، وهو أبونمي محمّد بن أبيسعد الحسن بن علي بن قتادة[٢]. إنتهىٰ.

ثمّ ذكر أنّه لمّا تفرّد بها أبوه الحسن بن علي بن قتادة عن عمّه راجح استنجد راجحاً بأخواله بني الحسين، وذكر قصّة الحرون التي تقدّمت[٣].

قلت: كان هذا السيّد الشريف، والغضنفر الغطريف، مشهوراً بالشجاعة والإقدام، والكرم الشامل للخاصّ والعامّ، والحلم والرصانة[٤]، اللذين لا توازنهما الأطواد رزانة، والشعر الفائق، والنثر الرائق.

---

(١) وسيلة المآل ص ٤٠ ـ ٤٢ مخطوط.

(٢) تاريخ خلفاء الزمن وولاته وملوكه، للسمرقندي ـ مخطوط.

(٣) تقدّم نقلها عن العمدة، فراجع.

(٤) الرصين: المحكم الثابت، وقد رصن بالضمّ رصانة.

وكان يقول ولده السيّد حميضة: كان لأبي خمس خصال: العزّة، والكرم، والحلم، والشجاعة، والشعر.

توفّي رحمه الله في رابع صفر سنة إحدىٰ وسبعمائة، ودفن بالمعلاّة، وظهرت له كرامات عجيبة لمّا مات، سننقل منها شيئاً في ترجمة السيّد أحمد بن عبدالمطّلب لأمر اقتضىٰ ذلك طلباً للمناسبة[١].

وولد لأبي نمي هذا ثلاثون ذكراً واثنتاعشر أُنثىٰ، فمنهم: زيد الأكبر، وزيد الأصغر، وأبو الغيث، وشميلة، وعطيفة، وسيف، ولبيد، ومقبل، وحميضة، وعبدالله، ورميثة، وغير هؤلاء.

قال صاحب النفحة العنبرية: أولاد أبي نمي أربعة عشر ذكراً، وذكر منهم: سُمَيكة بضمّ السين وفتح الميم، وعُبَيّة بضمّ العين وفتح الباء الموحّدة، وعبدالله، وطاهراً، وحميضة، ورميثة، وأبالغيث، وحمزة، وعطيفة، وعطافا، وعاطفاً، ونُبيثة[٢] بضمّ النون، وجسّاراً[٣].

والعمدة علىٰ ما ذكرناه هو الموافق لما في عمدة الطالب[٤]، ووسيلة المآل[٥]، وغيرهما، لكن يستفاد من عبارة النفحة من لم نذكره من أولاد أبي نمي المذكور،

---

(١) راجع تفصيل ترجمته: إلىٰ كتاب العقد الثمين ٢: ١٤٨ - ١٦١ برقم: ١٤٤، وكتابنا الأُمراء والحكّام من آل أبي طالب.

(٢) في النفحة: نكيثة.

(٣) النفحة العنبرية ص ١٢٦.

(٤) عمدة الطالب ص ١٧٦.

(٥) تقدّم نصّ ترجمة الشريف محمّد أبي نمي من وسيلة المآل للحضرمي.

والله أعلم .

فصل لطيف وعقد ظريف

ترجمة السيّد الشريف رميثة بن أبي نمي بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة

قال صاحب الوسيلة: يكنّىٰ بـ«أسدالدين» ويلقّب بـ«أبي عرادة» وكان سيّداً جليلاً شجاعاً كريماً شاعراً، ولمّا تغلّب ابنه على الحلّة وأعمالها من العراق، كتب إليه قصيدة يذكر فيها شرف مكّة وفضلها[١]، ويذمّ العراق وأهلها، ويحذّره من سطوة[٢] المغول[٣]، فأجابه ابنه بقصيدة علىٰ وزنها ورويّها .

ولمّا قتل ابنه أحمد، ووصل إليه الخبر، قال: قد علمت منذ[٤] تعرّض لبلاد المغول أنّه مقتول، ولم تسر من العراق إلىٰ مكّة قافلة من بعد قتل أحمد خوفاً من أبيه رميثة[٥] .

ولكيفيّة قتله نقل طويل ينطوي على القتل، وعلىٰ كيفيّة الصلح بعد مدّة مع الشريف عجلان، ذكر ذلك مفصّلاً صاحب عمدة الطالب، فراجعه هناك[٦] .

ولرميثة الوقائع المشهورة، والشجاعة المذكورة، قصد من أطراف البلاد،

---

(١) في الوسيلة: وفضائلها .

(٢) في «ن»: سطوته .

(٣) هم المغول أتباع الملك الجائر جنكيزخان المغولي .

(٤) في «ن»: منه .

(٥) وسيلة المآل ص ٤٢ ـ ٤٣ مخطوط .

(٦) عمدة الطالب ص ١٧٩ ـ ١٨٢ .

ومدحه الأمجاد من الشعراء، كموفّق الدين الحديدي[١]، وغيره .

وولي مكّة المشرّفة سبع مرّات متفرّقات، شريكاً لأخيه حميضة نحو عشر سنين، وشريكاً لأخيه عطيفة نحو خمس سنين، ومنفرداً نحو خمس عشر سنة، إلىٰ أن مات، فكانت مدّة ولايته نحو ثلاثين سنة .

توفّي يوم الجمعة السادس من ذي‌القعدة الحرام سنة ستّ وأربعين وسبعمائة، وطيف به أُسبوعاً حول الكعبة كما كانت عادتهم، وذلك وقت صلاة الجمعة والخطيب على المنبر، فسكت الخطيب حتّىٰ فرغوا من الطواف به، وكان ابنه عجلان يطوف مع الجنازة، ثمّ جعله في مقام إبراهيم، وتقدّم القاضي شهاب الدين الطبري وصلّىٰ عليه، ودفن بالمعلاّة عند القبر الذي يقال له: قبر خديجة بنت خويلد رضي الله عنها[٢]. إنتهى النقل من الوسيلة .

قلت: عبارة أحمد في الوسيلة لا تخلو من اختصار، والمقام لا يقتضي الاقتصار، إذ علم التأريخ من شأنه التطويل؛ لأنّ الكثير منه وإن تعدّى الحدّ خير من القليل، فالأليق به التفصيل .

قال صاحب لسان الزمان ملخّصاً من أماكن عديدة منه: فوليها إبنا أبي‌نمي حميضة ورميثة بعد وفاة أبيهما أبي‌نمي مدّة، ثمّ وليها أبو الغيث وعطيفة إبنا أبي‌نمي، ثمّ أُعيد بعد مدّة حميضة ورميثة إلىٰ إمارة مكّة، ثمّ وليها أبو الغيث مفرداً، وجرىٰ بينه وبين أخيه حميضة قتال، فأسر أباالغيث، ثمّ قتله ووليها حميضة مدّة، ثمّ أقبل رميثة في عسكر عظيم من مصر، ففرّ حميضة .

---

(١) في العقد الثمين: الحنديدي .

(٢) وسيلة المآل ص ٤٣ ـ ٤٤ مخطوط .

ثمّ لم يزل صاحب مصر يحتال به حتّىٰ حبسه بمصر مدّة، ثمّ فرّ من مصر واتّصل بالعراق، ثمّ اتّصل بالحجاز، ثمّ لم يزل حتّىٰ وثب علىٰ أخيه رميثة، فأخرجه من مكّة ووليها، ثمّ لم يزل حتّىٰ وليها عطيفة بتولية ملك مصر الناصر قلوون فأمدّه، ثمّ لم يزل حميضة والياً إلىٰ أن قتل بوادي نخلة، قتله مملوك له تركي غيلة، وأقام عطيفة والي مكّة إلىٰ سنة ثلاثين وسبعمائة، فوقعت فتنة عظيمة، فعزله ملك مصر وولي أخاه الشريف رميثة، ولم يزل رميثة والياً حتّىٰ كبر، فعزل بابنه عجلان.

وتوفّي كما ذكره صاحب الوسيلة وله من الأولاد عدد كثير، منهم: أحمد، وسند، وثقبة، ومغامس، ومبارك، وعجلان، وغيرهم، والله تعالىٰ أعلم[١].

فصل نامي وعقد سامي

ترجمة السيّد الشريف عجلان بن رميثة بن أبي نمي رحمه الله تعالىٰ

قال أحمد صاحب الوسيلة: ويكنّىٰ أباسريع، ويلقّب بـ«عزّالدين» ولي مكّة غير مرّة نحو ثلاثين سنة مستقلاًّ وشريكاً لأخيه ثقبة ولولده أحمد، ووقعت بينه وبين أبيه وإخوته منازعات اقتضت عزمه إلىٰ مصر مراراً، وتولّىٰ منها مستقلاًّ

(١) ذكره أبوالفداء في المختصر في تاريخ البشر ٤: ٧٦ ـ ٧٧ و ٨٤ و ٨٥ و ١٠٣، وتقي‌الدين الفاسي في العقد الثمين ٤: ١٠٠ – ١١٢ برقم: ١١٩٦، وابن حجر في الدرر الكامنة ٢: ١١١ ـ ١١٢ برقم: ١٧٢٨، والمقريزي في السلوك إلىٰ معرفة دول الملوك ٢: ٥٢٦ و ٣: ١٦ و ١٣٩ ـ ١٤٠ و ١٤١ ـ ١٤٢ و ٤: ٢٢، وابن عماد في شذرات الذهب ٦: ١٤٩ ـ ١٥٠، وكتابنا الأُمراء والحكّام من آل أبي طالب.

وشريكاً، وجميع ذلك مذكور في تاريخ الفاسي[١]، وغيره[٢].

ولم يزل كذلك إلىٰ أن مات بالجديد في وادي مرّ من أعمال مكّة المشـرّفة، وحمل إلىٰ مكّة ودفن بالمعلاّة، وبني عليه قبّة، وكانت وفاته سنة سبع وسبعين[٣] وسبعمائة، وقد بلغ من العمر نحو سبعين سنة.

وكان رحمه الله شيخاً صالحاً سعيداً، فاتّفق له ما لم يتّفق لأسـلافه مـن السـعودات العظيمة، فإنّه أوّل من ملك بلاد حلي[٤] من أهله السابقين، وبنى الحصون بأجياد وأرض حسان، والمدارس بمكّة، وملك الخيول والعبيد والدروع الكثيرة، وأنشأ بمكّة سبيلاً للماء بالمروة، واستمرّت خيراته، وكثرت حسناته، ومدحه جماعة من الشعراء، وكـان لعـجلان جـملة مـن الأولاد، مـنهم: أحـمد، ومـحمّد، وعـلي، وحسن[٥]. إنتهى النقل من الوسيلة.

قال صاحب العمدة عند ذكر الشريف حسن ابن صاحب الترجمة: وانتسب إليه رجل اسمه كبيش، وقبله عجلان، وأبوه رميثة أيضاً، وأُمّه إمرأة من عامّة أهل مكّة شرّفها الله، فيها ما فيها، وأهل مكّة متّفقون علىٰ حكاية يحكونها لا يـصحّ مـعها نسب كبيش، ولا يتّصل بعجلان، وإن كان قد قبله، والله بها أعلم، وقد رأيت كبيشاً

---

(١) العقد الثمين ٥: ١٨٩ - ١٩٨ برقم: ١٩٨١.

(٢) راجع: المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك ٤: ١٢١.

(٣) في الوسيلة: وتسعين.

(٤) حَلْي: بالفتح ثمّ السكون بوزن ظبي، مدينة باليمن علىٰ سـاحل البـحر، بـينها وبين مكّة ثمانية أيّام.

(٥) وسيلة المآل ص ٤٤ ـ ٤٥ مخطوط.

هذا بمكّة جليل المقدار(١)، كان إليه أمر جدّة(٢)، وكان أبوه يوصي به، وأخوه الشريف يجلّه، والناس يخاطبونه بالشريف، ولكبيش هذا عقب، وكان في غاية النجدة والشجاعة(٣).

قلت: وعلى الفرض بأنّها كانت فاسقة وفيها ما فيها، إلاّ أنّ عجلان المذكور حجرها، وعقد بها، وأتىٰ منها بكبيش وأقرّ به، فما وجه هذا الطعن من صاحب العمدة والتجرّي ؟!.

عوداً إلىٰ ذكر صاحب الترجمة :

قلت: تقدّم النقل من لسان الزمان بأنّ الشريف رميثة عزل بإبنه عجلان، ثمّ قال بعد: ولم يزل عجلان والياً بمكّة ويشاركه أخوه ثقبة، وتارة يتغلّب، وغالباً يستقلّ عجلان بولاية مكّة .

ثمّ في سنة ستّين ولي مكّة سعد بن رميثة، ومحمّد بن عطيفة، ثمّ أُعيد عجلان، ثمّ ترك الإمارة لابنه أحمد علىٰ أن يبقي الخطبة له، إلىٰ أن توفّي سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وهو أوّل من أخذ حليا من أرض اليمن من ولاة مكّة المشرّفة(٤). إنتهى النقل من لسان الزمان ملخّصاً .

إنتهت ترجمة السيّد عجلان، فرحمه الله رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده

---

(١) في العمدة: القدر .

(٢) في العمدة: أمر ساحل جدّة .

(٣) عمدة الطالب ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٤) لسان الزمان لمحمّد بن أحمد عقيلة ـ مخطوط، راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ١٦١ .

الأئمّة الأطهار، إنّه علىٰ ما يشاء قدير.

فصل أنيس وعقد نفيس
ترجمة السيّد الشريف أحمد بن عجلان

عليه الرحمة والغفران، وأسكنه فسيح الجنان

قلت: قد أهمل الشيخ أحمد ترجمة هذا الشريف في كتابه وسيلة المآل، ولم يذكر بعد عجلان إلاّ إبنه الحسن بن عجلان، مع أنّ الحسن المذكور إنّما ولي شرافة مكّة المعظّمة بعد أخيه علي بن عجلان، وهو أيضاً بعد ابن أخيه عنان بن مغامس ابن عجلان، وهو بعد ابن عمّه محمّد بن أحمد بن عجلان، وهو بعد أبيه الشريف أحمد بن عجلان صاحب الترجمة، فتكرّر بين الشريف حسن بن عجلان وبين أبيه الشريف عجلان في ولاية مكّة المشرّفة أربعة أشخاص، أحدهم الشريف المذكور، هكذا ذكر أهل التواريخ[١].

قال صاحب العمدة: وكان الشريف شهاب الدين أحمد سائساً عادلاً، شديد الحكومة، تهابه الأشراف والقوّاد ومن دونهم، وكانت القوافل في زمانه آمنة من السرّاق والقطّاع.

إلىٰ أن قال: وطال حكمه، وعظم أمره، واستشعر سلطان مصر منه الاستبداد، فغلبه مراراً، فاعتذر إليه، وكان قبل وفاته عدّة سنوات يلبس الدرع أيّام الموسم تحت ثيابه ولا يحجّ؛ لعدم تمكّنه من لبس ثياب الإحرام، فاحتالوا عليه بكتاب

---

(١) راجع: العقد الثمين للفاسي ٣: ٥٥ - ٦٢ برقم: ٥٩١، و درر العقود السنيّة للمقريزي ١: ٣١٩ ـ ٣٢٥ برقم: ٢٣٠، وانباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ٢: ٢٢٧ - ٢٢٨.

سمّوه، وأرسلوه إليه، فلم يستتمّ قراءة ذلك الكتاب حتّى انتفخت أوداجه ودماغه، وظهرت البثور بوجهه، ومات رحمه الله تعالىٰ، وفتكوا من بعده بابنه الذي قام بعده، نهض عليه رجل في سوق منىٰ، فضربه بسكّين مسمومة، وغاب بين الناس فلم يعرف[١]. إنتهىٰ.

وقال صاحب لسان الزمان بعد قوله السابق في ترجمة عجلان: ثمّ ترك الإمارة لابنه أحمد، واستمرّ أحمد بن عجلان، إلىٰ أن مات سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، ثمّ وليها ابنه محمّد بن أحمد المذكور مائة يوم مستقلاًّ إلىٰ أن قتل، فوليها عنان بن مغامس، ثمّ عزل عنها بعلي بن عجلان، وأقام علي منفرداً بالولاية.

ثمّ شاركه عنان أيضاً، ثمّ خرج عنان إلىٰ مصر، واستقلّ علي بن عجلان إلىٰ أن قتل سنة سبع وتسعين وسبعمائة، ومات مغامس بمصر، فجعلت إمارة مكّة لحسن ابن عجلان[٢]. إنتهىٰ كلام صاحب لسان الزمان، فانظر بعين الفضيلة إلىٰ ما أهمله صاحب الوسيلة، مع سعة اطّلاعه، وتتبّعه للنقول بطول باعه، والله أعلم.

فصل موصوف وعقد مرصوف

ترجمة السيّد الشريف حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي

رحمه الله تعالىٰ

قال صاحب الوسيلة: كانت ولادته في سنة خمس وسبعين وسبعمائة، ونشأ في كفالة أخيه أحمد بن عجلان، وولي مكّة من غير شريك إحدىٰ عشر سنة وتسعة

---

(١) عمدة الطالب ص ١٨٤، وراجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ١٦٢.

(٢) لسان الزمان ـ مخطوط.

أشهر وستّة أيّام، ووليها شريكاً لابنه بركات بسعي منه سنة وأربعة[١] أشهر، وولي نيابة السلطنة ستّ سنين إلاّ أشهراً، ووقع له من المنازعات في الأمر ما اقتضىٰ أنّه سافر إلىٰ مصر مراراً، وقبض عليه بها في بعض المرار، وله وقائع مشهورة في التواريخ[٢] مذكورة مسطورة مع بني عمّه وإخوته وملوك مصر ومع القوّاد وغيرهم.

وكان ذا ثروة عظيمة، وحشمة وافرة جسيمة، وخيرات كثيرة عميمة، بنىٰ بمكّة رباطاً للرجال، ورباطاً للنساء، لم يل مكّة قبله من يدانيه في شيء من ذلك.

وقد مدحه كثير من الشعراء المعتبرين، منهم: الشيخ شهاب الدين أحمد الفاسي والد التقي الفاسي مؤرّخ مكّة[٣]. ومنهم: شيخ الإسلام عالم الأئمّة الأعلام، قاضي القضاة، شرف الدين إسماعيل ابن المقرىء.

وكان الملك الناصر صاحب اليمن تشفّع إلى الشريف حسن بن عجلان في ترك التشويش علىٰ موسىٰ صاحب حَلْي، وحثّه على الموافقة علىٰ ذلك القاضي شرف الدين ابن المقرىء بقصيدته النونيّة التي مطلعها:

أحسنت في تدبير ملكك يا حسن وأجدت في تحليل أخلاط الفتنْ

---

(١) في الوسيلة: وسبعة.

(٢) راجع: العقد الثمين ٣: ٣٤٧ - ٣٩٤ برقم: ٩٩٥، ذكر تفصيل ترجمته، وابن حجر في إنباء الغمر بأبناء العمر ٦: ١٠٣ - ١٠٥.

(٣) وله عدّة كتب في تاريخ مكّة المكرّمة، منها: كتابه القيّم العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، وكتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، وغيرهما.

ما كنت بالترق[١] العجول إلى الأذىٰ   عند النزاع ولا الضعيف أخا الوهن

تمسي[٢] ورأيك عن هواك معوّق   والعزّ ملقىً في يد الأهوى الرسن

داء الرئاسة في متابعة الهوىٰ   ودواؤها بالدفع[٣] بالوجه الحسن

وإذا الفتى استقصىٰ لنصرة نفسه   قلب الصديق لحربه ظهر المجن

ومنها:

بالسيف والإحسان تقتنص العُلا   وحصولها[٤] بهما جميعاً مرتهن

لا خير في منن ولا سيفٍ بها   ماضٍ ولا في السيف[٥] ليس له منن

ومنها:

أما حلي[٦] فإنّ خوفك لم يدع   أهلاً بها للزائرين ولا وطن

أجليتهم[٧] منها وجسمك وادعٌ   في مكّة لم يخرجوك إلىٰ ظعن

ومنها:

أغمد سيوفك رغبةً لا رهبةً   ما في قتيلٍ فرّ مرعوباً سمن

واكرم سيوفك من دماً طرداً بها   والحرّ يكرم سيفه أن يمتهن

---

(١) في «د»: بالنزق، وفي «ن» والاتحاف: بالترف.

(٢) في الوسيلة: تمشي.

(٣) في الوسيلة: في الدفع.

(٤) في «د» والاتحاف: وحصوله.

(٥) في «ن»: السبق.

(٦) في «ن»: خلي.

(٧) في الاتحاف: جلبتهم.

قد كان لا يرضىٰ يـخطّط سـيفه | في ظهر من ولّىٰ أبوك أبو الحسن

ومنها :

مـــوسىٰ هـــزبرٌ لا يـــطاق نـزاله | في الحرب[١] لكن أين موسىٰ من حسن
هــذاك فــي يــمنٍ ومـا سـلمت له | يــمن وذا بــالشام لم يــدع اليــمن
فــانظر إلىٰ مــوسىٰ وقـد لعـبت بـه | لمّا سخطت عـليه أحـداث الزمـن[٢]
وامــنن بــمهجته وخــذ مـا عـنده | عــوضاً يكـن مـنك المـثمّن والثـمن
لا زلت بــــالشرف المــخلّد بــانياً | شــرفاً ومــجداً ثــابتاً لبـني حسـن
جــئنا بــحسن الظـنّ نسألك الرضـا | والعفو عنه فـلا تـخيّب فـيك ظـن[٣]

فصل بديع

ينطوي علىٰ فرائد من علم البديع حسن الابتداء

قال أديب العصر صاحب سلافة العصر في كتابه أنوار الربيع في أنواع البديع[٤]،

(١) في «ن»: بالسيف .

(٢) في «ن»: الفتن .

(٣) وسيلة المآل ص ٤٥ ـ ٤٧ مخطوط، وراجع: العقد الثمين ٣: ٣٥٩، وإتـحاف فضلاء الزمن ١: ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٤) قال في الذريعة (١: ٤٢٦): أنوار الربيع في أنواع البديع، للسيّد صدرالدين علي ابن نظام الدين أحمد الحسيني الدشتكي الشيرازي المعروف بـالسيّد عـلي خـان المدني، المتوفّىٰ سنة (١١١٨) وكانت ولادته في المدينة المشـرّفة سـنة (١٠٥٢) شرح لبديعيته التي نظمها في اثنتي‌عشرة ليلة في مائة وسبعة وأربعين بيتاً بزيادة بيتين لنوعين من البديع علىٰ بـديعية صـفي‌الديـن الحـلّي المـولود سـنة (٦٧٧) والمتوفّىٰ سنة (٧٥٠) التي سمّاها بالكافية البديعية في مدح خير البريّة .

وهو كتاب جليل عدّة في الأدب، لم يؤلّف في هذا العلم أحسن منه: قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء، ويسمّىٰ براعة المطلع، وهو عبارة عن أن يتأنّق المتكلّم في ابتداء[1] كلامه، ويأتي بأعذب الألفاظ، وأجزلها وأرقّها وأسلسها، وأحسنها نظماً، وألطفها سبكاً، وأصحّها مبنىً، وأوضحها معنىً، وأخلاها من الحشو والركّة والتعقيد، والتقديم والتأخير الملبّس، والذي لا يناسب.

إلىٰ أن قال: ويعتبر في مطلع القصيدة زيادة علىٰ ذلك أن لا يكون متعلّقاً بما بعده من الأبيات، وأن يناسب بين قسميه أتمّ المناسبة، بحيث لا يكون أحد الشطرين أجنبياً عن الآخر لفظاً ومعنىً، فإذا اجتمعت هذه الشروط في مطلع القصيدة كان غايةً في بابه.

إلىٰ أن قال: وكثيراً ما يستشهد أرباب هذا الفنّ في هذا الباب بقول امرىء القيس:

قفا نبك من ذكرىٰ حبيبٍ ومنزل بسقط اللوىٰ بين الدخول فحومل[2]

قالوا: وقف واستوقف، وبكىٰ واستبكىٰ، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد، ومع ذلك فقد انتقده بعض الحذّاق بعدم المناسبة بين شطريه؛ لأنّ صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك، وكثرة المعاني، وليس في الشطر الثاني شيء من ذلك، قال ابن المعتزّ: قول النابغة:

كليني لهمٍّ يا أُميمة ناصب وليلٍ أُقاسيه بطيء الكواكب

مقدّم عليه؛ لأنّ امرىء القيس وإن بالغ في الشطر الأوّل، لكن قصّر في الثاني،

---

(١) في المصدر: أوّل.

(٢) غير موجود في ديوان امرىء القيس المطبوع.

حيث أتىٰ بمعاني قليلة في ألفاظ كثيرة غريبة، والنابغة راعى التناسب[١]. إنتهى النقل من أنوار الربيع رحم الله مؤلّفه.

فأقول: قد ينتقد مطلع قصيدة ابن المقرىء المتقدّمة، وهو:

أحسنت في تدبير ملكك يا حسن وأجدت في تحليل أخلاط الفتن

بمثل ما انتقد به مطلع قصيدة امرىء القيس المتقدّم ذكره، وهو «قفا نبك» البيت، وذلك من وجوه:

الأوّل: عدم التناسب بين الشطرين في عذوبة الألفاظ، وقوّة السبك، ألا ترىٰ عذوبة ألفاظ الشطر الأوّل، وعدم عذوبة ألفاظ الشطر الثاني.

والثاني: أنّك إذا قرىء عليك الشطر الأوّل، قلت: هذا عربي، لم تخالطه حضارة، قد تمكّن من قوّة السبك وجزالة الألفاظ. وإذا قرىء عليك الشطر الثاني، قلت: هذا حكيم قد صرف نفيس عمره في تحقيق معرفة الأخلاط، والتفريق بين أنواعها وطبائعها، ثمّ صرف مدّة في بيان الأدوية والعقاقير المحلّلة للأخلاط، فكأنّه أفلاطون زمانه، فأيّ[٢] مناسبة بين عربي لم تخالطه حضارة وبين حكيمٍ تلك صفاته؟ وجميع ذلك محمول على الذوق الصحيح، فكلّ ذلك عند صاحب تلك السليقة في غاية التوضيح.

والثالث: أنّ هذا المطلع لم تكن فيه براعة استهلال، وهي كما ذكره أهل هذا الفنّ عبارة عن أن يكون أوّل الكلام دالاًّ علىٰ ما يناسب ذلك حال المتكلّم متضمّناً لما سيق له الكلام من غير تصريح، بل بألطف إشارة يدركها الذوق

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ١: ٣٤ ـ ٣٦ طبع النجف الأشرف.

(٢) في «ن»: فأين.

الصحيح، وفي بيت ابن المقرىء تصريح، وأيّ تصريح، مع ذكر الممدوح صريحاً في الشطر الأوّل، فأيّ براعة استهلال تلائم هذا التصريح الظاهر ؟

فأين براعة استهلال هذا المطلع من براعة استهلال مطلع قصيدة أبي تمام يهنّىء المعتصم بالله بفتح عَمّورية[١] :

السيف أصدق أنباءٍ من الكتب   في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب[٢]

ومطلع قصيدة أبي عبدالله محمّد الخازن يهنّىء الصاحب ابن عبّاد[٣] بسبطه

---

(١) عمّورية: بفتح أوّله وتشديد ثانيه، بلد في بلاد الروم، غزاه المعتصم حين سمع شُراة العلويّة، وفتحها سنة (٢٢٣) وكانت من أعظم فتوح الإسلام، قيل: سمّيت بعموريّة بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح. معجم البلدان.

(٢) ديوان أبي تمام ١: ٩٦ طبع دار صادر بيروت.

(٣) هو كافي الكفاة أبوالقاسم إسماعيل بن أبي‌الحسن عبّاد بن عبّاس الطالقاني، أحد من يشدّ إليه الرحال لأخذ الأدب، ونال من الدنيا والآخرة مرتجاه، ولد سنة (٣٢٦) وسمع العلم والحديث عن أبيه، وقيل: إنّما سمّي الصاحب؛ لأنّ أوّل من استوزره هو مؤيّد الدولة أبومنصور بن ركن الدولة ابن بويه الديلمي، فصحبه كثيراً من زمن صباه، وهو سمّاه الصاحب فغلب عليه.

وكان أُعجوة عصره، ووحيد دهره، ونسيج وحده في العربيّة، له كتب وإنشاءات كثيرة، وأشعار وافرة في مناقب الأئمّة الطاهرة عليهم السلام، فمن شعره:

لو شقّ عن قلبي يرىٰ وسطه   سطران قد خطّا بلا كاتب

العدل والتوحيد في جانبٍ   وحبّ أهل البيت في جانب

وقبره باصفهان مزار معروف، وقد زرته مراراً، رحمة الله عليه.

الشريف أبي الحسن عبّاد[١] بن علي الحسني، وهو ممّا يشعر بقرينة الذوق أنّه يريد التهنأة بمولود :

بشرىٰ فقد أنـجز الإقـبال مـا وعـدا — وكوكب المجد في أُفـق العـلا صـعدا
وكـادت الغـادة الهـيفاء مـن طـربٍ — تـعطي مـبشّرها الأوصـاف والغـيدا
لم يـتّخذ ولداً إلاّ مـبالغةً — في صدق توحيد من لم يتّخذ ولدا[٢]

فانظر إلىٰ حسن هذا المطلع وبراعة استهلاله، الذي يعدّ مطلع ابن المقرىء من جملة خدّامه وعياله، وما أحسن معنى البيت الثالث، فهو من غريب المعاني التي لم يسبق إليه، وكذلك البيت الثاني .

ومن البراعات التي تشعر بالتهنئة بالقدوم، قول والد صاحب السلافة السيّد أحمد[٣] بن معصوم، يهنّىء ملك مكّة المشرّفة الشريف زيد بن محسن بن الحسين ابن الحسن الآتي ذكر ترجمته، وقد قدم إلى الطائف :

قد أقبل السعد بالأفراح يبتذر — والدهر يرتاح مختالاً ويفتخر

ثمّ وعلى الفرض بانتقاد مطلع قصيدة ابن المقرىء المذكور، وتسليم هذا الانتقاء المسطور، فلا يسقط باقي القصيدة، فكلّها غرر ودرر، وأمثال وحكم،

---

(١) هو السيّد الشريف أبوالحسن عبّاد بن أبي‌الحسين علي بن أبي عبدالله الحسين الأُطروش بن أبي‌الحسن علي بن الحسين بن الحسن البصري بن القاسم بن محمّد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي‌طالب .

(٢) راجع: عمدة الطالب ص ٩١ .

(٣) قد ذكر تفصيل ترجمته ولده العلاّمة السيّد علي خان المدني في كتابه سلافة العصر في محاسن الشعراء بكلّ مصر ص ١٠ ـ ٢٢ .

وهي من القصائد الطنّانة، التي شيّد بها من المجد مكانه، وأطّد قواعده وأركانه .

ولنثني عنان القلم إلىٰ صاحب الترجمة، وتنضيد عقود أخباره المنظّمة بما وقفنا عليه، وساقنا الاطّلاع إليه، فالحديث شجون، والعلم مذاهب وفنون، والجمع يتبع أدنىٰ مناسبة، وبه تقع المؤالفة بين النقول والمجاذبة .

إن لم أقــل هـذا وهـذا وذا　　　بأيّ شيءٍ كنت أملأ الكـتاب

توفّي الشريف حسن بن عجلان المذكور في سادس جمادي الآخرة سنة تسع وعشرين وثمانمائة بالقاهرة، ودفن بها، وقبره فيها مشهور، وذلك بعد أن تجهّز للسفر إلىٰ مكّة متولّياً لها، وكان له جملة من الأولاد، منهم: أبو القاسم، وعلي، وإبراهيم، وبركات، رحمهم الله تعالىٰ جميعاً، إنّه كريم وهّاب(١) .

فصل جلي وعقد مقداره علي

ترجمة السيّد الشريف بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة

رحمه الله تعالىٰ

قال أحمد صاحب الوسيلة: أمّا بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة، فإنّه كان شريكاً لأبيه في ولاية مكّة، ثمّ استقلّ(٢) بها بعد وفاة أبيه، فإنّ سلطان مصر

---

(١) وسيلة المآل ص ٤٧ مخطوط، وراجع تفصيل ترجمته إلىٰ كتاب العقد الثمين ٣: ٣٤٧ – ٣٩٤ برقم: ٩٩٥، وكتاب إنباء الغمر بأبناء العمر ٣: ٢٨٦ – ٢٨٧ و ٦: ١٠٣ – ١٠٥ و كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ٥: ٣٧٥ ـ ٣٧٦ و كتاب سمط النجوم العوالي ٤: ٢٦٧ – ٢٧٩ وكتابنا الأُمراء والحكّام من آل أبي طالب .

(٢) في الوسيلة: اشتغل .

برسباي استدعاه إليه[١] بعد موت أبيه، فقدمها في ثالث عشرين من رمضان سنة تسع وعشرين وثمانمائة، وفوّض إليه ولاية مكّة في سادس عشرين من رمضان المذكور، واستقرّ أخوه إبراهيم نائباً عنه، وخلع عليهما، وتوجّها إلىٰ مكّة في عاشر شوّال، فوصلاها في أواسط ذي‌القعدة من السنة المذكورة، وقرىء عهد الشريف بركات، ولبس الخلعة بالمطاف، واستمرّت ولايته إلىٰ جمادي الأُولىٰ سنة خمس وأربعين.

ثمّ جاء عزله بأخيه علي وهو بوادي الآبار، وذلك في شهر رجب، فتوجّه إلى اليمن، وأخلىٰ مكّة من نوّابه، فوصل علي في مستهلّ شعبان سنة خمس وأربعين متولّياً لها، واستمرّ علي والياً علىٰ مكّة المشرّفة، إلىٰ أن قبض عليه مع أخيه إبراهيم في يوم الثلاثاء رابع شوّال سنة ستّ وأربعين وكبّلا[٢] بالحديد، وظهر عزله بأخيه أبي‌القاسم، وكان أبوالقاسم بالقاهرة، وقام بحفظ مكّة ولده زاهر، وتوجّه بالأخوين علي وإبراهيم إلىٰ جدّة، وأُركبا في جلبة[٣] إلى القاهرة.

ثمّ وصل أبوالقاسم بن حسن إلىٰ مكّة يوم السبت سابع عشرين من ذي‌القعدة من السنة المذكورة، لابساً خلعة الولاية، وقرىء توقيعه بالحطيم، واستمرّ والياً علىٰ مكّة إلىٰ ربيع الأوّل سنة خمسين، فعزل بأخيه بركات بن حسن، فأمر أبوالقاسم أتباعه أن يخرجوا منها إلىٰ وادي الآبار، فخرجوا في سلخ ربيع الأوّل[٤].

---

(١) في الوسيلة: إلىٰ مصر.

(٢) أي: قيّدا.

(٣) الجلبة: ما يحمل عليه لجلب المتاع من بلد إلىٰ بلد، والمراد منها هنا السفينة.

(٤) وسيلة المآل ص ٤٧ ـ ٤٨ مخطوط.

إنتهىٰ .

قال صاحب لسان الزمان ملخّصاً: ثمّ ولي مكّة المشرّفة بركات بن حسن بن عجلان بعد أبيه، واستمرّ إلىٰ أن عزل بأخيه علي بن حسن، ثمّ عزل بأخيه أبيالقاسم بن حسن، ثمّ عزل أبوالقاسم بالشريف بركات بن حسن يعني صاحب الترجمة، وطلبه سلطان مصر، فرحل إليه، فبالغ في إكرامه، حتّىٰ أنّ السلطان نزل للقائه إلى الرميلة[1] بنفسه، وأقام بمصر، فأخذ العلماء عنه، وازدحموا عليه، لعلمهم بصحّة سنده، وأخذه عن المشايخ الأجلاّء، وعاد إلىٰ مكّة شرّفها الله، وكان يوم مدخله يوماً مشهوداً، وذلك في سنة إحدىٰ وخمسين وثمانمائة[2]. إنتهىٰ .

وهو مطابق لما ذكره صاحب الوسيلة، إلاّ في قوله «وطلبه سلطان مصر فرحل إليه» فهي فائدة زائدة لم تكن في الوسيلة .

وكذلك ذكر في الوسيلة فيما سيأتي أنّ عود بركات إلىٰ مكّة كان في أثناء سنة خمسين بعد الثمانمائة، كما ستقف عليه، وهو مخالف لما ذكره صاحب لسان الزمان من أنّ عوده كان في سنة إحدىٰ وخمسين كما مرّ، والعمدة علىٰ ما ذكره صاحب لسان الزمان، وعليه التواريخ .

عاد النقل من الوسيلة، قال: ولمّا كان ليلة السبت خامس جمادي الأُولىٰ من السنة المذكورة، دخل السيّد بركات بن حسن إلىٰ مكّة محرماً بالعمرة، فطاف وسعىٰ، وخرج إلى الزاهر، وبات به، ودخل مكّة في صبح يوم السبت لابساً التشريف، وقرىء توقيعه بالحطيم، وطاف ونودي له بالدعاء علىٰ زمزم،كأسلافه

---

(١) الرميلة: قرية من قرىٰ بيت المقدس .

(٢) لسان الزمان ـ مخطوط .

ملوك مكّة .

واستمرّ علىٰ ذلك إلىٰ أن توهّن[(١)] بالمرض في عام تسع وخمسين وثمانمائة، فسأل مشدّ جدّة جاني بيك الظاهري، بأن يرسل إلى السلطان الظاهر جقمق يسأله ولاية مكّة لولده السيّد محمّد بن بركات؛ لأنّه ضعيف قليل الحركة بموجب المرض، فأرسل جاني بيك يسأل في ذلك، فقدّرت وفاة السيّد بركات قبل ورود الخبر، وجاء الجواب بعد موته بيوم بولاية ولده السيّد محمّد .

وكانت وفاة بركات بن حسن في عصر يوم الاثنين تاسع عشر شعبان سنة تسع وخمسين وثمانمائة بأرض خالد من وادي مرّ، وحمل علىٰ أعناق الرجال، ودخل به مكّة في أثناء ليلة الثلاثاء، وغسّل وكفّن وصلّي عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة الصبح، ودفن بالمعلاّة، وبني عليه قبّة، وهي موجودة إلى الآن، ورثاه الشهاب المنصوري بقوله :

قالوا قضىٰ بركات قلت يحقّ لي ... أن أتبع العبرات بالزفرات
يا نزحة[(٢)] الأحباب عند فراقه ... وبقربه يا فرحة الأموات
والكعبة الغرّاء قالت قد غدا ... لبس السواد عليه من عادات
فانظر إلىٰ آثاره في مكّة ... فرحاً بها لم تخل من بركات

وكان الشريف بركات بن حسن مهيباً موقراً شجاعاً مقداماً غضنفراً، كثير الحروب، كثير الخيرات، جزيل المبرّات، ميمون الحركات، بنىٰ بمكّة رباطاً للفقراء والمساكين، وهو موجود إلى الآن وهم به قاطنون، وله النثر الفائق، والشعر

---

(١) أي: ضعف واستكان .

(٢) في «د»: ترحة .

الرائق، فمن شعره قوله :

يا من بذكراهم قد زاد وسواسي وقد شغلت بهم عن سائر الناس

ومن تقرّر في قلبي محبّتهم وجئتهم طائعاً أسعىٰ على الرأس

سألتكم شربة من ماء مشاربكم تغني عن الراح إذا ما لاح في الكأس

وكان له جملة من الأولاد، منهم: محمّد، وغيره[1]. إنتهى النقل من الوسيلة .

فصل

في الحوادث الواقعة في دولته

نذكر فيه لمعة من الحوادث الواقعة في دولته وأيّامه بمكّة المشرّفة وغيرها، من سنة إحدىٰ وخمسين وثمانمائة إلىٰ سنة وفاته، وهي سنة تسع وخمسين وثمانمائة .

ففي سنة إحدىٰ وخمسين: كان عود الشريف بركات إلىٰ مكّة المشرّفة، وخروج السيّد أبيالقاسم[2] .

وفي سنة ثنتين وخمسين: عمرت عين حنين ومسجد الخيف، عمّرها بيرم

---

(١) وسيلة المآل ص ٤٨ ـ ٥٠ مخطوط. وراجع: إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر ٧: ٢٢١، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ٦: ٤٢١ و ٧: ١٨ ـ ١٤٠ و ٤٦٤، والضوء اللامع للسخاوي ٣: ١٢ ـ ١٣ برقم: ٥٠، وشذرات الذهب لابن العماد ٧: ٢٩٤، وسمط النجوم العوالي للعصامي ٤: ٢٧٩ - ٢٨٩، وإتحاف فضلاء الزمن ١:١٨٦ ـ ١٨٩، وغيرها .

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٣٩ .

ناظر الحرمين[١].

وفيها: وصلت كسوة لمقام إبراهيم الخليل عليه السلام، فلم يكس بها[٢].

وفاة ابن حجر العسقلاني:

وفيها: توفّي العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، الحجّة البالغة، أبو الفضائل أحمد ابن علي بن محمّد بن علي بن أحمد الكناني العسقلاني المصري، المعروف بابن حجر.

وفي سنة ثلاث وخمسين: وضعت الكسوة علىٰ مقام الخليل عليه السلام.

وفيها: عزل بيرم ناظر الحرمين.

وفي سنة أربع وخمسين: عمّرت بعض سقوف المسجد الحرام.

وفيها: استبدل بردق بيك رباط رامشت، وعمّره لنفسه، وجعل له شبابيك على المسجد الحرام، وهو المسمّى الآن بالنخلية، وهي مدرسة عظيمة.

وفاة السلطان مرادخان العثماني:

وفي سنة ستّ وخمسين: توفّي السلطان مرادخان العثماني، وأُقيم على السلطنة ابنه محمّدخان فاتح القسطنطينية.

وفاة السلطان جقمق:

وفي سنة سبع وخمسين: توفّي السلطان جقمق، وولي بعده ابنه عثمان، ثمّ خلع بعد مدّة وتولّى الملك الأشرف أبو نصر دانيال[٣].

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٤١.

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٤٣.

وفاة الشريف بركات بن حسن :

وفي سنة تسع وخمسين وثمانمائة: توفّي السيّد الشريف بركات بن حسن شريف مكّة، وهو صاحب الترجمة، كما في وسيلة المآل[١] .

وذكرت ذلك كلّه بطريق التلخيص والاختصار من كتاب لسان الزمان، فإنّ فيه بعض فائدة زائدة عن الغرض المؤلّف هذا الكتاب بصدده، والله أعلم .

ترجمة السيّد الشريف محمّد بن بركات بن حسن ابن عجلان بن رميثة صاحب مكّة

قال أحمد في الوسيلة: فأمّا محمّد بن بركات بن حسن بن عجلان، فولي مكّة بعد وفاة أبيه، وقد تقدّم ذكر التماس أبيه له الولاية في مرض موته .

وفي عصر يوم الثلاثاء ثاني يوم موت والده وصل المرسوم بالإجابة إلىٰ ما سأل فيه والده، وصحبة المرسوم خلعة الولاية عوضاً عن أبيه .

فلمّا ورد المرسوم بذلك، كان محمّد غائباً ببلاد اليمن لحفظ بعض أموال والده، فدعي له علىٰ زمزم بعد صلاة المغرب من ليلة الأربعاء .

فلمّا كان يوم الجمعة قرىء المرسوم مخاطباً فيه السيّد بركات، ومضمونه: إنّه ورد إلينا مكتوب[٢] الأمير جاني بيك مشدّ جدّة بالثناء على المخدوم، وقد بلغنا ضعفه، وتوعّك جسمه[٣]، وقلّة حركته، فأقمنا مقامه في إمرة مكّة ولده السيّد محمّد ابن بركات، والمرسوم مؤرّخ سادس عشري رجب سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٤٤ .

(٢) في الوسيلة: كتاب .

(٣) في «د»: جسمك، وفي الوسيلة: جسده .

فلمّا كان رابع شوّال من السنة المذكورة: وصل كتاب من السلطان جقمق إلى السيّد الشريف محمّد بن بركات بالعزاء في والده، وتوقيع يتضمّن استقراره واستمراره عوضاً عن والده، مؤرّخٌ بأوائل شهر رمضان[١]. إنتهىٰ كلامه.

قلت: قد تقدّم في حوادث سنة سبع وخمسين وثمانمائة المنقولة من لسان الزمان، انتقال السلطان الظاهر جقمق، وتقدّم أيضاً في حوادث سنة تسع وخمسين، كما هو في لسان الزمان ووسيلة المآل، أنّ انتقال الشريف بركات كان في تلك السنة، فكيف يجتمع هذا وما ذكره صاحب الوسيلة من ورود المرسوم بالإجابة إلىٰ ما سأل فيه السيّد[٢] بركات من طلب الولاية لولده محمّد المذكور؟

وكان وصول ذلك المرسوم والخلعة يوم الثلاثاء لعشر بقين من شعبان سنة تسع وخمسين وثمانمائة، ثمّ ورود[٣] كتاب العزاء من السلطان جقمق إلى الشريف محمّد بن بركات، والاستمرار له على الولاية، وكان الكتاب مؤرّخاً بأوائل شهر رمضان من السنة المذكورة، وهذا تناقض ظاهر لا يمكن الجمع بينهما، إلاّ بأن يقال: لعلّ المرسل بمرسوم الإجابة وكتاب العزاء (من) السلطان أبونصر دانيال، المتولّي للسلطنة بعد خلع ولد السلطان جقمق.

رجع النقل من الوسيلة، قال: واستمرّ إلىٰ سنة ثلاث وتسعمائة متولّياً علىٰ مكّة، مظهراً للعدل في الرعية، ودانت له العباد، واتّسع ملكه وتصرّفه في البلاد، وكانت مدّة ولايته ثلاثاً وأربعين سنة، إلىٰ أن توفّي في حادي عشرين المحرّم سنة ثلاث

---

(١) وسيلة المآل ص ٥٠ ـ ٥١ مخطوط.

(٢) في «ن»: الشريف.

(٣) في «ن»: ورد.

وتسعمائة بوادي الآبار من جهة اليمن، وحمل إلىٰ مكّة علىٰ أعناق الرجال، ودفن بالمعلاّة، وبني عليه قبّة موجودة إلى الآن .

وكان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ جمّ الفضائل، شريف الشمائل، ظاهر الكرم، طاهر الشيم، شجاعاً مقداماً، بطلاً ضرغاماً، مسعوداً في سائر أحواله[1]، مشكوراً في جميع أفعاله، له الخيرات المستمرّة، والصدقات المستقرّة، بنىٰ بمكّة رباطاً، وبالنوارية سبيلاً في طريق وادي مرّة، وبنىٰ سبيلاً بطريق جدّة، وأوقف علىٰ ذلك أوقافاً كثيرة، وهي بوادي مرّ شهيرة، ضاعف الله له الثواب، وقابله علىٰ ذلك يوم المآب، وتغمّده برحمته، وأسكنه فسيح جنّته .

وخلّف من الأولاد ستّة عشر ذكراً غير الإناث، منهم: حميضة، ورميثة، وجازان، وهزاع، وقايتباي، وعلي، وراجح، وبركات[2]. إنتهىٰ كلام صاحب الوسيلة .

فصل
في الحوادث الواقعة في دولته

نذكر فيه من الحوادث الواقعة في مدّة ولايته بمكّة وغيرها من فتوح البلدان، ووفيات الملوك وأعيان العلماء، ولطيفة حسنه، وأشياء تتعلّق به رحمه الله تعالىٰ، وابتداء ذلك من ابتداء دولته، فأوّلها سنة تسع وخمسين وثمانمائة .

---

(١) في «ن»: أقواله .

(٢) وسيلة المآل ص ٥١ ـ ٥٢ مخطوط، وراجع: التحفة اللطيفة في أخبار المدينة للسخاوي ٢: ٤٥٢ ـ ٤٥٣ برقم: ٣٦٧٩، والضوء اللامع ٧: ١٣٢ ـ ١٣٥ برقم: ٦٤٧، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٤٩ .

فتح القسطنطينية علىٰ يد محمّد بن مرادخان :

وفي هذه السنة: وقع فتح القسطنطينية[١]، ومبدؤه أنّ السلطان محمّد بن مرادخان المتقدّم ذكره لمّا أراد فتحها، وكان مستعظماً لذلك، لما بلغه من أنّ المسلمين من عهد الصحابة لم يزالوا يغزون ويقصدون هذه المدينة، ولم يتيسّر لهم ذلك، واجتهدت بنو أُميّة في ذلك، وكذلك بنو العبّاس، فلم يتيسّر لهم ذلك، وأكرم الله هذا الملك بفتحها، وهي من أعظم المناقب له، وقد جرىٰ في فتح هذه المدينة أُمور عجيبة .

وكان المشير عليهم بالتوجّه في فتحها الشيخ العارف الكبير الولي الشهير الشيخ آق شمس الدين، وكان وزير السلطان محمّد يعتقد الشيخ كثيراً، فأشار عليهم بالتوجّه، وأنّها تفتح عن قريب .

فتوجّه السلطان محمّد وصحبته الشيخ المذكور، وجماعة من أكابر العلماء والأولياء، فأقاموا علىٰ حصار المدينة مدّة، فطال عليهم الحصار، فتعب السلطان محمّد من ذلك، وساء ظنّه بالشيخ آق شمس الدين، وقال لوزيره: شيخك يزعم أنّنا نفتح هذه المدينة سريعاً، وقد مضت مدّة ولم تفتح، وأخشىٰ أن لا يتيسّر لنا ذلك، فأخبر الوزير الشيخ بذلك .

فقال الشيخ: ليس تعويق الفتح بسبب تحصّن الكفّار وقوّتهم، وإنّما سبب ذلك

---

(١) قسطنطينية: كانت روميّة دار ملك الروم، وكان بها منهم تسعة عشر ملكاً، وملك بها قسطنطين الأكبر، ثمّ انتقل إلىٰ بزنطية وبنىٰ عليها سوراً، وسمّاها قسطنطينية وهي دار ملكهم، واسمها اصطنبول، عمّرها ملك من ملوك الروم يقال له: قسطنطين، فسمّيت باسمه. معجم البلدان .

ولي من أولياء الله تعالىٰ مقيم عند الكفّار، وقد أسند ظهره إلىٰ باب المدينة، وقال: وعزّتك لا تفتح ولا أدعها يدخلها هؤلاء، فامتنع الفتح بسبب ذلك، وقد أرسلنا إليه من يخاطبه بأنّ هؤلاء علىٰ غير ملّة الإسلام، وقصدنا أن تكون معمورة بالدين والإيمان، فأجابنا بأنّ هؤلاء قوم أكرموني وأحسنوا إليّ، وأنا أنوب عن المسلمين[1] في إقامة الدين بهذه البلاد، وقد أرسلنا إليه فلم يفد معه الكلام، والآن لا يمكن إلاّ أن نتوجّه إلى الله تعالىٰ أن يتولاّه، فإذا أجاب الله ذلك بانتقاله لا يتعسّر الفتح لهذه المدينة .

ثمّ توجّه الشيخ المذكور ومن معه من الفقراء كثيراً، ثمّ قالوا: قد توجّه إلىٰ جنان ربّه، فتوجّهوا أنتم، ففعلوا ذلك، فلم يكن لهم معوق ولا مانع من الفتح، وفتحت المدينة، ودخل السلطان محمّد ومن معه إلى المدينة، وصلّوا بأعظم كنائسها، وهي الكنسية التي يقال لها: آيه صوفية، وهي من عجائب الدنيا، وهي قبّة واحدة تشتمل علىٰ مواضع صفة الرواقات، وهي قبّة لم يوجد في سائر المعمور مثلها، فجعل السلطان محمّد هذه الكنيسة مسجداً، وهذا المسجد الآن أشهر وأعظم مساجدها، وهذه المدينة هي التي تسمّى الآن باسطنبول[2]، وهي أعظم بلدان الدنيا في سعتها وكثرة عمرانها[3] .

وفاة سعدالدين الكاشغري :

وفي سنة ستّين وثمانمائة: توفّي الشيخ الكبير المولى سعدالدين الكاشغري

---

(١) في «ن»: المؤمنين .

(٢) وكان اسمها قديماً قسطنطينية، كما تقدّم .

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٥٠ .

النقشبندي .

تعمير مسجد ميمونة :

وفي إحدىٰ وستّين وثمانمائة: عمّر مسجد ميمونة ـ رضي الله عنها ـ بسرف، وجعل علىٰ قبرها سقيفة بأربعة أعمدة، وبين سرف ومكّة تسعة أميال[١] .

وفاة العلاّمة ابن همام :

وفي هذه السنة: توفّي العلاّمة محمّد بن همام الدين عبدالواحد المعروف بابن الهمام .

وفاة السلطان اينال :

وفي سنة خمس وستّين وثمانمائة: توفّي السلطان اينال، واستقرّ في السلطنة ولده أحمد بن دانيال، ولقّب بـ«المؤيّد» وخلعته الطوائف في سنته، ووضعوا في محلّه خوش قدم، وهو من عبيد الملك المؤيّد، ولقّب بالناصر[٢] .

وفي هذه السنة: كان بمكّة الأمير جانيك مشدّاً علىٰ جدّة، وهو الباني للبستان الموجود بأعالي مكّة، المسمّىٰ جاني بيك، وجعل فيه مدرسة عظيمة، وأوقف عليها بيوتاً بمكّة .

وفي سنة ستّ وستّين وثمانمائة: أرسل السلطان خوشقدم منبراً إلىٰ مكّة خطب عليه .

وفاة الشيخ عبدالكبير المتوكّل :

وفي سنة تسع وستّين وثمانمائة: توفّي الشيخ العارف الشيخ عبدالكبير

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٥٦ .

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٥٧ .

المعروف المتوكّل بمكّة المشرّفة، وله عقب موجود إلى الآن بمكّة المشرّفة[١].

وفاة السلطان خوشقدم:

وفي سنة ثنتين وسبعين وثمانمائة: توفّي السلطان خوشقدم، واستقرّ في السلطنة بعده بلباتي، ثمّ خلع في سنته، ووليها بعده أبوسعيد تمرباغا، وهو من عبيد السلطان جقمق[٢].

وفي هذه السنة: خلع الأميرء التمرباغا[٣]، وكان أمير الأُمراء والمعظّم فيهم[٤] السلطان قايتباي، فتولّى السلطنة بعد خلعه، فبعد تسلّطن أكرم تمرباغا، واعتذر إليه، وأرسله إلىٰ دمياط، وولي السلطنة السلطان الأشرف قايتباي في سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة[٥].

إرسال السلطان قايتباي بخلع لشريف مكّة:

وفي هذه السنة: أرسل السلطان قايتباي إلى الشريف محمّد بن بركات صاحب الترجمة بخلع التأييد، وكذلك أرسل بخلعة إلى القاضي بمكّة المشرّفة برهان الدين إبراهيم بن علي بن ظهيرة، وأرسل يأمر برفع المكوس بمكّة وإبطالها، وأمر أن ينقر ذلك باسطوانة من أساطين الحرم الشريف[٦].

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٥٨.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٦٩.

(٣) في الاتحاف: تمريغا.

(٤) في «ن»: منهم.

(٥) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٣٩.

(٦) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٧٠.

وقعة زبيد :

وفي سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة: صار حرب بين الشريف محمّد بن بركات وبين زبيد، وهم قبيلة من عرب الشام منازلهم بين خليص ورابغ، فقتل شيخهم ابن رومي وأخاه ونحو سبعين رجلاً منهم، وغنم منهم مغنماً جزيلاً(١) .

بناء مسجد الخيف :

وفي سنة أربع وسبعين وثمانمائة: أمر السلطان قايتباي ببناء مسجد الخيف، فبني بناءً محكماً، وجعل في وسط المسجد قبّة عظيمة واسعة، وبني إلىٰ جانب القبّة مأذنة، وعند باب المسجد أُخرىٰ، وبنىٰ داراً إلىٰ جانب المسجد يسكنه أمير الحاجّ، وجعل للمسجد ثلاثة أبواب موجودة إلى الآن(٢) .

بناء مسجد النمرة:

وفي هذه السنة: عمّر مسجد نمرة، وجدّد أعلام الحلّ من جهة عرفة، وبيّض مسجد مزدلفة، ونظّف عين عرفة، وعمّرها من جبل الرحمة إلىٰ وادي نعمان، فجرى الماء، وكانت قد انقطعت هذه العين منذ مائة وخمسين سنة .

منع الحاج العراقي :

وفي سنة سبع وسبعين وثمانمائة: منع أمير الحاجّ المصري حاجّ العراق، وخرج هو والشريف محمّد بن بركات وأحاطوا بالحاجّ العراقي، وأخذوا أميره، وأخذوا المحمل، ولم يدخل مكّة محمل من العراق بعد ذلك(٣) .

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٢٩٠، واتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٧٢ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٤ .

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٢٩٠، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٧٤ .

وفي هذه السنة: وصل أمر من السلطان قايتباي بطلب صاحب الترجمة الشريف محمّد بن بركات، والقاضي إبراهيم بن ظهيرة، فتوجّه القاضي إبراهيم وأرسل الشريف محمّد ولده الشريف بركات .

بناء سقف الكعبة :

وفي سنة إحدىٰ وثمانين وثمانمائة: عمّر السلطان قايتباي سقف الكعبة ورخّمه[1] .

ورود محمل العراقي :

وفي هذه السنة: ورد محمل العراق، وبذل لصاحب مكّة أموالاً ولم يدخل[2] .

بناء مدارس بمكّة :

وفي سنة ثنتين وثمانين وثمانمائة: أرسل السلطان قايتباي وكيله شمس الدين محمّد بن عمر ليحصل له موضعاً مشرفاً على الحرم، يبني فيه مدرسة يدرّس فيها أئمّة المذاهب الأربعة، ورباطاً يسكنه الفقراء، ويعمّر لهم ربوعاً ومسقّفات وبيوتاً يحصل منها ريع[3] يصرف على المدرّسين، وعلىٰ ربعة تقرأ كلّ يوم يحضرها العلماء والفقراء، ومكتباً للأيتام، فاستبدل له بعض رباطات .

واشترىٰ له دار الشريفة شمسية، وجعل الجميع مدرسة ورباطاً كبيراً مشتملاً علىٰ خلاوي كثيرة، ومكتباً للأيتام، ومجمعاً لوضع الكتب، وأرسل خزانة كتب إليه ووضعت في ذلك المجمع .

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٧٤ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٢٩٠ .

(٣) الريع: النماء والزيادة، وأرض مريعة، أي: مخصبة .

وقد ذهب الآن غالب تلك الكتب لسوء سيرة النظّار فيها، ومنعهم إيّاها مدّة، والآن قد انتقل النظر فيها إلى الشيخ الأجلّ المعتمد المؤتمن شيخنا الشيخ تاج الدين الدهان، فسببه حصل الانتفاع بها للطلبة .

ورتّب السلطان قايتباي لسكّان الرباط من القمح ما يكفيهم في كلّ سنة، وجعل للمدرّسين مبلغاً كبيراً، وأوقف لتحصيل ذلك المبلغ أوقافاً كثيرة بمصر، وهذا الرباط باقٍ بمكّة إلى الآن، وهو من أعمر الربط وأشرحها، لكن تلك المقرّرات قد ذهبت ولم يبق منها غير نزر قليل. وأمّا المدرسة، فصارت في هذا الزمن مسكناً لأمير الحاجّ المصري في الموسم(١) .

غزوة جازان :

وفي هذه السنة: غزى الشريف محمّد بن بركات جازان، وهي بلدة من بلد اليمن، ونهبها وأحرق حصنها، وقتل عدّة من رجالها، وغنم مغنماً جزيلاً(٢) .

تغسيل داخل البيت :

وفي سنة أربع وثمانين وثمانمائة: وصل مرسوم من السلطان قايتباي يتضمّن أنّه رأىٰ رؤيا، فعبّرها له بعض العلماء بأن يغسل البيت الشريف من داخله ويطيّبه، ففعل الشريف ذلك هو وأكابر العلماء، وفاتح البيت الشريف الشيخ عمر بن راجح الشيبي، وطيّبت ظاهراً وباطناً(٣) .

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٥، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٧٥ ـ ٢٧٧ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٢٩١ .

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦ .

حجّ السلطان قايتباي :

وفي هذه السنة: حجّ السلطان قايتباي، فخرج شريف مكّة والقضاة إلىٰ ملاقاته إلىٰ بدر، فتوجّه إلى المدينة وزار قبر النبيﷺ، ثمّ توجّه منها إلىٰ مكّة المشرّفة ومعه شيخ الإسلام إبراهيم بن ظهيرة، وهو المعلّم له الأدعية في المآثر.

ولمّا وصل إلىٰ باب السلام الأقصىٰ طلع بفرسه[١] منه، فحفل به الفرس، فسقطت عمامته، وبقي مكشوف الرأس ساعة، وكان ذلك تأديباً له حيث لم ينزل قبل ذلك ويدخل محرماً متواضعاً.

وطاف بالبيت الشريف والرئيس يدعو له علىٰ زمزم، والناس محيطون بالمطاف يشاهدونه ويدعون له، إلىٰ أن أتمّ طوافه وسعيه[٢] وحجّ، وعاد إلىٰ ملكه في أسرّ حال، ولم يتغيّر شيء من أحوال الدولة، قاله صاحب لسان الزمان[٣].

وقد أطال أهل التواريخ كيفيّة حجّ السلطان قايتباي، فراجع ذلك في تواريخ مكّة تجده مفصّلاً[٤].

وصول المرسوم من السلطان قايتباي :

وفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة: وصل مرسوم من السلطان قايتباي إلى الشريف محمّد بن بركات بالإنعام عليه بجميع العشر اليماني، وكان السلطان

---

(١) في «ن»: بقرب.

(٢) في «ن»: وسعىٰ.

(٣) لسان الزمان لابن عقيلة ـ مخطوط.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦ ـ ٥٨ و ص ٢٩١.

قايتباي قد أخذ نصف العشر منه مدّة ثمّ أعاده إليه[١].

وقوع الحريق بالمسجد النبوي :

وفي سنة ستّ وثمانين وثمانمائة: كان الحريق الكبير المهيل بالمسجد النبوي، وذلك في ثلث الليل الأخير من ليلة الاثنين ثالث عشر رمضان، فعرض ذلك إلى السلطان قايتباي، فندب لعمارته وهيّأ المؤونة العظيمة، وعمّره أحسن عمارة، وتمّ ذلك في عام ثمان وثمانين وثمانمائة.

وعمّر أيضاً بالمدينة المنوّرة مثل ما عمّر بمكّة من مدرسة ورباط، وأوقف عليهما أوقافاً كثيرة، وجعل كتباً عظيمة ومصاحف[٢].

وفاة السلطان محمّد فاتح القسطنطينية

وفي هذه السنة: توفّي السلطان محمّد بن مرادخان فاتح القسطنطينية العظمىٰ، واستقرّ عوضه ابنه السلطان بايزيد.

ظهور السلطان الشاه إسماعيل الصفوي :

وفي سنة ثمان وثمانين وثمانمائة: كان ظهور الشاه إسماعيل[٣] بن حيدر الصفوي بأرض العجم، ودعىٰ إلى التشيّع، وحكي عنه حكاية لطيفة، وهو أنّه كان في ابتداء ظهوره يكسر في الحروب كثيراً.

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٢٩٠.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٢٩٠.

(٣) له ترجمة مبسوطة في المعاجم الرجالية الفارسية، وذكر تفصيل ظهوره واستقلاله بالملك والسلطنة، العلاّمة السيّد أحمد كياء الكيلاني في أوّل كتابه سراج الأنساب، المطبوع بتحقيقي.

فاتّفق أن مرّ في حال انكساره بإمرأة وهو متنكّر، فأضافته هو ومن معه، وقدّمت لهم طعاماً حارّاً في صحفة، فشرع الشاه إسماعيل من وسط القصعة وهي حارّة والمرأة تنظر إليه، فقالت: ما أشبهتك يا هذا الرجل[1] إلاّ بشاه إسماعيل الذي ظهر الآن، فإنّه يريد أن يقصد محلّ الشوكة ووسط الدولة والقوّة فيأخذه وذلك خطأٌ، فينبغي له أن يأخذ أطراف البلاد ليبرد الوسط ثمّ يهجم، فأنت كُلْ من الأطراف حتّىٰ يبرد الوسط ثمّ كل منه .

فتنبّه من قولها وعمل بإشارتها، فصار له ما صار، وقد ملك هذا الشاه إسماعيل جميع إقليم العجم، وبواسطته انتشر التشيّع وظهر إلى الآن، وملوك العجم من ذرّيته إلىٰ وقتنا هذا .

وفاة السلطان قايتباي :

وفي سنة إحدىٰ وتسعمائة: توفّي السلطان قايتباي الجركسي، وكان ملكاً جليلاً عظيماً، وأيّامه حسنة من حسنات الزمان، وكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة إلاّ ثلاثة أشهر، وولي السلطنة بعده ابن الناصر واسمه محمّد بن قايتباي[2] .

وفاة الشريف محمّد بن بركات :

وفي سنة ثلاث وتسعمائة: توفّي الشريف محمّد بن بركات صاحب الترجمة، رحمه الله تعالىٰ، وولي شرافة مكّة المعظّمة بعده ابنه الأعظم الشريف بركات بن محمّد بن بركات[3]، وستأتي ترجمته بعد هذه الترجمة بلا فصل .

---

(١) في «ن»: أيّها الرجل .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٩، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٨٨ .

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٨٩ .

وأقول: هذا ما تهيّأ لي جمعه من حوادث الزمان، وذكر أخبار ملوك مصر وبعض الأعيان، ونقل ما عثرت عليه من آثارهم ووفياتهم، مع مزيد الاعتناء في جمع جميل صفاتهم، وما ذاك إلاّ لارتباطهم بأحوال مكّة المعظّمة، وجريان أحكامهم علىٰ من تحلّىٰ بعقود شرافتها المنظّمة، ولا يخفىٰ ما في أثناء ذلك من فوائد سنيّة المقدار، كانت متفرّقة في كتب التواريخ والأخبار، لا يمكن جمعها إلاّ بعد الجهد الجهيد، والنظر السديد.

ومزّجت تلك الحوادث المصريّة، بما هو مستحسن عند ذوي الأنظار العليّة، من ظهور ملك، أو فتح مملكة، أو وفاة عالم، أو حكاية لطيفة، أو غير ذلك ممّا يقاربه أو يدانيه، فكن بجميع ذلك ظنين، وضعه من زوايا فكرك بحصن حصين، وما توفيقي إلاّ بالله، إنّه نعم المعين.

ترجمة السيّد الشريف بركات بن محمّد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة

قال أحمد في الوسيلة: كانت ولادة الشريف بركات في سنة إحدىٰ وستّين[1] وثمانمائة في ربيع الأوّل بمكّة المشرّفة، وأُمّه عمرة بنت محمّد بن علي بن أحمد ابن ثقبة بن رميثة بن أبي‌نمي بن أبي‌سعد. دخل القاهرة في سنة ثمان وسبعين ومعه قاضي القضاة إبراهيم بن ظهيرة، فأكرم السلطان ومن دونه موردهما، وأشركه مع أبيه، ورجع متزايد العزّ، واستمرّ بتزائد في الترقّي، حتّىٰ صار مرجعاً في حلّ الأُمور وحلّ المشكلات ودفع العدوّ[2].

---

(١) في «ن»: وتسعين، وهو غلط.

(٢) وسيلة المآل لأحمد بن باكثير الحضرمي ص ٥٢ مخطوط. وراجع: سمط

وقال العلاّمة عبدالقادر الطبري في نشآت السلافة بمنشآت الخلافة: وقد ترجم الشريف بركات حافظ عصره الشيخ عبدالعزيز بن فهد الهاشمي في مؤلّف عمله له سمّاه غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام(١)، وساق نسبه في ديباجته، وختمه باستيفاء أخباره وما مدح به.

وملخّصه: أنّه سمع الحديث الشريف بالقاهرة في رحلته الأُولىٰ عام ثمان وثمانين(٢) وثمانمائة على المسند شهاب الدين أحمد الشاوي ثلاثيات صحيح البخاري، وحضر مجلس ختمه وبدئه.

وأجاز له من عدّة من البلدان جملة من المشايخ، منهم: عبدالرحمٰن بن خليل القابوتي، وأسماء بنت المهراني، وأُمّ هانيء بنت الهوريني، ونشوان الحنبلية، وهاجر المقدسيّة، والعلم صالح البلقيني، والسعد ابن الديري(٣)، والشهاب الحجازي، والبرهان البقاعي، وقاسم بن الكويك، والأمين(٤) الأقصرائي، وأبوبكر بن صدقة المناوي، والعزّ الكناني، والتقي الشميني، والجلال ابن الملقن، وأُخته صالحة، والبهاء المصري، والجلال القمصي، والتقي ابن فهد، وولداه أبوبكر وعمر، وأخوه عطية، وعبدالرحيم الأسيوطي، وإبراهيم الزمزمي، والقاضي

▲النجوم العوالي ٤: ٢٩٣.

(١) طبعته جامعة أُمّ القرىٰ معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي في ثلاث أجزاء.

(٢) في الوسيلة والسمط: وسبعين.

(٣) في السمط: الرزي.

(٤) في السمط: الأمير.

عبدالقادر المالكي، وأبوالفضل المرجاني، وأبوالفرج المراغي، وزينب بنت الشويكي، وآسية بنت جارالله الشيباني، وإبراهيم ابن القاضي عجلون، وأبوذرّ الحلبي، وأحمد بن الصلف، وأبوالسعود العراقي، وأبونافع الأزهري، والخضر ابن المصري، والتقي القلقشندي، والشموس الخمسة المشهورون[1]، والشيخ الفخر السيوطي، والجمال إمام الكاملية، والمحبّ ابن الشحنة، ويحيى المناوي، وخلق كثيرون.

وخرّج له الشيخ الرحلة جارالله بن عبدالعزيز بن فهد عن أربعين شيخاً من مشايخه أربعين حديثاً في فضل أهل البيت النبوي، سمّاها غاية الأماني والمسرّات بعلوّ سند سلطان الحجاز أبيزهير بركات، وذلك في سنة ستّ عشرة وتسعمائة، وقرأ على الشريف بركات بعضها بمنزله دار السعادة من أوّل الأربعين التي خرّجها له إلىٰ آخر الحديث الثالث، مع الكلام على الحديث، خلا شرح الحديث الثالث، وأجاز له روايتها عنه، وكتب له بخطّه تحت طبقة قراءتها وسماعها ما صورته:

الحمد لله ما ذكر من القراءة والسماع والإجازة صحيح في تاريخه، وكتبه الفقير إلى الله تعالىٰ بركات بن محمّد بن بركات، عفى الله عنه وعن والديه وعن المسلمين أجمعين.

وكانت القراءة المذكورة في يوم الأربعاء رابع عشر ذيالحجّة الحرام عام سبع عشرة وتسعمائة، وحصل للشريف بركات غبطة عظيمة بتخرّج تلك الأحاديث،

---

(١) وهم: الأفقهسي، والقلواني، والزفتاوي، والسخاوي، والسيوطي.

وأكرم بسبب ذلك الشيخ جار الله إكراماً عظيماً، كما هو شأنه من إكرام العلماء[١].

إنتهىٰ.

أقول: كان هذا السيّد من أعاظم العلماء الأعلام، الذين أطّدوا قواعد الإسلام، فلقد أحرز من العلوم ما حلّىٰ به معانيه، وشيّد مبانيه، خالط العلماء واستفاد منهم، وسمع الحديث ورواه عنهم، هذا مع كونه ملك مكّة المشرّفة، والرافل في حللها المفوّفة، والناشر من العدل والأمان مالم يؤلّف من قديم الزمان.

ولي الشرافة بعد وفاة أبيه، وذلك في يوم الأربعاء لأربع خلون من ربيع الثاني سنة ثلاث وتسعمائة، واستمرّ على الولاية، إلىٰ أن حصلت المنابذة بينه وبين أخويه هزاع وأحمد، وهو المدعوّ بجازان، وكان ذلك في سنة أربع وتسعمائة، ثمّ وقع الصلح بينهم، وانتقض بحروب جمّة في سنتهم، حتّىٰ عزل الشريف بركات بأخيه هزاع، لمباطنة الأمير قانصوة وأمير المحمل لهزاع المزكور، فهزموا عسكر الشريف بركات، ونهبت خيله، وقاسا من ذلك شدّة عظيمة.

وتوجّه الشريف بركات إلىٰ جدّة، وأقام بها إلىٰ بعد الحجّ، فعاد لملكه، وفرّ منها هزاع إلىٰ نواحي ينبع، وجمع منها جموعاً وعاد لحربه من ثانية في العشر الأوّل من جمادي الثاني عام سبع وتسعمائة، فالتقيا وكسر عسكر الشريف بركات، وتوجّه إلىٰ نواحي اليمن، وأقام بالليث حتّىٰ مات هزاع في خامس شهر رجب من السنة المذكورة.

---

(١) وسيلة المآل ص ٥٢ ـ ٥٥ مخطوط عن نشآت السلافة بمنشآت الخلافة للطبري. راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٢٩٤ ـ ٢٩٥ عن غاية المرام لابن فهد ملخّصاً، كأنّه أخذ ما تقدّم نقله من هذا الكتاب، كما لا يخفىٰ على المراجع.

فخلف هزاعاً جازان، فقصده الشريف بركات في شهر شعبان، فخرج جـازان إلىٰ جهة الينبع حين سمع بوصول أخيه الشريف بركات، فقدم الشريف بركات إلىٰ مكّة، فجاءت إليه المراسيم والخلع بالاعتذار إليه فيما صار سابقاً مـن المـباطنة لأخويه .

ثمّ إنّ الشريف بركات توجّه مع الحاجّ إلىٰ ينبع؛ لأنّ أخاه جازان نهب الحاجّ الشامي عند خليص، فقاتله مع أهلها لأربع بقين من ذيالحـجّة الحـرام، وكسـر بركات مع أمير الحاجّ كسرة ثالثة، ونهبوا نهباً شنيعاً، ومسك ولده إبراهيم، وقتل مع جماعة من عسكره، ثمّ بها ولده السيّد عجلان .

ثمّ لمّا كان أوّل صفر تجهّز عليه أخوه جازان بعسكر عظيم، وبركات مريض لا يمكنه المحاربة، فتوجّه إلى اليمن، فأقام بها إلىٰ شهر رجب حتّىٰ شـفي، فـتجهّز علىٰ مكّة والتقىٰ بأخيه جازان بأعالي مكّة وتقاتلا، فانكسر بركات رابعة، فتوجّه إلى اليمن، فسبقه جازان بعسكره، فخلّفه الشريف بركات في جـملة مـن خـيله ودخل مكّة من طريق أُخرىٰ في غيبة جازان، وذلك يـوم الجـمعة حـاديعشر رمضان، ففرح به أهلها لظلم أخيه، وبذلوا الهمّة في مسـاعدته، واجـتهدوا فـي نصرته.

ورجع إليه جازان في يوم الأربعاء ثالث عشرين رمـضان مـن أسـفل مكّـة، وحاربه مع أهلها وأتراكها، فهزم جازان ولم يتبعه أحد منهم، وتوجّه جازان إلىٰ جهة حدّاء[١]، وأقام هو وجماعته في بئر شميس وهم خائفون، وأرسلوا يطلبون

---

(١) حدّاء: بالفتح ثمّ التشديد وألف ممدودة، وادٍ فيه حصن ونخل بين مكّة وجدّة ويسمّونه أيضاً حدّة .

النجدة من أهل ينبع، فجاءهم عسكر كبير[١]، ورحلوا معه[٢] لحرب مكّة مرّة سادسة في يوم السبت لستّ بقين من شوّال من السنة المذكورة، وجاءها من أعلاها من شعب ذاخر[٣]، وكان الشريف بركات واقفاً مع خواصّه خلف خندق عند باب المعلاّة، فانهزم عسكره من غير قتال، ولم يثبت إلاّ هو والأتراك، فنقل عنه في ذلك اليوم نقول غريبة ممّا تدلّ علىٰ شجاعته، وقوّة صولته وعزمه.

فممّا نقل عنه أنّه كان علىٰ فرس، يقال لها: الجرادة، وهو بيت معروف في الخيل، وأنّه أقحمها الخندق بمفرده، ففرّ منه الجيش بأجمعه، وهو يضرب بالسيف فيهم حتّىٰ أُبعدوا عنه، فذرع بعد ذلك عرض الخندق فكان سبعة أذرع.

ثمّ إنّه توجّه إلىٰ جهة اليمن، ودخل جازان وأصحابه مكّة، وأهانوا أهلها لمساعدتهم الشريف بركات، فلم يستمرّوا قليلاً إلاّ وقد وصلت تجريدة من مصر، فخرج جازان هارباً، وعاد الشريف بركات إلىٰ مكّة لسبع بقين من ذي القعدة، وتوجّه لملاقاة مقدّم التجريدة المقرّ الأشرف قيت الرحبي، فواجهه بالإكرام والطاعة، وخلع عليه، ودخل معه بإخوانه وعسكره، حتّىٰ وصلوا مدرسة الأشرف قايتباي، فقبض على الشريف بركات، ووضعه في الحديد مع بعض إخوانه وجماعته، وانهزم الباقون، وحجّ بهم الأمير، ثمّ بعد ذلك سار بهم إلىٰ مصر، ومرّ بهم على[٤] الينبع، واتّفق مع أهلها علىٰ تولية جازان بمال سلّم له.

---

(١) في «ن»: عظيم.

(٢) في «د»: معهم.

(٣) في السمط: أذاخر.

(٤) في «ن»: إلى.

فلمّا دخل بهم إلىٰ مصر علىٰ هذه الصفة أنكر عليه الناس، وما هان ذلك على الغوري وتعب من ترك مكّة في أيدي العصاة، وفي ذلك يقول أبو الطيّب أحمد بن حسين العليف المكّي قصيدته الكافية يسلّي بها الشريف بركات، ويحثّه على الصبر، ومطلع القصيدة:

عزيزٌ علىٰ بيت النبوّة والملك ... مقامٌ علىٰ ذلّ المهانة والفتك
وأعظم ما يلقى الكريم من الأسىٰ[1] ... على النفس ما يلقىٰ من الضيم والضنك
برغم العلا والسيف والمجد والندىٰ ... حصلت أبا عجلان في قبضة الترك

وهي من غرر القصائد، ودرر القلائد، ولو ظفرت بها حال الكتابة لأثبتها[2]، لا كما قال صاحب الوسيلة: فلا نحتاج نطيل الكلام بذكرها. وهو يطيل الكلام في بعض الأحيان بما لا فائدة فيه، فكيف بهذه القصيدة الغرّاء.

ثمّ إنّ الغوري أطلق الشريف بركات من الأغلال التي كان بها، وأكرم نزله هو وجماعته، ورتّب لهم الكفاية، وصار يتردّد الشريف بركات على الغوري وأعيان مملكته، ثمّ فرّ بعد ذلك إلىٰ مكّة المشرّفة، وذلك في أواخر سنة تسع وتسعمائة، فظفر في طريقه بقاصد أعدائه[3] متوجّهاً إلى السلطان، وهو السيّد بطاح الحسني، فقتله، وحاز ما معه من الأموال والهدايا.

وفي غيبته فتك الأتراك المقيمون بمكّة بأخيه الشريف جازان، وقتلوه في المطاف ضحىٰ يوم الجمعة عاشر رجب من السنة المذكورة، وولّوا أخاه السيّد

---

(١) في السمط: الأذىٰ.

(٢) وهي بكاملها موجودة في السمط النجوم العوالي ٢: ٣٠٠ ـ ٣٠١، فراجع.

(٣) في «ن»: فظفر بأعدائه.

حميضة، فحجّ بالناس في ذلك العام.

وفي رجوعه هذا قصد زيارة جدّه صلّى الله عليه وآله، وتوجّه إلىٰ جهة الشرق، وتزوّج على الشريفة غبيّة[١] بنت حميدان بن شامان الحسيني، فحملت منه بالسيّد الشريف أبي‌نمي الآتي ذكره.

ثمّ توجّه إليه السلطان توجّهاً تامّاً، وأرسل إليه بتفويض الحجاز، فقدّم أخاه السيّد قايتباي في ولاية مكّة المشرّفة، وأشرك معه ولده الشريف علي بن بركات، وكان كلّ منهما يختلع، وينفرد عنهما الشريف بركات بالدعاء في الخطبة يوم الجمعة، وكانت بينه وبين أخيه قايتباي مودّة وصداقة، ودامت إلىٰ أن مات السيّد قايتباي، وكانت وفاته في يوم الأحد لتسع بقين من صفر عام ثمانية عشر وتسعمائة، ودفن بالمعلاّة.

وبعد وفاة الشريف قايتباي أرسل الشريف بركات ولده أبانمي إلىٰ مصر، وصحبته السيّد عرار بن عجل، وفي خدمته القاضي صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي، والقاضي نجم الدين بن يعقوب المالكي، وعمر السيّد أبي‌نمي إذ ذاك ثمان سنوات.

وحكي عنه أنّ السلطان وضعه في حجره، وقال له: ما سورتك؟ فأجابه وقال: إنّا فتحنا لك فتحاً مبينا، فأعجب الغوري ذلك وتفاءل به، وأشركه مع والده في نصف ولاية مكّة، فصار يخطب له مع أبيه على المنابر في الحرمين الشريفين، لخّصت ذلك بأجمعه من وسيلة المآل، وغيرها من كتب التأريخ[٢].

---

(١) في «ن»: عيشة، وهو غلط.

(٢) راجع: وسيلة المآل ص ٥٥ ـ ٦٣ والسمط النجوم العوالي ٤: ٢٩٥ ـ ٣٠٢.

قال صاحب الوسيلة: وكان الشريف بركات بليغاً مصقعاً، له النظم الرائق، والنثر الفائق، فمن نظمه قوله في الغوري في سفرته الثانية إلىٰ مصر عام تسع وتسعمائة، وهو:

هلمّوا معي نحو الفلاح[١] وسارعوا إلىٰ جامعٍ للذكر والحسن جامع
تأسّس مبناه[٢] على الخير والتقىٰ ألست تراه بالمحاسن ساطع
أيا قانصوه اسمع بحقّك قصّتي فإنّي لشرح الحال نحوك رافع
بليت بجورٍ من زمانٍ أمضّني ومالي ولا في الناس غيرك نافع
وحقّك ما أفنيت مالي ومهجتي سوىٰ في رضا[٣] السلطان والله سامع
فإن يك قد أرضاك ما قد لقيته فإنّي به راضٍ بلىٰ ثمّ قانع
ولي أُسوةٌ في الناس بالسادة الأُلىٰ لكم بذلوا أرواحهم ثمّ بايعوا

وأرسل الغوري موشحاً، وسأل من الشريف بركات أن يعارضه بهذا، ومطلعه:

يا غزالاً بلحظه[٤] ينشي نشأة الأكواس

فقال الشريف بركات علىٰ وزنه ورويّه، وهو هذا:

أكتم السرّ فيك[٥] لا تفشي بالرشا الألعس
فهو يزري بالغصون إذ يمشي في الرداء السندس

---

(١) في السمط: الصلاح.

(٢) في الوسيلة والسمط: بنياه.

(٣) في السمط: سوىٰ لرضا.

(٤) في الوسيلة: لحاظه.

(٥) في السمط: ويك.

ما على العتب[١] في الهوىٰ عار | إن تمادى الكمد
إنّ لي في الغرام أوطار | واصطباري نفد
واللواحي في لومهم جاروا | وأنا أُبدي الجلد
ربّ يا ذا الجلال والعرش | كن به مؤنسي
وبوصل[٢] الحبيب في الفراش | جد ولا تحبسي
يا غزالاً بوصله ندرك[٣] | كلّ ما يستطاب
غايتي في الغرام[٤] من أمرك | أنّني مستراب
جد لمن في هواك لا يشرك | زينباً والرباب
لم أزل في وصاله أرشي | كي يجيء مجلسي
هل لهذا القتيل من أرشٍ | يا منى الأنفس[٥]

وتوفّي الشريف بركات بن محمّد صاحب الترجمة ليلة الأربعاء، كما ذكره صاحب الوسيلة وغيره[٦]، لستّ بقين من ذيالقعدة الحرام سنة إحدىٰ وثلاثين وتسعمائة بمكّة المشرّفة علىٰ فراشه، ثمّ صلّي عليه ضحىٰ يوم الأربعاء بالمسجد

(١) في السمط: الصبّ.
(٢) في «د»: وبوصول.
(٣) في السمط: تدرك.
(٤) في الوسيلة: المرام.
(٥) وسيلة المآل ص ٦٣ ـ ٦٤، وراجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
(٦) السمط النجوم العوالي ٤: ٣٠٥.

الحرام، وطيف به حول الكعبة أُسبوعاً كعادة أسلافه[١] ولاة مكّة، ودفن بالمعلاّة، وبني عليه بها قبّة عظيمة، وهي موجودة إلى الآن .

وكانت مدّة ولايته مشاركاً لأبيه وولده وإخوته نحو ثلاث وخمسين سنة، ومات وعمره أحد وسبعون سنة .

وكان له من الأولاد: ثقبة، وأبو القاسم، وحازم، وواصل، وسند، وعلي، وأبونمي، رحمه الله تعالىٰ[٢] .

فصل

في الحوادث الواقعة في دولته

نذكر فيه جانباً من الحوادث من أوّل دولته إلىٰ حين وفاته على المنسق المتقدّم، وفي ذلك فوائد جمّة، وأُمور مهمّة، فأوّل ولايته كانت سنة ثلاث وتسعمائة .

قتل السلطان ناصر :

ففي أربع وتسعمائة: قتل سلطان مصر الناصر بن قايتباي، وولي السلطنة بعده خاله الملك الظاهر قانصوة[٣] .

---

(١) في «ن»: سلفه .

(٢) ذكره السخاوي في كتابه الضوء اللامع ٣: ١٤ برقم: ٥٥، وابن شدقم في تحفة الأزهار ١: ٥٠٢ – ٥٠٧، والعصامي في سمط النجوم العوالي ٤: ٢٩٣ – ٣٠٥، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٩٠، وزيني دحلان في تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص ١٤٩، وغيرهم .

(٣) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٦٠، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٩٠ .

خلع السلطان قانصوة :

وفي سنة خمس وتسعمائة: خلع السلطان قانصوة، وكانت مدّته سنة وسبعة أشهر، وولي السلطنة جان بُلاط، ولقّب بالملك الأشرف(١) .

خلع السلطان جان بلاط :

وفي سنة ستّ وتسعمائة: خلع السلطان جان بلاط، وولي مكانه طومان بيك، وفي يوم ولايته خلع وقتل، فما أقدم أحد على السلطنة، وصار الأمر يشير بعضهم علىٰ بعض، ثمّ أجمعوا علىٰ تولية السلطان قانصوة الغوري، وذلك لظنّهم أنّه سهل المأخذ، قريب التناول، أيّ وقت أرادوا إزالته أزالوه، ثمّ ظهر منه خلاف ذلك من الحزم والعزم والفتك بهم(٢) .

القبض على القاضي ابن ظهيرة :

وفي سنة سبع وتسعمائة: قبض الشريف بركات على القاضي أبي‌السعود بن ظهيرة قاضي مكّة المشرّفة .

وسببه: أنّه كان مباطناً لجازان في ولايته مكّة المشرّفة، وكتب أبوالسعود إلىٰ جازان يستحثّه ويعده بالإعانة علىٰ بركات، فظفر الشريف بركات بكتابه، وقبض عليه في سابع رمضان، وأرسله إلىٰ جزيرة القنفذة وأمر بتفريقه .

ظهور دعوة إمام اليمن يحيى الحسيني :

وفي سنة اثني‌عشر وتسعمائة: كان ابتداء ظهور دعوة الإمام الورع شرف الدين يحيى بن شمس الدين ابن الإمام المهدي أحمد بن يحيى الحسيني .

---

(١) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٦٠، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٢٩١ .

(٢) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٦٠ ـ ٦١ .

قال صاحب لسان الزمان: وكان ظهوره بجهة صنعاء، ولم تساعده في ذلك الوقت لقوّة الشوكة في اليمن، إلىٰ أن قوي شأنه، واشتدّت شوكته فأخذ صنعاء.

قتل مالك شيخ قبيلة زبيد:

وفي سنة ثلاث عشرة وتسعمائة: وقع حرب بين الشريف بركات ومالك بن رومي الزبيدي شيخ قبيلة زبيد من حرب، فقتل مالك وأخوه وطائفة كبيرة منهم[١].

تعمير عين حنين وسور جدّة:

وفي سنة ستّ عشرة وتسعمائة: عمّر السلطان الغوري عين حنين، وأمر بترخيم المطاف.

وفي سنة سبع عشرة وتسعمائة: أرسل الغوري أحد أُمرائه لعمارة سور بجدّة، وكانت العرب أيّام الفتن تهجم علىٰ جدّة فتنهبها، وكان هذا الأمير ظلوماً غشوماً فتّاكاً، واسمه حسين الكردي، بنىٰ هذا السور بالعنف والشدّة[٢]، واستخدم فيه عامّة أهل جدّة وخاصّتهم، وهدم كثيراً من بيوت الناس، وبنىٰ بها السور بأقلّ من عام[٣]، هكذا ذكر صاحب لسان الزمان.

وذكر أيضاً أنّ الغوري أمر هذا الأمير حسين أن يتوجّه إلىٰ بحر الهند لدفع الأفرنج، فإنّهم أضرّوا ببنادر الهند، واستطرقوا إلىٰ جزيرة العرب وبنادر اليمن، فتجهّز إليهم حسين هذا في خمسين غراباً مشحونة بالمغاربة واللوند، فقطع بحر

---

(١) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٣١٧.

(٢) في «ن»: والشرّ.

(٣) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٦٤ ـ ٦٥.

الهند وارتفع الأفرنج، فدخل الأمير حسين إلىٰ أرض الهند، فاجتمع بسلطانها السلطان خليل شاه فأكرمه، ودخل في طريقه اليمن، فأخذها من أيدي ملوكه بني ظاهر.

وفاة السلطان بايزيد:

وفي سنة ثمانية عشر وتسعمائة: توفّي السلطان بايزيد بن السلطان محمّد خان العثماني، واستقرّ في السلطنة بعده ابنه السلطان سليم خان[١].

خروج السلطان سليم إلىٰ قتال أخيه:

وفي سنة تسعة عشر وتسعمائة: خرج السلطان سليم إلىٰ قتال أخيه أحمد، فكسره وأخذه أسيراً، فأُتي به وأمر بخنقه، وتطلّبه أخوه السلطان فرقد، فجيء به فأمر بقتله وقتل جماعة من أقاربه وأبناء عمّه[٢].

حجّ بعض نساء الغوري:

وفي سنة عشرين وتسعمائة: حجّ بعض نساء الغوري وولده الناصر محمّد، وصحبتهم كاتم السرّ محمود، فأكرمهم الشريف بركات، وقام بهم أحسن قيام، وطلبوا منه السفر معهم إلى القاهرة، ودخلها مرّة ثالثة، فأنعم عليه الغوري بخلعة سنيّة، وإكرامات مرضيّة، لم يسبق إلىٰ مثلها، ولم يشاركه أحد في فضلها، وهنّأه الشعراء بذلك، منهم العليف المشهور بقصيدته القافية[٣]، والفاضلة الأديبة سقيفة[٤]

---

(١) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٣٢١، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٣٣٨.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٣٣٨.

(٣) ذكرها بتماها الطبري في إتحاف فضلاء الزمن ١: ٣٤٠ ـ ٣٤٤.

(٤) في «ن»: سبيتة.

بنت القاضي جمال الدين محمّد بن سيرين القاهرية، وذكرت الإنعامات التي تفرّد بها الشريف بركات في قصيدة دالية[١] مطلعها :

قفوا واسمعوا قولاً صحيحاً له سند | عن الأشرف الغوري ما عنه يعتمد

وما نال مولانا الشريف من العطا | ثـمانية مـا نـالها قـبله أحـد

ثمّ عدّدت الثمانيه في القصيدة، وهي طويلة مشهورة، فلا نطوّل بذكرها الكتاب، قاله صاحب الوسيلة[٢] .

توجّه السلطان سليم لقتال الشاه إسماعيل الصفوي :

وفي سنة إحدىٰ وعشرين وتسعمائة: توجّه السلطان سليم لقتال[٣] الشاه إسماعيل الصفوي، وكان الشاه إسماعيل قد اتّسع ملكه، وقوي أمره، وأظهر مذهب التشيّع في أرض العجم، وكانت لعامّته فيه اعتقاد كبير وغلوّ[٤]، وقتل أُمماً كثيرة ممّن عانده .

فتوجّه السلطان سليم إلىٰ قتاله، فالتقيا بمحلّ قريب من تبريز، فانكسر الشاه إسماعيل، فرجع وتحصّن بالجبال، وأمر بحرق الأقوات، فاشتدّ الغلاء بالسلطان سليم ومن معه من العساكر .

وكان السلطان سليم قد طلب قوافل من الأقوات أن تلحقه من جهة مصر، فلم

---

(١) ذكرها بتماها الطبري في إتحاف فضلاء الزمن ١: ٣٤٤ ـ ٣٤٦.

(٢) وسيلة المال ص ٦٢ ـ ٦٣، وراجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٣٢٨ ـ ٣٢٩، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٣) في «ن»: لقتل .

(٤) في «ن»: وعلوّ .

تأتيه، فاشتدّ الغلاء بهم، فرجع إلىٰ بلاده، وكان قصده الاستيلاء علىٰ ملك العجم، فلم يمكنه لشدّة الغلاء، وسأل عن سبب تخلّف القوافل، فأُخبر أنّ الغوري بينه وبين الشاه إسماعيل مودّة ومواصلة، فحقد على الغوري، وعزم علىٰ أخذ مصر منه، وإزالة دولة الشراكسة، قاله صاحب لسان الزمان دام بقاه .

وقائع السلطان سليم :

ثمّ قال: وفي سنة ثنتين وعشرين وتسعمائة: توجّه السلطان سليم إلىٰ قتال الغوري سلطان مصر، فالتقوا ببيردابق[1]، فجرى القتال بينهم، فكسرت عساكر الغوري، وفقد الغوري تحت المعركة[2]، إنتهىٰ كلامه .

وفي سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة: أمر السلطان سليم بالدعاء له في الخطبة، وضرب السكّة باسمه بمصر .

وفي هذه السنة: أرسل السلطان سليم مرسوماً بولاية مكّة المشرّفة للشريف بركات وابنه أبي‌نمي، فأطاعاه[3] .

وفي هذه السنة: توجّه الشريف أبونمي بن الشريف بركات إلى السلطان سليم بمصر، فاجتمع به وقرّره هو ووالده في شرافة مكّة .

وفي هذه السنة: أرسل السلطان سليم محملاً وكسوةً للكعبة وصرّاً لأهل مكّة[4] .

---

(١) في السمط: بمرج دابق .

(٢) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٣٢٩.

(٣) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٤) راجع: السمط النجوم العوالي ٤: ٣٣٠.

وفي هذه السنة: ورد أمر من السلطان سليم بقتل الأمير حسين الكردي أمير جدّة، وكان قد عاد من اليمن إلىٰ مكّة، وقد انقرضت دولة الشراكسة، فقيّد وجعل في رجله حجر كبير، وأُغرق في بحر جدّة .

وفي سنة ستّ وعشرين وتسعمائة: توفّي السلطان سليم خان بن السلطان بايزيدخان، واستقرّ بعده في السلطنة ولده السلطان سليمان بن السلطان سليم خان .

وفاة الشريف بركات بن محمّد الحسني :

وفي سنة إحدىٰ وثلاثين وتسعمائة: توفّي صاحب الترجمة الشريف بركات ابن محمّد صاحب مكّة المشرّفة[١]، كما تقدّم .

وهذا آخر ترجمته والكلام فيها، فرحمه الله تعالىٰ، ورحم آباءه الكرام، والله أعلم .

فصل نذكر فيه

ترجمة السيّد الشريف أبي‌نمي بن بركات بن محمّد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة صاحب مكّة المشرّفة

قد تقدّم لهذا السيّد الشريف ذكر في ترجمة والده رحمه الله تعالىٰ .

وكانت ولادته الميمونة ليلة تاسع ذي‌الحجّة الحرام سنة إحدىٰ عشرة وتسعمائة، وأُمّه الشريفة الطاهرة، والدرّة الفاخرة، الشريفة غبيّة[٢] بنت السيّد حميدان بن شامان الحسيني .

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٤٠٥ .

(٢) في «ن»: عيشة، وهو غلط .

وكان ـ رحمه الله تعالىٰ، وأفاض عليه شآبيب غفران توالىٰ ـ من حال منّ مفيض الكرم والجود، بإبرازه إلىٰ[١] عالم الوجود، ذا جدّ وإقبال، وسعد يستخدم به في جميع الأحوال. وكان والده رحمه الله تعالىٰ يضع يده الشريفة علىٰ ناصيته، ويقول: لم تزل الأكدار عليّ متوالية، حتّىٰ ظهرت هذه الناصية .

قال صاحب لسان الزمان دام وجوده: وفي سنة إحدىٰ عشرة وتسعمائة ولد للشريف بركات بن محمّد إبنه السيّد الجليل رئيس السادة الحسنيين وزعيمهم ومقدّمهم، الشريف أبونمي بن بركات صاحب السعود والشهرة التامّة .

إلىٰ أن قال: وقد أعزّ الله هذا الشريف وأعلاه ورفع شأنه، وجعل له من الذكر والصيت ما لم يكن لأحد من أسلافه وآبائه[٢]. إنتهىٰ .

قال أحمد صاحب الوسيلة، وهو الثقة الأمين في كلّ فضيلة: وكان يكنّىٰ نجم الدين، شارك أباه في ولاية مكّة المشرّفة، وعمره ثمان سنين، بولاية الغوري، وهي آخر ولاية صدرت من الجراكسة سنة ثمان عشرة وتسعمائة .

ثمّ أبقاه السلطان سليم خان علىٰ مشاركة أبيه سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وهي أوّل ولاية صدرت من العثمانيّة .

ثمّ استقلّ بأعباء السلطنة بعد موت أبيه، وكان استقلاله بها في سنّ عشرين سنة، فوصلت إليه المراسيم السلطانيّة السليمانيّة الخاقانيّة، فخمدت نار الفتن، وابتهج بمكّة وجه الزمن، ولم يزل متمتّعاً بمكارم الشيم، متقلّباً في النعم، وقد رزقه الله تعالىٰ الذرّية الصالحة، ودانت له رقاب الأُمم .

---

(١) في «ن»: بإبراز والي .

(٢) لسان الزمان لابن عقيلة ـ مخطوط .

ثمّ لمّا كان موسم سنة خمس وأربعين وتسعمائة وصل إلىٰ مكّة الباشا سليمان من جهاد الفرنج بالديار الهنديّة، وعزم إلى الديار الروميّة، فأرسل الشريف أبونمي ولده السيّد أحمد صحبة الباشا المذكور لمواجهة السلطان الأعظم سليمان خان بن سليم خان، وفي خدمته السيّد عرار بن عجل، والقاضي إبراهيم بن ظهيرة، والقاضي تاج الدين المالكي، فدخلوا إلى القاهرة .

ثمّ توجّهوا منها إلى الديار الروميّة في البرّ، فوصلوا بالسلامة[١] إلى السلطان المذكور، واجتمع السيّد أحمد بالسلطان سليمان، وجلس علىٰ يساره، وقابله بالإكرام، وعامله بالاحترام، وأشركه مع والده في ولاية مكّة المشرّفة، كما هو عادة سلفه، وذلك في سنة ستّ وأربعين، وأقام مدّة في الروم متوعّكاً حتّىٰ فاته الحجّ في ذلك العام، ومات السيّد عرار ثمّة بالطاعون .

ثمّ عاد القاهرة عام سبع وأربعين، وتوجّه قاصداً مكّة المشرّفة، فلاقاه والده أبونمي بوادي مرّ، وجعل له سماطاً عظيماً حضره الأعيان، ثمّ قرأت مراسيمه بمكّة بالعشر الأوّل من ربيع الأوّل، ولبس الخلعة السلطانيّة وطاف بها، وصار يدعىٰ لهما في المنابر، إلىٰ آخر ما ذكره صاحب الوسيلة[٢] .

وقال صاحب لسان الزمان: وفي سنة سبع وأربعين وتسعمائة عاد الشريف أحمد بن أبي‌نمي إلىٰ مكّة المشرّفة، وكان يوماً مشهوداً، ومدحه الشعراء، منهم القاضي الفاضل الشيخ عبدالرحمٰن باكثير[٣] بقصيدة عظيمة، ومطلعها :

---

(١) في الوسيلة: بالسلامة والعزّة والكرامة .

(٢) وسيلة المآل للحضرمي ص ٦٦ ـ ٦٧ مخطوط .

(٣) في السمط: الكثيري .

وفت صبّها بعد الجفا غادة عذري ... ومذ لامها قالت لعلّ لنا عذرا
وزارته لكن بعد طول تشوّقٍ ... إليها ولا لوم عليها ولا وزرا

ومنها:

مهاة فلاة غادة عربية ... عقيلة حيّ كالضراغم بل أضرىٰ

ومنها:

فيا أبانمي الملك والملك الذي ... يجلّ عن الألقاب والمدح والأطرا
لقد صدقت في الكون هاتفة الهنا[1] ... تفرّد فيه بالمسرّة والسرا
بمقدم من انتجته وادّخرته ... ولياً لعهد الملك أعظم به ذخرا
بمقدمه ورق البشائر قد شدت ... وكلّ فؤادٍ من بشائره سرّا
وقد عمّ أقطار الحجاز قدومه ... سروراً كما عمّ العراقين مع بصرا

إنتهىٰ صاحب لسان الزمان.

قلت: والشيخ عبدالرحمٰن هذا هو الفاضل العلاّمة الفهّامة، وجيه الدين القاضي عبدالرحمٰن بن عبدالله باكثير والد الشيخ أحمد صاحب الوسيلة رحمه الله.

ولقد أطنب ولده في الوسيلة عند ذكر هذه القصيدة، فقال: وهي من غرر القصائد التي انتظمت في سلكها درر المدائح فرائد، اشتملت على الغزل المصنع، الذي بمثله لم يسمع، وعلى المخالص العجيبة التي لم يسبق إلىٰ مثلها، وكلّ من وقف عليها يشهد بفضلها، إلىٰ آخر كلامه[2].

والذي يجب أن يحمل إطنابه هذا على المثل المشهور «كلّ فتاة بأبيها معجبة»

---

(١) في «ن»: الهوىٰ.

(٢) وسيلة المآل ص ٦٧ مخطوط.

دفعاً عن أن يعترض عليه فيما سطره وكتبه، من وضع الندا موضع السيف، إذ حكمه المتقدّم لا يخلو من حيف، والله أعلم.

ثمّ قال في الوسيلة: واستمرّ السيّد أحمد شريكاً لأبيه أبي نمي، إلىٰ أن انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ في أثناء شهر رمضان سنة إحدىٰ وستّين وتسعمائة بأرض الشرق، وحمل إلىٰ مكّة، وصلّي عليه بالمسجد الحرام، ودفن بالمعلاّة، وبني عليه قبّة، وهي موجودة إلى الآن[1]. إنتهىٰ كلام صاحب الوسيلة.

قلت: وأعقب الشريف أحمد هذا رحمه الله تعالىٰ عقباً، وهو جدّ السادة ذوي حراز وذوي منديل الموجودين الآن.

رجع النقل من الوسيلة، قال: ثمّ إنّ الشريف أبانمي عرض[2] إلى السلطنة العثمانيّة، والتمس أن يكون ولده الشريف حسن عوض الشريف أحمد، فأُجيب إلىٰ ذلك، فشارك الشريف حسن والده في الأوامر، والدعاء علىٰ رؤوس المنابر، حتّىٰ تخلّى الشريف أبونمي عن الأمر وفوّضه إليه، وعوّل في جميع مهمّات الملك[3] عليه، واختار الشريف أبونمي الانقطاع في العبادة، والانهماك في مطالعة العلوم والإفادة.

وما زال حريصاً على اقتطاف ثمرة الفضائل، ومجالسة العلماء الأفاضل، ممتحناً بذكائه قرائحهم المجيدة، مستخرجاً بفهمه كنوز ملائحهم الحميدة، حتّىٰ أنّهم خدموا جنابه العالي بكلّ تصنيف بديع، ورتعوا في رحابه ذات المعالي، ونالوا

---

(١) وسيلة المآل ص ٦٧ ـ ٦٨ مخطوط.

(٢) في «د»: أعرض.

(٣) في «ن»: المهالك.

ذلك المربع الربيع[١].

وكان من جملة خدّامه بذلك، الكاشفين له وجوه عرائس العلوم علىٰ تلك الأرائك، عمّ والدي، قاضي القضاة، وشيخ الحرم المكّي المنيف، القاضي عبداللطيف بن عبدالله باكثير صاحب الفضل الشهير، فإنّه خدم جنابه، وأمّ رحابه بشرح القصيدة الهمزية المسمّاة أُمّ القرىٰ، وجعل ذلك مقدّمة لاستعطافه، وسبباً لإسعاده[٢] وإسعافه.

فإنّ القاضي المذكور لمّا سافر إلى الديار الروميّة، وقلّد منصب القضاء بمكّة البهيّة، وحصل[٣] له من العنايات[٤] السلطانيّة، ما اشتهر بين البريّة، وشي به بعض الحسّاد، الساعين في الأرض بالفساد، ونقلوا إلى السيّد الشريف من أباطيل القول ما لم يقع، وظنّوا أنّ ذلك يجديهم فيما هم بصدده من الطمع، حيث جاء القاضي بعزلهم من مناصبهم، والحطّ عمّا كانوا عليه من مراتبهم، فاستعطف بهذا التأليف، خاطره الشريف[٥].

خطبة القاضي عبداللطيف باكثير:

قلت: لهذا التأليف خطبة هي في غاية البلاغة، وحسن الصياغة، تشير أكفّ البلغاء بالتعظيم إليها، ويعتمد في تعلّم الأدب عليها، ولا بأس بأن نذكر قطعاً منها،

---

(١) في الوسيلة: ونالوا ذلك الخصب المريع.

(٢) في الوسيلة: لاشغافه.

(٣) في «ن»: وجعل.

(٤) في «ن»: العناية.

(٥) وسيلة المآل ص ٦٨ ـ ٦٩ مخطوط.

وقد أوردها برمّتها صاحب الوسيلة، فأوّل الخطبة هو هذا:

سلام علىٰ آل يس ثمرة فؤاد الرسول، المنتخبين من أكرم سلالة، وأفلاذ أكباد البتول، المغتذين بلبان[١] الرسالة، وأهلّة سماء الكمال، المحيط بهم من نور النبوّة هالة، وغرّة محيا الجمال، وطراز حلّة الجلال.

مغارس طابت في ذرى[٢] المجد فالتقت
عــــلىٰ أنــبياء الله والخــلفاء

معدن السؤدد وكيما السعادة، وعنصر المجد وتاج مفرق السيادة، نتاج فاطمة الزهراء، وعماد الحنيفيّة الغرّاء.

فخارٌ لو أنّ النجم أُعطي مثله ترفّع أن يأوي أديـم سـماء

نور كمام الهداية اليانع، ونور أُفق الشريعة الساطع، طرّة جبهة الدهر، وشـامة وجنة الفخر.

بيض الوجوه كريمة أحسـابهم شمّ الأُنوف من الطـراز الأوّل

سلا ما نصب لهم في أرجاء الخافقين علم المدح، فما برح علىٰ ذؤابتهم خافقاً، وسمك[٣] لهم علىٰ هام السماكين أرفع صرح، فما زال علىٰ وفود الجوزاء شاهقاً، وصيّر لهم هاتف السعادتين دائم الصدح، فما فتئ ببديع شمائلهم ناطقاً، وطيبهم من شذا الريحانتين أعطر نفح، فمادام الوجود إلاّ من عبيره عابقاً.

---

(١) في الوسيلة: بلسان.

(٢) في الوسيلة: زبا.

(٣) في الوسيلة: وأسمك.

هذا هو الفخر المؤيّد قد[١] غدا　　عقداً لجيد مفاخر الأمجاد
فخر سرادق أهله أمسىٰ علىٰ　　هام السماك مطنّب الأوتاد
قومٌ تخال وجوههم إن أسفروا　　يوم الفخار أهلّة الأعياد
رضعوا لبان المجد في حجر العلا　　فعلوا على الأكفاء والأنداد

لا جرم فقطب فخارهم الراسخ، ومحتد شرفهم الشامخ، وأُرومة مجدهم الباذخ، وجرثومة سؤددهم الماذخ.

هو معصم الفخر الذي حاطت به　　أحساب أهل الفخر[٢] مثل سوار
زاكي الفخار أبو نميّ نفحة الر　　يحانتين ونخبة الأخبار
إنسان عين المجد والقمر الذي　　حفّته أنجم هاشمٍ ونزار
وغدت[٣] له مثل الأكام وقد بدا　　من بينها يفترّ كالنوّار
حامي حمى البيت الشريف وطيبة　　الغرّاء بالخطّي والبتّار

أعظم مليك خفقت عليه البنود، وتشرّفت بمدحته رؤوس المنابر، وأجلّ سلطان جنّد الجنود، وكتب الكتائب، وحشد العساكر. إلىٰ أن قال:

ملكٌ إذا ضاق الزمان بأهله　　بخلاً توسّع في المكارم وانفسح
تكبوا السحائب إذ تجارىٰ كفّه　　فالغيث في جبهاتها عرقٌ رشح
تستحقر الأسياف عاتق غيره　　وتقول دونك والقلائد والسبح
ويكلّف الأسد الهصور بعذله　　في القفر أن يرعى الغزال إذا سنح

---

(١) في الوسيلة: من.
(٢) في الوسيلة: أهل البيت.
(٣) في «ن»: وفدت.

كم من خطيبٍ ذاكرٍ غير اسمه   لمّا تنحنح قال منبره تنح

صفوة الله التي أفرغ عليها في مواكب العظمة حلّة التشريف، ونخبته التي ملكها زمام المكارم فحازت تالدها والطريف. إلىٰ أن قال:

ما ضرّ من ضربت به أحسابه   حتّىٰ بلغن إلى النبي محمّد

أن لا يمدّ إلى المكارم باعه   ويحوز[1] منقطع العلا والسؤدد

الذابّ عن مهبط وحي الله ومهاجر رسوله، ومن في بلد بيته، ومعاهد تنزيله. إلىٰ أن قال: الحائز من أشرف الشيم، ما لا يحصره عدّ ولا حدّ، المتشرّف أباً وأُمّاً وجدّاً.

أبونميّ من قد حوىٰ شرفاً   ما حازه قبل عبد مطّلبه

ذاك إلىٰ هاشمٍ نمىٰ فسما   وذا قسيم النبي في نسبه

شتّان ما بين فخر ذاك وذا   فذا فخار قد صيغ منه وبه[2]

كيف لا؟ وأنت الملك الذي هزّ الملك به عطفه، وأبدىٰ به ثغره وابتسامه، والمطاع الذي ألقت إليه الأيّام أزمّتها وملكه[3] الدهر زمامه، والإمام الذي وافق المقدّر[4] يراعه، وقارن القضا حسامه.

له يراعٌ وعضبٌ ما جرىٰ وبرىٰ   إلاّ قضىٰ ومضىٰ بالرزق والأجل

فلله درّك من مهابٍ قد غشّىٰ بصر العين مهابة، وملأ الفم فخامة، ومن أغرّ

---

(١) في «ن»: ويجوز.

(٢) في «ن»: منه به.

(٣) في «ن»: وملكها.

(٤) في «د»: المقدور، وفي «ن»: المقدار.

أضحت أيّام دولته في جبهة الدهر غرّة، وفي وجنة الزمان شاهدة[١]، ومن حليم غلب صفحه غضبة، وسبق عفوه انتقامة .

وإذا الأبـا المـرقال لك انـتقم — قالت خلائقك الكرام لك أحلم
شرعٌ نراك قد انـفردت بـدينه — وفـضيلة لسـواك لم تـتقدّم
حـتّىٰ لقـد ودّ البـرىٰ بأنّـه — يدلي إليك بفضل جـاه الحـرم

فلا بدع أن ساقني كريم حلمك إليك، ودلّني عظيم صفحك عليك، فـاستغثت بلسان تضرّعي وفقري، واستملت عطفك بجزيل مدحي وشكـري، واسـتعطفت جيد صفحك ببديع نثري، وبليغ شعري .

ذو الصفح أنت ومثلي من جنىٰ وهـفا — ورام عـفوك عـمّا مـنه قـد سـلفا
وإن يكـن بـالقضا زلّت له قـدمٌ — فـإنّ مـثلك عـند الاقـتدار عـفا
فـلست أوّل ذي حـلمٍ قسىٰ فبدا — مـنه الصـدود ولكـن بـعد ذا عـطفا
ولست أوّل جـانٍ ظـلّ يـعطف مـن — كـمام حـلمك نـوراً ظـلّ مـقتطفا
وإن أكـن بـذنوبي أسـتحقّ جـفا — فـحسبك الله مـن هـذا الجـفا وكـفىٰ
حاشا ذوي مـجدك السـامي وعـنصر — ك الزاهي وحلمك أن يرضوا لك الجنفا
فـلا تـخيّب رجـاء مـن جـاء مـبتهلاً — بـحار عـفوك مـحتاجاً ومـغترفا
هـبني أسأت أليس العـفو مـنك غـدا — طبعاً وحسن التغاضي مـنك قـد ألفـا
سـجية فـيك مـا كـلّفتها ولكـم — تكلّف الخـلق خـلقاً يـوجب الشـرفا
وطالما طبت يا ذا العـفو نـرشف مـن — سـلاف عـفوك كأسـاً طـاب مـرتشفا
حـتّىٰ لقـد كـاد يـدلي بـالذنوب إلىٰ — عـلياك مـن لم يكـن للـذنب مـقترفا

---

(١) في الوسيلة: شامة .

إلىٰ آخر الخطبة[١]، وما أوردته هو المقدار المتضمّن لما أردت .

إهتمام الشريف أبي نمي بأهل الشرف :

ثمّ قال[٢] بعد إيراد الخطبة ما ملخّصه: إن السيّد أبا نمي صاحب الترجمة كان كثير الاهتمام بأحوال ذوي البيوت القديمة، المشهورة بالعلم والفضل بمكّة المشرّفة، بل وكان ـ رحمه الله ـ لا يقوم في محافله السنيّة إلاّ لحضراتهم العليّة، وإن لم يكونوا أهلاً لذلك في ذواتهم، وإنّما رعاية لكونهم من ذوي البيوتات، اعتماداً علىٰ محبّتهم ومودّتهم الراسخة له ولآبائه الكرام .

وربما سأله بعض خواصّه القيام لبعض أشخاص قد وردوا إلىٰ مكّة المشرّفة، ورتبتهم في العلم قد انتهت إلىٰ حدّ الافتاء، فلم يجب سؤالهم، إلىٰ آخر ما ذكره نقلاً بالمعنىٰ[٣] .

قلت: ما ذكره أحمد في الوسيلة من توصيف هذا السيّد الشريف بعدم القيام لمن وصل حدّ الافتاء من الآفاقيين، والقيام لذوي البيوت القديمة المشهورة بالفضل، وهم دون رتبة الكمال، بل لم تشمّ له رائحة فيهم، فهو وصف له بضدّ الكمال، والجهل بمعرفة الأقدار، حماه الله عن ذلك، وهو من أجلّ من يعرف ذلك .

بل المنقول عنه وعن آبائه الكرام ومن خلف من نسله الشريف إلىٰ زماننا هذا، أنّ من تهيّأ بغير هيئة أبيه من ذوي القومات، يعني ترك العلم وطلبه ومال إلىٰ ما لم يسلكه أبوه من بيع وشراء، كتعاطي المتاجر وغيرها، وإهمال العلوم وطلبها، ربما

---

(١) وسيلة المآل ص ٦٩ ـ ٧٤ مخطوط .

(٢) أي: العلاّمة السيّد أحمد باكثير الحضرمي .

(٣) وسيلة المآل ص ٧٥ ـ ٧٦ مخطوط. وراجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٤٤.

تسقط قومته، ويهبط مقامه، وقد شاهدنا هذا غير مرّة.

فظهر من ذلك أنّ قيامهم إنّما هو لأجل العلم والكمال، فإذا كان كذلك فلأيّ شيء لم يقم لمن أحرز هذه الرتبة السنيّة، وهي رتبة الافتاء.

وأغرب من ذلك أنّه أورد بعد سرده لهذا الكلام أحاديث يستدلّ بها علىٰ زعمه، منها: قوله ﷺ «أنزلوا الناس منازلهم»[1] وما في هذا المعنىٰ، وهو يدلّ علىٰ خلاف ما ذكره، وهو القيام لمن ليس أهلاً له، وعدم القيام لمن يستحقّه استحقاقاً واجبياً، وحمى الله الملوك عن مثل هذا السلوك.

وربما يؤول ممّا ذكره لو كان واقعاً ضرر عظيم، وهو عدم الاهتمام بالكدّ والاجتهاد في تحصيل الكمالات، اعتماداً علىٰ أنّه ابن فلان، وأنّه من ذوي البيوتات، وأنّه إذا كان كذلك، فهو يكفي في حفظ المقام عند الملك، فيذهب صارفاً لنفيس عمره فيما لا يكسبه كمالاً وفضلاً.

والذي بلغني أنّ ذلك المذكور في الوسيلة إنّما كان منشأه وصدوره عن هوىً وغرض واقع بين المؤلّف وبين بعض معاصريه من ذوي الفضيلة والافتاء، غير أنّهم لم يكونوا من ذوي البيوتات، وربما ذكر ذلك بعض العلماء.

ونبّه علىٰ مثل ما نبّهت عليه العصامي[2] في تأريخه[3]، وغيره في غيره، فلا

---

(١) كنز العمّال للمتّقي الهندي ٣: ١٠٩ برقم: ٥٧١٧ و ٦: ٦٣١.

(٢) هو العلاّمة المؤرّخ عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي المكّي الشهير بالعصامي، ولد بمكّة سنة (١٠٤٩) وتوفّي بمكّة أيضاً سنة (١١١١) هـ وله مؤلّفات، منها كتابه التاريخ المسمّىٰ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، مطبوع في سنة (١٤١٩) هـ في أربع مجلّدات.

يتوهّم أنّ ذلك كان واقعاً من صاحب الترجمة .

وفاة الشريف أبي نمي :

عوداً إلىٰ ذكر صاحب الترجمة :

قال صاحب[(١)] النور السافر في أخبار أهل القرن العاشر: وفي يوم عاشوراء من سنة ثنتين وتسعين وتسعمائة[(٢)] توفّي الشريف أبونمي بن بركات صاحب مكّة المشرّفة. ولبعض الفضلاء من أهل مكّة في تأريخ وفاته :

يا من به طبنا وطاب الوجـود   قد كنت بدراً في سماء السعود
ما صرت في التـرب ولكـنّما   أسكنك الله جنّات الخـلود[(٣)]

قلت: التأريخ هو الشطر الأخير، وهو مطابق لعام الوفاة، إلاّ أنّه لم ينبّه بـلفظ التأريخ. وما ذكره صاحب النور السافر هو طبق ما ذكره صاحب لسان الزمان، وقال[(٤)] بعد ذلك: وكانت ولايته مستقرّاً ومشـاركاً لوالده وأولاده نـحو ثـلاث وسبعين سنة، وكان رحمه الله فيه نفعاً محضاً، وخيراً تامّاً .

---

(٣) سمط النجوم العوالي ٤: ٣٤٤ ـ ٣٤٦.

(١) هو العلاّمة عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله بـن شـيخ بـن عـبدالله العـيدروس الحسيني الحضرمي اليمني الهندي، ولد بمدينة أحمدآباد مـن الهـند سـنة (٩٧٨) وتوفّي بمدينة أحمدآباد الهنديّة سنة (١٠٣٨) ودفن فيها، له كتب ومصنّفات، منها كتابه النور السافر عن أخبار القرن العاشر، طبع في سنة (٢٠٠١)م في مجلّد واحد .

(٢) ذكره في سنة تسعين بعد التسعمائة .

(٣) النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص ٤٩٦ .

(٤) أي: قال صاحب لسان الزمان .

إلىٰ أن قال: وهو الذي نسج لأهل بيته القواعد، والإقعاس[١] المستحسنة بينهم حفظاً للمودّة والحرمة، فانتظم بذلك شملهم، وحسن حالهم. وكان رحمه الله من أكابر العلماء، وأجلّة الأولياء، وقد أخذ عن[٢] كثير من العلماء، وأخذ عنه كثيراً أيضاً من العلماء الأفاضل الأجلّة. إنتهىٰ كلامه .

وأقول: كان هذا السيّد قد تخلّىٰ في آخر عمره عن الملك لولده الحسن الآتي ذكره، وأقبل على العبادة، ومعاشرة العلماء الأعلام، فصنّفوا المصنّفات الحسنة برسمه، وتوّجوا رؤوسها باسمه .

أدب الشريف أبي نمي :

وأمّا شعره، فرياض نضرة، وأراض قد نثر عليها درره، فمن شعره الرائق، ونظمه الفائق، قصيدته التي عارض بها قصيدة التلعفري التي مطلعها :

سمحت بإرسال الدموع محاجري ... لمّا تزايد في التجنّي هاجري

فقال رحمه الله تعالىٰ :

نام الخلي فمن[٣] لجفني الساهرِ ... إذ بات سلطان الغرام مسامري

جفت المضاجع جانبيّ كأنّما ... شوك القتاد على الفراش مباشري

وتأجّجت نار الغرام وأضرمت ... بين الجوانح في مكنّ سرائري

وشجيت من ألم الفراق وخانني ... صبري الوفي على الخطوب وناصري

أُفٍّ على الدنيا فما من معشرٍ ... إلاّ وأودتهم بخطبٍ قاهر

---

(١) في «ن»: الأقداس. والإقعاس: الغنىٰ والاكثار، ورجل أقعس: أي منيع .

(٢) في «ن»: عنه .

(٣) في «د»: فما .

فــي كــلّ يــومٍ للــنوائب غــارةٌ أيــدي النـوائب هـنّ أغـدر غـادر

خـلت المـنازل مـن أُهـيل مـودّتي وهـم هـم فـي الحـيّ قـرّة نـاظري

إلىٰ آخر القصيدة[١].

تجديد سقف البيت والميزاب:

وفي سنة تسع وخمسين وتسعمائة: جدّد سقف البيت الشريف بأمر سلطاني وفتوىً، لاختلال بعض الأخشاب عن محالّها[٢].

وفي سنة ستّين وتسعمائة: جدّد ميزاب الرحمة[٣].

تشريك الشريف أبي‌نمي مع ولده الحسن:

وفي سنة إحدىٰ وستّين وتسعمائة: عـرض الشـريف أبـونمي إلى السـلطان سليمان يلتمس منه أن يكون ولده الشريف حسن الآتية ترجمته عوضاً عن ولده الشريف أحمد المتقدّم ذكره في الولاية؛ لانتقاله في هـذه السـنة إلىٰ رحـمة الله تعالىٰ، فوصل إليه الأمر بذلك، ودعي للشريف حسن على المنابر مع أبيه رحمهما الله.

ورود محمل من طريق اليمن:

وفي سنة ثلاث وستّين وتسعمائة: ورد محمل علىٰ طريق اليمن من مصطفىٰ باشا عامل السلطان سليمان على القطر اليماني، فخرج له الشريف أبونمي، ولبس خلعته، ولم يزل كذلك إلىٰ سنة ألف وتسع وأربعين[٤].

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٥٥.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٤٨٢.

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٤٩٢.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٤٦، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٤٩٥.

ورود ميزاب من ذهب للبيت :

وفي هذه السنة: ورد ميزاب من ذهبٍ للبيت الشريف، ورفع الميزاب الفضّة للتبرّك .

إجراء عين عرفات إلىٰ مكّة :

وفي سنة خمس وستّين وتسعمائة: قلّ الماء بمكّة، وانقطعت عين عرفة لقلّة الأمطار، فرفع ذلك إلى السلطان سليمان، فأمر بالفحص عن أحوال العيون، وكيف يمكن إجراؤها إلىٰ مكّة المشرّفة، فاجتمع الناس ورؤساء مكّة وأهل الرأي وتشاوروا فيما بينهم، ورأوا أنّ أقوى العيون وأحسنها عين عرفة، وأنّها أقرب إلى العمارة، وأنّ طرقها ودبولها متّصلة إلىٰ بئر زبيدة في أعلىٰ منىٰ، وقدّروا أنّ مصرفها خمس وثلاثون ألف دينار، فعرض بذلك إلى السلطان سليمان .

فلمّا وصل إليه الخبر بذلك، التمست كريمة السلطان سليمان جانم من أخيها أن يكون هذا الخير لها، حيث كانت زبيدة هي المبتدأة بفعل هذا الخير العظيم بمكّة شرّفها الله، فعيّنوا لذلك دفتردار مصر الأمير الكبير إبراهيم بيك، وكان قد عزل عن دفتردارية مصر، فأُرسل إلىٰ عمارة العين، وأعطته جانم أُخت السلطان سليمان خمسين ألف دينار ليصرفها على العين، وكان إبراهيم هذا صاحب همّة عالية، ومروءة وكرم، فتوجّه إلىٰ مكّة شرّفها الله تعالىٰ .

وفي ذي القعدة من سنة تسع وستّين وتسعمائة: وصل الأمير إبراهيم إلىٰ مكّة المشرّفة، وأنزله الشريف أبونمي بمدرسة قايتباي، وأكرمه إكراماً عظيماً، ووصل إليه أعيان البلاد، ومنهم رئيس رؤساء زمانه، ودرّة تاج أقرانه، القاضي حسين المالكي، ثمّ توجّه الأمير إبراهيم بصدد ما هو قاصده، فابتدأ بتنظيف الآبار التي بمكّة، فانتفع الناس بذلك، ثمّ شرع في تنظيف الدبول والمسالك وحفرها، وكان

يقوم علىٰ ذلك بنفسه وأولاده وخدّامه، وكان معه أربعمائة مملوك .

فاشتغل بهمّة عالية، وجلب المهندسين والعمّال والحفّارين من مصر وبلاد الصعيد والشام وحلب، طوائف بعد طوائف، ولم يزل إلىٰ أن وصل بئر زبيدة، ثمّ سار بعد ذلك، فرأى الخطب جسيماً، والحال شديداً، وكان تلك المجاري غالبها في الحجر الصوّان[١] .

فخشي أن لا يتمّ ما أراده، فجمع الحطب الجزل، وصار يوقده، فلا يحصل منه إلاّ نتيجة ضعيفة، وأقبل يشتري الحطب من أطراف مكّة المشرّفة حتّىٰ قلّ، فضجر الناس من ذلك، وتعب الأمير، وأنفق مالاً عظيماً، ومات كثير من خدّامه ومماليكه.

وفي رجب من سنة أربع وسبعين وتسعمائة: توفّي الأمير إبراهيم معمار العين، ودفن بالمعلاّة في موضع عمّره بنفسه، وهو الذي يقال له: الدفتردار، وقبره فيه[٢] ظاهر، وذلك بعد أن اجتهد بنفسه وأولاده وخدّامه في حفر العين حين أنفق ماله وخزائنه، واشتدّ به الحال، وكثرت عليه المصائب، ومات أكثر مماليكه، ومات له ولدان مراهقان، واشتدّ عليه القهر[٣] .

ثمّ بعد انتقاله أُقيم في خدمة العين سنجق جدّة الأمير قاسم بيك، أقامه في ذلك الشريف أبونمي صاحب الترجمة، والقاضي حسين المالكي، وعرض إلى السلطان سليم، وذلك بعد وفاة السلطان سليمان بن سليم بن بايزيد، في هذه السنة

---

(١) الصوّان: بالتشديد، ضرب من الحجارة، الواحدة صوّانة .

(٢) في «ن»: فيها .

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٢٣ ـ ٥٢٤ .

المذكورة، فعيّن دفتردار مصر محمّد بيك أكمل زاده[١]، فوصل إلىٰ مكّة المشرّفة وباشر عمارة العين.

وفي سنة خمس وسبعين وتسعمائة: اجتهد في عمارة العين، وبذل في عمارته[٢] نفسه وماله، وقطع فيها مسافة عظيمة وما بلغ التمام.

وفي سنة ستّ وسبعين وتسعمائة: توفّي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، ودفن بمحلّ مقابل للدفتردار، وهو موضع معمور تحته سبيل قد خرب في زماننا، ولم يبق منه إلاّ رسوم، ثمّ أُعيد قاسم بيك أمير جدّة في خدمة العين مرّة ثانية، وأُقيم القاضي حسين المالكي كالناظر عليه والمعين، وعرض بذلك إلى الأبواب، فبرز الأمر باستقراره في الخدمة، وأن يكون القاضي حسين ناظراً عليه.

وفي سنة تسع وسبعين وتسعمائة: توفّي الأمير قاسم بيك أمير جدّة، ولم تتمّ عمارة العين، ولا أدخلها إلىٰ مكّة المشرّفة، ودفن بالمعلاّة[٣].

ثمّ توجّه القاضي حسين المالكي المتقدّم ذكره لعمارة العين بهمّة عليّة، وساعفته الأقدار علىٰ ذلك، فأدخلها في أقلّ من خمسة أشهر إلىٰ مكّة، بعد أن تعب فيها غيره عشرة أعوام.

وكان يوم دخولها إلىٰ مكّة المشرّفة يوم عيد عظيم، وعمل القاضي حسين ذلك اليوم في بستانه بالأبطح ضيافة عظيمة جمع فيها أعيان مكّة وأكابرها، وعمّ السرور سكّان مكّة شرّفها الله، ومدحه الشعراء، وأخلع على المعلّمين

---

(١) في السمط: يكمكجي زاده.

(٢) في «ن»: عمارتها.

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٢٥.

والمهندسين، وتصدّق بمال عظيم على الفقراء.

وجهّز البشائر إلى السلطان سليم، وإلىٰ حضرة الملكة جانم سلطانة، فأنعمت عليه بإنعامات جزيلة، وضبط جميع ما صرف على العين، فكان خمسة لكوك وسبعة آلاف دينار، وذلك غير ما صرف علىٰ أرباب الصناعات من البلدان البعيدة، فرحمهم الله جميعاً وجزاهم خيراً[١].

عمارة المسجد الحرام:

وفي هذه السنة: عرض للسلطان سليم خان في عمارة المسجد الحرام، وكان قد اختلّ فيه بعض المواضع وخرب، فأمر ببنائه علىٰ غاية الإتقان والإحكام، وأن يجعل عوض السقف قباباً دائرة بأروقة، وقد كان السقف قبل ذلك بأخشاب، فورد الأمر إلىٰ سنان باشا صاحب مصر، فعيّن أحمد بيك، وكان رجلاً ذا همّة عليّة وصلاح، مستحقّاً لهذه الخدمة، وأنعم علىٰ أحمد بيك بإمارة جدّة، فورد إلىٰ مكّة المشرّفة في هذا العام، ومعه الأوامر السلطانيّة بأن يباشر ذلك، وأن يكون بنظر مدبّر الدولة الحسنيّة القاضي حسين المالكي.

وفي سنة ثمانين وتسعمائة: وضع أساس المسجد الحرام، وبدأ بالهدم من باب السلام[٢].

وفاة السلطان سليم خان:

وفي سنة ثنتين وثمانين وتسعمائة: توفّي السلطان سليم خان، وكانت مدّة

---

(١) راجع تفصيل ذلك: سمط النجوم العوالي ٤: ٩٦ ـ ١٠٢، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٤٩٧ ـ ٤٩٩.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ١١٠ ـ ١١١، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٢٦.

سلطنته ثمان سنوات، وتولّىٰ بعده السلطنة ولده السلطان مراد، ولمّا جلس علىٰ تخت سلطنته أرسل إلىٰ ولاة الأقطار حتّىٰ إلىٰ شريف مكّة المشرّفة بالتأييد، وأمر بالاهتمام في تعمير المسجد الحرام(١).

وفي سنة أربع وثمانين وتسعمائة: تمّت عمارة المسجد الحرام، وهو إلى الآن علىٰ تلك العمارة(٢).

وفاة الشريف بركات بن أبي‌نمي:

وفي سنة خمس وثمانين وتسعمائة: توفّي السيّد الشريف بركات بن أبي‌نمي صاحب الترجمة(٣).

قلت: وهذه بركات ـ رحمه الله تعالىٰ ـ لم يكن ولي مكّة المشرّفة، وإنّما أعقب كثيراً، وعقبه موجودون كثيرون، أكثر من مائتي نفر صغاراً وكباراً، يقال لهم: البركاتيون وآل بركات، وهم فخوذ وبطون، وأكثر منازلهم في وادي مرّ، ملك مكّة المشرّفة منهم جماعة، لكن ليس علىٰ طريق الاسترسال، وإنّما بين كلّ واحد والآخر فترة، يليها فيها جماعة من أبناء عمّهم الشريف حسن بن أبي‌نمي الآتي ذكره، وسيأتي ذكر الملوك منهم علىٰ سبيل التفصيل إن شاء الله تعالىٰ.

ورود مرسوم بالكتابة:

وفي سنة ثمان وثمانين وتسعمائة: ورد مرسوم أن يكتب ما بين باب علي عليه السلام والعبّاس رضي الله عنه، بخطّ جلي بالذهب، ما هذا صورته: الله، محمّد، أبوبكر،

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٣٠.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٣٢.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٤٦، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٥١.

وعمر، وعثمان، وعلي. وأُتي بورقة مكتوب فيها ذلك بخطّ نفيس، قاله صاحب لسان الزمان[١].

وفاة القاضي حسين المالكي:

وفي سنة تسعين وتسعمائة: توفّي رئيس العلماء الأعلام، وقاضي قضاة الإسلام، بلد الله الحرام، القاضي حسين المالكي[٢].

قلت: كان هذا السيّد غرّة دهره، وشامة وجه عصره، رئيس رؤساء الدولة الحسنيّة، ومدبّر أوامرها وأحكامها السنيّة، برأي ثاقب، وهمّة تزاحم الكواكب، ونسب شريف، وحسب منيف، مع كرم عامّ، شمل به الخاصّ والعامّ.

وكان أيضاً في ذلك الزمان، ناظر النظّار من قبل سلاطين آل عثمان، وأمّا مناقبه وأخباره، فكثيرة لا تحصىٰ، ولو بلغت النهاية في الاستقصاء.

وفاة قطب الدين النهرواني:

وفي هذه السنة: توفّي الشيخ العلاّمة، مفتي مكّة المشرّفة ومؤرّخها قطب الدين النهرواني[٣].

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ١١٣، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٥١.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٤٧، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٥٢.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٤٧، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٥٣.

أقول: وهو العلاّمة قطب الدين محمّد بن علاءالدين أحمد بن محمّد بن قاضي‌خان محمود بن بهاءالدين بن يعقوب القادري الخرقاني النهرواني المكّي الحنفي المشهور بقطب الدين النهرواني، المولود سنة (٩١٧) والمتوفّىٰ سنة (٩٨٨) وله كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، رتّبه علىٰ مقدّمة وعشرة أبواب وخاتمة، ⇩

وفاة الشريف أبي‌نمي :

وفي سنة ثنتين وتسعين وتسعمائة: توفّي السيّد الشريف أبونمي صاحب الترجمة، كما تقدّم ذلك[١] .

ولنقتصر في ترجمة الشريف أبي‌نمي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ علىٰ ذلك، ونسأله التوفيق والسداد في جميع المسالك، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فصل نذكر فيه
ترجمة السيّد الشريف والهمام الغطريف
الشريف حسن بن أبي‌نمي بن بركات

أقول: قد تقدّم لهذا السيّد الشريف ذكر في ترجمة والده الشريف أبي‌نمي، وهنا نذكر ترجمة مطوّلة؛ لأنّها تشتمل علىٰ محاسن قد أعجز شرحها ذوي البيان واللسن، وما محاسن شيء كلّه حسن، قد تضمّنت التواريخ ذكرها، وأدّىٰ لسان الدهر شكرها، وصرفت الأُدباء إلىٰ مدحها أفكارهم، وجلوا في ذلك عونهم وأبكارهم .

وكانت ولادته الميمونة في شهر ربيع من عام اثنين وثلاثين وتسعمائة .

قال الفاضل العصامي في تأريخه: تولّىٰ شرافة مكّة المشرّفة بعد انتقال والده

ـ وأهداه إلى السلطان مرادخان العثماني، وفرغ من تأليفه سنة (٩٨٥) وعندي نسخة مطبوعة من الكتاب طبع في المطبعة العامرة العثمانية بمصر سنة (١٣٠٣) وعندي هناك نسخة أُخرىٰ مطبوعة علىٰ هامش خلاصة الكلام في بيان أُمراء البلد الحرام، للسيد أحمد بن زيني دحلان .

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٤٧ ـ ٣٤٨، وإتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٥٩ .

الشريف أبي‌نمي، أوّل عام اثنين و تسعين و تسعمائة، وذلك بعد وفاة أخيه الشريف أحمد بن الشريف أبي‌نمي، وكان في زمنه يلبس الخلعة الثانية دلالة علىٰ أنّه ولي العهد من بعده[١]. إنتهىٰ.

قلت: قول العصامي هذا يدلّ ـ والله أعلم ـ علىٰ أنّ الشريف حسن كان شريكاً لأخيه الشريف أحمد، ولأبيه الشريف أبي‌نمي، وأنّه كان يلبس الخلعة الثانية دلالة علىٰ أنّه ولي العهد بعد أخيه الشريف أحمد لأبيه الشريف أبي‌نمي.

وهو خلاف ما تقدّم نقله من التواريخ المعتبرة، من أنّ الشريف أبانمي لم يكن عرض لولده الشريف حسن في أن يكون شريكه في ولايته مكّة المشرّفة إلاّ بعد انتقال الشريف أحمد، وذلك سنة إحدىٰ وستّين وتسعمائة، وفيها عرض للشريف حسن، فوصلت الأوامر السلطانيّة بإقامته شريكاً لأبيه، فدعي له على المنابر، وقد ذكرت ذلك فيما سبق في حوادث ترجمة الشريف أبي‌نمي في سنة إحدىٰ وستّين وتسعمائة، فتنبّه لذلك، فقد وهم العصامي.

رجع النقل من التأريخ المذكور، قال: ولم يزل مشاركاً لأبيه أبي‌نمي في الإمرة، مطيعاً له في كلّ نهي وأمر، يدعىٰ له معه علىٰ رؤوس المنابر، كما هو عادة أشراف مكّة المشرّفة كابراً عن كابر، والتوقيعات العثمانيّة إنّما ترد باسمه، والتشريفات الخنكارية[٢] إنّما تصل برسمه، ثمّ استقلّ بعد وفاة أبيه بالشرافة، ورفل في حلل الخلافة.

فلم يزل قائماً بأمرها، شادّاً لأزرها، حامياً حقائقها، ناهجاً طرائقها، فاتحاً

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٣٦١.

(٢) كذا في «د» والسمط، وفي «ن»: الخاقانية.

بجدّه السعيد أغلاقها، مهذّباً بسعيه الحميد أخلاقها، بالغاً غاياتها، ناشراً راياتها، تالياً معجزات آياتها، إلىٰ أن لبس ولده الشريف أباطالب خلعة ولاية عهده، وقلّده الأمر من بعده، وألقىٰ إليه مقاليده من حياته، فقام بالأمر متهيّئاً إلىٰ أحكامه وإشاراته، سالكاً نهج سداده، واقفاً عند مراده، إلىٰ أن توجّه الشريف حسن إلىٰ نجد، وقد اكتفىٰ بولده في تشييد معالم المجد.

فلم يزل ذاهباً إلىٰ أن بلغ محلاًّ يسمّىٰ الفاعية، وهناك دعاه الله إلىٰ لقائه، فأجاب داعيه بعد أن أقام بذلك المكان مدّة من الزمان، توعّك يوم الثلاثاء غرّة جمادي الآخرة، وانتقل ليلة ثالث الشهر إلىٰ نعيم دار الآخرة، وذلك في سنة عشر بعد الألف.

فحمل إلىٰ مكّة المشرّفة صبيحة تلك الليلة، وأجهد السير به بغاله وخيله، وكانت قد أُعدّت قبل ذلك في المنازل، لما علموا أنّ قضاء الله به نازل، فساروا به يوم الخميس والجمعة، ودخلوا به منتصف ليلة السبت، وذلك من غايات السرعة، ويقال: لولا مفارقتهم الطريق، وقد حصل لهم من الظلام وتراكم الغمام تعويق، لدخلوا به يوم الجمعة، مع أنّ المسافة تزيد علىٰ عشرة أيام، وذلك معدود من كرامات هذا القطب الهمام.

وذهب الخبر من حينه المبعوث إلى الشريف أبي طالب، وكان في جهة المبعوث، فبادر بالوصول إلىٰ مكّة المعظّمة، ودخلها ليلة السبت قبل وصول جنازته المكرّمة، وبمجرّد وصولها بادر إلىٰ تجهيزه بالاهتمام، وصلّي عليه قبل الفجر بالمسجد الحرام، ودفن بالمعلاّة الشريفة الشأن، وبني عليه قبّة عظيمة، وهي باقية إلى الآن، مات وله من العمر تسع وسبعون سنة، ومدّة ولايته مشاركاً

ومستقلاًّ نحو خمسين سنة[١]. إنتهىٰ بنهاية التلخيص.

وأقول: كان هذا السيّد الشريف الطاهر، والأيّد في اقتناء المحامد والمآثر، الجامع بين الفتوّة والبسالة، كما جمع جدّه صلى الله عليه وآله بين النبوّة والرسالة، معهداً للكمالات الجليّة، ومعقد خناصر أرباب الهمم العليّة، وقرّة عين الزمان، وغرّة جباة الملوك في ذلك الأوان.

كيف لا؟ وهو درّة تاج الملوك الحسنيّة، وواسطة عقد فرائدهم السنيّة، ومن نبعته الشريفة تفرّعوا، ومن صوب محامدهم الحميدة ملأوا حياضهم وأُترعوا، وفي حجر مساعيه المنيفة شبّوا وترعرعوا، وإلىٰ غايته[٢] البعيدة سابقوا وأُسرعوا.

وكان للعلماء الأعلام، القاطنين ببلد الله الحرام، والوافدين من جميع الأقطار، لقصد الإقامة والاستقرار، عند هذا السيّد الشريف محلّة ومكانة، شيّد كلّ منهم بها من مجده أركانه، أنتج كلّ منهم مصنّفاته برسمه، وتوّج مفارق رؤوسها باسمه، مع تقرّب لديه، وتدرّب لاستنزال غيث فضله من سحائب يديه.

منهم: الفاضل العلاّمة، والقدوة الفهّامة، الإمام عبدالقادر محيي الدين ابن الإمام محمّد بن الإمام يحيى الطبري الحسيني[٣] المترجم في السلافة[٤]، رحمه الله تعالىٰ ورحم أسلافه.

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٣٦١ ـ ٣٧١.

(٢) في «ن»: غاياته.

(٣) في السلافة: الحسني.

(٤) سلافة العصر ص ٤٢ طبع مصر.

فإنّه كان له عنده المقام الأسمىٰ، والمحلّة العظمىٰ، وأغلب مؤلّفاته ومصنّفاته أبرزها إلى الوجود جزيل فضله وهباته[١]، منها: حسن السريرة في حسن السيرة، ومنها: الآيات المقصورة علىٰ أبيات المقصورة، شرح الدريديّة. وله معه وقائع لطيفة، يقصد بها تعظيمه وتشريفه.

منها: أنّه لمّا حضر بشرح الدريديّة لديه، وقدّمها بين يديه، ذكر له أنّه نظم بيتين علىٰ لسان الكتاب هما تأريخ تأليفه بالحساب، وأراه إيّاهما، لينشق عرف رياهما، فقرأهما مولانا الشريف، بعد أن تناول الكتاب بكفّه الشريف، وهما:

أرّخني مؤلّفي ... ببيت شعرٍ ما ذهب
أحمد جودٍ ماجد ... أجازني ألف ذهب

فتلطّف حين قرأهما وتبسّم، وهبّ روح إفضاله وتنسّم، ووضع يده الشريفة علىٰ رأسه كالممتثل لأمره، بعد أن وضع الكتاب في حجره، وقال: على الرأس والعين. والله إنّ ذلك نزر يسير في مقابلته، وإنّي أحمد الله تعالىٰ حيث أوجد مثلك في زمني، ثمّ أنعم بذلك ووهب، وأمر له بألف ذهب[٢].

ومنها: ما وقفت عليه في أثناء شرحه لديوان المتنبّي الذي سمّاه الكلم الطيّب علىٰ كلام أبي الطيّب[٣]، وهو أيضاً ممّا ألّفه باسمه الشريف، عند قول أبي الطيّب:

وأنا منك لا يهنّيء عضوٌ ... بالمسرّات سائر الأعضاء[٤]

---

(١) ومن تأليفاته: نشآت السلافة بمنشآت الخلافة، وقد تقدّم النقل عنه.

(٢) سلافة العصر ص ٥٠.

(٣) راجع: ايضاح المكنون ٢: ٣١١.

(٤) ديوان أبي الطيّب المتنبّي ص ٢٨٧ طبع دار صادر بيروت.

قال: وقد نظمت هذا المعنىٰ في موشحة بعثت بها إلىٰ حضرة من ألّف هذا الكتاب لخزانته العالية، وهو حسن بن أبي‌نمي، وشرحت فيه قصّة اتّفقت بي سنة سبع بعد الألف، وهي أنّه كان لي عبد كبير مسنّ، وله أصحاب من جنسه، فأفسدوه وهربوا به من مكّة، وأدخلوه حمىٰ نجل سيّدنا الشريف المذكور.

إلىٰ أن قال: وكنت عوّلت في استخلاصه علىٰ كاتب حضرته العليّة، الصاحب المجيد فخرالدين الخاتوني، وتوقّف الأمر علىٰ عشره أشرفية للخادم الذي حفظه حسبما يشرح فيها، والقصيدة هي هذه:

هيّجت يا لامعة البروق

ما اكتنّ في جوانح المشوق

بالله إن عاودت بالبريق

حيّ له معاهد الغريق وحيّه أنّهم أشرف حي

واسق بري ربّ هاتيك الربا

وامدد على الفرقد تلك الطنبا

واذكر بخيرٍ من بها قد طنبا

لاسيما من بعلاه أطنبا تفاخراً فهر وكعب بن لؤي

سيّدنا المتحف بالخلافة

بسعيها إذ جاوزت خلافة

مذ رضع المجد لها أخلافة

الحسن الشريف ذو العفافة مفخر آل المرتضىٰ أبي‌نمي

الملك الشهم سليل المصطفىٰ

فخر السلاطين وتاج الخلفا

إمام هذا الدهر من غير خفا

ربّ الجميل في الورىٰ أهل الوفا فهو الجواد الحـقّ لا حـاتم طـي

دع ابن سعدىٰ عنك وابن أمامة

وخلّ ياذا من مضىٰ أمامة

فمن يعادل بالسوي إمامة

لاسـيما العـادل فـي الإمـامة فواجب الخفض بنصب بعد كي

من ذا يساوي آل طٰه وعلي

أو ينتهي لذلك القدر العلي

من ملك أو ملك أو مرسل

إنّ صحيح ذا الحديث المرسل يؤخذ منّي فارو عنّي اسندا لي

فمدحهم ديني العظيم الشيم

تقفينه(١) كلّ ندبٍ شهم

والطبري حجّتي في القدم

شـنشنةٌ أعـرفها مـن أخـزم فنحن أهل البيت لم نعدل بشي

يا فاتح الإسلام بالنبي

ومثبت الولاء للولي

أدم معالي الشهم الأبي(٢)

للحسن الخـليفة المـرضي خير الأنام كلّهم بيتاً وحـي

---

(١) في «ن»: ثقفية.

(٢) في «ن»: الأُمي.

وابق لنا طلعته السنيّة

وذاته المحروسة البهيّة

واهد لنا هباته الرضيّة

في صحّة الإجابة المرضيّة فانّني اتّفقت في ذاك هوي

ومن عداي هام في التشبيب

في زمن الصبوة والمشيب

ولم أهم بما سوى النسيب

في مدح هذا السيّد النسيب مذ كنت طفلاً في مراضي أبوي

ولم أزل أهدي له من الثنا

أبيات مجدٍ معربات في البنا

تشهد بالفضل لمن لها بنا

ما طرقت عند التباهي أذناً إلاّ وقال سامعي زد يا أخي

وكم وكم أتحفه تصنيفاً

وصفته[1] من مدحه ترصيفا

لا أرتضي الغير له وصيفا

يا عاذلي شتياً وصيفا في مربعٍ أغنت ظباه عن ظبي

فالفخر كلّ الفخر ما قد ذكرا

من غير شكٍّ يعتريه ومرا

ولتنهيا إن شئتما أو تأمرا

---

(١) في «ن»: رضعته.

فعدل سلطان الملوك الأُمـرا يفرق ما بين هدي حقّ وغي

أين من الابريز شبه البهرج

أين من الصحيح مشي الأعرج

فالفرق كالصبح الأغرّ الأبلج

إنّ دليل المسك عرف الأرج كم دلّ سارٍ يا غوي بكلّ لي

يا سيّد السادات بأفخر الأُمم

يا صاحب المعروف من أهل الكرم

يا شاهراً للعلم أعلاماً علم

ميّز بحقٍّ بـين أصـحاب الهـمم واصغ لنشر مشتكي من بعد طي

فإنّني شاكٍ إلى العدل الأغر

أمراً عظيم الشأن عندي والخطر

ذكّرني ما كان في شأن نثر

فإنّ لي عبداً شويخاً ذا كبر إذا دعا مولاه قال يا مـلي

مبارك الاسم أغرّ اللقب

لمّا انتمىٰ لعبدك المنتسب

وتلك يا مولاي إحدى النسب

فـعقّني وكـان لي مـثل أبـي في سنّ سبعين سنيناً وشوي

لمّا استحيل من جنوس بازه

يأتونه لفاقةٍ وعازه

يركز كلّ منهم عكازه

ويطلب الضيفة والإجازة أكثرها خبزاً وسمناً ولحي

حتّى انتهوا به إلى المكرّم

سيّدنا السيّد عبد المنعم

وأمّنوه بحلول الحرم

وما رعوا ما قد أتىٰ من حرمي ممّا به استوجب قلباً بعد شي

فأرسل العبد إلى الخاتوني

كاتبك المعتمد الأمين

فشفّع الدعاء بالتأمين

وواجـــه الســيّد كــالمعين ولا معين في الورىٰ غير الذهي

وانحطّ أمر العبد بعد القلقلة

وتعب الرسول مع من أرسلة

وانّها لسيرةٌ مطوّلة

قد شرحت في رسلةٍ مـفصّلة للفخر والإيجاز أولىٰ بالعبي

علىٰ عطاء عشرةٍ أشارفة

من فضّةٍ خالصةٍ مصارفة

وعاد مندوبي برجوىٰ كاسفة

ليس لها من دون هـذا كـاشفة إلاّ الشريف دام بين الحيّ حي

وحقّ فضل السيّد الشريف

والأدب المرقص للشنوف

ما كان ظنّي الردّ بالتسويف

فإنّ قطع الوصـل بـالسيوف أهون من رائح مندوب وحي

مع أنّ مولانا يقيناً يعلم

بأنّ مولى القوم قطعاً منهم

هلاّ رعىٰ ما قد رآه منكم

فيا مليكاً كلّ خيرٍ يختم   به اعف واصفح واردد العبد علي

وعنوان الكتاب:

إلىٰ حمىٰ معاهد الخلافة

والحرم الآمن من مخافة

بملك مدرّبٍ أعرافة

الحسن الشريف ذي العفافة   من أكسب الفخر كفهرٍ وقصي

قال: فردّه أحسن ردّ، سالماً ممّا رسم من ذلك الحدّ، أدام الله دولته العادلة، ومتّع بشيمه الشريفة الفاضلة(١). إنتهىٰ كلامه.

قلت: وقد اتّصل بهذا الملك غير الشيخ عبدالقادر من العلماء الأكابر، ولهم معه جملة من النوادر، غير أنّا سلكنا سبيل الاختصار، لعلمنا بأنّها مدوّنة في كتب التواريخ والأخبار.

إذ قد أخدم هذا السيّد الشريف، الذي لم يزل طود مكارمه العميمة منيف، وظلّ سعادته ومجده وريف، خلق كثير من بني الأدب، فتراهم ينسلون إلىٰ جنابه العالي من كلّ حدب، فأنشأوا الخطب ووشوا القصائد، ونظموا فيه من جواهر القريض قلائد، وأورىٰ كلّ منهم زناد مدحه، فما وفي هذا الممدوح العظيم حقّ حمده، وأجاد في قدحه، وفاز بذلك أمن صيب فضله الهامي بمعلّىٰ قدحه، وهذا شأن الملوك، العارفين بحقائق السلوك.

---

(١) الكلم الطيّب علىٰ كلام أبي‌الطيّب للطبري ـ مخطوط.

ولو أطلقت عنان القلم في مضمار بدائعه وصنائعه، وسيره ووقائعه، وأفعاله وأقواله، وعجائب أحواله، لملأت صفحات هذا الكتاب، ممّا تهنىء[1] له القلوب، وتأنس به أُولوا الألباب، ففي هذا القدر بلاغ كافي، وبيان وافي.

وأمّا عقبه الشريف، فنحو ستّة وعشرين ذكراً، وهم: سالم، وعلي، وأبوالقاسم، وحسين، ومسعود، وباز، وأبوطالب، وعقيل، وعبدالمطّلب، وعبدالله، وعبدالكريم، وعبدالمحسن، وعدنان، وإدريس، وفهيد[2]، وشبّر[3]، وعبدالمنعم، والمرتضىٰ، وهزاع، وعبدالعزيز، وعبيدالله، وجود الله، وبركات، وقايتباي، ومحمّد الحارث، وآدم.

ومن الإناث نحو خمس وعشرين بنتاً لم نذكرهنّ؛ إذ ليس عليهنّ في إيصال النسب عمدة، فإن أردت الإلمام بأسمائهنّ الشريفة، فعليك بوسيلة المآل تجدهنّ مفصّلات فيه[4].

ولنشرع الآن في الحوادث بعد الفراغ من ترجمته العليّة، ففي ذلك فوائد سنيّة، يعرف مقدارها ذووا الأنظار الجليّة.

فصل في الحوادث

وقد وقفنا في ترجمة الشريف أبي‌نمي علىٰ سنة ثنتين وتسعين وتسعمائة، وهي سنة وفاته، واستقلال الشريف حسن صاحب الترجمة، ثمّ استمرّ إلىٰ سنة

---

(١) في «ن»: تهشّ.

(٢) في السمط: وفهد.

(٣) في السمط: وشنبر.

(٤) وسيلة المآل ص ٩٢ مخطوط، وراجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٧٢.

عشر بعد الألف، وعندها نقف إن شاء الله تعالىٰ، وهي ابتداء دولة الشريف أبي طالب الآتي ذكره الشريف.

بنايات وعمارات بمكّة:

ففي سنة أربع وتسعين وتسعمائة: أرسل السلطان مراد مصطفىٰ شاووش لهدم بيوت في مكّة، ومدارس كانت في طريق السيل من جهة اليمن، وهي المقابلة الآن للصفا، ممتدّة إلىٰ جهة السوق الصغير، فهدمت وبنيت أروقة بطواجن، يأوي إليها الفقراء والغرباء، كيلا يباتوا في المسجد، وبنىٰ أيضاً سبيلاً يشرب منه خارج باب الصفا، وتحته حنفية[١] للوضوء، وبنىٰ أيضاً حنفية أُخرىٰ في جدار مدرسة قايتباي في المسعىٰ[٢].

وفي سنة خمس وتسعين وتسعمائة: تمّت عمارة هذه الأشياء[٣].

وصول خيرات من السلطان مراد لأهالي مكّة:

وفي سنة ثمان وتسعين وتسعمائة: وصلت خيرات من السلطان مراد لأهل[٤] مكّة المشرّفة، وأُلحقت بدفتر الجديدة المعروف، ولم تزل تتزايد إلىٰ أن بلغت عشرة آلاف دينار.

---

(١) الحنفية: أُنبوبة ذات لولبٍ تزجّ في ثقب من الحوض لاستفراغ الماء منه عند الحاجة، وهو ما يسمّىٰ الآن بالبالوعة.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٦٥ ـ ٥٦٦.

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ١: ٥٦٧.

(٤) في «ن»: لأهالي.

وصول الشريف مسعود إلىٰ مكّة :

وفي سنة إحدىٰ وألف: حضر بمكّة المشرّفة الشريف مسعود بن الشريف حسن أمير مكّة الآتي ذكره، وكان نائباً عن أبيه الشريف حسن وهو غائب، وحضر لمحضره أكابر العلماء والأعيان، وقيس طول الكعبة من داخلها ليصنع لها ثوب، فصنع وأُرسل إلىٰ مكّة المشرّفة، ووضع لها من داخل، وكان سبب ذلك ورود أمر سلطاني بذلك[١] .

وفي سنة ثنتين وألف: جدّد ترخيم المطاف الشريف[٢] .

وفاة السلطان مرادخان :

وفي سنة ثلاث بعد الألف: توفّي السلطان مرادخان بن سليم خان، وولي السلطنة بعده ابنه السلطان محمّد خان[٣] .

لبس الشريف ثقبة الخلعة :

وفي سنة ستّ وألف: أرسل الشريف حسن صاحب الترجمة إلىٰ أخيه السيّد ثقبة يلتمس منه أن يلبس خلعته من أُمراء الحجّ أكبر أولاده مسعود بن حسن، وأقام هو بركبة في جهة الشرق، فلمّا كان يوم المختلع لبس الشريف ثقبة الخلعة ولم يشر إلىٰ مسعود، فاغتاط مسعود لذلك ورجع مقهوراً، ومات بعد ذلك بمدّة يسيرة، وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالىٰ[٤] .

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٦٥ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ١١٤ ـ ١١٥ و ٣٦٦ .

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

وفاة الحكيم داود الأنطاكي :

وفي سنة ثمان بعد الألف: توفّي العالم العلاّمة الفاضل الحكيم داود بن عمر الأنطاكي صاحب التذكرة، اجتمع بالشريف حسن صاحب الترجمة بمكّة المشرّفة، وله معه محاورات ولطائف، وكان آية في الحذق والنباهة .

من جملة ذلك: أنّه حضر بمجلس الشريف المذكور، فأمر الشريف أحد إخوانه يمدّ يده ليجسّها علىٰ أنّها يد الملك، فلمّا جسّها قال: ليست هذه يد الملك، فأعطاه الأُخرىٰ، فقال له: وهذه أيضاً ليست يد الملك، فأعطاه الشريف حسن يده، فقبّلها وقال: هذه والله يد الملك، فانظر إلىٰ فطنته وذكائه مع كفاف نظره، فرحمه الله تعالىٰ[1] .

وفاة الشريف ثقبة :

وفي هذه السنة: توفّي السيّد الشريف ثقبة بن أبي‌نمي أخي الشريف حسن[2] .

قلت: وهذا ثقبة هو جدّ السادة الموجودين في زماننا هذا، ويقال لهم: آل ثقبة، وذووا ثقبة، بعضهم بمكّة المشرّفة، وبعضهم في البرّ، كثّر الله منهم وأيّدهم .

ولاية عهد الشريف أبي طالب :

وفي هذه السنة: التمس الشريف حسن صاحب الترجمة من السلطان محمّد بن مرادخان أن تكون إمارة مكّة المشرّفة في أكبر أولاده وأرشدهم، وهو السيّد الشريف أبو طالب بن السيّد حسن الآتي ذكره العالي .

وفي سنة تسع بعد الألف: وصل الأمر العالي من السلطان محمّد بولاية الشريف

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٦٨ .

أبي طالب المذكور شريكاً لأبيه الشريف حسن بن أبي‌نمي صاحب الترجمة.

وفاة الشريف حسن:

وفي سنة عشر بعد الألف: توفّي الشريف الحسن صاحب الترجمة، كما تقدّم ذلك في أثناء الترجمة، والله تعالىٰ أعلم[1].

فصل فريد وعقد نضيد
ترجمة السيّد الشريف أبي طالب بن الشريف حسن ابن الشريف أبي‌نمي

أقول: هذا سيّد تولّىٰ شرافة مكّة المعظّمة، وتحلّىٰ بعقود الرئاسة المنظّمة، وملك أعنّة المجد وزمامه، حتّىٰ صار إمامه، مع صيت ملأ الأقطار، وبلغ الغاية القصوىٰ من الاشتهار، وسار مسير الشمس في كلّ بلدة، وهبّ هبوب الريح في البرّ والبحر، وأخلاق حميدة، وآراء سديدة، وأفكار رشيدة، وعزمات إسكندريّة، وسطوات حيدريّة، وكرم يهزأ بالغيث الهاطل، وعمارة لربوع العدل والأمان بعد أن كانت عواطل، وهمّة تزاحم النجوم الثواقب، وفطنة أحرز بها غرر المناقب، فرحمه الله تعالىٰ، وأفاض عليه شآبيب غفران توالىٰ.

قال الشيخ عبدالملك العصامي في تأريخه، إلاّ أنّي نقلت ذلك بالمعاني، وطرحته جوف هذه المباني: تولّىٰ مولانا الشريف أبوطالب، وجدّه السعيد وأمره الغالب، وذلك بعد وفاة والده، فهو بولاية عهده، وقيامه بالأمر من بعده، قد استولىٰ علىٰ طريف المجد وتالده، وأحواله العجيبة، وأوضاعه الغريبة، وصولته القاهرة، وولايته الباطنة والظاهرة، وصوادق كراماته الخارقة، وصواعق عزماته البارقة،

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٧٠.

أشهر من أن تذكر، وأعرق من أن تنكر .

دوّخ البلاد في الأقاصي والأداني، وملك الرقاب والنواصي، واستولىٰ علىٰ الحصون والصياصي، وأذلّ بقهر سطاه المناصي، وجعل أرض خطاه خدّ المعاصي، وله في الكرم أخبار وآثار، ضارعت شهرة شجاعته في النقع المثار .

مولده في جمادي الأُولىٰ سنة ستّ وستّين وتسعمائة، ولبس خلعة ولاية العهد سنة ثمان بعد الألف، واستقلّ بالأمر عام عشر بعد الألف، كما تقدّم .

واستمرّ في الملك إلىٰ أن كان يوم الثلاثاء حادي عشري جمادي الآخرة سنة اثنتي عشرة وألف. وصل إلىٰ مكّة خبر وفاته، فدهي شمل المجد بشتاته، ومني حبل السعد ببتاته، وكان بمحلّ قرب بيشة[١]، ووصلوا به ضحوة يوم الأربعاء ثاني عشري الشهر المذكور، وقد حثّوا السير في الإدلاج والبكور، ودفن بالمعلاّة، وبني علىٰ ضريحه قبّة[٢]. إنتهىٰ ملخّصاً .

أقول: ومن عجيب أمر هذا السيّد الجليل، أنّ أكثر هذا العالم إلاّ القليل يعتقده بنية خالصة من قلبه، ويتّخذه حجّة ووسيلة بينه وبين ربّه، وما ذاك عن ضعف عقل ودين، لهؤلاء المعتقدين، بل إنّما نشأ ذلك الاعتقاد بعد ظهور الأسرار الخارقة لبصائر العباد، مع أنّه كان ملكاً ظلوماً، وجبّاراً غشوماً، طالما قتل وسلب[٣]، من غير ذنب ولا سبب[٤]، فما أدري هل هذه ولاية؟ أم لعقول هذا الخلق غواية،

---

(١) بيشة: قرية من بلاد اليمن .

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٣) في «ن»: وصلب .

(٤) لم يذكر أرباب التواريخ أنّه كان جبّاراً غشوماً، بل صرّحوا بشفقته على الرعيّة،

ولأبصارهم عماية، فلله عزّوجلّ في ذلك إرادة، يستدرج بها عبادة .

ومن العجب العجائب: أنّ جميع البادية والأعراب، يقسم بربّه كاذباً، وإذا أُمر بأن يقسم به ولّىٰ هارباً، وأمّا قبّته الشريفة، المحتوية على الأسرار المنيفة، فحمي كليب بن وائل، يستجير بها السارق والقاتل، والمطرود لجميع القبائل، ولا يسمع في اللائذ بها قول قائل، حتّىٰ يخرج منها ويبعد عنها، فسبحان الكريم الوهّاب، المعطي من غير حساب، فليعتبر أُولوا الألباب، والله سبحانه أعلم بالحقائق، في العظائم والدقائق .

فصل غريب وأصل عجيب

ترجمة السيّد الجليل والسند الأصيل، المستنيء من كهف الشرف الأثيل ظلّه الضليل الشريف إدريس بن الشريف حسن

قدّس الله سرّه وأعظم صلته من الرحمة وبرّه

تولّى الشريف إدريس مكّة المشرّفة بعد وفاة أخيه الشريف أبي‌طالب في سنة اثنتي‌عشرة وألف، واستمرّ بها مشاركاً لابن أخيه الشريف محسن بن الشريف حسين بن الشريف حسن، ولأخيه في محاصيل ربع البلاد الشريف فهيد بن الشريف حسن اثنين وعشرين سنة، وكانت وفاته رابع عشر جمادي الأُولىٰ من سنة أربع وثلاثين وألف .

وكان مولده الشريف في ذي‌القعدة سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وكان يكنّىٰ

---

١. قال العصامي: وتأسّف الناس علىٰ فقده إلى الغاية، فإنّه كان كريماً ليس له نظير في أهل بيته، ثمّ قال: وأمّا إعطاؤه الألف الذهب وأمثالها فكثير. نعم كان مهاباً له هيبة وشهامة عظيمة تهابه الناس. راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٣٩٤.

أبا عون .

وأمّا شرح مبدأ حاله وكيفيّة استقامة أحواله مع هذين الشريكين، والشريفين المليكين، وما وقع بينهم من العناد الباعث لجلب الفساد، في تلك البلاد، ثمّ ما استقرّ عليه الحال، وزوال تلك الفتن والأهوال، فلذلك نقل طويل ينطوي علىٰ عدّة أقاويل، لم أورده خوف الإطالة، الجالبة للملالة، والشرط أملك عليك أم لك، فإنّ هذا شيء قد هذّبه إمام الأدب ورتّبه، وهو الشيخ عبدالملك في تأليفه، بعد أن أتعب نفسه في توليته، فعليك به تجد ذلك مفصّلاً وأصلاً مؤصّلاً[١] .

ثمّ أقول: إنّ هذا السيّد الشريف الماجد، صفوة الملوك الأماجد، كان منتجع الرحال، ومصطنع الرجال، ولي مكّة المشرّفة فاقتادها، وأحلّته الشرافة فؤادها، مع صولة قاهرة، وعزمة باهرة، غدت غرّته بها سافرة، وكرّته ظافرة، خدمه جماعة من الأُدباء فشغف ببضاعتهم وصبا، وهبّت به ريحهم شمالاً وصبا، قامت به سوق أهل العلم، فاستقوا في حلبة الفكر حتّىٰ أحرزوا القصبا .

مدحه فاضل زمانه، ومفرد عصره وأوانه، الأديب الأريب، المحيي آثار ابن عبّاد وابن قريب، القاضي تاج الدين المالكي، لمّا عرض له في وظيفة الخطابة بالمسجد الحرام، وألبسه القفطان يوم مباشرته لها، وذلك لتسع عشرة ليلة خلون من شهر رمضان عام ثمان وعشرين وألف، بقصيدة لو رآها أبوالعلاء لوقف دونها متأمّلاً، أو رام شرحها ابن الأثير لأحجم، وهو كالحائر الأسير، وسأثبتها لك بتمامها، لتجتني من حدائقها مفتحات كمامها، وهي هذه :

زها بك دست الملك والتاج والعقد   غداة إليك الحلّ أصبح والعقد

---

(١) سمط النجوم العوالي للعصامي ٤: ٤٠٠ ـ ٤٠٤ .

مـــطاعاً بــعطف الله بــعد رســوله ... أُولي الأمـر فـالعاصي لأمـرك مـرتدّ
أبــا شــرفٍ إدريس مــنتخب العُـلا ... أبا الشـرف الوضّـاح غـيرك والمـجد
لقد خطبت[١] شمس الخـلافة بـدرها ... فـقارنها فـي الأوج والطـالع السـعد
قــنصت العُـلا بـالزاعـبية واللـهىٰ[٢] ... هــما شــركاها لا الأمــاني والوعـد
وقــمت بــعبءٍ آد غــيرك حــمله ... مــنال المــهاري ليس تـدركه الربـد
وشرّفت دست الملك حين حـللته ... ومــرقاتك المـرقال والفـرس النـهد
فكــنت بـه إدريس إذ رقـىٰ ... مكــاناً عــلياً خــصّه الصـمد الفـرد
وكــنت ولم تــفتتن سـليمان إذ دعـا ... فــأُوتيت مــا لا يــنبغي لفـتىً بـعد
ومــا لم يــنله غــير آبــائك الأُلىٰ ... ربوع الندا شادوا وأزر[٣] العلا شـدّوا
ملوكُ هـم الأنـياب للـملك والسـوىٰ ... إذا نســبوا كــانوا الزوائـد أو عـدّوا
تــولّوا وأفــضىٰ مــلكهم لمـحجّبٍ ... تــصادم تــيجان المــلوك إذا يـبدو
تأخّـر عـصراً فـاستزاد مـن[٤] العُـلا ... كما زاد[٥] بـالتأخير مـا تـرقم الهـند
وأصبح عـطلاً جـيد مـن رام عـقدها ... سـواه وأضـحىٰ يسـتضيء بـه العـقد
تــفرّد طـود المـلك بـالمجد جـامعاً ... مــزايــاه فـهو الجـامع العـلم الفـرد
رأىٰ أن عَــــدته خُـــلّة مــنه خَـــلّة ... فــصيّره قــصراً عــليه فــلا يــعدو

---

(١) في السمط: طلبت.

(٢) في السمط: والنهىٰ.

(٣) في السمط: وزند.

(٤) في السمط: فاستزادك في.

(٥) في السمط: ازداد.

فيا ملكاً بالفضل أذعن ضدّه ... وما الفضل إلاّ ما أقرّ به الضدّ
بك الدست يزهو يوم سلمك والبرد[١] ... ويوم الوغىٰ يزهو بك السرج والسرد
وما زلت في حاليك سلمٍ وضدّه ... عليك رواق الملك[٢] يرفع والبند
فيشقي بك الجاني ويسعد مخفقٌ ... ويأمن مطرودٌ وترهبك الأُسد
إذا بيّت الأعداء أمراً تضاءلت ... لدىٰ خطبه الآراء واستتر الرشد
وترت قويم الفكر قوساً لوترهم ... وأنفذت سهم الرأي ليس له ردّ
وحكّمت فيهم قاضياً غير مغمدٍ ... من[٣] العزم لم يكهم له أبداً حدّ
وقدت من القود الجياد مقانباً ... إذا طلبت يدنو بتقريبها البعد
وغلّ إلى الأعناق أيدي بطشهم ... من الرعب جيشٌ لا تشام له جند[٤]
فأحياهم في الأرض موتىٰ كأنّهم ... عليهم وقد ضاقت بما رحبت لحد
سجايا أبيٍّ لا يجار طريده ... ولا راع يوماً جار غفوته طرد
مليكٌ هو الطود الأشمّ للائذٍ ... هو البطل الطعّان[٥] والأسد الورد
جوادٌ له في المال صولة ثائرٍ ... تحكّم في الجاني وأحفظه الحقد
طوت نحوه بالوفد كلّ تنوقةٍ ... نجاة نجد[٦] الأرض من وخدها خدّ

---

(١) في السمط: والندىٰ.

(٢) في السمط: المجد.

(٣) في السمط: هو.

(٤) في السمط: جيشٌ ليس تكبو له جرد.

(٥) في السمط: المطعان.

(٦) في السمط: بخات بخدّ.

وجـاد فـلم يـفقد مراماً بـجوده   فقل عوضاً عن جادٍ قد فقد العقد

هو البحر عذبٌ للموالي وللعدىٰ   عذابٌ لهم من لجّه الجزر والمدّ

هو الغيث يهمي للولي وليّه   فينبت إلاّ أنّ منبته الحمد

ويعدو العدىٰ وسمى هامي ربابه   وتبلغها منها الصواعق والرعد

أخا الجود قد قلّدت جيدي ودون ما   تقلّدت أعناق المطامع تنقد

وأمطيتني من كاهل العزّ مركباً   تريني ذكاً كالغور صهوته النجد

فقمت خطيباً في المحامل[١] بالثنا   وبالشكر أتلو ذا وذاك به أشدو

ينافسني قومٌ شأوت وقصّروا   وما كظليع ظالع[٢] خلفه يعدو

ويبخس منهم درّ نظمي زعانفٌ   فوا عجباً من أين للنقد النقد

سماء سمات الفضل لفظي نجمها   ولم يخفه ألاّ ترىٰ ضوءه الرمد

وإنّي لما خوّلت أهلٌ ولم أكن   كقول حسودٍ إنّما أسعف[٣] الجدّ

ولست به لا غير أسمو[٤] وإن يكن   هو الفخر يوم الفخر والشرف العدّ

ولكن بنفسي والعبوديّة التي   بها شرف الآباء من قبل والجدّ

وإنّي لأرجو منك ما نال من مضىٰ   ولا عجبٌ إن عزّ بالسيّد العبد

بقيت بقاء الدهر فينا مملّكاً[٥]   بك التاج يزهو والغلائل والبرد[٦]

---

(١) في السمط: بالمحافل.

(٢) في السمط: كضليع ضالع.

(٣) في السمط: أسعد.

(٤) في السمط: ولست مدلاً حين أسمو.

(٥) في السمط: مؤمّلاً.

أقول: وعارض هذه القصيدة سيّدنا الوالد دام بقاه، بقصيدة دالية علىٰ هذا الوزن والروي، وضمّنها بعض أشطار من هذه القصيدة، مدح بها السيّد الشريف أحمد بن غالب، أحد ملوك مكّة المشرّفة الآتي ذكره المعالي، وسأثبت لك هذه القصيدة في ترجمته الشريفة إن شاء الله تعالىٰ إذا وصلت إليها.

فصل مسدّد وعقد منضّد

ترجمة السيّد الشريف السامي، والأيّد في اكتساب الحمد النامي، بصيب كرمه الهامي، الشريف محسن بن الشريف حسين بن الشريف حسن

أقول: كان بين هذا السيّد الشريف وبين عمّه الشريف إدريس بن حسن رحمهما الله تعالىٰ رحمات توالىٰ، في آخر أمرهما بعد أن كاناكشخص واحد في الاتّفاق، وعدم النفاق، والمصافاة والصداقة، وسعىٰ كلّ منهما في مراضي صاحبه بقدر الطاقة، ولم يزالا كذلك في جميع الأحوال، متشاركين في الشرافة وما تدخله مكّة من الأموال، ثمّ الدعاء لهما على المنابر، واقتران اسميهما في جميع الموارد والمصادر.

إلاّ أنّه كان لهما شريك ثالث في محاصيل ربع البلاد فقط غير مشارك لهما فيماعدا ذلك من الدعاء على المنابر، وحماية الأقطار والمسالك، وهو السيّد الجليل فهيد ابن الشريف حسن، فلم يزل معهما علىٰ ذلك حتّىٰ خلع من ربعه، وقنع بأن يسكن بمكّة المشرّفة في ظلال ريعه، فمنع من ذلك الأمر، فأخذ مهلة شهر، ثمّ فارق مفارقة الدهر، وخرج من مكّة سنة تسع عشرة وألف، فتوجّه إلىٰ

---

(٦) سمط النجوم العوالي ٤: ٤١٥ ـ ٤١٧.

بلاد الروم، رجاء أن ينال ما يروم.

فقيل: إنّه أُنيل الملك لولا أن بادرت باختطافه يد الهلك، فتوفّي سنة إحدىٰ وعشرين وألف في تلك الأقطار، وأُرّخ انتقاله بشطر من جملة الأشطار، وهو «مات بالروم فهيد بن الحسن».

عوداً إلىٰ ذكر صاحب الترجمة، أفاض الله عليه شآبيب غفرانه المنسجمة:

قال العلاّمة الشيخ عبدالملك العصامي في تأريخه: ثمّ استمرّ الشريف محسن مشاركاً في الأمر لعمّه، صارفاً إلىٰ طاعته، وضمّ جماعته كلّ همّه، وهما كالنيّرين المشرقين، والفرقدين المتّفقين، يتعاضدان في المهمّات ويتناصران، ويصطحبان في الغزوات ويتباصران، تهبّ بينهما نسائم المصافات قبولاً وشمالا، وكلّ منهما لصاحبه يمين وشمال، والبلاد بهما آمنة مطمئنّة، والنفوس راضية مرضية مستكنّة.

إلىٰ أن قال: حتّىٰ أذنت بالتغير والاستحالة، ومراد الله واقع لا محالة، فشرعت آثار انقلاب النصل إلى الصيف بعد الربيع، وظهرت أمارات انتقالات النيّرين بعد التثليث والتسديس بالمقابلة والتربيع.

وهو أن اتّفق أهل الحلّ والعقد، وكلّ من ينتظم في هذا العقد، من السادة الأشراف، والعلماء الأعيان، الذين لهم النظر والإشراف، فجزموا برفع إدريس عن ولاية الحجاز، ونصبوا بينه وبين تصرّف عوامله المؤثّرة في ذلك أمنع حجاز، وفوّضوا الأمر إلى الشريف محسن بالحتم والانجاز، ووجّهوا[١] بالعزم تلك الحقيقة حين سلكوا ذلك المجاز.

وأوّل ما ظهر من هذا الأمر، واشتهر بين زيد وعمرو، يوم الأربعاء ثالث شهر

---

(١) في «ن»: وحموا.

محرّم الحرام سنة أربع وثلاثين وألف، فوقعت بينهما المنافرة، وامتلأت البلاد بالأراجيف المتظافرة، وحاولوا ثاني ذلك النهار، بالمنادات للشريف محسن والإشهار، فصدّ المنادي وحماته الأنجاد، وردّهم بالبنادق بعض الأجناد، الموزّعين من جانب الشريف إدريس في الأرصاد، فرجعوا ذلك اليوم ولم ينفذوا القضاء، بعد أن أُصيب بعضهم من رمي البنادق فقضىٰ.

ثمّ لمّا كان الضحىٰ تبادروا إلىٰ ذلك بالوحاء، فركب الشريف أحمد بن عبدالمطّلب والمنادي معه، تحفّ به خيل ورجال متجمّعة، فأشهروا النداء للشريف محسن بين كلّ أحد، والشريف محسن حلّ بالبلد، والناس من خوف الفتنة في أشدّ محنة وكبد.

إلىٰ أن قال بعد كلام طويل ما علىٰ نقله تعويل: ثمّ قام بالأمر الشريف محسن، فأحسن كما أحسن الله إليه، ونهض من إحكام الأحكام بما وجب عليه، فصفت من الأمن مناهله، ووضحت من طريق الجهل مجاهله، ونشر لواء العزّ، فوطأت أكباد العصاة جنوده وصواهله، وكان علىٰ كافّة الأحوال شديداً بأعباء الخلافة كاهله[1]، إلىٰ آخر ما ذكره العصامي في تأريخه ملخّصاً.

أقول: كان هذا السيّد الشريف الماجد، قبلةً لكلّ قاصد ووافد، وسم في سباسب[2] كرمه لأهل العلم مشاعر، فحجّ إليها كلّ أديب شاعر، ووسم قلوب الملوك الأعاظم، بميسم الرهبة، فغدا كلّ منهم ناشراً لمدحه وناظم، وبسم له الدهر عن ثغر الإقبال والسعادة، فمنح من شاء برّه وإسعاده، نحت نحوه العلماء فأقبل

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤١٣ ـ ٤١٨.

(٢) السبسب: المفازة، يقال بلد سبسب وبلد سباسب.

عليهم، ووجّه همّته العليّة إليهم، فواصل صلاتهم، وقاموا بخدمته قيامهم بصلاتهم، وهم علماء أماجد، وفضلاء لهم في بقاع العلم مساجد.

منهم: العالم الشهير، والمسائل[1] بالفضل الأثير، الشيخ أحمد بن الفضل باكثير، فقد خدمه هذا الفاضل العلاّمة بتأريخه الذي طلع في الدهر غرّة، ولوجه العلوم علامة[2]، وهو وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل، فلقد صدق العصامي، حيث قال: أبدع فيه وأغرب، وسلّط عوامل فكره علىٰ معمولات الأدب فأعرب. إنتهىٰ.

ومدحه بقصائد طنّانة، أناف بها ذكره، وشيّد أركانه، فإن أردتها فحثّ ركائب همّتك إليها، تجد الوسيلة قد انطوت عليها، ولولا خوف التطويل لأوردتها لك بالتفصيل.

ومنهم: وجيه الدين وصدر الإسلام، وشيخ مشايخ بلد الله الحرام، الشيخ عبدالرحمٰن المرشدي، فإنّه حلّ عند الشريف محسن بن حسن المحلّ الذي يحلّه من الجفن الوسن، فاغتذىٰ من لبان إقباله، في مهاد رأفته وتحت ظلاله، وله فيه المدائح الحسان، التي لم يحم حول بلاغتها زهير ولا حسان.

وبالجملة فقد خدم هذا السيّد الشريف خلق كثير من العلماء وغيرهم، فأحرزوا به نهاية التشريف، فرحمه الله تعالىٰ ورحم أجداده، وسقاه من صوب غفرانه صيب السعادة.

ثمّ إنّه ليملكني الإعجاب، من كتاب صعد جوّ البلاغة فغاب، كتبه الشيخ

---

(١) في «ن»: والمساير.

(٢) في «ن»: غلابة.

عبدالرحمٰن المذكور إلى الشريف محسن بن حسن، حين صالح عـمّه الشـريف إدريس، فأزال ما كان بينهما من الفتن، وذلك في سنة ألف ومائة وخمس عشر، هكذا وجدت في سلافة العصر (١)، والظاهر أنّ هذا الصلح وهما بالبلاد، إلاّ أنّه وقع بينهما شيء من التضادّ، وهذه صورة ما كتبه إليه، وعرضه عليه:

يقبّل الأرض مهنّئاً بما عمّ بشره كافّة البشر، ورفعت له فـي قـلوب الرعـايا رايات الفرح والظفر، ودقّت له نوبات التهاني، وبلغت به نفوس (٢) الأوداء غاية الأمل والأماني، وأنشد لسان الحال في (٣) الارتجال:

حسم الصلح ما اشتهته الأعادي ... وأذاعـــته ألســـن الحسّـــاد

وأرادتـــه أنـــفس حـــال تـدبير ... ك مـــا بـــينها وبـــين المـــراد

فلعمري لقد كانت الداهية الدهيا، والصاخّة العميا.

فكيف يتمّ بأسك في اناسٍ ... تصيبهم فـيؤلمك المـصاب

هل أنتم إلاّ نفسٌ تفرّقت في أجسام، ونفسٌ تصاعد من أخشام.

لأعدا الشرّ من بغي لكما الشرّ ... وخصّ الفسـاد أهـل الفسـاد

أنتما مـا اتّـفقتما الجسـم والر ... وح فـلا احـتجتما إلى العـوّاد

فوالله لقد ناجتني بذلك نفسي، وقرطس في غرض الإصـابة سـهم حـدسي،

---

(١) سلافة العصر ص ٧٠، وفيه: عام خمس عشرة بعد الألف، فلا يـرد عـليه مـا أورده، ولعلّ نسخة المؤلّف من السلافة كانت فيها زيادة «ومائة» سهواً من النسّاخ، والعجب أنّ في نسخة «ن» ليست فيها كلمة «ومائة».

(٢) في السلافة: أنفس.

(٣) في السلافة: على.

وكنت جازماً بأنّ هذه الحالة لا تستقرّ، وأنّ نار الحرب بينكما لا تستعرّ، أنّىٰ يتمّ ذلك وأنتم السنم رصانة، التي لا توازيها الاطّراد ثباتاً ورزانة، لستم ممّن يستخفّه الطيش ويستثيره، ولا ممّن لا ينظر فيما يقتضيه قبيل الأمر ولا دبيره، بل أنتم ممّن جبل على الرحمة والرأفة، واستحكمت بينكما اللحمة والأُلفة، وتواصلت بينكم الأرحام، وحفظ فيكم الذمام.

منع الودّ والرعـاية والسـؤ ... دد أن تـبلغا إلى الأحـقاد
وحقوقٌ ترفق القلب للقلب ... ولو ضمّنت قلوب الجـماد

حتّىٰ أنّي كنت ممّن يشاهد هذا الأمر من كتب، ويحقّقه تحقّق من سطر وثائقه وكتب، فأرّخت ذلك بقولي «عاقبة الأمر هو الصلح» فكان فالأجاء كفلق الصبح، فالحمد لله الذي أبدل الضرّاء بالسرّاء، وأزال عن المسلمين البأس والبأساء، وجمع بكم شمل السيادة، وحرس بكم بلاده.

فـغدا الدهـر[(١)] بـاهراً مـن رآه ... شـاكـراً مـا أتـيتما مـن سـداد
فيه أيـديكما عـلى الظـفر الحـلو ... وأيـدي قـوم عـلى الأكـباد
هـذه دولة المكـارم والرأ ... فـة والمـجد والنـدىٰ والأيـادي
كسفت سـاعة كـما تكسـف الشـ ... ـمس وعادت فنورها في ازدياد

فلله درّ أبي الطيّب كأنّما شاهد هذه الواقعة، فوضع هذا الدرّ مواضعه، فلا بدع للمتنبّي أن يخبر بالمغيبات، وحدّث عمّا هو آت، وكان ذلك ممّا له من المعجزات، والآيات البيّنات، فالله تعالىٰ يصون شملكم عن التفريق، ويوشي شملكم بطراز

---

(١) في السلافة: الملك.

الوفاق والتوفيق، ويمتع بكم الرعايا، من كافّة البرايا، والسلام على الدوام[١].

وممّن مدحه بالنظم الفائق، والنثر الرائق، الفاضل العلاّمة، الشيخ عبدالقادر الطبري، المتقدّم ذكره، فمن جملة مدائحه التي هي ببركات تفضّلاته ومنائحه، قصيدته النونيّة النائل بها أشرف الرتب السنيّة، وهي التي مطلعها:

لا والنواعم في خدود العين ... ما احتجت في حمل الهوىٰ لمعين

ولولا طلب الاختصار وخوف الإطناب، لأوردتها لك برمّتها في هذا الكتاب؛ لأنّها كلّها غرر ودرر، وآيات في البلاغة وسور، وإن أردت الإشراف عليها والإطلال، فهي مسطرّة في وسيلة المآل[٢].

قال فيها عند ترجمة هذا السيّد الشريف: فممّن خدم خزانته العالية، وقصد سدّته السامية، بالتصنيف الفائق، والشعر الرائق، عند بابه، وخادم جنابه، المتشرّف بالنسبة إليه عند الانتساب، العبد الفقير مؤلّف هذا الكتاب، فإنّي خدمته بهذا الكتاب الذي لم يسمح بمثله الزمان، ويأمن مؤلّفه أن يعزّز لعلوّ محلّه شأن، ومدحته بجملة من القصائد، وهي في جيد الزمان قلائد[٣]. إنتهىٰ.

وممّا أورد لنفسه من المدائح السنيّة، قصيدة يعجز أن يأتي بمثلها ابن الفريّة[٤]، لأنّها حوت من البلاغة، وإتقان الصناعة، ما يشهد له بالقوّة في النظم

---

(١) سلافة العصر ص ٧٠ ـ ٧٢.

(٢) وسيلة المآل ص ١٠٢ ـ ١٠٤ مخطوط، وأورد القصيدة أيضاً بتمامها العصامي في كتابه سمط النجوم العوالي ٤: ٤٢٤ ـ ٤٢٦.

(٣) وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل للحضرمي ص ٩٨ مخطوط.

(٤) في «ن»: ابن القرية.

والبراعة؛ لأنّها احتوت علىٰ نمط التشجير، لأنّه ضمّنها ثلاث آيات وتأريخاً، ولولا خوف الإطالة المورث للملالة لأوردتها لك .

وولد هذا السيّد الماجد في جمادي الأُولىٰ سنة أربع وثمانين وتسعمائة، وتوفّي سنة ...[١] والله أعلم .

فصل عظيم وعقد نظيم
ترجمة السيّد الشريف أحمد بن الشريف عبدالمطّلب ابن الشريف حسن رحمه الله تعالىٰ

استولىٰ علىٰ شرافة مكّة المعظّمة سنة سبع وثلاثين وألف، ودخلها متوجّهاً إليها من جدّة، ضحى اليوم السابع عشر[٢] من شهر رمضان من السنة المذكورة .

وقصّة مبدأ حاله، واخضلال روضه بعد إمحاله، هو أنّ للدهر عبر، في كلّ مبتدء وخبر، وهو في ذاته أهل لما نال، إلاّ أنّ العجب من مقتضيات الأحوال .

وذلك أنّه ورد في آخر شهر صفر من السنة المذكورة إلىٰ جدّة الوزير أحمد باشا متولّياً الجهات اليمنيّة، وكان قد انكسر مركبه قرب جدّة، وغرقت جميع أمواله، فأرسل إلى الشريف محسن بهديّة، ثمّ نزل إليه الشيخ عبدالرحمٰن المرشدي بمكاتيب من الشريف محسن، فأقام عنده أيّاماً .

---

(١) بياض في النسختين، وتوفّي الشريف محسن في شهر رمضان سنة (١٠٣٨) كما ذكره العصامي في السمط النجوم العوالي ٤: ٤٢٩، وزيني دحلان في كتابه تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص ١٥٢، قال: وتوجّه محسن إلى اليمن وتوفّي هناك سنة (١٠٣٨) .

(٢) في «د»: السابع من شهر رمضان .

ثمّ إنّ الباشا طلب من حضرة الشريف محسن الإعانة، فشرعوا في تدبير ما يرسل إليه، وطلب غوّاصين لإخراج ماله، فغاصوا فلم يخرجوا شيئاً، فتخيّل الباشا أنّهم مأمورون بذلك، فتغيّر وتنكّر وتزائد[١] الحال، إلىٰ أن حبس حاكم مولانا الشريف بجدّه، ورجلاً آخر كان قد أرسله الشريف إليه بمكاتيب.

فأرسل الشريف من حضرته من ينظر في هذا الحال، رجاءً في تدارك الاختلال، فلم يجد شيئاً، ثمّ إنّه ورد الخبر بأنّ الباشا صلب الحاكم الذي قد كان حبسه، فاتّسع الخرق، وظهرت أمارة الفتنة، وكثرت الوسوسة.

وكان الشريف أحمد المشار إليه قد نزل إلىٰ جدّة حين سمع به، فكان يتردّد عليه مدّة متعلّقاً بسببه، وأحواله رثّة مختلّة، وذات يداه بداء الاملاق معتلّة، وعرىٰ آماله عن التعلّق بالملك بحسب العقل منحلّة، حتّىٰ أنّه لم ينزل جدّة إلاّ علىٰ حمار، وله في ذلك بين الناس نقول وأخبار، وهي دالّة علىٰ علوّ همّته، ووفاء ذمّته.

وكان متمسّكاً في رجاء الملك بعروة وثقىٰ، ووعد ممّن لا يقول إلاّ صدقاً وحقّا، تمسّك بأذيال أهل الحقائق، فأخذ العهود والطرق[٢] علىٰ عدّة من مشايخ الطرائق[٣]، من أجلّهم الشيخ أحمد الشناوي، وهو الذي بشّره بما بلغه من السعادة، لكنّه قال له: على الشهادة يا أحمد، فقال: على الشهادة.

وكان حين قصد قصده، ووجّه عزمه إلىٰ بندر جدّة، قد رتّب مع الشريف

---

(١) في «د»: وزاد.

(٢) في «ن»: الطريق.

(٣) في «ن): المشايخ للطرائق.

مسعود بن الشريف إدريس، ترتيباً رجع بعد تمكّنه من الملك كربع دريس، فقرّر معه أنّي أسعىٰ في الأمر ويكون إليك، وأجلو بدره إذا تمّ عليك،فاستملّ الأشراف عن الشريف محسن، وأتقن استجلابهم بالباطنة وأحسن، فاتّفقا علىٰ ذلك، حتّىٰ ظهر ما هنالك.

فلمّا وقع من الباشا ما وقع، اضطربت مكّة حين وصل الخبر بما صنع، وماج الناس، وهاج الوسواس، ثمّ بعد مدّة تزايدت الشدّة، ووصل الخبر بأنّ أحمد باشا قد هلك، وأنّ الشريف أحمد استمال عساكره إليه، وسلك ما سلك، واستولىٰ علىٰ أموال جدّة وملك.

ثمّ في أواخر شعبان ورد الخبر بأنّ الشريف أحمد سار من جدّة بعساكره المنظّمة، قاصداً مكّة المعظّمة، وسار أيّاماً عديدة علىٰ جهة وادي مرّ، تالياً ﴿والساعة أدهىٰ وأمر﴾[1] حتّىٰ وصل الخبر سادس عشر رمضان بأنّه قارب مكّة أو كاد، فبرز الشريف بما لا يحصيه إلاّ الله من الأشراف والأجناد، فوقعت بالقرب من التنعيم، معركة خطبها عظيم، توقّف فيها الأشراف عن الفتك بالشريف أحمد، وودّوا أنّ نار الفتنة تخمد.

فأسفر الحال بعد مثار القتال عن توجّه الشريف محسن مع بعض السادة الحسنيّة، إلىٰ جهة الحسينيّة، ودخل الشريف أحمد إلىٰ مكّة المشرّفة، وجرت بها أحكامه المتصرّفة، وذلك ضحىٰ يوم الأحد السابع عشر من رمضان سنة سبع وثلاثين وألف، فصار ما صار، واتّفق ما اتّفق، وقام سوق الفتك، فراج فيه متاع الأرواح ونفق، ووقعت أُمور وأحوال، تتناقلها الناس إلى الآن بالأقوال، وعاقب

---

(١) سورة القمر: ٤٦.

كثيراً ممّن كان يظهر استبعاد ولايته، ويطلق لسانه بغوايته في ميدان غايته، ويقيس نهايته علىٰ بدايته، فكانت أيّامه أيّام فتن ومحن، وحقود وإحن .

واستمرّ في الولاية إلىٰ أن حجّ بالناس حجّة ثمان وثلاثين وألف، ومات شهيداً ليلة الأحد خامس شهر صفر من سنة تسع وثلاثين وألف. وسبب قتله والقاتل له يأتي في ترجمة السيّد مسعود بن الشريف إدريس إن شاء الله تعالىٰ، ودفن بالمعلاّة، ولاقىٰ ربّه ومولاه .

نقلت ذلك من خطّ سيّدنا الوالد، مع اختصار صدر منّي، وقال هو دام ظلّه: هذا ما لخّصته بالمعنىٰ اختصاراً من تأريخ الشيخ عبدالملك العصامي، وقد قال ـ يعني العصامي ـ في آخر ما أورده: كذا في عقود[١] الجواهر والدرر في أهل القرن الحادي‌عشر[٢]. إنتهىٰ .

أقول: وهذا التأريخ الذي ذكره العصامي وغالب نقوله منه، هو من مؤلّفات السيّد العلاّمة العارف بالله السيّد محمّد بن السيّد أبي‌بكر الشلّي، واسمه عقد[٣] الجواهر والدرر في أخبار أهل القرن الحادي‌عشر، كذا رأيت في لسان الزمان، للعالم العامل الفاضل الكامل، واسطة عقد ذوي المعارف الإلٰهيّة، ودرّة تاج أهل التالة والبحوث العلميّة، العالم العلاّمة، القدوة الفهّامة، مولانا وشيخنا ومقتدانا[٤]، الشيخ محمّد بن الشيخ أحمد المعروف بـ«عقيلة» حرسه الله تعالىٰ، وأولاه ألطافاً

---

(١) كلمة عقود غير موجودة في النسختين .

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤١٤ .

(٣) في السمط: عقود .

(٤) في «د»: ومعتقدنا .

توالىٰ، وله مؤلّفات عديدة، ومصنّفات مفيدة، نفعنا الله بها، وأذاقنا حلاوة طعم العلم بسببها .

عوداً إلىٰ ذكر صاحب الترجمة :

كان هذا السيّد من ذوي الهمم العليّة، التي تزاحم الأفلاك وتقصر عن مداها ملوك السادة الحسنيّة، المنتمين إلى المخاطب بـ«لولاك» صلّى الله عليه وعلىٰ آله وسلّم، وهدانا لنهجه القويم وعلّم، إلاّ أنّه كان له في الظلم قصور مشيّدة، وإقدامات فيه غير مقيّدة، قتل في دولته خلقاً كثيراً، وأوردهم حياض المنية من غير نظر في العواقب ولا تدبير .

ترجمة الشيخ عبدالرحمٰن المرشدي وسبب قتله :

فمن جملة من كسف قمره، وأخفىٰ أثره، الفاضل الأديب، الشيخ عبدالرحمٰن المرشدي .

قال السيّد علي في سلافة العصر: ولم يزل ممتطياً صهوة العزّ المكين[1]، راقياً ذروة طود الجاه الركين، لا يقاس به قرين، ولا تطأ آساد الثرىٰ له عرين، إلىٰ أن تولّى الشريف أحمد بن عبدالمطّلب مكّة المشرّفة، ورفل في حلل ولايتها المفوّفة، وكان في نفسه من الشيخ المشار إليه ضغن، حلّ بصميم مهجته وما ظعن، فأمر أوّلاً بنهب داره، وخفض محلّه ومقداره .

ثمّ قبض عليه قبض المعتمد على ابن عمّار، وجزاه الدهر علىٰ يديه جزاء سنمّار، إلاّ أنّ المعتمد أغمض ابن عمّار بالحسام الأبيض، وهذا طوّقه هلال فتر من أنامل عبد أسود، فجرعه طعم الموت الأحمر، وكان قد أبقاه في محبسه إلىٰ ليلة

---

(١) في السلافة: المتين .

عرفة.

ثمّ خشي أن يسعي في خلاصه من أكابر الروم من عرفه، فوجّه إليه بـزنجي أشوه خلق الله خلقاً، وتقدّم إليه لقتله في تلك الليلة خنقاً، فامتثل أمره فيه، وجلّله من برد الهلاك بضافيه، فأقفرت بموته المدارس، وأصبحت ربوع الفـضل وهـي دوارس، وذلك في عام سبع وثلاثين وألف.

ومن الاتّفاق أنّ الشريف المذكور قتل هذه الليلة بعينها، حين[١] تقاضت منه الليالي ما أسلفته من دينها، وفي الأثر «كما تدين تدان» وهذا حال الدهر مع كلّ قاص ودان[٢]. إنتهىٰ.

وفي تاريخ العصامي ما هذا صورته: واختلفت الأقوال في سبب قتل الشيخ عبدالرحمٰن بن عيسى المرشدي، فقيل: تعريضه بالشريف أحمد بن عبدالمطّلب في خطبة عقده التي خطب بها في زواج سلطانة بنت علي شهاب، وكان الشريف أحمد طلب التزوّج بها فلم يزوّجه، فعرّض الشيخ بذلك، حيث قال فـي مـبتدء الخطبة: الحمد لله الذي أعزّ سلطانة، ودحض شيطانة.

وقيل: إنّه جاء إلى الشريف المذكور عند موت أخيه محمّد بن عـبدالمـطّلب معزّياً لابساً صوفاً أبيض.

وقيل: إنّ الشريف أحمد حين استولىٰ علىٰ مكّة، وطلع إلىٰ دار السعادة علىٰ فرش الشريف محسن، وجد تحت طرف المرتبة فتياً من الشيخ المذكور بتسميتهم بغاة جائرين ظالمين، وبوجوب قتالهم، بخطّه المعروف، واسمه الموصوف، والله

---

(١) في السلافة: حتىٰ.

(٢) سلافة العصر ص ٦٨ ـ ٦٩.

أعلم أيّاً كان سبب ذلك[1]. إنتهىٰ.

وجوب محبّة ذرّية رسول الله ﷺ:

وعلى الجملة، فقد كان هذا السيّد ظالماً[2] فتّاكاً للدماء، ذا جرأة علىٰ حرمات الله تعالىٰ، هكذا ذكر أهل التواريخ والسير، غير أنّ اتّصال نسبه الشريف برسول الله ﷺ لا ريب فيه، ولا تشكيك ينافيه، فلعلّ الرحمة الإلٰهيّة تداركه ببركة ذلك وتوافيه، فمن كان فرعاً لهذه الجرثومة الشريفة، والنسبة المنيفة، فقد أوجب الله علينا تعظيمه وتشريفه، من غير تعرّض لما يصدر منه وينقل عنه من الأُمور القبيحة، والحركات المستهجنة، والإغضاء وعدم الانتقاد، لما يصدر من ذرّيته صلّى الله عليه وعلىٰ آله وسلّم من أجلّ القربات، وأعظم المثوبات.

ففي توثيق عرى الإيمان للبارزي[3]: إنّ من علامات محبّته ﷺ محبّة ذرّيته، وإكرامهم، والإغضاء عن انتقادهم، فما انتقد ذرّية محمّد ﷺ محبّ لمحمّد ﷺ قطّ، وأن يغضي المؤمن عن انتقاد أولاد الصحابة أيضاً، كما أغضىٰ عن انتقاد ذرّية رسول الله ﷺ، وأهل البيت؛ لأنّهم قوم شرّفهم الله تعالىٰ، وأخلاقهم فلا تغلب

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٢) في «ن»: ظلوماً.

(٣) توثيق عرى الإيمان في تفضيل حبيب الرحمٰن، لشرف الدين أبي القاسم هبةالله بن عبدالرحيم بن إبراهيم المعروف بابن البارزي الحموي الشافعي، المتوفّىٰ سنة (٧٣٨) وهو مجلّد واحد، رتّبه علىٰ أربعة أركان: الأوّل فضائله عليه الصلاة والسلام، الثاني: في أوصافه، الثالث: في إغاثة من استغاث به، الرابع: في كراماته.

عليها أفعالهم، كما تغلب الأفعال في من أقدارهم بحسب أفعالهم[١]. إنتهىٰ.

نقل ذلك السيّد العلاّمة السيّد عبدالرحيم السمهودي في تأليفه الإشراف في فضل الأشراف[٢]، وكأنّه مختصر جواهر العقدين لعمّه العلاّمة السيّد علي السمهودي[٣].

ثمّ قال: قلت: والإغضاء هو غضّ البصر، والانتقاد هو التطلّع إلى الشيء ليعرف حقيقة ذلك الشيء، فلا ينبغي التطلّع إلىٰ أحد من ذرّية محمّد صلّى الله عليه وآله وأهل البيت، يعني: إذا كانوا علىٰ شيء من القبائح، بل يغضّ طرفه ويتشاغل[٤] عنهم. هذا ما ظهر لي في معنىٰ ذلك[٥]. إنتهىٰ كلامه رفع ببركتهم مقامه.

أقول: هذا كلّه نظراً إلىٰ أن فاطمة عليها السلام بضعة من رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنّ أولادها بضعة منها، فلا شكّ أنّهم بضعة من رسول الله صلّى الله عليه وآله بواسطتها.

وإلىٰ هذا الأصل الأصيل طمح نظر عمر بن الخطّاب حين خطب أُمّ كلثوم إبنة فاطمة عليها السلام، بل قال: إنّي أُحبّ أن يكون عندي عضو من أعضاء رسول

---

(١) توثيق عرى الإيمان للبارزي، لم أظفر عليه.

(٢) الإشراف علىٰ فضل الأشراف ص ٢٢٦ طبع قم.

(٣) قال في مقدّمة كتابه الإشراف ص ٢٦: وقد جمعت ذلك من كتاب العمّ السيّد الشريف الإمام العلاّمة القدوة المحقّق، فريد عصره، نورالدين علي الحسني الشافعي السمهودي نزيل طيبة المشرّفة، و عالم الحجاز، المسمّىٰ بجواهر العقدين في فضل الشرفين، شرف العلم الجلي والنسب العلي.

(٤) في الإشراف: ويتغافل.

(٥) الإشراف علىٰ فضل الأشراف ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

الله صلى الله عليه وآله(١).

قال السيّد علي السمهودي: فكلّ من يشاهد اليوم من ولدها، فهو بضعة من تلك البضعة، وإن تعدّدت الوسائط، كما سبقت الإشارة إليه، فمن تأمّل في ذلك كيف لا ينبعث عن قلبه داعي الإجلال والتعظيم لهم، ويجتنب بغضهم علىٰ أيّة حالة كانوا عليها(٢). إنتهىٰ.

وقال في موضع آخر: واحذر أن تمنّي النفس في بغضهم بما يرمي به بعضهم من الابتداع، ومجانبة الأتباع، فهذا لا يخرجهم من دائرة الذرّية، ولا النسبة النبويّة، وقل كلّ يعمل علىٰ شاكلته(٣). إنتهىٰ.

قلت: هذا إذا كان في الأديان التي عليها المشاحّة العظيمة، وإراقة الدماء في بعض المخالفات، كارتكاب ما لا يليق من سبّ ونحوه، فما بالك بمن كان علىٰ سنن مستقيم، إلاّ أنّه صدر منه بعض أُمور، قحمه على ارتكابها ما يحتاج الملك إليه من السياسات(٤). وعلىٰ كلّ حال فلهم رحم وقرابة، يستوجبون بها غفرانه تعالىٰ وثوابه، وكيف لا نسلّم هذه المقدّمة المهمّة، وجدّهم شفيع هذه الأُمّة.

فقد روىٰ عبدالرحمٰن بن أبي رافع، عن أُمّ هانيء إبنة أبي طالب رضي الله عنها، أنّها خرجت متبرّجة قد بدت أقدامها، فقال لها عمر بن الخطّاب: إعلمي أنّ محمّداً لا يغني عنك شيئاً، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله فأخبرته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما بال

---

(١) ذخائر العقبىٰ للطبري ص ٢٢٧.

(٢) الإشراف علىٰ فضل الأشراف ص ٢٢٧.

(٣) الإشراف علىٰ فضل الأشراف ص ٢٢٩.

(٤) في «ن»: السياسة.

أقوام يزعمون أنّ شفاعتي لا تنال أهل بيتي، وأنّ شفاعتي تنال حا وحكم.

رویٰ هذا الحديث السيّد السمهودي في الإشراف، قال: وأخرجه الطبراني في الكبير(١)، و«حا وحكم» قبيلتان من اليمن(٢).

ورویٰ أبوسعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول على المنبر: ما بال رجال يقولون إنّ رحم رسول الله صلى الله عليه وآله لا ينفع قومه يوم القيامة؟ بلیٰ والله إنّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإنّي أيّها الناس علیٰ فرط لكن على الحوض.

قال السيّد السمهودي: رواه أحمد(٣)، والحاكم في صحيحه(٤)، والبيهقي من طريق عبدالله بن محمّد، هو ابن عقيل، عن حمزة بن سعيد، عن أبيه به(٥).

وروى ابن عبّاس رضي الله عنه، أنّه صلى الله عليه وآله قال: ما بال أقوام يزعمون أنّ قرابتي لا تنفع، إنّ كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلاّ سببي ونسبي، وإنّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة(٦).

قال عمر بن الخطّاب: فتزوّجت أُمّ كلثوم بنت علي عليه السلام من فاطمة عليها السلام، لما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ، وأحببت أن يكون بيني وبينه نسب وسبب(٧).

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٠: ٣٨٥ برقم: ٢٠٤٩٥ طبع دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الإشراف علیٰ فضل الأشراف ص ١٤٢.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٨.

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤: ٧٤.

(٥) الإشراف علیٰ فضل الأشراف ص ١٤٢.

(٦) الإشراف علیٰ فضل الأشراف ص ١٤٢، وذخائر العقبیٰ ص ٦.

(٧) الإشراف علیٰ فضل الأشراف ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

رواه المحبّ الطبري[١] بغير إسناد، ولا غرو.

والأحاديث متوفّرة بهذه المعاني، عامرة لأغاني هذه المغاني، وما أوردناه لمعة من رياض، وجرعة من بحر فيّاض، وإلاّ فما ورد في أهل البيت عليهم السلام وذرّيتهم من بعدهم، من الحثّ علىٰ إكرامهم وتعظيمهم، والإغضاء عنهم فيما يصدر عنهم من المخالفات، فهو شيء قد طفحت به كتب الحديث والتواريخ والسير، وشاع بين أهل الملل الإسلامية، واستمرّ وظهر.

وها نحن نغضّ البصر عن انتقادهم، والتعرّض لهم، كما حكم به وأمر، فصلّى الله عليه وعلىٰ آله، ورزقنا السعادة بالمودّة لقربه، فهي سعادة فاخرة، كافلة بنيل الحسنىٰ في الدنيا والآخرة.

ثمّ نقول: إنّ هاهنا نقول: لا بأس بإيرادها في هذا المقام، إلحاقاً بما تقدّم من الكلام، فهي بالمقصود وافية، ولتعرّض الجهّال ناهية.

روى العلاّمة السيّد عبدالرحيم السمهودي في كتابه الإشراف، عن عمّه السيّد الجليل السيّد علي السمهودي في جواهر العقدين، قال رحمه الله تعالىٰ: أخبرني الإمام الشيخ العلاّمة المحقّق شيخ المالكية في زمنه شهاب الدين أحمد بن يونس القسطنطيني[٢] المغربي نزيل الحرمين الشريفين في مجاورته بالمدينة النبويّة سنة خمس وسبعين وثمانمائة: إنّ بعض مشايخه ممّن يثق به أخبره أنّ شخصاً من أعيان المغاربة عزم على التوجّه من بلاده للحجّ.

قال: فأحضر إليه شخص من أصحاب الثروة مبلغاً أظنّه مائة دينار، وقال له: إذا

---

(١) ذخائر العقبىٰ للمحبّ الطبري ص ٦.

(٢) في الاشراف: القسطيني.

وصلت إلى المدينة النبويّة، فسل عن شخص من الأشـراف بـها يكـون صـحيح النسب، فتدفع ذلك إليه، عسىٰ أن يكون لي بذلك وصلة بجدّه صلوات الله وسلامه عليه .

قال: فلمّا رجع إليهم ذلك المغربي، أخبر أنّه قدم المدينة وسأل عن أشرافـها، فقيل له: إنّ نسبهم صحيح، غير أنّهم من الشيعة الذين يسبّون، قال: فكرهت دفع ذلك لأحد منهم .

قال: ثمّ جلس إلىٰ واحد منهم، أو قال: جلست إليه، فسألته عن مذهبه، فقال: شيعي، فقلت له: لو كنت من أهل السنّة لدفعت إليك مبلغاً عندي، قال: فشكىٰ فاقته وشدّة احتياجه، وسألني شيئاً منه، فقلت له: لا سبيل إلىٰ أن أعطيك شيئاً، فذهب عنّي .

قال: نمت تلك الليلة، رأيت أنّ القيامة قامت، والناس يجوزون على الصراط، فأردت أن أجوز، فأمرت فاطمة عليها السلام بمنعي، فمنعت، فصرت أستغيث ولا أجـد مغيثاً، حتّىٰ أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله فاستغثت به، وقلت: يا رسول الله منعتني فاطمة عن الجواز على الصراط، فالتفت إليها رسـول الله صلى الله عليه وآله، وقـال: لم مـنعتي هـذا؟ فقالت: لأنّه منع ولدي رزقه .

قال: فالتفت وقال: قد قالت إنّك منعت ولدها رزقه، فقلت: والله يا رسول الله ما منعته إلاّ لأنّه يسبّ الشيخين، قال: فالتفت إليها، وقال: قد قال إنّه ما منعه إلاّ لأنّه يسبّ الشيخين، قال: فالتفت فاطمة عليها السلام إلى الشيخين، وقالت لهما: أتؤاخذانـي ولدي بذلك؟ فقالا: لا، بل سامحناه بذلك، قـال: فـالتفت إليّ وقـالت: مـا الذي أدخلك بين ولدي وبين الشيخين؟ فانتبهت فزعاً، وأخذت المبلغ، وجئت به إلىٰ ذلك الشريف، فدفعته له، فتعجّب من ذلك، وقال: بالأمس أسألك في يسير مـنه

فامتنعت والآن كيف جئتني به؟! قال: فقصصت عليه القصّة[١]، فبكىٰ وقال: أشهدك عليّ وأشهد الله ورسوله أنّي لا أُسبّهما أبداً ما حييت[٢]. إنتهىٰ.

وروى السيّد المذكور، قال: روى التقي المقريزي عن يعقوب بن يوسف بن علي بن محمّد المغربي، أنّه كان بالمدينة الشريفة في رجب سنة تسع عشرة وثمانمائة، فقال له الشيخ العابد أبو عبدالله محمّد الفارسي وهما بالروضة النبويّة: إنّي كنت أبغض أشراف المدينة النبويّة بني حسين، لما يظهرون من التعصّب علىٰ أهل السنّة، ويتظاهرون به من البدع.

فرأيت وأنا نائم بالمسجد النبوي تجاه القبر الشريف رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يقول: يا فلان ـ باسمي ـ مالي أراك تبغض أولادي؟ فقلت: يا رسول الله ما أكرههم[٣]، وإنّما كرهت منهم ما رأيت من تعصّبهم علىٰ أهل السنّة، فقال لي: مسألة فقهية، أليس الولد العاقّ يلحق بالنسب؟ فقلت: بلىٰ يا رسول الله، فقال: هذا ولد عاقٌّ، قال: فانتبهت صرت لا ألقىٰ أحداً من بني حسين أشراف المدينة إلاّ بالغت في إكرامه[٤]. انتهىٰ.

وذكر صاحب وسيلة المآل في ترجمة الشريف أبي‌نمي بن أبي‌سعد المتقدّم ذكره، أنّه لمّا توفّي وقدّم للصلاة عليه، امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصي من الصلاة عليه، فرأىٰ في المنام السيّدة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله وهي في المسجد

---

(١) في الإشراف: الرؤيا.

(٢) الإشراف علىٰ فضل الأشراف ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٣) في الإشراف: يا رسول الله حاش لله أن أكرههم.

(٤) الإشراف علىٰ فضل الأشراف ص ٢٣٣.

الحرام والناس يسلّمون عليها، فجاء الشيخ عفيف الدين ليسلّم عليها، فأعرضت عنه، ومنعته ثلاث مرّات، ثمّ تحامل[١] عليها وسألها عن سبب إعراضها عنه، فقالت له: يموت ولدي ولا تصلّي عليه، فاعتذر منها وتاب، واعترف بالظلم.

قلت: الظاهر أنّ الشيخ عفيف الدين لم يصلّ عليه من حيث إنّه كان ظالماً، أو منتهكاً لحرمات الله، وما أشبه ذلك من الأُمور التي ثبت عنده ما ينافي الصلاة عليه بسببها، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفيما أوردناه كفاية لمن ألهمه الله التوفيق، ورزقه الهداية، وإن أردت زيادة علىٰ ذلك، فعليك بخاتمة وسيلة المآل، وبجواهر العقدين، وغيرهما من كتب التواريخ تجد بحراً زاخراً.

ترجمة الشريف أحمد بن مسعود الحسني:

عوداً إلىٰ صاحب الترجمة رحمه الله تعالىٰ:

قال بعض أهل التواريخ: وممّن نابذ هذا السيّد، ورماه بالقذف والطعن، في قصيدة يمتدح بها إمام اليمن محمّد بن القاسم ابن عمّه السيّد أحمد بن مسعود بن الشريف حسن[٢]. إنتهىٰ.

قلت: هذا تذريب لطيف، وتذنيب لترجمة هذا السيّد الشريف، وهو أن أذكر هنا ترجمة السيّد أحمد المذكور، وما وقفت عليه من أخباره، ورقيق أشعاره، وهممه العليّة، ومكارمه السنيّة.

وما أدرجت ترجمة هذا السيّد الأمجد، في ضمن ترجمة الشريف أحمد، إلاّ

---

(١) في «ن»: تحايل.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٤٩.

لأنّه قد منح بشرافة مكّة من ممدوحه السلطان مراد، وإنّما حال بينه وبين ذلك حكم القضاء النافذ على العباد، بأن دعاه الحقّ إلىٰ لقائه، وصرّم مدّة بقائه، كما ستقف عليه إذا وصلت إليه، وحين منحه السلطان مراد بذلك، كان الشريف أحمد ملك الأقطار الحجازية وتلك المسالك.

قال السيّد علي معصوم، وهو أديب العصر، في مؤلّفه سلافة العصر، عند ذكر السيّد أحمد بن مسعود رحمه الله، ما هذا لفظه: نابغة بني حسن، وباقعة الفصاحة واللسن، الساحب ذيل البلاغة علىٰ سحبان، والسائر بأفعاله وأقواله الركبان، أحد السادة الذين رووا أحاديث[1] السيادة برّاً عن برّ، والساسة الذين فتقت لهم ريح الجلاد بعنبر، فاقتطفوا نور الشرف من روض الحسب الأنضر، وجنوا ثمر الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر.

كانت له همّة تزاحم الأفلاك، وتراغم بعلوّ قدرها الأملاك، لم يزل يقدر من نيل الملك ما لم يف به عَدده وعُدده، ولم يمدّه عليه من القضاء والزمان مَدده ومُدده، فاقتحم لطلبه بحراً وبرّاً، وقلّد للملوك بمدحه جيداً ونحراً، فلم يسعفه أحد ولم يساعد، وإذا عظم المطلوب قلّ المساعد.

وكان قد دخل شهارة من بلاد اليمن في إحدى الجمادين من سنة ثمان وثلاثين وألف، وامتدح بها إمامها محمّد بن القاسم، بقصيدة راح بها ثغر مديحه ضاحكاً باسم، وطلب منه مساعدته علىٰ تخليص مكّة المشرّفة له، وإبلاغه من تحليته بولايتها أمله، وكان ملكها إذ ذاك الشريف أحمد بن عبدالمطّلب، فأشار في بعض أبياتها إليه، وطعن فيها بسنان بيانه عليه، ومطلع القصيدة:

---

(١) في السلافة: حديث.

سلا عن دمي ذات الخلاخل والعقد   بماذا استحلّت أخذ روحي علىٰ عمد
فإن أمنت أن لا تقاد بما جنت   فقد قيل أن لا يقتل الحرّ بالعبد

ومنها: يخاطب الإمام المذكور، وطاعناً علىٰ سلطان مكّة المشرّفة:

أغث مكّة وانهض فأنت مؤيّدٌ
من الله بالفتح المفوّض والجدّ
وقدّم أخا ودٍّ وأخّر مبغضاً
يساور طعناً في المؤيّد والمهدي
ويطعن في كلّ الأئمّة معلناً
ويرضي عن ابن العاص والنجل من هند

فلم يحصل منه علىٰ طائل، إلاّ ما أجازه به من فضل ونائل، فعاد إلىٰ مكّة المشرّفة سنة تسع وثلاثين وأقام بها سنتين، ثمّ توجّه إلى الديار الروميّة في أواسط شهر ربيع الثاني في سنة احدىٰ وأربعين قاصداً ملكها السلطان مرادخان، فورد عليه في القسطنطينية العظمىٰ مقرّ ملكه، واجتمع به ومدحه بقصيدة فريدة سأله فيها توليته مكّة المشرّفة، وأنشده إيّاها في أواخر شوّال سنة احدىٰ وأربعين وألف، ومطلع القصيدة قوله:

ألا هبّي فقد بكر الندامىٰ   ومجّ المرج من ظلم الندامىٰ[1]

إلىٰ أن قال: فيقال: إنّه أجابه إلىٰ ملتمسه ومراده، وأرعاه من مقصده أخصب مراده، ولكن مدّت إليه يد الهلك، قبل نيل الملك، وقيل: بل أجزل صلته فقط، فقد طمّعه علىٰ ما يتمنّاه وقط، ولم يعد إلىٰ مكّة شرّفها الله تعالىٰ، وتوفّي في تلك السنة

---

(١) ذكر تمام القصيدة في السلافة، فراجع.

أو التي تليها، والله أعلم[١]. إنتهى النقل من السلافة، رحم الله مؤلّفها ورحم أسلافه.

أقول: كان هذا السيّد من ذوي الهمم العليّة، والنفوس الأبيّة، والشهامات القرشيّة، لم ترض نفسه الشريفة إلاّ بتسنّم ذروة الرتب المنيفة، مع فضل زاحم به العلماء الأعلام، وأدب يقف دون معرفة نهايته أبو تمام، وله ديوان شعر أرقّ من النسيم، وأذكىٰ من الشميم، وسننقل ملحاً من أخباره، وتحفاً من نبات أفكاره.

فمن ذلك قصيدته الدالية التي تقدّم ذكر مطلعها في أثناء ترجمته المنقولة من السلافة، وهي هذه:

سلا[٢] عن دمي ذات الخلاخل والعقد	بماذا استحلّت أخذ روحي علىٰ عمد
فإن أمنت أن لا تقاد بما جنت	فقد قيل أن لا يقتل الحرّ بالعبد
وإن أخذتها دون كلّي فإنّني	جليدٌ وموهي[٣] العزائم بالصدّ
خذا قبلةً منها تديه فإنّه	قتيلٌ ولكن ليس يلحد في لحد
صريعٌ بسهم اللحظ والبين لم تزل	مقسّمةً أجزاؤه في القرب والبعد
أخو لوعةٍ لو أنّ أيسر بعضها	بصلدٍ لكان العهن أقوىٰ من الصلد
ومُرّا على الوادي الذي قد تفاوحت	جوانبه عرفاً بما ضاع من هند
وعوجا رقاب العيس فيها عشيةً	لنبكي بها عصراً تولّىٰ علىٰ نجد
ونقضي لبانات الصبا بمحلّةٍ	بوجنة وجه الدهر كالخال في الخدّ

---

(١) سلافة العصر ص ٢٢ ـ ٢٥.

(٢) في السمط: سلوا.

(٣) في السمط: ومضعوف.

زمـانٌ ووجـه الدهـر طـلقٌ وقـدّه نضيرٌ وثـغر الوصـل يـفترّ عـن عـقد
أجـرّ بـه ذيـل الخـلاعة رافـلاً وأركض خيل الغيّ فـي حـلبة الرشـد
وأمرح في خيل[١] الشباب وحاسدي يدعدع لي أن أكبّ يـوماً عـلىٰ وعـد
فلله أيّـام وربـعٌ تـصرّمت ليـاليها عـنّي وعـوّضني وجـدي[٢]
فأصبحت في جيشٍ من الحبّ أرعـن علىٰ أنّني في مهجه[٣] مـفردٌ وحـدي
أعـضّ بـه كـفّي وأقـرع بـالحيا بناني[٤] ولا يـغني فـتيلاً ولا يـجدي
وأنـدب أيّـاماً عـلىٰ غـيضة الفضا وغيضي بها غيض الأسـير عـلى القـدّ
فـحيّا الحـيا داراً بـنجدٍ وأُخـتها مـعطّلةً بـالغور والعـلم الفـرد
ومـنعرجٌ بـالجزع هـل مـات رسـمه فأحييه بـالتأبين أم هـو عـلىٰ عـهدي
فـثمّ بـه قـلبٌ فـقيدٌ حـبسنه عـيون المـها بـين الأجـارع والرنـد
ولكـنّها لم تـدر أنّ مـحمّداً طلوبٌ لنا لو كان فـي مـربض الأسـد
إمـامٌ شأىٰ فـي الفـخر أهـل زمـانه فأنسـىٰ وأعـيا فـيه للـقبل والبـعد
يـنادي أمـير المـؤمنين لأنّـه تـقمّصها إرثـاً عـن الأب والجـدّ
وغـيثٌ إذا مـا النـوء خـوّت رعـوده فراحاته في المحل تـغني عـن الرعـد
وضرغام حربٍ حـين تـنصلت الظـبا وينقصم المـران فـي السـرد والسـرد
إذا انكسـر الهـندي فـى رأس قـرنه فمن عرضه عضبٌ أحـدّ مـن الهـندي

---

(١) في السمط: شرخ.
(٢) في السمط: وخدي.
(٣) في السمط: نهجه.
(٤) في السمط: لساني.

أخو صبوةٍ في المكـرمات فـلم تـزل ... بـمنظره فـي أشـرف الزمـن الرغـد
فـبدرٌ لمسـتجلٍ وورِدٌ لمـجتنٍ ... وغـيثٌ لمسـتجدٍ وليثٌ لمستعدي
وأيّـامه بـيضٌ وخـضرٌ بـجوده ... ألا إنّـها مـن عـدله زمـن الورد
(فـإن يك بـالإفضال والبأس والتـقىٰ ... وربّ الثـنا والحـلم والعـلم والزهـد)[١]
دعـي بأمـير المـؤمنين مـحمّدٍ ... خـليفتنا المـهدي هـذا هـو المـهدي
مـحكّم سـيف الحـقّ فـي كـلّ مـلحدٍ ... ومرجع أهل العقل فـي الحـلّ والعـقد
وطـلاّب وتـر الديـن فـي كـلّ مأزقٍ ... ولم ينتصف في المال والنفس والولد)[٢]
شكته المطايا والفـيافي لفـرط[٣] مـا ... يـطأها ويـمطيها إليـه مـن الوفـد
ولو أنّـه خـلّىٰ شـهارة سـائراً ... لسـار إليـه القـاصدون إلى السـدّ
ولولاه لم يشـهر حسـامٌ ولم يـثر ... قـتامٌ ولم يسـفر ظـلامٌ لمستهدي
فـفي الذهـن والآراء قـيسٌ وعـتبةٌ ... وفي الجود والهـيجاء جـودٌ وذو لبـد
فـلو لامست يـوم الرغـائب كـفّه ... يدا مـادرٍ كـانت لهـا بـالندىٰ تـعدي
أيـابن رسـول الله جـئتك شـاكـياً ... لأعـداء ديـن الله فـي الهـزل والجـدّ

ومنها :

خطيبٌ إذا ما قـام فـي رأس مـنبرٍ ... وخطبٌ علىٰ ظهر المـطهّمة الجـرد
فـيالك مـن حـبرٍ ليـومٍ مـجادلٍ ... وذمر يسمّىٰ فـي المـجالد بـالجلد
فليثٌ وغيثٌ في قـراعٍ وفـي نـدىً ... وسـعدٌ ونـحسٌ للـولي وللـضدّ

---

(١) ما بين الهلالتين ساقطة من النسختين .

(٢) ما بين الهلالتين ساقطة من النسختين .

(٣) في السمط: لكثر .

وخـــذها عـروساً ذات دلٍّ تـزفّها ... من الشكر أجنادٌ فيالك[١] من جند
مـفوّفةً دبـجتها بـمديح مسـتن[٢] ... تضوع بـذكراه عـلى المسك والنـدّ
لديـنٍ وجـاهٍ ذا ارتـفاعٍ ونـجدةٍ ... أعـيش بـها لا للـمعائش والنـقد
وإنّـي مـن القـوم الذيـن وليـدهم ... ترجّيه أرباب المطامع[٣] في المهد
أعزّ مـلوك الأرض فـرعاً ومـحتداً ... وأوفى الكرام الغرّ في العقد والوعد
إذا عدّدت للعبد[٤] بعض مـحاسنٍ ... فأحسابهم في المجد تربو على العدّ
بأفـنيةٍ خـضرٍ وسـودٍ مـراجـلٍ ... وألويـــةٍ حـــمرٍ وألســـنةٍ لدّ
ولم يـــخلقوا إلاّ لكشـــف مـلمّةٍ ... غشىٰ خطبها أهل البسيطة بالربد[٥]

أقول: هذا ما رأيت إيراده من القصيدة اختصاراً، وهي أُخت قفانيك اشتهاراً.

قال سيّدنا الوالد في بعض مجاميعه، بعد نقله لهذه القصيدة من ديوان شعره: أقول لمثل هذا المادح: يقال إعظاماً وإجلالاً، وخير الشعر أكرمه رجالاً، ويتبيّن في مثل هذا المقام، إنّ كلام الملوك ملوك الكلام، ألا تراه مع كونه في مقام المادح الراجي، واللائذ اللاجي، كيف أناف بمدح قومه علىٰ كلّ مادح، وأورىٰ بذلك زناد مجده القادح، وليس في القصيدة مثل قوله «وإنّي من القوم الذين وليدهم» وأردفه بأفعل التفضيل وقصده توحيدهم.

---

(١) في السمط: فلله.

(٢) في السمط: من.

(٣) في السمط: ترجّيه إنهاء المطالب.

(٤) في السمط: للصيد.

(٥) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٤٩ ـ ٤٥١.

ويحكىٰ أنّ ممدوحه جهّز إليه صلة جليلة، تسمو إلىٰ مثلها الهمم النبيلة، وكان مشتغلاً بسبت[١] رأسه عند وصولها، فأمر في الحال مباشر ذلك منه بقبض محصولها، ثمّ تمثّل ببيته السابق، فكبت دون مداد السوابق، وهكذا فعل في قصيدته الميميّة، من مظاهر العزّة والحميّة.

هذا، وممدوحه الملك الذي تعنو له جبابرة الأكاسرة، وتذهل بحضرته الأُسود الكواسرة، وحسبك ببيت فيها، وأبلغ قوافيها، وهو:

بــرانــا الله للـدنيا سـناءً ... وللأُخرىٰ إذا قامت سـناما

هكذا تقوم الملوك، بحقوق الهمم العليّة في السلوك. إنتهىٰ كلامه رفع علىٰ هام السماك مقامه.

وأمّا قصيدته الميميّة، التي غبرت في وجوه القصائد البحتريّة، فسنذكر منها ما رقّ معناه، وأغدق مرعاه.

ألا هُــبّي فــقد بكــر النــدامــا ... ومــجّ المـزج مـن ظـلم النـدامـا

وهــينمت القــبول فــضاع نشرٌ ... روىٰ عــن شـيخ نـجدٍ والخـزامـا

وقد وضعت[٢] عذاري المزن طفلاً ... بــــمهد الروض تــغذوه النــعاما

فــهُبّي وامــزجــي خــمراً بـظلمٍ ... لتــحيي مــا أمــتّي يــا أُمــاما

فكم خـفر الفـوارس فـي وطـيسٍ ... فــتىً مــنّا ومــا خــفر الذمـاما

وكــم جــدنا عــلىٰ قُــلٍّ بــوفرٍ ... وأُعــطينا عــلىٰ جـدبٍ هـجاما

وكــم يــومٍ ضــربنا الخـيل فـيه ... عـــلىٰ أعــقابها خــلفاً أمــاما

---

(١) في «ن»: بسبب.

(٢) في «ن»: رضعت.

فنحن بنو الفواطم من قريشٍ ... وقادات الهواشم لا هشاما

برانا الله في الدنيا سناءً ... وللأُخرىٰ إذا قامت سناما

وخصّ بفضله من أمّ منّا ... مليكاً كان سابوراً هماما

فتى الهيجا مراد الحقّ من لم ... يخف فيه للائمةٍ ملاما[١]

محشّ[٢] الحرب إن طارت شعاعاً ... نفوسٌ عندها قلّ المحاما

وغيثٌ قطره ورقٌ وتبر ... يجود اذا شكى المحل[٣] الركاما

فيثني سيبه حرباً[٤] وشيكاً ... ويثني سيفه[٥] موتاً زؤاما

وفي شفتيه آجالٌ ورزقٌ ... بها أمن الصواعق والرجاما[٦]

يقود له الملوك الصيد مجراً[٧] ... فيمنحه الخوامع والرجاما

وإن وفدوه أغناهم وأقنىٰ ... وأجلسهم على العليا مقاما

مليك الأرض والأملاك طرّاً ... وحاوي ملكها يمناً وشاما

ويجري[٨] من دم الأعداء بحراً ... ولا قوداً يخاف ولا أثاما

يبيت مراعياً أمر الرعايا ... إذا باتت ملوكهم مناما

---

(١) في السلافة: يخف من فضل خالقه ملاما.

(٢) في السلافة: مجشّ.

(٣) في السمط: إذا طارت به المحل.

(٤) في السلافد: جدباً، وفي السمط: فيفني سيفه حربٌ.

(٥) في السمط: سيبه.

(٦) في السمط: والسماما.

(٧) في السلافة: جيشاً.

(٨) في السلافة: ومجرٍ.

تسنّم غارب الدنيا فألقىٰ إليه جموحها طوعاً لزاما

ومنها:

فيا ملك الملوك ولا أُبالي ولا عذراً أسوق ولا احتشاما
إذا قويت لم أنزلك فيهم[١] بمنزلة الرجال من الأيامىٰ
إلىٰ جدواك كلّفنا المطايا دواماً لا نفارقها دواما
وجبنا يابن عثمان الموامي إلىٰ أن صرن من هزلٍ هياما
وذقنا الشهد في طعم[٢] الترجّي ونلنا[٣] الصبر من جوعٍ طعاما

ومنها:

نؤمّ رحابك الفيح اشتياقاً ونأمل منك آمالاً جساما
ومن قصد الكريم[٤] غداً أميراً علىٰ ما في يديه ولن يضاما
وحاشا بحرك الفيّاض أنّا نردّ بغلّةٍ عنه حياما
فقد وافاك عبدٌ مستميحٌ نداكفّيك والشيم الكراما
وقد نزل ابن ذي يزنٍ طريداً علىٰ كسرىٰ فأنزله شماما
أتىٰ فرداً فعاد يجرّ جيشاً كسى الآكام خيلاً والرغاما
به استبقىٰ جميل الذكر دهراً وأنت أجلّ من كسرىٰ مقاما
وسيفٌ في العلا دوني فإنّي عصاميٌّ وأسموه عصاما

---

(١) في السلافة: إذا ما قست لم أنزلك فيهم. وفي السمط: أنفت بأنّني أُنزلك فيهم.

(٢) في السمط: مغنى، وفي السلافة: معنى.

(٣) في السمط: وذقنا، وفي السلافة: وقلنا.

(٤) في السلافة: الأمير.

بـــفاطمةٍ ونـــجليها[١] وطّــه وحـــيدرة الذي فـــاق الأنـاما
عــليهم رحـــمةٌ تـهدىٰ سـلاماً يكون لنشـرها مسكـاً خـتماما
ولا بدعٌ[٢] إذا ما جاك[٣] عافٍ وعـــاد يـــجرّ ذو الجب لهـــاما
فــخذ بـــيدي وسـنّمني مـحلاًّ بـــقربي مـــنك فـــيه لا أُسـاما
وهب لي منصبي لتـنال أجـري وشكري ما بـقيت[٤] له دوامـا
فــقد لعـــبت بـــبيت الله حـــقّاً زعانف يسـتحلّون الحـرامـا[٥]

قلت: هذا ما استحسنته من القصيدة فأوردته، وهو المقدار المتضمّن لما أردته، وله قصائد أُخر، فقد انطوىٰ عليها ديوانه، ومدائح غرر افتخر بها دهره وزمانه.

فمن مدائحه السنيّة، قصيدته السينيّة، فلله درّه فيها، حيث صاغ ألفاظها وأحكم قوافيها، ومطلعها:

حثّ قبل الصـباح نـجب كـؤوسي فهي تجري مجرى الغذا في النفوس

وتخلّص فيها بمدح جدّه صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهدانا إلىٰ طـرق سـننه وعلّم، فقال في أثنائها بعد نشر عبير ثنائها:

فــرعى الله فــي الأجـارع عـصراً وبـــدوراً غـــصونها فـــي طـموس
حيث جوّ الشباب سحوٌ وبـحر اللـ ــــهو رهـــوٌ لم ألق فـــيه بـروسي

---

(١) في السمط: وابنيها.

(٢) في السمط: ولا عجب.

(٣) في السلافة: إذا وافاك.

(٤) في السمط: حييت.

(٥) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٥٢ ـ ٤٥٤، سلافة العصر ص ٢٣ ـ ٢٤.

ومــحلّي[١] بـين الأبـاطح والقبّـ ــــة مــن طـيبةٍ بسـوح الرئـيس
أحمد الإسم[٢] أحمد الخَلق في اللّـ ــــه غـيـاث المـنجود والمـبلوس
شـــافع الأُمّـــة التـــي جـــاء فـيها كــــنتم مـــــن مـهينٍ قـدّوس

وما أحسن قوله منها :

إنّـما أنت آصـفُ ونـجاتي منك أدنىٰ إليك من بلقيس
لو تشفّعت في سـبأ لعـلمنا أنّهم فائزون بالمحوس[٣]

ولولا خوف الإطالة لأوردتها؛ لأنّها كلّها درر وغرر، وعقود لم تحم حولها من النقائص عرر .

ومن مدائحه النبويّة، قصيدته البائيّة، ومطلعها :

كـيف العـزا والفـؤاد مـلتهب والحـيّ زمّت لبـينه النـجب
والعين عـبرىٰ والجسـم مـنقطع والنفس حرّىٰ والعقل مـضطرب
وهـــــذه أربـــــعٌ بكـــاظمةٍ عفّت قديماً غـيد بـها نـجب[٤]

ومنها :

وبـــالنقا غـــادةٌ إذا خـــطرت تـغار مـنها الغـصون والكـثب
كأنّـها فـي الأثـيث إن سـفرت بدرٌ بسجف[٥] الظلام مـحتجب

---

(١) في السمط: ومحلاًّ .

(٢) في السمط: الخُلق .

(٣) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٥٦ ـ ٤٥٩ .

(٤) سلافة العصر ص ٣١.

(٥) في «ن»: بسحب .

غــازلتها والرقيب في شغلٍ يــقرع ســناً طــوراً ويـنتحب
والدهر سلمٌ والحيّ في دعةٍ والبــين حـربٌ يـحفّه الحـرب
والوصل صافٌ يروق مورده والعيش ضافٌ والشعب منشعب
والوصل يحلي بذكر ذي هيفٍ يســجد شــوقاً لهــا ويـقترب
والروض مـــطلولة غــلائله والورق تشدّد وترقص القـضب
كأنّــها نــاقتي وقــد سـطعت أنــوار طـه ولاحت القــبب
مـحمدٌ خـير مـن له وفـدت قـلائص قـد أمـضّها القـتب[1]

وهي طويلة جدّاً أوردت منها هذا المقدار طلباً للاختصار.

ومن مديحه الحسن قصيدته التي امتدح بها ابن عـمّه الشـريف مـحسن بـن حسين بن حسن، الذي مرّ ذكره قبل ولايته إمارة مكّة المعظّمة، وتحلّيه بـعقود الشرافة المنظّمة، ويشكو تقصيراً حصل منه في حقّه، ويصف أيّامه، وقالها تأدّباً لا تسبّباً، هكذا وجدته في ديوانه، أفاض الله عليه شآبيب غفرانه، ومطلعها:

أشجاك رسمٌ برامه حرب أم صـادحٌ بـان أُلفه طـرب
أم نـاسمٌ عـنهم روىٰ خـبراً أم بــارقٌ بـالعذيب مـلتهب
لا بل تذكّرت أعصراً سلفت بـه وأثـواب صبوتي قشب
وغصن لهوي غضٌّ ومورده عــذبٌ وبأنـاته لهـا عـذب

ومنها:

أمــا تــراعي حـبلاً وثـقت بـه بــمنع مــن قـد أضـلّه السـحب

---

(١) سلافة العصر ص ٣١.

فـــعلّمه أنّــني صــريع هــوىً .... (١)
يـوجب أن ثـار فـي الأوان وإن يفعل في البـين فـوق مـا يـجب
وهو الفتى المحسن الذي حسنت بـــه المـزايـا والشـعر والخـطب
مـــلكٌ إذا هـــمّت المــلوك بأن تعصيه في سـاعةٍ جـرى العـطب
يأخـــــذ أرواحـــهم ويســلبهم لوافــــديه ومـــــا له ســــلب
فـــللموالي أهـــلاً بـــه ولُــهىً وللــمعادي الحـروب والحـرب
يـــا سـيّداً طـال عـصره شـرفاً بـــــه وعــزّت بـذاتـه الرتب
مـــا بـال حـظّي أراه فـي صببٍ وتســـعد العــجم مـعك والعـرب
وأنت لو شـئت سـبق صــافيةٍ بـالسقب حـاز المـعالي السـقب
أو لو تشـــا أمس أن يـعود غـداً لم تـثنه عـــن مــرادك النــوب

ومنها:

وإنّـني مـن عـرفت حـين بـدت مـــطامع الأقـــربين والريب
أمـــنحك الودّ ثــــمّ أتـــبعه بـالحمد فـالصدق بـان والكـذب
ولست عــــيراً للـــدار أو وتـــداً أو ثـــــقةً بــعد شــجّه الطـنب
وفـــيك لولا الرجـــاء أوثـــقني لكـــان لي فـي البـلاد مـضطرب
فـــاحفظ أخـــا خــلّةٍ وكـــارهةٍ ليس له نـــحو غــــيركم إرب
يـــحفظ مـا ضـاع مـن وداد أخ أفـــــرغ فــــيه الوفــا والأدب
مـــن نــبعةٍ كــلّها غــطارفةٌ غـــلب بـــها ليـل شـانها الغـلب
إن أجـــــدب الوقت أخـــصبوه وإن دارت رحى الحرب لها قطب

---

(١) بياض في النسختين.

فأدركــهم فــالزمان عــاث بـهم ولمّ شــعباً قــد كــاد يــنشعب
واســلم ودم مـا شـذت مـطوّقةً ومــا تــولّت بــذكرك الكــرب

ومن غزلياته الشعريّة، ونـفثاته السـحريّة، قـصيدة تأخـذ بـمجامع القـلوب والألباب، وتصبو إليها أسماع ذوي الآداب؛ لأنّها من الرقّة والسهولة بمكان رفيع، وعن الركّة وغيرها بحصنٍ منيع، ومطلعها:

حنّت فأبكت ذات ثكلٍ[1] حنونْ وغـنّت الورقـا بأعـلى الغـصونْ
وهــــينمت مسكــــيّةٌ ذيــلها أرّجها[2] نشر طـوىٰ والحـجون
وشــقّ بــرد اللــيل بــرقٌ فـما ظــــننته إلاّ حســـام الجــفون
كأنّــه مــذ شــقّ قـلب الدجـىٰ جبين ليلي فـي ديـاجي القـرون
فــقمت كـالهادر[3] فـي شجوه لم أدر مــا بــي فـرحٌ أم جـنون
وأرســل الدمــع نــجيعاً عــلىٰ خدّي فيجري أعـيناً مـن عـيون
فــلم أخـل نـوماً ولا مـجثماً[4] ومــوقداً أو عــلماً فــي دمـون
إلاّ وبــات النــاعم الفــرش لي شوكاً وميعاس[5] الروابي حزون
فالبرق نوحي في الربىٰ[6] رعده والورق من شعري تجيد اللـحون

---

(١) في السمط: شجون، وفي السلافة: شكل.
(٢) في السلافة: غطره.
(٣) في السمط: كالهادل.
(٤) في السمط: لم أر نؤياً ولا مجثماً.
(٥) في السلافة: ومبسوط.
(٦) في السمط: الدجىٰ.

عـهدي بـها كـانت كـناس الظـبا   وغابة[١] الأُسـد حـماة الظـعون
حـتّىٰ غـدا مـن بـعدهم ربـعها   مستقفراً[٢] جارت عليه السنون
كأنّـه جسـمي وإن لم يكـن   جسمي فـوهماً أو خـيالاً يكـون
الله لي مـن مـهجةٍ مـزّقت   ومـقلةٍ عـبرىٰ ونـفسٍ رنـون[٣]
تـحنّ للشـعب وأوطـانه   مـهما سرىٰ بـرقٌ بـليلٍ دجـون
وفـتيةٌ مـن آل طـه لهـم   في الحرب أبكارٌ مـزايـا وعـون
من كـلّ طـلقٍ لا يـرىٰ كـالسها   لضـيفه ثـلّة ذات القـرون
مـبتذل السـاحات فـي قـطرهم   للـخائف الجـاني أعـزّ الحـصون
كـلّ طـويل البـاع رحب الفـنا   تـصدق للـوفّاد فـيه الظـنون
يـحمده السـارون إن أدلجـوا   ويعمر[٤] النـادي بـه السـامرون
لا يـنتهي الجـارون مـنه إلىٰ   شأوٍ ولا يـعسفه الجـائرون
فـيا نسـيمات الصـبا عـرّجي   بـهم وبـثّي غـامضات الشـجون
وحـاذري أن تـصحبي لوعـتي   واستصحبي بـثّي عسـىٰ يـفهمون
وبـلّغيهم حـال مـن لم يـزل   حـليف أشـجانٍ كـثير الشـؤون
ناءٍ عن الأهـلين صـعب الأسـىٰ   من بـعد مـا فـارق قـلباً شـطون
يـحفظ للـرمل عـهود الوفـا   وإن طـلبت القـرب مـنه يـخون

---

(١) في السمط: ومرتع.

(٢) في السمط: مفتأداً.

(٣) في السمط: ونون

(٤) في السمط: ويقتضي.

قولي لهم يا عرب وادي النقا وجيرة الجرعا وذات الحزون
نسيتم صبّاً غدا دمعه من بعدكم صبّاً قريح الشؤون[١]
وهو وماضي العيش ما ساعةٌ فيها تناسي جدّكم والمجون
فشأنه يخبر عن شأنه وحاله إن يسأل السائلون
وأنت يا شادي[٢] بشأم اللوىٰ ويا حويدي الظعن بين الرعون
عرّض بذكري لا شجاك[٣] النوىٰ لعلّهم لي بعد ذا يذكرون
وهات لي عن رامةٍ والنقا هل طاب للساكن فيها السكون
وهل أثيلات النقا فرعها يهصره من لينه الهاصرون
وصادحٌ تلحينه صادعٌ علىٰ فنونٍ باعثات الفنون
منازلٌ كنّا عهدنا بها ثقال أردافٍ خماص البطون[٤]

أقول: إنتهىٰ ما أردت نقله من هذه القصيدة، وهي في عقود شعره واسطة وفريدة، والشيء بالشيء يذكر، والجمع إذا تبع المناسبة، كان ممّا يحمد عند ذوي الأدب ويشكر .

فممّا ذكرته في هذا الموضع قصيدة علىٰ هذا الوزن والروي، لسيّدي الوالد أدام الله بقاه، وأيّد سعده وارتقاه، وهي مقصورة على الغزل الصريح، لم يتشبّث فيها بأهداب المديح، عارض بها قصيدة السيّد أحمد المذكور، فغدت في بابها

(١) في السمط: قريح الجفون .

(٢) في السمط: يا ساري .

(٣) في السلافة: شجتك .

(٤) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٥٥ ـ ٤٥٦، سلافة العصر ص ٢٨ ـ ٣٠.

مشهورة، وفي فنّها مشكورة، وهي من غرر غزلياته الرقيقة، التي ملكت من سوق البلاغة حرّه ورقيقه، وهي هذه:

لولا محيّاك الجميل المصونْ ... ما بتّ تجري من عيوني عيونْ
ولا عرفت السقم لولا الهوىٰ ... ولا تباريح الأسىٰ والشجون
كم وقفةٍ لي في طلول الحما ... روىٰ ثراها صوب دمعي الهتون
يا ربع خبّر لا جفاك الحيا ... ولهان لا يعرف غمض الجفون
هل أنت مغني للغزال الذي ... إليه أصبوا والتصابي فنون
وأشرقت فيك بدور الدجا ... ورنّحت فيك الروابي غصون
من كلّ غيداء إذا أسفرت ... جلا محيّاها ظلام الدجون
سيوف لحظيها إذا جرّدت ... أثارت الحرب بكسر الجفون
وعامل القامة كم أعربت ... أفعاله عن صرف ريب المنون
والشامة السوداء في خدّها ... تعلّم الصبّ فنون الجنون
منيعة الحجب فنيل اللقا ... منها بعيدٌ عن مرادي الظنون
مصونةً تحمي حمىٰ حيّها ... أسد الثرىٰ من فوق قبّ البطون
حسبك لؤماً يا عذولي اتّئد ... إنّي لعهدي في الهوىٰ لا أخون
لا تطلب السلوان من وامقٍ ... فذاك شيء أبداً لا يكون
فدع سكارىٰ كأس خمر الهوىٰ ... يا صاح في سكرتهم يعمهون
يا ويح عذالي أما شاهدوا ... طلعة من أهواه بل هم عمون
ظنّوا اتّباعي في الهوىٰ ظلّة ... وهم برشدي فيه لا يعلمون
أما ووجدي بأهيل الحما ... وعهدي الوافي وسرّي المصون
وما لهم من منزلٍ عامرٍ ... بسفح قلبي هم به نازلون

لقـد أطـعت الحبّ فـي حكـمه ... جوراً وعدلاً في جميع الشـؤون
بذلت فـيه الروح بـذل امـرىءٍ ... لديه صعب الحتف فـيهم يـهون

وقد عارض هذه القصيدة غير واحد من الأُدباء المشاهير، فأحـرزوا قـصب السبق من الأدب في مضمار روضه النضير، كأديب العصر صاحب سلافة العصر، ومطلع قصيدته :

وما أحسن قوله في المديح :

مديحك السامي كبحر طـمي ... لذا أتت قـافيتي فـيه نـونْ

وممّن عارضها بشعره، وسحر الألباب بمخدّرات فكره، الفاضل الأديب شهاب الدين الشيخ أحمد الخلي[١]، ومطلعها :

جرت دموعي من عيوني عيون ... حين استقلّت عـينهم بـالضعون
ودّعـتهم والقـلب أودعـتهم ... رفـقاً بـقلبي أيّـها الظـاعنون
فـي ذمّـة الله وفـي حـفظه ... تلك المـراسيل ومـا يـحملون

وهي قصيدة ألطف من نسيم الصبا، وأرقّ من أحاديث الصبا، لم تزل تتناقلها أبناء الزمان، وتسير بها الركبان، يحدو بها الحادي، ويترنّم بها الشادي، قد انطوىٰ عليها ديوانه البديع، الحالّ من قصور البلاغة بمكان رفيع .

وقد عارض قصيدة الشيخ أحمد السابقة خلق كثير، إلاّ أنّ رتب معارضاتهم غير متناسقة، بل درّة مع آجرة، وقحبة جـاورت حـرّة، ولولا خـوف التـطويل لأوردتها لك بالتفصيل .

---

(١) هو الفاضل الأديب العلاّمة الشيخ أحمد بن قاسم الخلّي له ديوان شعر، يـنقل عنه المؤلّف في كتابه هذا عنه .

وإن أردت الاطّلاع عليها، فوجّه نجائب همّتك إليها، تجد منها عدّة قصائد، تنتظم في بحور الخرائد، مقاصر وقلائد، وإنّما إذا أقمت ميزان المعرفة، وفوّقت سهام الإنكار المتصرّفة، وقست تلك الفروع عن الأصل، بعد القطع والفصل، قلت في ذلك الأوان ماءً ولا كالصدا، ومرعىً ولا كالسعدا، وإن نظرت بعين كمالك قلت فتىً ولا كمالك، وإن حقّقت الأمر قلت فارس ولا كعمرو.

وأمّا ما سطرته من المعارضات في هذا التأليف، فهو من البلاغة وحسن الصياغة بمكان منيف، وما تقدّم من الكلام، فهو منصب إلىٰ ماعدا المثبت من ذلك النظام؛ إذ هو فرع فاق أصله، وسابق حاز من صلبه البلاغة خصله.

لا يستوي البدران بدر غدا ... ملقىً على الأرض وبدر مصون

وللسيّد أحمد صاحب الترجمة في هيكل التعاويذ والحروز، المنوطة بهيكل الغيد وقاية من سحر لحظها المرموز، قوله:

لله ظبي سربه ... يزهو به في المحفل

قنص الأُسود بقالبٍ ... قيد الأوابد هيكل

وله الجوار المنشآت ... حوى الحشاشة للخلي

من كلّ خود[1] لحظها ... يسطو بحدّ المنصل[2]

مشتاقها من ثغرها ... وأثيثها في مشكل

ما قال في ظلمائه ... يا أيّها الليل انجلي

فاق الغواني خاليا ... تٌ عاطلاً في هيكلي

---

(١) في «ن»: رود، وفي السلافة: بكر.

(٢) في السلافة: الفصيل.

وبدا[١] ينصّ به فأزرىء   الحلي بالنصّ الجـلي[٢]

وقد حذىٰ حذو هذه الأبيات، جماعة من أرباب هذه الصناعة؛ لأنّها انطوت علىٰ معنىً غريب، وأُسلوب عجيب، فقد نفث به ساحر أقلامه، وقذف بحر فكره جواهر نظامه، فاقتفوا في معارضة أثره، واقتطفوا من روض مـخترعاته ثـمره، وكلّهم من عين فضله مقترف، وليس فيهم إلاّ من هو مقرّ بذلك ومعترف، وقد أورد جانباً من المعارضة في الديوان، مع نثر تحلّي بعقائده العقيان.

وممّا رأيته في ديوانه، من صنيع بنانه، وبديع بيانه، ماكتبه إلى الجمال محمّد بن أحمد الشاهد المكّي، وكان بينهما محبّة شديدة، ومودّة أكيدة، وهو:

وشاذنٌ وفا وكـانت خـلسة   من بعد أودت مهجتي عـطلّه

لمّـا بـدا مـحتجباً بـمرطة   كـي لا يـتمّ ضـوءه لأهـله

قلت له البدر إذا الغيم غشىٰ   أنواره تـرجـو الورىٰ لوبـله

فـقال لي مسـتهزءً بـمطلبي   ما أحسن الشاهد في مـحلّه

وكتب إليه مع هذه الأبيات نثراً، فقال: يا جمال أشرف علىٰ هذه الأبيات، وحلّ عاطل ذاتها منك بفرائد الصفات، فإن استدعيتنا إلىٰ محلّك ولا زال آهل، وكواكب أُفقه بجودك زاهرة ونجم أعدائك آفل، قلنا ما أحسن الشاهد في محلّه، ولا بدع أن يرجع الشاهد في محلّه، ولا يدع أن يرجع الفرع إلىٰ أصله، وتبقىٰ وتدوم، في حفظ الحيّ القيوم، والسلام على المظلّل بالغمام، وإله الكرام.

كتب إليه الشاهد المذكور:

---

(١) في السلافة: وغدا.

(٢) سلافة العصر ص ٢٥ ـ ٢٦.

لله مـا أبـدت ومـاذا أبـدعت　　　من عقد درٍّ قد زهىٰ من أهـله
بـــديهة لواحـد العـصر ومـن　　　حـاز المـعالي نـاشئاًكأصـله
مشــرّفي بــقطعةٍ مـن نـظمه　　　أحلىٰ من الحبّ وفـا بـوصله
نــظم لآلٍ مـن مـليكٍ مـاجد　　　فاق الأُولىٰ هيهات درّك مـثله
أشـــار فـيها أن يـزور مـنزلاً　　　ما فيه إلاّ ما نـمىٰ مـن فـضله
مـا هـو إلاّ روضـة غـراسـها　　　ما سحّ من هامي قـطار وبـله
فإن يزور شـاهدٌ نـعماه يـقل　　　ما أحسن الشـاهد فـي مـحلّه

وكتب إليه نثراً هذا صورته: ناظم دررها، ونـاسج حـبرها، وصـلته الأبـيات الشريفة، من الحضرة العالية المنيفة، فحيّر عقله ما حيّر منشيها، وأبرد كلّ قريحة وقّادة، وقاد قريحة موشيها، فوالله لولا أن يقال علّ وليت، لكتبت تحت كلّ بيتٍ «فليعبدوا ربّ هذا البيت» كيف لا ومفترع بكرها، مخترع الأبكار البديعة النظام، البديعة المرام، المتقدّمة علىٰ من تقدّمها من الجاهليّة وغيرهم من شعراء الإسلام، ليث بني هاشم الضراغم، حماة الحرمين الشريفين، وواسطة عقد الأكارم، بحيث إنّي لمّا سرحت علوف الطرف في ميدان رياضها، ونشقت عبير عنبر ذلك العرف من أريج الظرف من غياضها، واكتحل ناظري بنثر مدادها المرقوم، ورشف سمعي من رحيق معناها المسك المختوم.

فوالله ما أدري أزهـر خـميلةٍ　　　بطرسك أم درٌّ يلوح علىٰ نحر
فإن كان زهراً فهو صنع سحابةٍ　　　وإن كان درّاً فهو من لجّة البحر

فأمّا ما لوّح به سيّدنا ومولانا، وسندنا وأولانا، بزيارة العبد في الدار، التي هي وما فيها وما بها من بعض فضلكم المدرار، فلسان الحال ينشد هذا المقال:

قالوا يـزور كأحـمد وتـزوره　　　قلت الفضائل لا تفارق مـنزله

إن زارنـــي فـبفضله أو زرتـه فلفضله والفضل في الحالين له

فتشريفي الحظّ الأوفى الأوفر، والمنال الأزهى الأزهر، عطّر الله بـه مـراتب الخلافة القعساء، وطرز بفضائل ذكره الشريف صحف الأدب مدحاً وثناً، وأزكىٰ منه أخلاقاً ونفساً، وذلك بعد تقبيل الأقدام الكرام، والسلام.

ومن بليغ شعره، الدالّ علىٰ شرف نفسه، وعلوّ قدره، وهو ما كتب به إلىٰ عمّه الشريف إدريس بن حسن، والذي مرّت ترجمته، وقد أنكر منه بعض تقصيره:

رأيتك لا توفي الرجال حقوقهم تـوهّم كـبرٍ سـاء مـا يـتوهّم

وتزعم أنّـي بـالمطامع أرتـضي هواناً ونفسي فوق ما أنت تزعم

ومـا مـغنمٌ يـدني لذلٍّ رأيـته فـيقبل إلاّ وهـو عـندي مـغرم

وأختار بـالإعراض عـنه مـنيةً لأنّي من القوم الذيـن هـم هـم

ولهذه الأبيات نقل غريب، لا يصدر إلاّ عن مثل ذاك السيّد النسيب، وهو أنّه ربما عرض لجنابه، توعّك لازم داره بأسبابه، فأُخبر الشريف إدريس بـعد أيّـام قلائل، بأنّ السيّد أحمد له علّة لم يبرز من داره، ولم يقف أحـد عـلىٰ أخـباره، فاختبط الشريف إدريس بذلك، حتّىٰ سدّت عليه المسالك، فأراد زيارته وعيادته في الحال، فلم يتمكّن له ذلك بسبب ما عرض من الأحوال، فطلب من الدراهم مقداراً جزيلاً، وأرسله إليه إرسالاً جميلاً، وشرح له عذره عن الوصول إليه حال الارسال، وأنّه لابدّ أن يصل إليه في الاستقبال.

فحين ورد الخادم إليه بالصلة الجزيلة، التي لمثلها تسمو ذووا الأقدار النبيلة، لم ينظر إليها، ووضع هذه الأبيات عليها، وقال للخادم: ردّها لا صحبتك السلامة، ولا تجلّيت بجلباب الكرامة.

فلمّا وصل بها الخادم إلى الشريف إدريس، وأشرف على الأبيات، قال: هكذا

تكون النفوس الأبيات، فركب في الحال إلىٰ داره العليّة، واعتذر إليه بما هو أهله عن التأخير، فرحمهما الله تعالىٰ، وأفاض عليهما شآبيب غفران متوالىٰ.

وهذا أوان أن نثني عنان القلم، ونقتصر علىٰ ما أوردناه مخافة حدوث السأم، ونرجع إلىٰ تتميم ترجمة السيّد أحمد بن عبدالمطّلب.

فنقول: قد تقدّم ذكر وفاته رحمه الله تعالىٰ. وأمّا عقبه الشريف، فهم الشريف مسعود.

ترجمة السيّد الشريف مسعود بن إدريس بن حسن بن أبي نمي

نقول: الأصل في ولاية الشريف مسعود ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ما نقله المؤرّخون[١] من غير اختلاف، وهو أنّ في سنة ثمان وثلاثين وألف وصل من جهة السلطنة الروميّة رجل عظيم من الباشوات يسمّىٰ قانصوه باشا، قد أُمر من جانب السلطنة الروميّة بالمسير إلىٰ قطر اليمن لإزاحة من فيه من الأئمّة، والاستيلاء عليه، وتمهيد أطرافه، ومعه من العساكر نحو ثلاثين ألفاً.

فاتّفق أن كان بين الشريف مسعود المذكور وبين الشريف أحمد بن عبدالمطّلب المتقدّم ذكره، محبّة ومودّة قبل ولايته لشرافة مكّة المشرّفة، فبعد تولّي الشرافة استبدل ذلك بالعداوة والبغضاء للشريف مسعود، حتّىٰ فرّ من البلاد خوفاً منه، وهذا مصداق قول الشاعر العارف:

إذا رأيت امرىءً في حال عسرته ... مصافياً لك ما في ودّه خلل
فلا تمنّ له أن يستفيد غنىً ... فإنّه بانتقال الحال ينتقل

فلمّا سمع الشريف مسعود بقصّة قانصوه باشا وتغلّبه، لاقاه قبل وصوله إلىٰ مكّة

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

المشرّفة، والتمس منه أن يولّيه شرافة مكّة المعظّمة، بعد أن شحّن صدره عن الشريف أحمد بن عبدالمطّلب، مع كونه قد سمع بمظالم الشريف أحمد المذكور، فوعده[١] بذلك، ولم يزل صحبته.

فلمّا قرب إلىٰ مكّة المشرّفة أخفاه، ثمّ جاء إلىٰ مكّة ونزل بالزاهر، فركب إليه الشريف أحمد بن عبدالمطّلب زائراً، فقبض عليه، وقتله ليلة الأحد لخمس خلون من شهر صفر سنة تسع وثلاثين وألف، وولي الشريف مسعوداً المذكور. هذا ما رأيته في بعض التواريخ[٢] ونقلته بالمعنىٰ.

ثمّ طالعت ترجمته في تاريخ العصامي، فرأيته لا يخلو من فائدة زائدة، فأحببت نقل عبارته من موضعين:

الأوّل: ما ذكره في آخر ترجمة السيّد أحمد بن عبدالمطّلب، وكيفيّة قتله من ذلك الشقي قانصوه باشا، وولاية السيّد مسعود؛ لأنّنا قد وعدنا سابقاً بذلك.

والموضع الثاني: ترجمته برمّتها الموضوعة باسمه الشريف في التأريخ المذكور.

فالأوّل منها، قال: وجاء قانصوه باشا متوجّهاً لفتح اليمن، وصحبته من العساكر ثلاثون ألفاً، فنزل بأسفل مكّة، وقد تقدّم أنّ الشريف مسعود كان بينه وبين الشريف أحمد شروط ووعود، وقد فعل له ما أشار إليه، فلمّا تقمّصها لم يف له بما اتّفقا عليه، بل اتّبع ختله[٣]، بأن قصد قتله.

---

(١) في «ن»: فأوعده.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ٢: ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) في «ن»: خيله.

فالتجأ الشريف مسعود إلىٰ قانصوه، وروّج إليه[1] أمره، وأوغل على الشريف أحمد صدره، وكان لاقاه من الينبع وجاء معه مختفياً، ولم يزل به مختفياً، واتّجه به الشريف أحمد مسلّماً عليه عند القدوم، ثمّ عزم علىٰ حربه لعلمه بما يروم، فعلم بذلك قانصوه، فازداد عليه حنقاً، ولم يزل كذلك حتّىٰ أورده من حياض المنية ورداً رنقاً.

فشرع أوّلاً في استمالة عساكره فأطاعوه، وخرجوا من مكّة وباعوه، ثمّ خيّم قانصوه بالزاهر، لتنفيذ أمر الله القاهر، فما قضت الحجّاج مناسكهم، وسلكوا إلىٰ أوطانهم مسالكهم، وتحرّك قانصوه للرحيل، وحبل غدره غير سحيل، قدّم ثقله أمامه، ولم يبق إلاّ وطاف عسكره وخيامه.

ثمّ احتال بأن أرسل إليه من نمّق له الخداع، وحسّن له إلىٰ أن يأتي قانصوه بقصد الوداع، فجاء إليه وحصل لديه، وتمّ لمراد الله عليه ذلك، وألقىٰ بيده إلى المهالك، فجاء معه ثلاثة من السادة الأشراف ووزيره وصاحب بيت ماله، ورجل آخر يسمّىٰ فليقلاً من رجاله، ولم يزالوا يدخلون في سرادق قانصوه باشا بأتباعه، ويمنع عند كلّ باب جماعة من أتباعه، فلمّا وصل إليه حادثه ملياً بالمجالسة، ولعب معه الشطرنج للمجالسة، وكان ذلك ليلة الأحد خامس شهر صفر من سنة تسع وثلاثين.

فلمّا كانت الساعة الخامسة من تلك الليلة قبض عليهم أجمعين، وأوردهم حوض الحتف المعين، إلاّ من كان أطاعه من الأشراف، فإنّه أذن لهم بالانصراف.

إلىٰ أن قال: ثمّ خلع على الشريف مسعود، فأشرق بمكّة الطالع المسعود،

---

(١) في «ن»: لديه.

وجرى الماء في العود، ووفى الدهر بوعيد ووعود[1]. إلىٰ آخر ما ذكره ملخّصاً بالمعنىٰ .

ثمّ قال في الموضع الثاني، وهي ترجمته الموضوعة باسمه الشريف، بعد أن ذكر اسمه، وأغلب الألفاظ والسجعات فيها تغيير وتبديل، كما هو دأبي فيما أنقله من عبائر العصامي، وقد مرّ بك كثير من ذلك فاستقره تجده .

قال: نشأ في كفالة والده الشريف إدريس، وانتشأ من كؤوس العزّ بسلاف الخندريس، فنمىٰ نموّ أشكاله، وسمىٰ فوق سموّ أمثاله، ونهض بأعباء الكرم نهوض كافل كافي، وطار في جوّ الهمم موفور القوادم والخوافي .

وجرت بينه وبين الشريف محسن، وعلمك محيط بما سلكه في والده، حروب ما وريت عند اقتداح زندها بصالده، وأظهر فيها بسالة يحمّ لها الأُسود في الآجام، وضرامة تسمّ مضاء الصوارم بالأحجام .

أوّلها سنة سبع وثلاثين وألف، وكان للشريف محسن فيها الظفر، حتّىٰ كان انتهاء المكر والفرّ، استيلاء محمّد بن الشريف محسن بالغلبة عليه، وقد ندبه والده إليه، في معركة اشتدّ خطبها، وثبت في دور رحاها قطبها، وأنفقت نقود الأرواح بالإسراف، وقتل فيها عظيمان من الأشراف، فنجى الشريف مسعود، وكفّ عن الحرب متوقّعاً لها الطالع المسعود .

ثمّ دخل مكّة برضاً من الشريف محسن علىٰ شرط المسالمة، واندمال قروح المكالمة، وكفّله جماعة من الأشراف، بأن لا يكون له علىٰ الخلف تشوّق وإشراف .

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

فلم يزل مستمرّاً علىٰ ذلك، حتّى اتّفق في مجال الشريف أحمد بن عبدالمطّلب ما تقدّم شرحه من المسالك، فوفى الدهر بالوعود للشريف مسعود، وانجابت[١] عن عيون الأماني تلك الصواعق والرعود، وحلّ كوكب الطالع في شرف الأوج بالصعود، فتولّىٰ شرافة مكّة المعظّمة، وتقلّد عقودها المنظّمة، وحمد صباح السرىٰ، واستقرّ في خيسه ليث الشرىٰ، وأغمد البواتر الماضية الفرار في الأجفان، وأغمضت علىٰ لذيذ القرار سواهر الأجفان، وكفت الصولة، وصفت الدولة، وحمى الفحل شوله، وساس الشريف مسعود الأُمور فأحسن فعله وقوله .

وكانت مكّة في زمانه، ممتّعة بسلم الدهر وأمانه، شملها رخاء الأسعار، ورخاء البال، وأنبت بقلها ربيع العدل بصوب الإقبال، صفت الموارد من الأكدار، وبسطت بساط الراحة أيدي الأقدار، وأهمل الدهر عجم الشرور، وقيل أوابد السرور، إلاّ أنّ عصر ملكه السعيد، كفّ الدهر المقتضب بالجزر المديد، فأوجز في مدّته بالاقتصار، وقصّرها على الاختصار، وكذاك أيّام السرور قصار، فكانت مدّة ملكه إلىٰ حين هلكه سنة وثلاثة أشهر؛ لأنّه انتقل في سنة أربعين بعد الألف، فرحمه الله رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأطهار[٢] .

قال صاحب لسان الزمان: وكان أديباً لطيفاً، مجالساً للعلماء والصالحين، وامتدحه الأُدباء بقصائد عظيمة، منهم: الشيخ أحمد بن عيسى المرشدي، فإنّه مدحه بقصيدة دالية، وهي في غاية الجودة، وهي هذه :

---

(١) في «ن»: وانجلت .

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

عوجا قليلاً كذا عن أيمن الوادي ... واستوقفا الركب[1] لا يحدو بها الحادي

وعرّجا بي علىٰ ربعٍ صحبت به ... شرخ الشبيبة في أكناف أجياد

واستعطفا جيرةً بالشعب قد نزلوا ... على[2] الكثيب فهم غيي وإرشادي

وسائلا عن فؤادي تبلغا أملي ... إنّ التعلّل يشفي غلّة الصادي

واستشفعا تشفّعاً نسألكم فعسىٰ ... يقدّر الله إسعافي وإسعادي

وأجملا بي وحطّا عن قلوصكما ... في سوح مردي الأعادي الضيغم العادي

مسعود عين العُلا المسعود طالعه ... قلب الكتيبة صدر الحجفل البادي[3]

شهم السراة الأُلىٰ سارت عوارفهم ... شرقاً وغرباً بأغوارٍ وأنجاد

نرد غمار العلىٰ في سوحه ونرح ... أيدي الركائب من وخدٍ وإسآد

فلا مناخ لا في غير ساحته ... وجود كفّيه فيها رابحُ[4] غادي

يعشوشب العزّ[5] في أكناف عقوته ... يا حبّذا العشب في الدنيا لمرتاد

ونجتني ثمر الآمال يانعةً ... من روض معروفه من غير[6] ميعاد

فأيّ سوحٍ يرجّي بعد ساحته ... وأيّ قصدٍ لمقصودٍ وقصّاد

ليهن ذا الملك إن ألبست حلّته ... تحيي مآثر آباءٍ وأجداد

---

(١) في السمط: واستوقفا العيس.

(٢) في السمط: أعلى.

(٣) في السمط: الحفل والنادي.

(٤) في السمط: رائح.

(٥) في السمط: العشب.

(٦) في السمط: من قبل.

لبستها فكسوت الفخر مرسلها[١] مشهّراً يبهر المصبوغ بالجاد
علوت بيتاً ففاخرت النجوم عُلاً والشهب فخراً بأسبابٍ وأوتاد
ولحت بدراً بأُفق الملك تحسده شمس النهار وهذا حرّها بادي
وصنت مكّة إذ طهّرت حوزتها من ثلّةٍ أهل تثليثٍ وإلحاد
قد غرّ بعضهم الإمهال يحسبه عفواً فعادوا لإتلافٍ وإفساد
فذدتهم عن حمى البيت الحرام وهم من السلاسل في أطواق أجياد
كأنّهم عند رفع الزند أيديهم يدعون حبّاً لمولانا بإمداد
وما أرعووا فشهرت السيف محتسباً يا برد حرّهم في حرّ أكباد
غادرتهم جزراً في كلّ منجدلٍ كأنّ أثوابهم مجّت بفرصاد
وأثمر السدر في[٢] أجسامهم ثمراً حلواً بأفواه أجداثٍ وأنجاد
سعيت سعياً جنيّاً من خمائله نور الأمان لأرواحٍ بأجساد
فكم بمكّة من داعٍ ومبتهلٍ ومن محبٍّ ومن مثنٍ ومن فادي
وعاد كلّ قصيٍّ مصلحاً وغدت أيّامنا بالهنا أيّام أعياد
وقاد كلّ قصيّ ذلّه مهلاً وكان من قبل صعباً غير منقاد
نفىٰ لذيذ الكرىٰ عنهم تذكّرهم وقائعاً لك بين الخرج والوادي
أباح سرحك أن يرعىٰ منازلهم مهلاً كلّ معوجٍ ومنآد
من كلّ أبيض قد صلّت مضاربه لمّا ترقّىٰ خطيباً منبر الهادي[٣]

---

(١) في السمط: ملبسها.

(٢) في السمط: من.

(٣) وقع تقديم وتأخير في بعض الأبيات في السمط.

وكــلّ أســمر نــظّام الكُـلىٰ وله ... إلى العــدىٰ طــفرة النــظّام مــيّاد
وصـان وسـمك فـي جأشٍ يـخالطه ... عــن ربّ عــزٍّ تــنضّاه بأجشــاد
أسكـــنت قــلبهم رعــباً تــذكّره ... ينسي الشـفوق المـوالي ذكـر أولاد
أقــبلتهم كــلّ مــرقالٍ وســابحةٍ ... يسـرعن عـدواً إلى الأعـدا بأطـواد
مـن كـلّ شـهمٍ إلى العـلياء مـنتسبٍ ... بســـادةٍ قـــادةٍ للــخيل أجــواد
فـهاك يـابن رسـول الله مـدحة مـن ... أورت قــريحته مــن بــعد إخـماد
فأحكــمت فــيك نـظماً كـلّه غـررٌ ... مـا أحـرزت مـثله إقـبال[١] بـغداد
أضحت قوافيه والآمال[٢] يشرحـها ... روض البــديع بــإرصادٍ بــمرصاد
تــرويه عـنّي الثـريّا وهـي هـازءةٌ ... بــالأصمعي ومــا يــروي وحـمّاد
وتسـتحثّ مـطايا الزهـر إن ركـدت ... كأنّــها إبــلٌ يــحدو بـها الحـادي
وتوقظ الركب ميلاً من خـمار كـرىً ... والليل من طول تدآب السرىٰ هادي
أتـــتك تشــــفع إذلالاً لمــنشئها ... فــاقبل تــذلّلها يــا نســل أمـجاد
وأسبل الستر صفحاً[٣] إن بـدا خـللٌ ... تهتك بـه سـتر أعـدائـي وحسّـادي
وقــل تــقرّب إليــنا تسـتعزّ بــنا ... مــا حــقّ مـثلك أن يـقصي بـإبعاد
لا زلت يا عزّ أهل البيت فـي دعـةٍ ... تـــحفّ مــنهم بأنــصارٍ وأنــجاد
مســعود جــدّ سـعيد الفأل طـالعه ... سـعد السـعود ومـلقىً كـلّ إسعاد
بـــحقّ طـــه وســبطيه وأمّــهما ... والمرتضىٰ والمثنّى الطـهر والهـادي

---

(١) في السمط: أقيال.

(٢) في السمط: والإحسان.

(٣) في السمط: وأسبل الصفح ستراً.

صلّىٰ عليهم إله العرش ما سجعت قمريةٌ أو شدا في مكّة شادي[١]

وعارضه القاضي تاج الدين المالكي ممتدحاً صاحب الترجمة، وقد زفّت القصيدتان إليه في يوم واحد، وذلك يوم الجمعة الثاني من شهر رجب الفرد سنة ألف وتسع وثلاثين، ومطلعها:

غذيت درّ التصابي قبل ميلادي فلا ترم يا عذولي فيه إرشادي

وهي مشهورة موجودة في كلّ كتاب ومجموع[٢]، فلا يحتاج الى التطويل بنقلها.

فصل

في الحوادث المتعلّقة بدولة صاحب الترجمة

قد تقدّم بأنّ ولايته كانت في شهر صفر من سنة تسع وثلاثين.

وصول قانصوة باشا إلى اليمن:

ففي هذه السنة: وصل قانصوة باشا إلى اليمن، وكان كلّما دخل قرية نهب أهلها وظلمهم، فعاد عليه شوم فعله، ولم يفلح في سعيه، بل أُهين وأُرذل، وشتّت الله شمله[٣].

نزول مطر شديد وتخريب البيت الشريف:

وفي هذه السنة: نقل المؤرّخون أنّه نزل ليلة الأربعاء لأحدعشر ليلة بقين من شعبان مطر شديد، ونزل في خلاله برد مالح شديد الملوحة، وسالت الأودية،

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٣٧ ـ ٤٣٩.

(٢) راجع تمام القصيدة: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٣٩ ـ ٤٤١.

(٣) سمط النجوم العوالي للعصامي ٤: ٤٣٠، إتحاف فضلاء الزمن للطبري ٢: ٤٤.

وخربت دور كثيرة، ودخل المسجد الحرام، وعلا الماء إلىٰ أن وصل إلىٰ طراز البيت الشريف، وامتلأ المسجد من التراب، ومات من الخلق نحو خمسمائة شخص، وتغيّر ماء زمزم بملوحة شديدة حتّىٰ صار لا يساغ.

وفي ثاني يوم سقط البيت العتيق من جهة الحجر جميعاً، ومن جهة الشرق إلى الباب، وثلاثة أرباع الجهة الغربية، ولم يبق غير جهة اليمن، فانزعج الناس لذلك أشدّ انزعاج، ولم يقع البيت الشريف من عهد النبيﷺ إلىٰ عهدنا مثل هذا الانهدام، فجمع شريف مكّة العلماء، وسألهم عن حكم عمارة البيت، فأجابوه بأنّه فرض كفاية علىٰ سائر المسلمين، ثمّ اجتمعوا الناس فبرحوا المسجد الحرام، وجعل أخشاب علىٰ دائر البيت الشريف، ووضع من فوقها ثوب أخضر، ورفع الأمر إلى السلطان مراد بما صار[1].

عمارة البيت الشريف:

وفي سنة أربعين وألف: وصل رضوان آغا المعمار من طرف السلطان مراد، وابتدأ بالعمارة في البيت الشريف، وأتمّ عمارته له في السنة المذكورة علىٰ أحسن منوال[2].

وفاة الشريف مسعود:

وفي هذه السنة: توفّي الشريف مسعود صاحب الترجمة، فكانت مدّة ولايته سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالىٰ[3].

---

(١) سمط النجوم العوالي للعصامي ٤: ٤٣٤، إتحاف فضلاء الزمن للطبري ٢: ٤٦.

(٢) سمط النجوم العوالي للعصامي ٤: ٤٣٦، إتحاف فضلاء الزمن للطبري ٢: ٥٠.

(٣) سمط النجوم العوالي للعصامي ٤: ٤٣٧، إتحاف فضلاء الزمن للطبري ٢: ٥٠.

ترجمة الشريف عبدالله بن حسن بن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرّفة رحمه الله

قد تقدّم أنّ في سنة أربعين بعد الألف: توفّي الشريف مسعود المذكور سابقاً، فضبط البلاد بعد وفاته الأمير رضوان المعمار المتقدّم ذكره، ونادىٰ في البلاد باسم السلطان فقط مطلقا.

ثمّ جمع السادة الأشراف، وطلب منهم الاتّفاق علىٰ شخص معيّن منهم، فأجمعوا على السيّد الشريف عبدالله بن حسن بن أبي‌نمي المذكور أعلاه، فألبسه الأمير رضوان خلعة الولاية، إذ كان من أكابرهم وأجلاّئهم.

واستمرّ في الولاية إلىٰ أواخر شهر محرّم الحرام سنة إحدىٰ وأربعين وألف، ثمّ خلع نفسه منها تعفّفاً وديانة، وأفرغ بها لابنه محمّد بن عبدالله، وأشرك معه زيد بن محسن بن حسين بن حسن وتركها، فكانت مدّة ولايته تسعة أشهر وثلاثة أيّام.

ثمّ توفّي في ليلة الجمعة عاشر جمادي الأُخرىٰ من هذه السنة المذكورة بعد خلعه للشرافة، ودفن في قبّة والده الشريف حسن بن أبي‌نمي.

هذا زبدة ما ذكره الثقات من المؤرّخين في ترجمة هذا السيد الشريف(١).

وأعقب الشريف عبدالله المذكور جملة من الذكور، وهم: محمّد، وأحمد، وحمّود، وحسين، وهاشم، وثقبة، وزامل، ومبارك، وزين العابدين، وحامد، ووالدته الشريفة شمسية بنت ...(٢).

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٤١ - ٤٤٣، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٥١.

(٢) بياض في النسختين.

ترجمة مولانا الشريف محمّد بن عبدالله بن حسن بن أبي نمي صاحب مكّة المشرّفة قدّس سرّه

قال العصامي في تأريخه: لمّا كان يوم الجمعة غرّة شهر صفر من سنة إحدىٰ وأربعين وألف، قلّد الشريف عبدالله بن حسن رحمه الله ولده السيّد الشريف محمّد بن الشريف عبدالله إمرة مكّة المشرّفة، وأشرك معه الشريف زيد بن محسن بن حسين ابن حسن بن أبي نمي .

وكان قد استدعاه قبل ذلك من نواحي اليمن؛ لأنّه فرّ إلىٰ تلك الجهة في زمن ولاية الشريف مسعود مكّة المشرّفة، لما صدر من الشريف محسن إلىٰ أبيه الشريف إدريس أوّلاً، ثمّ إليه نفسه ثانياً، فنودي بالبلاد لهما، وتخلّى الشريف عبدالله بن حسن للتوجّه للعبادة، إلىٰ أن أتاه الأمر المحتوم بأمر الحيّ القيوم، في التأريخ المذكور في ترجمته الشريفة، والبلاد بهما قارّة، والأحوال طيبة سارّة .

إلىٰ أن كان العشر الأوّل من شعبان المعظّم من السنة المذكورة، فوصلت أخبار من جهة اليمن بأنّ عسكراً خرجوا علىٰ قانصوه، وأنّ نيّتهم الوصول إلىٰ مكّة المشرّفة، وكان ذلك شايعاً على الألسنة، ثمّ ورد مورق من القنفذة يخبر وصولهم إليها، ومعه مكاتيب إلىٰ مولانا الشريف محمّد ومولانا الشريف زيد، ومصطفىٰ بيك السنجق المقيم بمكّة إطراقاً من آغاتي العسكر المذكور محمود وعلي بيك .

ومضمون مكاتيبهم: إنّنا نريد مصر، ونريد الإقامة بمكّة أيّاماً لنتهيّأ للسفر. فأبىٰ صاحب مكّة خوفاً من الفتنة والفساد، ودفن بعض آبار كانت في طريقهم .

فلمّا وصل الخبر إليهم أجمع رأيهم علىٰ دخول مكّة قهراً، واستعدّوا لذلك، بعد أن كتبت الأجوبة بالمنع، فحصل في البلد قيل وقال، واضطراب شديد .

فلمّا أن كان يوم الجمعة عشري شعبان من السنة المذكورة بعد العصر، توجّه

مولانا الشريف محمّد، ومولانا الشريف زيد، والسادة الأشراف والأعـراب إلىٰ جهة بركة ماجن وقوس[١] المكاسة؛ لأنّه بلغهم أنّ الأتراك قاربوا السعدية، وبرز معهم السنجق مصطفىٰ بيك، بعد أن طلب من الشريف محمّد خيلاً لمن معه، فتوهّم من ذلك ومنعه من الخيل، فبرز معه بعسكره وجنوده .

فلمّا كان ضحىٰ يوم الأربعاء خامس عشري شعبان المذكور وقع اللقا بالقرب من وادي الآبار بين السادة الأشراف وبين الأتراك، فـحصلت مـلحمة عـظيمة، وقتال شديد، قتل فيه الشريف محمّد بن الشريف عبدالله بن حسن صاحب مكّة، وقتل معه من السادة الأشراف جماعة، منهم: مـولانا السـيّد أحـمد بـن حـراز، ومولانا السيّد حسين بن مغامس، ومولاه السيّد سعيد بن راشد، وخلق آخرون .

وأُصيبت يد مولانا السيّد هزاع بن محمّد الحارث، فقطعت ولم تنفصل، فدخل بها كذلك إلىٰ مكّة، ومرّ علىٰ جهة سوق الليل قائلاً: عذري إليكم يا أهل مكّة ما ترونه، وتوجّه بقية الأشراف إلىٰ وادي مرّ .

فبعد تمام الوقعة دخل الأتراك، ونودي بالبلاد للشريف نامي بن عبدالمطّلب ابن حسن .

وكان دخولهم من جهة بركة ماجن، فتعب الناس أشدّ التعب، وحصل الخوف الشديد، وتسلّطت هذه العساكر على الناس، وأتعبوهم وأهلكوهم فسـقاً ونـهباً، وظلماً وشرباً للخمور، وتقطّعت الطرق، وعصت العربان، وحمل الشريف محمّد بن عبدالله في عصر ذلك اليوم، ودفن بالمعلاّة في مقابر آبائه وأجداده، بعد أن قاتل

---

(١) في السمط: وقوز .

قتال من لا يخاف الموت، وكانت مدّة ولايتهما سبعة أشهر إلاّ ستّة أيّام[١]. إنتهىٰ.

قال صاحب لسان الزمان: وفي سنة إحدىٰ وأربعين وألف: خلع الشريف عبدالله بن حسن نفسه من إمارة مكّة، وجعلها لابنه الشريف محمّد، وأشرك معه الشريف زيد بن محسن، ونودي في البلاد لهما، وفي هذه السنة انتقل الشريف عبدالله بن حسن، ودفن بقبّة والده الشريف حسن رحمهما الله تعالىٰ، وكانت مدّة ولايته تسعة أشهر وثلاثة أيّام.

قال: وفي هذه السنة: وصل عسكر من اليمن قد خرجوا علىٰ قانصوه باشا، فأرسلوا من القنفذة إلى الشريف محمّد والشريف زيد أنّنا نريد الدخول إلىٰ مكّة، ونتهيّأ منها إلىٰ مصر، فأبيا من ذلك خوف الفساد، ووقوع الفتنة، وأمرا بدفن الآبار التي في طريقهم.

فلمّا بلغهم ذلك عزموا علىٰ ذلك قهراً وقسراً، واستعدّوا للحرب، فخرج إليهم شريف مكّة والشريف زيد، ومعهم مصطفىٰ بيك سنجق جدّة بالعساكر، فالتقوا في جهة بركة ماجن، فجرى القتال بينهم، وكان حرباً شديداً، قتل فيه الشريف محمد ابن عبدالله، وثمانية من السادة الأشراف، وجرح كثيرون، وكان المقتول من عسكر الشريف والسنجق والمتفرّجين نحواً من خمسمائة شخص، وانكسر الشريف زيد ورجع مكّة، ثمّ توجّه إلى المدينة، ومات مصطفىٰ بيك بعد رجوعه من المعركة[٢]. إلىٰ آخر كلامه دام فضله.

وهذه زبدة ما وجدناه من النقول التأريخية في كيفيّة شرافة صاحب الترجمة

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٤٣ ـ ٤٤٥.

(٢) لسان الزمان ـ مخطوط. راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٦١ ـ ٦٢.

الشريف محمّد بن الشريف عبدالله رحمهما الله تعالىٰ، وسبب وفاته، ومدّة دولته، وهي سبعة أشهر إلاّ ستّة أيّام، كما مرّ.

وهؤلاء العساكر المذكورون الواصلون من جهة اليمن شرذمة من الثلاثين الألف الذين دخل بهم قانصوه باشا إلىٰ مكّة المشرّفة عام وصوله ومسيره إلىٰ جهة اليمن، وهي سنة تسع وثلاثين وألف، التي قتل فيها الشريف أحمد بن عبدالمطّلب، وولي الشريف مسعود بن إدريس، ثمّ توجّه إلى اليمن، ولقد صار منهم الفساد العظيم، والشناعة في أهالي مكّة المشرّفة، كما سيأتي في ترجمة الشريف نامي بن عبدالمطّلب، لكن حصل منهم القضاء التامّ، لسكّان بلد الله الحرام، وهذا من أقلّ ما يحلّ بالمعترضين لهم لأنّهم عيال الله، كما ورد في الحديث الشريف، وجيران بيته السامي المنيف.

فالويل لمن اعترضهم بسوء، أو آذاهم، أو أراد فساد بلدهم ومأواهم، وسيأتي مثل ذلك ممّا رأيناه وشاهدناه في بعض تراجم ملوك مكّة المشرّفة من مثل هذا النوع، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

اتّفاقية

قال العصامي: وكان خروج الشريف محمّد بن الشريف عبدالله إلىٰ لقاء هؤلاء الأتراك في مثل سقوط البيت الشريف في اليوم والساعة، فإنّه كان يوم عشرين من شعبان بعد العصر من سنة تسع وثلاثين بعد الألف، وخروج الشريف المذكور كذلك في يوم عشرين من شعبان بعد العصر سنة إحدىٰ وأربعين بعد الألف، فبين سقوط البيت الشريف وخروج مولانا الشريف سنتان بغير زيادة، فلله هذا

الاتّفاق[١]. إنتهىٰ.

قلت: إتّفاق حسن، يدلّ[٢] علىٰ صحّة ما ادّعاه من أنّه كان سقوط البيت الشريف في يوم عشرين من شعبان من السنة المذكورة، ما تقدّم في هذا التأريخ في حوادث سنة تسع وثلاثين بعد الألف، أنّه نزل ليلة الأربعاء لإحدىٰ عشر بقين من شهر شعبان مطر شديد، وسقط البيت الشريف ثاني يوم لعشر بقين، فرحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأطهار، آمين.

ترجمة السيّد الشريف نامي بن عبدالمطّلب ابن حسن بن أبي‌نمي صاحب مكّة

لمّا دخلت العساكر الجلالية إلىٰ بلد الله الحرام، وقتل الشريف محمّد، وتوجّه الشريف زيد إلى مدينة جدّه عليه السلام، علموا أنّ مكّة المشرّفة وأقطارها لابدّ لها من ضابط سني، من هذا الفخذ الشريف الحسني، وإلاّ تقطّعت عليهم السبل والمسالك، ووردوا حياض المهالك.

فطلبوا صاحب الترجمة، وولّوه إمارة مكّة المعظّمة، وأشركوا معه الشريف عبدالعزيز بن إدريس في الربع بالإشعار، وخطب لهما على المنابر، وشاع ذكرهما في جميع الأقطار، فاطمأنّت البلاد بعض الاطمئنان، وسكن قليلاً ما حلّ بقلوب أهاليها من الروع والخفقان.

إلاّ أنّه صدر بعد ذلك من هؤلاء العساكر أحوال، هي في الحقيقة مصائب

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٤٥.

(٢) في «ن»: دالّ.

وأهوال، وفسقوا بكلّ صبيّ وحرّة، فسق جيوش مسلم عقيب يوم الحرّة[١]، فلم يلبثوا عدّة من الشهور، إلاّ قد حلّ بهم البلاء المشهور، المثبت في كلّ كتاب مسطور.

قال بعض المؤرّخين: لمّا دخل عسكر قانصوة إلىٰ مكّة بعد القتال، طلبوا الشريف نامي بن عبدالمطّلب، فولّوه إمارة مكّة، وأشركوا معه في الأمر الشريف عبدالعزيز بن إدريس في الربع، ونادوا في البلاد لنامي، وأرسلوا إلىٰ نائب سنجق جدّة ليسلمهما إليهما، فأبىٰ، فتوجّهوا إليه وحاصروا جدّة، ثمّ دخلوها ونهبوا، وصار الشريف نامي يصادر الناس، والعساكر تفسد وتؤذي.

فلمّا وصل الشريف زيد إلى المدينة المنوّرة، بعث إلىٰ باشة مصر بعروض وأرقام، مضمونها ما صار، فأرسل على الفور سبعة سناجق ومعهم العساكر، وأرسل بالخلع السلطانيّة للشريف زيد، فتوجّهت العساكر وقصدوه إلى المدينة المنوّرة، وأخلعوا عليه ثمّة، وتوجّهوا جميعاً إلىٰ مكّة المشرّفة.

ولمّا بلغ أهل مكّة إقبال العساكر اختلفت آراؤهم، ثمّ خرجوا من مكّة إلىٰ جهة الشرق لمحلّ يقال له: تربة.

---

(١) حادثة يوم الحرّة، هي حادثة عظيمة مؤلمة جدّاً، حدثت في زمن خلافة يزيد ابن معاوية، حيث أباح لجيوشه أهالي المدينة المنوّرة، وذلك بعدا عتراضهم الشديد لقتله الإمام السبط الشهيد حسين بن علي عليهماالسلام، فدخلوا المدينة، فنهبوا البيوت وقتلوا كلّ ذي روح من صغير وكبير، وفسقوا بالحرائر، وجنوا ما استطاعوا من أنواع الجنايات، وتحمّل الناس من المصائب والشدائد ما لا يمكن عدّه، وكان قائد الجيش هو مسلم بن عقبة الخارجي الكافر.

وفي سنة ثنتين وأربعين وألف: بعد مضي الحجّ، توجّه الشريف زيد مع العساكر، فأدركوهم بموضع يقال له: تربة، وجرىٰ بينهم حرب عظيم، ثمّ التجأوا إلىٰ حصن كائنٍ في تربة، فحاصرهم العساكر، فطلبوا الأمان، فأمّنوهم، بشرط أن يأتوهم بالشريف نامي وأخيه السيّد ومحمود رئيس الجلالية، فأتوا بهم إلىٰ مكّة المشرّفة، فقتلوا جميعاً، وكانت مدّة ولاية الشريف نامي مائة يوم ويوم عدد حروف اسمه[1]. إنتهىٰ.

وأوضح منه بياناً العصامي في تأريخه، حيث قال: ثمّ توجّه الشريف زيد إلىٰ وادي مرّ، بعد أن دخل مكّة المشرّفة، ومعه السيّد أحمد بن محمّد الحارث، ومرّا علىٰ بيت الشريف نامي بن عبدالمطّلب، فدعاه مولانا الشريف زيد، فخرج إليه، فناوشه بعض كلام، فقال السيّد أحمد: ليس الوقت وقت كلام، وكان من جملة ما قاله الشريف زيد:

تجازى الرجال بأفعالها خيراً بخيرٍ وشرّاً بشرّ

فالله بالحريم. أو ما يقرب من هذا الكلام. ثمّ سار إلى المدينة الشريفة، وكتب عروضاً بالتعريف بالواقع، وأرسلها إلىٰ باشا مصر صحبة السيّد علي بن هيزع حوالة مكّة بمصر.

ولمّا وصل الخبر إلىٰ صاحب مصر، أرسل إليهم سبعة سناجق، وأرسل بخلعة سلطانيّة لمولانا المرحوم الشريف زيد بالمدينة المنوّرة، فدخلوا إليها، وخلعوا عليه بملك الحجاز في الحجرة النبوية، وتوجّه إلى العسكر، وأتوا جميعاً إلىٰ مكّة.

فلمّا وصل خبر ذلك إلىٰ مكّة، اضطربت آراء العساكر الجلالية اليمنية، فمن

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٦٣ ـ ٦٤.

قائل: نخرج، ومن قائل: نقاتل. ثمّ وصل الخبر بأنّ العساكر المصريّة وصلت عسفان، فاقتضىٰ رأي عسكر اليمن أن يرسلوا من يكشف لهم الخبر، فأرسلوا جماعة، فوصلوا إلىٰ وادي مرّ، والعساكر المصريّة قد أقبلت، فرجعوا إلىٰ مكّة، وأخبروا من بها بذلك، فأظهروا حركة الرحيل عنها.

فلمّا كان يوم الأربعاء خامس ذي‌الحجّة خرجوا كلّهم ومعهم الشريف نامي وأخوه السيّد السيّد، والسيّد عبدالعزيز بن إدريس، ولم يبق منهم أحد، وكان بروزهم وقت أذان العصر.

فلمّا أن حاذوا باب النبيﷺ، وهو المسمّى الآن بباب الحريريين، قال المؤذّن: «الله أكبر» فسقط بيرق محمود منهم، فكان سقوطه فألاً عليهم، ثمّ ساروا فنزلوا عند جبل حرّاء وباتوا.

فلمّا كان أثناء الليل سرى السيّد عبدالعزيز بن إدريس علىٰ نجيبة له أُعدّت له خلف الجبل، فقعد عليها وسرىٰ، وتوجّه إلىٰ ناحية ينبع فنجا، فلمّا أسفر الصبح لم يجدوه، فعلموا أنّه اختلس نفسه، فزاد احتفاظهم على الشريف نامي وأخيه السيّد، وأمست مكّة بعد خروجهم خالية، وكان بها مولانا السيّد أحمد بن قتادة بن ثقبة، فنادىٰ في البلد: إنّ البلاد بلاد الله وبلاد السلطان مراد، وعسّ البلد تلك الليلة.

ثمّ لمّا كان شروق يوم الخميس خامس[1] ذي‌الحجّة الحرام، ختام سنة إحدىٰ وأربعين وألف، دخل مولانا الشريف زيد بن محسن بمن معه من السناجق، وكان نزوله بدار السعادة، ثمّ نزل وقت الضحىٰ من ذلك اليوم إلى المسجد الحرام، فجلس في السبيل الذي بجانب زمزم، ومعه الأمير علي الفقاري أحد السناجق

---

(١) في السمط: سادس.

الواصلين، ثمّ خرج مولانا الشريف زيد من السبيل المذكور، وطاف بالبيت أُسبوعاً، والرئيس يدعو له علىٰ قبّة زمزم، ثمّ خرج المنادي ينادي باسمه الشريف.

ثمّ طلب بعض السناجق الخروج إلى الجلاليّة لقرب إدراكهم، فقال له مولانا الشريف زيد: الرأي أن نحجّ، وتحجّ الأُمّة، وتفلح ثمّ نلحقهم، فيقرب الله بعيدهم ولا يفوتون، فحجّ الشريف زيد بالأُمّة تلك السنة، وأزال الله به عن أهل مكّة وأقطار الحجاز كلّ بأس .

وبعد أن أتمّ الشريف المناسك، وصل إلىٰ مكّة بعض العساكر اليمنيّة بشفاعة إبراهيم باشا أمير الحاجّ الشامي في تلك السنة .

ولمّا كان يوم الثلاثاء ثاني محرّم الحرام افتتاح سنة ثنتين وأربعين وألف، عقد مجلس بالمسجد الحرام عند مقام المالكي، حضر فيه الشريف زيد وغالب السناجق، وغالب الساة الأشراف، والسادة الفقهاء، وتفاوضوا في أمر العسكر اليماني .

فاتّفق الحال علىٰ أنّهم يعزمون إليهم، فبرزوا ذلك اليوم ومعهم مولانا الشريف زيد وجماعته، فأدركوهم في محلّ يقال له: تربة، فحاصروهم .

ثمّ وقع القتال بينهم بالبندق، فاستمسك علي بيك لنفسه من السناجق علىٰ أن يسلم من القتل، والتزم لهم بمحمود بيك، فقبلوا ذلك، ومسكوا محمود بحيلة دبّروها .

ثمّ رجعوا فدخلوا مكّة المشرّفة في أوّل يوم الخميس ثامن عشر محرّم الحرام من السنة المذكورة، ومعهم محمود بيك أحد آغاتي العسكر اليمني، فعذّب بأنواع العذاب، وطيف به علىٰ جمل في شوارع مكّة عاري الجسد لا ساتر لعورته، ومدّ

باعه بعصيٍّ، وربطت يداه عليها عورضت من خلفه، وشقّت يداه وعضداه وذراعاه، وغرز فيها خرق[١] الزيت موقدة، (ووكل بتلك العصا من يضربها من خلف حيناً بعد حين)[٢] فيتناثر سقطها علىٰ يده[٣]، والعياذ بالله.

ثمّ علّق بكلاب أُدخل في رأس ذراع يده اليمنىٰ، ثمّ أُدخل تحت عصب عقب رجله اليسرىٰ، ودفع إلىٰ شجرة جميز عند باب المعلاّة، فمكث كذلك نحو ثلاثة أيّام حيّاً يسبّ ويفحش ويفجر إلىٰ أن مات، فأُنزل وأُخذ إلىٰ شعبة العفاريت فأُحرق ثَمّ.

وأمّا الآغا الآخر علي بيك، فلم يحصل عليه سوء أصلاً، وذلك لتدبيره تلك الحيلة علىٰ محمود، ولحسن سلوكه حال دخوله مكّة مع بعض حريم للشريف زيد، فإنّه آمنهم، وأوصلهم[٤]، وكان يتردّد عليهنّ ويتفقّد أحوالهنّ ويبشّرهنّ، فكان ذلك سبباً لسلامته، وخلوصه ممّا وقع لرفيقه.

ثمّ لمّا كان أواخر شهر محرّم الحرام إفتتاح السنة المذكورة، صار مجمع كبير أمام باب مدرسة السلطان قايتباي، وحضر فيه السناجق والأُمراء والقضاة، ثمّ جيء بالمرحوم الشريف نامي بن عبدالمطّلب، وأخيه السيّد بن عبدالمطّلب، فاستفتيت العلماء فيهما، فأجابوا بحكم الله تعالىٰ، فذهب بهما في شرذمة من العسكر إلى أعلى الردم، فتوفّيا شهيدين، رحمهما الله تعالىٰ رحمة واسعة، وغفر

---

(١) في السمط: فيها مصطفة خرق.

(٢) ما بين الهلالتين ساقطة من النسختين، وأضفناها من المصدر.

(٣) في السمط: جسده.

(٤) في السمط: ووصلهم بخير.

لهما مغفرة جامعة .

وكانت مدّة ولايته علىٰ مكّة مائة يوم ويوم واحد، وهي حروف اسمه «نامي» لأنّه دخلها يوم خمس وعشرين من شعبان من سنة إحدىٰ وأربعين بعد الألف، وخرج منها عصر اليوم الخامس من ذي‌الحجّة من السنة المذكورة كما تقدّم، وتلك المدّة مائة يوم ويوم واحد، وفي ذلك يقول المهتار :

تأمّل لدنياك التي بصروفها أبادت عُلا ملكٍ تأطّد سامي

بدا فأضا ثمّ اعتدى الحقّ فانقضىٰ فمدّة نامي عدّة أحرف نامي

كذا ذكره الطبري[1] في تأريخه المسمّىٰ بالأرج المسكي في التأريخ الملكي، فليراجع[2] .

ترجمة الشريف زيد بن محسن بن حسين بن حسن ابن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرّفة

قد تقدّم فيما أمليناه، واندرج في ضمن ما أسلفناه، من النقول الصحيحة، والعبائر الصريحة، كيفيّة شرافة هذا الملك المسدّد، ذي الملك المؤطّد، والبيت السامي المشيّد، جزم السادة الأشراف، والقادة من آل عبد مناف، فإنّه[3] انتشر من عقبه الشريف أمجاد كرام، وأنجاد لم يلف فيهم إلاّ ذابل أو حسام، إن غرب من سمائهم كلّ نجم متّقد، طلع كلّ ذي فهم منتقد .

نجوم سماءٍ كلّما انقضّ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبه

---

(١) هو العلاّمة علي بن عبدالقادر الطبري .

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٤٥ ـ ٤٤٨ .

(٣) في «ن»: لأنّه .

فهم ـ أيّدهم الله تعالىٰ ـ إلىٰ عصرنا ملاّك مـلاك مـملكة الحـجاز، وسـوّاس شرافتها على الحقيقة لا المجاز، يورّثها الأكابر منهم الأصاغر، ويكسب فخراً منهم الأوّل للآخر، بحيث لم يكن معهم لأحد فيها ناقة ولا جمل، وإن زوحم أحدهم في منصبه كان قيس الهباءة ومناويه حذيفة وحمل، ماعدا ما حصل في خلال دولهم، وأثناء منتزحاتهم ونقلهم، من ولاية لبعض أشخاص من السـادة الأكـارم، كـما ستقف عليه فيما سيأتي من التراجم.

فبعضهم آلت إليه منهم، وروىٰ أحاديثها الملكيّة عنهم، وبعضهم بعناية سلطانيّة، وتوفيقات ربّانيّة، وبعضهم بنزول من أبيه، ومعاونة من فصيلته التي تـؤويه، ثـمّ تنتقل قسراً وتعود، إلىٰ هؤلاء الأُسود.

وسبب ذلك: مكث جدّهم صاحب الترجمة في ولاية الأقطار الحجازيّة وتلك الممالك، حتّىٰ شاع ذكره الشريف وشاع[١]، وملأ البقاع، ورسـخت هـيبته فـي قلوب حاضرة بلده وبواديه، رسوخ المجد المؤثل بناديه، ففي أثناء دولته مـات خلق كثير، ونشأ جمّ غفير، وكلاهما لا يعرفان من الملوك إلاّ حضرته، ولا وعيا[٢] إلاّ بهجة ملكه ونضرته.

لأنّه تولّىٰ شرافة مكّة المعظمة، وتحلّىٰ منكبه بخلعة الخلافة المنظّمة، استقلالاً في شهر ذي القعدة سنة إحدىٰ وأربعين وألف بالمدينة المنوّرة، وكان دخوله إلىٰ مكّة لخمس خلون من ذي الحجّة الحرام من السنة المذكورة، كما تقدّم ذلك.

وتوفّي في منصبه يوم الثلاثاء ثالث شهر محرّم الحرام إفتتاح سنة سبع وسبعين

---

(١) في «ن»: وذاع.

(٢) في «ن»: دعيا.

وألف، وكانت مدّة ولايته خمساً وثلاثين سنة وشهراً وأيّـاماً، رحـمه الله رحـمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأطهار.

وكانت ولادته ـ رحمه الله تعالىٰ وأفاض عليه شآبيب غفران توالىٰ ـ بعد مضي درجتين من شروق يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر شعبان سنة ستّ عشرة بعد الألف ببلدة بيشة من أعمال الشرق، هكذا نقل المؤرّخون[١].

وذكر العصامي قال: أخبرني مولانا الخطيب العلاّمة، نتيجة الفـضلاء، وعـين الأعيان النبلاء، برهان الدين الخطيب، إبراهيم ابن العلاّمة الفهّامة واحد عصره بلا خلاف، مولانا المرحوم الخطيب أحمد بن عبدالله الشهير بالبرّي، نقلاً عن والده المذكور، أنّه حضر في مجلس مولانا المرحوم الشريف زيد بعض متعاطي عـلم الرمل، فضرب تخته، ثمّ قال لمولانا الشريف زيد: فقد دلّ الرمل الصحيح علىٰ أنّه كان وقت علوق والدتك بنطفتك عند الزوال في شهر رمضان في عام خمسة عشر بعد الألف.

فاستغرب الشريف ذلك لمكان شهر الصوم، ثمّ إنّه سأل والدته عن هذا المعنىٰ، فأجابت نعم، كان سيّدي أبوك غازياً في شهر رمضان لبعض العرب، فجاء بعد أن أدرك من النصر والنجح الأرب، وكان وصوله في هـذا الوقت الذي ذكـره هـذا الرجل، فوقع عليّ، فأدركت الحمل بك من حيني. هكذا أخبرني حفظه الله تعالىٰ نقلاً عن والده الخطيب أحمد البرّي[٢]. انتهىٰ.

فهذا من جملة النقول الدالّة علىٰ صحّة هذا العلم، وقد شاهدنا كثيراً مثل ذلك،

---

(١) لعلّه نقله من كتاب لسان الزمان للفاضل ابن عقيلة وهو مخطوط لم نظفر عليه.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٨.

وإنّما أين الرجال العارفون به، المحاسبون لأُصوله ومذاهبه، وإلاّ فهو علم لا شكّ فيه، ولا ريب ينافيه.

عوداً إلىٰ صاحب الترجمة، وذكر ملح من أخباره، ولمع من محاسنه وآثاره:

فلقد كان كما قال بديع الزمان[(١)]: كعبة المحتاج، لا كعبة الحاج، ومشعر الكرم، لا مشعر الحرم، ومنى الضيف، لا منى الخيف، وقبلة الصلاة، لا قبلة الصلاة، خدمه أرباب الأدب، وتناسل إليه الشعراء من كلّ حدب.

فمن جملة من نضّد فيه عقود شعره، واستنشق من رياض نعمه روائح زهره، القاضي عبدالجواد المنوفي[(٢)]، فقال مادحاً له، ومهنّئاً بالظفر بأهل غمد، وهي من غرر القصائد الطنّانة:

العزّ تحت ظلال السمر والقضب	يوم الوغىٰ ومساعي البيض لم تخب
والعزم ما خضعت غلب[(٣)] الرقاب له	صغراً وصارت به الأفكار في تعب
والحزم ما دان صعباً عزّ مدركه	وما بنىٰ شرفاً يبقىٰ مدى الحقب
ما عزّ غير فتىً عضبٌ يقوم إذا	نام العدىٰ ويقدّ العصب أن يثب
ولا اجتنى العزّ من أفنان مثمرةٍ	بالهام في ماقط من جحفل لجب
إلاّ امرىءٌ همّه كسب العلا وله	سعيٌ يقصّر عنه كلّ ذي حسب
قد طلقت للوغىٰ أجفانه وسناً	وسن حداً وجاز الحدّ في الطلب

---

(١) لعلّ مراده به هو العلاّمة محمّد بن أحمد عقيلة صاحب كتاب لسان الزمان، كما عبّر عنه بهذا اللقب في موضع آخر، والله العالم.

(٢) له ترجمة مبسوطة في كتاب سلافة العصر ص ١٢٥ ـ ١٣٣ فراجع.

(٣) في السلافة: صعب.

ذو غـــرّةٍ كـــغرار الســـيف مـــاضية وهمّه في العلا تسـمو عـلى الشـهب
مثل الشريف أبي‌عجلان من شـرفت بــه المـعالي ونـالت مـنتهى الأرب
أبي الحسـين يـمين المـلك سـاعده شريف مكّة عالي الجـدّ[1] والحسب
حامي حمى الحرم الأعـلىٰ وطـيبته زيد بن محسن رجوىٰ كلّ ذي طلب
خـير المـلوك وخـير النـاس قـاطبةً روح الزمـان وروح الواهـن الوصب
الأشرف النسب ابـــن الأشرف النسب ابـن الأشرف النسب ابـن الأشرف النسب
الهـــاشمي الذي ســـارت مكـــارمه سير الكواكب في عجمٍ وفـي عـرب
ملكٌ إذا ثـوّب الداعـي وقـد لقـحت حربٌ أجاب ونار الحـرب فـي لهب
ملكٌ إذا مـا بـدا فـي النـاس بـارقه أربـىٰ نـداه عـلى الهـطّالة السـحب
مـــلكٌ إذا رايـة يـوم الفـخار سـمت ســما لهـــا وعـليها غـير مـحتجب
ذو المجد كـالجدّ مـا زالت قـواضـبه أرضـاً وأبـقت عـليها غـير مـنتحب
ينال بـالسعد إن عـدّت مـفاخر مـن بـــالسعي نـال مـرامـات ولم يـخب
يـرى العـواقب فـي مـرآة فكـرته عـــيناً فـــيدرك مـرمىٰ كـلّ مـطلب
تـقضي عـلىٰ مـهج الأعـداء رؤيـته بـصارمٍ مـن نـجيع القـوم مـختضب
ويـــمتطي كـاهل العـليا عـلىٰ مـهلٍ إذا سعىٰ غـيره أو جـدّ فـي الخـبب
عـــزّت مسـاعيه عـن إدراك طـالبها إنّ الســـعادة شـــيء غـير مكـتسب
رقـىٰ إلىٰ غـايةٍ فـي المـجد سـامية ورتـــبة فـــذّة نـــافت عـــلى الرتب
مـــا زال يســـمو لهـــا والله يســـعفه بـــما أراد عـــلىٰ أمـــنٍ بـــلا رهب
حـــتّىٰ أتت نـــحوه تسعىٰ مـطالبه فـــنالها لا عـــلىٰ خـــيلٍ ولا نـجب

---

(١) في السلافة: المجد.

فــقام بــالأمر شـهماً دارعـاً بـطلاً ... مـــمنّعاً بــرقاق البــيض واليــلب

بنىٰ ربوع المـعالي بـعد مـا انـهدمت ... وشــادها بكــمال الفـضل والأدب

ونــال بـاللين مـا أعـيا تـطلّبه المـ ... ـلوك دهراً ومـا نـالوا سـوى التـعب

يـلقى العــدوّ بـوجهٍ مسفرٍ طـلقٍ ... فـــيستحيل ولا يـلجيه للـغضب

إذا أتــاه عــثورٌ كـفّ[1] عـن كـرم ... عــنه إذا تــاب تـحقيقاً ولم يـؤب

أكـرم بـه مـن مـليكٍ سـيّدٍ سـندٍ[2] ... بــالحكم مشــتملٌ بـاللطف مـنتقب

عــليه مــن شـيم المـختار عـارفةٌ ... تغني عـلاه عـن الأمـداح والخـطب

فـخراً وعـزّاً بـني الزهـراء إنّ لكـم ... بــفضله نسـبة مــن أفـضل النسب

يابن الملوك الأُولىٰ أرسوا مـمالكهم ... عــلىٰ قـواعـد أعـيت كـلّ مـنتدب

لمّـا حـموها بأطـراف الأسـنة عـن ... من ليس كفؤاً من الأطـراف والوشب

وأصدروا البيض حمراً بعد ما وردت ... من العدىٰ كـلّ شـيخٍ أسـودٍ وصـبي

حتّىٰ غدت ملّة الإسـلام وهـي بـهم ... مكـــفولةً أبــداً مــنهم بــخير أب

أوصافك الغـرّ فـي بأسٍ وفـي كـرم ... تـنوّعت بـين طـعم المـرّ والضـرب

لله درّك مـــن حـــامٍ ومـــن بـــطلٍ ... وخـير نـجلٍ لخـير العـجم والعـرب

عــقلٌ وحــلمٌ وإقــدامٌ وهــزّ قـنا ... في مـجمعٍ حـفلٍ[3] أو مـحفلٍ لجب

الضيف والسيف في سـلمٍ ويـوم وغـىٰ ... ترجىٰ وتخشىٰ لبذلٍ أو لذي عـضب[4]

---

(١) في السلافة: عفّ.

(٢) في «ن»: شغف.

(٣) في «ن»: جفل.

(٤) في السلافة: أو لدىٰ غضب.

غضنفر حيدرٍ[١] في مازقٍ حرج ... وفي السماحة غيثٌ سحّ بالذهب

لو شئت قلت وخير القول أصدقه ... البئر بئري وإنّ الماء ماء أبي

فدم وجد واسم واسلم واستقم وعلىٰ ... كيد العدوّ أقم واحكم وطل وطب

وليهنك الفتح والنصر المبين علىٰ ... أعدائك أهل الشرّ والشغب

لمّا عصوك وعقبى الصبر كافلة ... نيل النجاح ونيل السؤل والإرب

صبرت صبر كريمٍ قادرٍ يقظٍ ... مدبّرٌ أمره بالحزم محتزب

وجئتهم بخميسٍ لو أتيت به ... جنود عادٍ لعادوا منه في تعب

في مقنبٍ من عتاق الخيل ذي رهجٍ ... مدرّعٍ بدورع الروع والرعب

وفتية ألفوا حرّ المصاع به ... كأنّهم تحت ظلّ السمر في قبب

من سادةٍ قادةٍ شمّ غطارفةٍ ... من آلك الغرّ أهل المجد والحسب

بيض الوجوه حجاجيح لهم أنف ... عن أن يقيموا علىٰ ضيمٍ ولا نصب

شمّ الأُنوف من القوم الذين هم ... وما لهم في سوى العليا من إرب

تفرّعت عن صميم المجد دوحتهم ... من معدن الوحي مثوىٰ خير كلّ نبي

مغنى[٢] الرسالة مغناهم ومعهدهم ... أعظم بذلك من بيتٍ ومن سبب

فحين شافوا[٣] جيوش النصر مقبلةً ... شافوا ديارهم بالحتف والخرب

وفّوضوا خيم التسليم وانتجعوا ... غمداً وما استعصم[٤] المسلوب بالسلب

---

(١) في السلافة: جسد.

(٢) في السلافة: معنى.

(٣) في السلافة: شاموا.

(٤) في «ن»: استسلم.

وشجّعوا أنفساً منهم قد امتلأت ... جبناً وظنّوا بأنّ الظنّ لم يخب

ظنّوا بأنّ الجبال الشمّ نافعةً ... وأنّهم فئة غلبٍ ذوو غلب

فخيّب الله ما ظنّوا وقد خذلوا ... حقّاً ولم يجدوا منجا سوى الهرب

قلوبهم خشيت أبصارهم عميت ... شاهت وجوههم خوفاً من العطب

سطا بهم فتراهم ذا يفرّ وذا ... غدا يقرّ بما لاقوه من شجب

أين المفرّ وخيل الله طالبةً ... والسعد يغتالهم كالصيد من كثب

فمن يبلّغ عنّي غير معتذرٍ ... سكّان غمدٍ مقالاً ليس بالكذب

بني عفيفٍ وعبسٍ ثمّ خلفهم ... ثقيف ترعة من نأيٍ ومقترب

ما أنتم والمعالي يا بني لكعٍ ... ونسل حجّاج شرّ ابنٍ وشرّ أب

ما أنتم وقراع البيض يوم وغىً ... في مقنب حفلٍ أو محفلٍ لجب

أتحسبون الوغىٰ حرثاً بمزرعةٍ ... أو سقي أرضٍ بها شيء من العنب

حتّىٰ وطئتم علىٰ ذلٍّ ومنقصةٍ ... مواطناً[١] ما لكم فيهنّ من ذرب

وقمتم قومة الشيطان في منعٍ ... من قنّةٍ لا علىٰ أمنٍ وفي رعب

إن تنكروا لأبي عجلان فرسته ... فيكم وفيمن مضىٰ منكم مدى الحقب

سلوا مواضيه عن أبناء عمّكم ... ثقيف يوم لقيتم معشر الوشب

تنبيكم كيف ناشتهم بواتره ... عن دارهم نوش قرمٍ دارعٍ ذرب

ما زال يركض مع أبنا أبيه بها ... والنصر يقدم معواناً على النوب

حتّىٰ إذا أينعت للقطف أرؤسهم ... وحان بالسيف منهم منتهى النجب

أمست ديارهم للوحش معتركاً ... وأصبح الرأس منهم موضع الذنب

---

(١) في السلافة: مواضياً.

سلوا الحريبة عن صبحٍ ووقعته　　وقت الضحىٰ ومثار النقع في الكثب
لمّا تعدّوا علىٰ شاووش خلعته　　ونابذوه ولم يخشوه في العقب
فدكّهم بخميسٍ لو تدكّ به　　هضاب رضوىٰ لعادت منه في خرب
حتّى استقامت له فيهم أوامره　　بالسيف واستنقذوا الأرواح بالنشب
سلوا بجيلة عمّا كان في نضدٍ　　فوقعة الرجل ترميكم على الركب
نسيتم أو تناسيتم وقائعه　　وقرعة البيض بالخطية السلب
هلاّ رجعتم وتبتم قبل سطوته　　فيكم وسرتم إلىٰ علياه في رعب(١)
وسقتم المال في مرضاته فعسىٰ　　يفضي قليلاً ومن للقرع بالزغب
فللحروب رجالٌ يعرفون بها　　وللدواوين حسّابٌ وذو كتب
لكنّكم حين أيقنتم بفرسته　　حقيقة واستلاب الروح والعقب
وشمتم الذبح في أخلافكم وغدت　　ديارهم مأتماً للويل والحرب
فأصبحوا لا ترىٰ إلاّ مساكنهم　　وكلّ منجدلٍ منهم ومنتخب
لنتم إليه وجئتم باذلين له　　طوعاً علىٰ رهبٍ من أخذه الريب
فجاد بالعفو إحساناً ومكرمةً　　عن اقتدارٍ وما هذا من العجب
فما القضاء بكم يشفي ضمائره　　إنّ القضاء من الأكفاء في الطلب
والعفو عن مجرمٍ من بعد مقدرةٍ　　والصفح عن ذنبه نوعٌ من القرب
فدتك نفسي أباعجلان من ملكٍ　　ترى المكارم فيه علّة السبب
مننت بالعفو مذ دانوا إليك ولو　　دانوا سواك إليه الدهر لم يجب
فحزت فيهم ثواب العفو عن كرمٍ　　وفزت بالنصر والآمال والإرب

---

(١) في السلافة: رغب.

فـلا بـرحت قـرير العـين فـي دعـةٍ   مـبلّغاً ظـافراً بـالسعد كـلّ أبـي
وأنت مـلكٌ بـفعل الخـير تأمـر مـن   بـغىٰ وتـنهاه عـن شـرٍّ وعـن شـغب
مـؤيّداً بـرسول الله جـدّك والو   لي وابـنيه والزهـراء وكـلّ نـبي
ما فاز بالنصر مـن ربّ السـما مـلكٌ   وحـاز بـفتيةٍ[1] عـفواً بـلا تـعب
وأصـبحت ألسـن الأفـراح مـنشدةً   العزّ تحت ظلال السمر والقـضب[2]

ومن شعر الفاضل الأديب الشيخ أحمد بن قاسم الخلّي مؤرّخاً لوفاته رحمه الله تعالىٰ :

مـات كـهف الورىٰ مـليك الأ   رض من لم يزل مدى الدهر محسن
فـالمعالي قـالت لنـا أرّخـوا   قد ثوىٰ في الجنان زيد بن مـحسن

ومن شعر الفاضل العلاّمة القاضي عبدالمحسن القلعي قاضي مكّـة المشـرّفة مؤرّخاً لوفاته أيضاً :

يـا أهـل مكّـة إنّ سـيّدنا الذي   ملك الحجاز وكـان فـيه الأرشـد
ربّ السماحة والشجاعة والحياء   والحـلم صـفّاه السـقي والسـؤدد
نـقي الآلة فكـان تأريـخي له   زيد بن محسن في الجنان مـخلّد

وأمّا مدائحه فكثيرة، ومنائحه فشاملة شهيرة، قد نقل المؤرّخون منها جـانباً عظيم، وما أوردناه فهو كافي الدلالة علىٰ مقامه العالي الكريم، قدّس الله أسراره وأسّس.

(١) في السلافة: بغيته.
(٢) سلافة العصر ص ١٢٩ ـ ١٣٢.

فصل

في الحوادث المتعلّقة بدولة صاحب الترجمة إلىٰ عام وفاته

وفاة الشيخ أحمد المقرىء التلمساني :

ففي سنة ثنتين وأربعين بعد الألف: توفّي العالم العلاّمة، الشيخ أحمد المقرىء المالكي [١] صاحب التصانيف الجمّة، والعلوم الكثيرة، ولد بتلمسان، وسكن فاس من أرض المغرب، وأخذ العلم بها، واتّسعت معرفته، وكملت فضيلته، ورحل إلى الحرمين ومصر والشام، وأقام بها مدّة، وبها ألّف كتابه الكبير المعروف بـ«نفح الطيب في أخبار ابن الخطيب» [٢] وهو كتاب حافل، قصد فيه إيراد جملة صالحة من أخبار لسان الدين ابن الخطيب، من شعره، ومكاتباته، ومشايخه، ومن أخذ عنه .

ثمّ اتّسع به الحال إلىٰ أن خرج عن هذه الحلبة، فأتىٰ بتأريخ الأندلس بالمناسبة، ومن وليها من الملوك من حين افتتحها المؤمنون، وتنقّل الدول فيها، وما جرىٰ في ضمن ذلك من الوقائع والحوادث، وكيفيّة أخذ الكفّار لها، وخروجها من أيدي المسلمين، وأطال في ذلك بذكر مدائن الأندلس وأنهارها وبساتينها، وما قيل في ذلك من الشعر، وما يناسب ذلك من الأدبيات واللطائف .

ثمّ استطرد إلىٰ ذكر من دخل الأندلس من علماء المشرق، ومن خرج من الأندلس إلى المشرق، وذكر جانباً من إنشاء ابن الخطيب وشعره، واستشهاده،

---

(١) ولد سنة (٩٨٦) هـ بمدينة تلمسان، وتوفّي كما في مقدّمة كتاب نفح الطيب سنة (١٠٤١) وله مؤلّفات كثيرة، راجع حول ترجمته إلىٰ مقدّمة كتابه نفح الطيب .

(٢) طبع سنة (٢٠٠٤) م في ثمان مجلّدات، منشورات دار صادر بيروت .

وكيفيّة قتله، فصار ذكر ابن الخطيب في هذا الكتاب نزر قليل، بالنسبة إلىٰ ما اشتمل عليه من الوقائع والحوادث، والحاصل أنّه كتاب ممتّع في الأدب والشعر والأخبار، وهو في نحو أربعة أسفار.

ثمّ أقام الشيخ المذكور في آخر أيّامه بمصر، وتوفّي بها في السنة المذكورة.

وكان واسع الفضل، له مشاركة تامّة في سائر العلوم، ومن تأليفه أزهار الرياض في أخبار عياض، وروضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس(١)، والجنابذ فيمن لقيت من الجهابذ، وهو أعمّ من الذي قبله، والدرّ الثمين في أسماء الهادي الأمين، ورسالتان في صفة النعال النبوي(٢) وقد اشتهرتا، وأُرجوزة في العقائد(٣)، وأُرجوزة في الوفق المخمّس، وله شعر رائق مذكور في نفح الطيب وغيره(٤).

وفاة الشريف أحمد بن مسعود:

وفي هذه السنة: توفّي السيّد الشريف الأديب الأريب السيّد أحمد بن مسعود ابن حسن بن أبي نمي، وقد تقدّم ذكره الشريف في أثناء ترجمة الشريف أحمد بن

---

(١) ألّفه حوالي سنة (١٠١١ ـ ١٠١٢) وطبع بالمطبعة الملكية بالرباط سنة (١٩٦٤) م.

(٢) سمّاهما الأُولىٰ: فتح المتعال في مدح النعال، طبع بالهند. والثانية: النفحات العنبرية في نعل خير البريّة.

(٣) وسمّاها إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنّة، منظومة بدأ بتأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة (١٠٢٩) ودرسها في الحرمين الشريفين، وأتمّها في القاهرة سنة (١٠٣٦) هـ.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٤٨.

عبدالمطّلب بمناسبة اقتضت ذلك، وذكرنا جانباً من شعره، فراجعه ثمّة[١].

وفاة الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسن اللقاني :

وفي هذه السنة: توفّي شيخ الإسلام، وإمام العلماء الأعلام، الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسن اللقاني، صاحب العلوم الجمّة، والفضائل النافعة، أخذ عن جمع من أكابر العلماء، وأخذ عنه أجلّة الفضلاء، وكان قد انتهت إليه رئاسة فقه المالكيّة بمصر، وله القصيدة[٢] الشهيرة المسمّاة بـ«الجوهرة» ونظمها في ليلة، وشرحها شروحاً ثلاثة، وله حاشية علىٰ مختصر خليل، وحاشية علىٰ شرح عقائد النسفي للسعد، ورسالة في تحريم التنباك، وكان ينكره، إلىٰ آخر ما ذكره المؤرّخون في شأنه، فراجعه في التواريخ المطوّلة[٣].

وفاة السيّد هاشم الحبشي :

وفي سنة ثلاث وأربعين: توفّي السيّد الجليل السيّد هاشم بن أحمد الحبشي، وكان جليل المقدار.

وفاة السيّد أحمد شيخان باعبّود العلوي :

وفي سنة أربع وأربعين: توفّي السيّد الجليل، ذو النسب الباذخ، والشرف الشامخ، السيّد أحمد شيخان باعبّود العلوي.

وكان حاتم زمانه كرماً وجوداً، وكان متوسّعاً في أحوال الدنيا، استوطن مكّة، واتّسعت أملاكه بها، وولد له بها السيّد الجليل السيّد سالم شيخان، وهو أوّل من

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٤٨ ـ ٤٥٩، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٦٦.

(٢) في «ن»: العقيدة.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٥٩.

استوطن مكّة من السادة آل شيخان الموجودين الآن بمكّة المشرّفة، وتوفّي السيّد أحمد ببندر جدّة، ونقله ابنه السيّد سالم إلىٰ مكّة المشرّفة، ودفن بالمعلاّة في حوطة آل باعلوي.

ومن شعر ولده السيّد سالم شيخان، مؤرّخاً وفاة أبيه المذكور بعد أن رآه في منامه:

شاهدت في عام الوفاة بليلةٍ غرّاء أحمد قائلاً نفسي احمدي
أُسكنت جنّات النعيم ونعم هي نزلاً فتأريخ الوفاة تخلّدي[١]

وفاة الشيخ أحمد بن أبي الفتح الحكمي:

وفي هذه السنة في سابع عشر رجب منها: توفّي الشيخ الأجلّ الأوحد شهاب الدين أحمد بن أبي الفتح الحكمي. أخذ عنه العلاّمة الشيخ علي بن الجمال الأنصاري المكّي، والشيخ عبدالله بن الشيخ سعيد باقشير، وغيرهما، وله ترجمة طويلة[٢].

وفاة السيّد أحمد بن محمّد الهادي:

وفي سنة خمس وأربعين: توفّي السيّد أحمد بن محمّد الهادي بن عبدالرحمٰن ابن شهاب الدين، العالم العامل الفاضل الكامل، لازم السيّد عمر بن عبدالرحيم، والشيخ أحمد بن علاّن، وغيرهما، واستمرّ بمكّة إلىٰ أن انتقل بها، ودفن بحوطة السادة بني علوي[٣].

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٠.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٠.

وفاة الشيخ يوسف بن محمّد البلقيني :

وفيها: توفّي الشيخ يوسف بن محمّد البلقيني، بقيّة السلف، ورئيس القرّاء، وجليس الضعفاء والفقراء[(١)].

وفاة السيد سالم بن أحمد شيخان :

وفي سنة ستّ وأربعين ضحوة يوم الأحد تاسع ذيالقعدة الحرام: توفّي السيّد الجليل، إمام أهل العرفان، ذي السرّ والبرهان، أحد الأئمّة الأعلام، وقدوة السادة الكرام، السيّد سالم بن أحمد شيخان، ودفن عصر ذلك اليوم علىٰ والده وجدّه، وتأريخ وفاته «صار إلىٰ رحمة الله»[(٢)].

وفاة السيّد نعمةالله الجيلاني :

وفي ثالث عشر ذيالقعدة الحرام منها: توفّي السيّد نعمةالله بن عبدالله بن محييالدين بن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن علي بن أحمد بن محمّد بن زكريا بن يحيى بن محمّد بن عبدالله بن عبدالقادر الجيلاني، قاله العصامي[(٣)]، ولا أدري عن مستنده في النقل لنسب هذا السيّد الجليل، ولم أجده في غيره، فالعهدة عليه في تصحيح هذا النسب المعظّم.

تحقيق حول النسب الكيلانية :

وحيث أوصل نسبه إلىٰ عين أعيان الأقطاب، والمكمّل بأنواع الكرامات في جميع الأبواب، شيخ مشايخ الإسلام، وقدوة أهل الطرائق العظام، مولانا ومقتدانا

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٠.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٠ ـ ٤٦١، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٦٩.

(٣) في كتابه سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦١ والطبري في إتحاف فضلاء الزمن ٢:٦٩.

الشيخ عبدالقادر، فلا بأس بنقل نسبه العالي، وبيان حقيقته .

قال صاحب عمدة الطالب في نسب آل أبي‌طالب: وقد نسبوا إلىٰ عبدالله بن محمّد بن يحيى (بن محمّد)[١] ابن الروميّة المذكور: الشيخ الجليل، الباز الأشهب، صاحب الخطوات، محيي‌الدين عبدالقادر الكيلاني، فقالوا: عبدالقادر بن محمّد ابن جنكي دوست بن عبدالله المذكور .

ولم يدّع الشيخ عبدالقادر هذا النسب، ولا أحد من أولاده، وإنّما ابتدأ بها ولد ولده القاضي أبوصالح نصر بن أبي‌بكر بن عبدالقادر، ولم يقم عليها بيّنة، ولا عرفها له أحد. علىٰ أنّ عبدالله بن محمّد بن يحيىٰ ابن الروميّة رجل حجازي (ولم يخرج عن الحجاز)[٢] وهذا الإسم ـ أعني: جنكي دوست ـ أعجمي صريح كما تراه .

ومع ذلك كلّه، فلا طريق إلىٰ إثبات هذا النسب بالبيّنة الصريحة العادلة، وقد أعجزت القاضي أباصالح، واقترن بها عدم موافقة جدّه الشيخ عبدالقادر (وأولاده له)[٣] والله سبحانه أعلم[٤]. إنتهىٰ كلام صاحب العمدة .

وناهيك بهذا الكتاب، وشهرته في التحقيق والتدقيق، ولا عمدة علىٰ غيره في هذا العلم، ثمّ ولا يقدح ذلك في اعتبار شيخنا المذكور؛ إذ لم يذكر صاحب العمدة أنّه هو ادّعاه ولم يثبت، بل صرّح بأنّه لم يدّع النسب المذكور الشيخ، وإنّما الذي

---

(١) الزيادة من العمدة .

(٢) الزيادة من العمدة .

(٣) الزيادة من العمدة .

(٤) عمدة الطالب ص ١٥٩ .

ابتدأ بها ابن ابنه، فهذا من أعظم الأدلّة علىٰ علوّ شأنه، ومتانة اعتباره، وديانته.

وأمّا القطبيّة الثابتة، فلا ينافيها عدم اتّصاله بالحضرة الشريفة نسباً، بل قد يكون أقرب إليه ﷺ من ثابت النسب؛ إذ نسبته به معنويّة لا ريب فيها، مع ذلك أنّه قال غير واحد من أئمّة العلماء بصحّة نسبه.

منهم: السيّد الجليل عبدالوهّاب الشعراني في لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار[١]، قال: أبوصالح عبدالقادر الكيلاني، وهو ابن موسى بن عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمّد بن داود بن موسى بن عبدالله المحض بن الحسن المثنّى بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

وقال العلاّمة الملاّ علي القارىء في رسالته المسمّاة نزهة الخاطر في ترجمة سيّدي عبدالقادر، ما نصّه: قال الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي اليمني الشافعي في تتمّة روض الرياحين لحكايات الصالحين: الشيخ محيي الدين أبامحمّد عبدالقادر بن أبي صالح موسىٰ جنكي دوست بن عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمّد ابن داود بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون ـ بضمّ الجيم يعني الأبيض لقب موسىٰ ـ بن عبدالله المحض، وهو لقب ومعناه الخالص بن الحسن المثنّى بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام[٣]. إنتهىٰ كلامه.

ووجد بخطّ مولانا العلاّمة السيّد محمّد بن أبي‌بكر الشلّي باعلوي في شجرة

---

(١) ذكره في كتاب كشف الظنون ٣: ١٦٣، قال: فرغ من تأليفه سنة (٩٦١) وتوفّي مؤلّفه سنة (٩٧٣) وهو خلاصة طبقات جماعة من الأولياء.

(٢) لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار، لم أظفر عليه.

(٣) نزهة الخاطر في ترجمة سيّدي عبدالقادر، لم أظفر عليه.

السادة آل باعلوي، ما صورته: ومن ذرّية موسى الجون بن عبدالله المحض: الشيخ عبدالقادر الكيلاني، فإنّه ابن موسى بن يحيى بن محمّد بن داود بن موسى ابن عبدالله بن موسى الجون[١]. إنتهىٰ .

وقال العلاّمة الشناوي في طبقاته: محيي الدين أبو محمّد عبدالقادر بن أبي صالح موسى بن عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمّد بن داود بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنّى بن الحسن بن علي ابن أبي طالب عليه السلام الجيلي البغدادي، وأُمّه فاطمة بنت الشيخ أبي عبدالله الصومعي، ولد سنة سبعين أو إحدىٰ وسبعين وأربعمائة بجيلان .

والجيل بكسر الجيم وسكون الياء بلاد متفرّقة وراء طبرستان، ويقال فيها أيضاً: جيلان وكيلان، وجيل وكيل أيضاً قرية علىٰ شاطىء دجلة علىٰ مسير يوم من بغداد ممّا يلي طريق واسط[٢]. انتهىٰ .

ورأيت في مناقب القطب المذكور، لشيخ الطريقة، وإمام الحقيقة، شيخنا الشيخ محمّد بن أحمد عقيلة، طبق ما ذكره الشناوي، ومثل هذه النقول شهيرة، وتواترها يشهد بصحّة نسبه، والله أعلم بالحقائق، غير أنّ لنقل العمدة مكان، ولمعرفة صاحبها بتصحيح الأنساب وتنقيحها أعظم شأن .

وعلىٰ كلّ حال فالشيخ جليل، وقدره نبيل، وولايته ظاهرة، وكراماته باهرة، توفّي في سنة إحدىٰ وستّين وخمسمائة من الهجرة النبويّة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) شجرة السادة آل با علوي، لم أظفر عليه .

(٢) طبقات الشناوي، لم أظفر عليه .

ورأيت في عمدة الطالب حكاية نقلها لبني داود بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون، أحد أجداد الشيخ المذكور، نقلتها بطريق المناسبة لذكر داود، وفيها ما يدلّ علىٰ جلالة شأنهم، وعظم مقدارهم عند جدّتهم فاطمة عليها السلام.

قال صاحب العمدة: وهي حكاية جليلة، مشهورة بين النسّابين وغيرهم مسندة، وهي مذكورة في ديوان ابن عنين، وهي أنّ أباالمحاسن نصرالله بن عنين الدمشقي الشاعر توجّه إلىٰ مكّة شرّفها الله تعالىٰ، ومعه مال وأقمشة، فخرج عليه بعض بني داود، فأخذوا ما كان معه وسلبوه وجرحوه.

فكتب إلى الملك العزيز ابن أيّوب قصيدة صاحب اليمن، وقد كان أخوه الملك الناصر أرسل إليه يطلبه ليقيم بالساحل المفتتح من أيدي الأفرنج، فزهّده ابن عنين في الساحل، ورغّبه في اليمن، وحرّضه على الأشراف الذين فعلوا به ما فعلوا، وأوّل القصيدة:

أعيت صفات نداك المصقع اللسنا
وحزت[1] في الجود حدّ الحسن والحسنا

ومنها:

ولا تقل ساحل الأفرنج أفتحه — فما يساوي إذا قايسته عدنا
وإن أردت جهاداً فارو سيفك من — قومٍ أضاعوا فروض الله والسننا
طهّر بسيفك بيت الله من دنسٍ — ومن خساسة أقوامٍ به وخنا
ولا تقل إنّهم أولاد فاطمة — لو أدركوا آل حربٍ حاربوا الحسنا

قال: فلمّا قال هذه القصيدة، رأىٰ في النوم فاطمة الزهراء البتول عليها السلام وهي

(١) في العمدة: جزت.

تطوف بالبيت، فسلّم عليها، فلم تجبه، فتضرّع وتذلّل وسأل عن ذنبه الذي أوجب عدم جواب سلامه، فأنشدته الزهراء عليها السلام :

حاشا بني فاطمةٍ كلّهم ... من خسّةٍ تعرض أو من خنا
وإنّما الأيّام في غدرها ... وفعلها السوء أساءت بنا
أإن أسا من ولدي واحدٌ ... جعلت كلّ السبّ عمداً لنا
فتب إلى الله فمن يقترف ... ذنباً بنا يغفر له ما جنىٰ
وأكرم بعين المصطفىٰ جدّهم ... ولا تهن من آله أعينا
فكلّ ما نالك منهم عناً ... تلقىٰ به في الحشر منّا هنا

قال أبو المحاسن نصر الله ابن عنين: فانتبهت من منامي فزعاً مرعوباً، وقد أكمل الله عافيتي من الجراح والمرض، فكتبت هذه الأبيات وحفظتها، وتبت إلى الله تعالىٰ ممّا قلت، وقطعت تلك القصيدة، وقلت :

عذراً إلىٰ بنت نبي الهدىٰ ... تصفح عن ذنب مسيءٍ جنىٰ
وتوبةً تقبلها من أخي ... مقالة توقعه في العنا
والله لو قطّعني واحدٌ ... منهم بسيف البغي أو بالقنا
لم أر ما يفعله سيّئاً ... بل أره في الفعل قد أحسنا

وقد اختصرت ألفاظ هذه القصيدة، وهي مشهورة رواها لي الشيخ تاج الدين أبو عبدالله محمّد ابن المعيّة الحسني، وجدّي لأُمّي الشيخ فرج الدين[1] أبو جعفر محمّد ابن الشيخ الفاضل السعيد زين الدين حسين بن حديد الأسدي، كلاهما عن السيّد السعيد بهاء الدين داود بن أبي الفتوح، عن أبي المحاسن نصر الله بن عنين

(١) في العمدة: فخر الدين.

صاحب الواقعة[١]. إنتهى النقل من العمدة.

قلت: وقد مرّ مثل ذلك في ترجمة السيّد الشريف أحمد بن عبدالمطّلب، وسردنا فصلاً يتضمّن عدم انتقاد كلّ منسوب إلىٰ تلك البضعة الشريفة، والنهي عن اعتراضهم مطلقا، ولعمري أنّهم الحقيقون بذلك، وفّقهم الله تعالىٰ لأقوم المسالك.

عوداً إلىٰ ما نحن بصدده، وضبط أوقاته ومدده، فقد انتقلنا إلىٰ هذا الفصل الذي سردناه، والعقد الذي قد نضدناه، في نسب الشيخ الأجلّ الطاهر، مولانا الشيخ عبدالقادر، ثمّ الانتقال منه بطريق المناسبة التأريخية إلىٰ تلك الحكاية السامية السنيّة.

وكان ذلك الانتقال من ترجمة السيّد الجليل صاحب الأحوال السيّد نعمةالله، فلقد كان من أكابر الأولياء والصالحين، وصاحب الخوارق المنقولة على الألسنة إلىٰ بعد حين، ولد بالهند، ووصل إلىٰ مكّة المشرّفة سنة أربع عشرة وألف، وجاور بها، ولازم الصمت والمسجد سنين، ثمّ سكن شعب عامر، وتزوّج وأولد. ثمّ مرض وأوصىٰ أن يدفن في محلّه.

وتوفّي في السنة المذكورة ليلة الثالث عشر من ذيقعدتها، وقبره معلوم يزار، وعليه بناء معروف، ومحيا كبير في الليلة المذكورة[٢].

تجديد بناء الكعبة:

وفي هذه السنة: جدّد بناب الكعبة الشريفة، وأُزيل الأوّل.

---

(١) عمدة الطالب ص ١٥٩ ـ ١٦١.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦١، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٦٨ ـ ٦٩.

الفتنة العظيمة بمكّة المكرّمة:

وفي موسم هذه السنة في يوم الجمعة عشر ذي‌الحجّة الحرام: وقعت فتنة عظيمة، ومصيبة جسيمة، بين عبيد السادة الأشراف والعساكر المصريّة، وانضمّ عسكر مولانا الشريف إلى العبيد، وعظم الأمر، وأقبل كلّ من الفريقين على الآخر، فأرسل مولانا الشريف جماعته لردّ عساكره والعبيد، وأمير الحاجّ المصري كذلك، إلىٰ أن وقع رمي البندق، فرجع الأمير إلىٰ داره، فبلغ بقيّة عساكر مصر الذين في المعلاّة وأطرافها، فنزلوا بالمدافع، ووضعوها في باطن المسعىٰ، فاشتدّ الكرب، ولم يزل الأمر كذلك إلىٰ أن أرخى الليل رواقه، فانكفّ الفريقان.

وفي يوم السبت: توسّط الأمير أمير الحاجّ الشامي فتعافيا، وصرّخ منادي مولانا الشريف بالأمان، وآخر من أمير الشامي، وثالث من أمير المصري، بعد قتل عظيم في الفريقين، وقدّم في تلك السنة أمير الحاجّ المصري خروجه من مكّة المشرّفة قبل عادته؛ لأنّه خرج ثالث عشري ذي‌الحجّة الحرام[١].

قدوم شعبان أفندي إلى المدينة:

وفي سنة سبع وأربعين وألف: قدم شعبان أفندي إلى المدينة المنوّرة، ومعه حجر من ألماس محفوف بأحجار مختلفة[٢]، مكفوف بصفائح الذهب والفضّة، وهذا الحجر من آثار صدر الدولة العثمانيّة مصطفىٰ باشا سلحدار، فوضع ذلك الحجر تحت الحجرين اللذين وضعهما السلطان أحمدخان، وأنعم علىٰ أهل

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٢) في السمط: مختلعة.

المدينة بالصدقة الجليلة، وفي ذلك يقول السيّد محمّد كبريت[١] هذه الأبيات:

زار خير الأنام خير همامٍ ... قد تسمّىٰ شعبان وهو ربيع
عمّ جيران أحمدٍ بنوالٍ ... دون ذاك النوال خصبٌ مريع
جاء بالجوهر الثمين لطّه ... من وزيرٍ هو الجناب المنيع
مصطفى المجد والندىٰ والأيادي[٢] ... وسلحدار نعمةٍ لا تضيع
يا له جوهراً تسامىٰ وسامىٰ ... بمقامٍ فيه الثناء يضوع
عند وجه النبي قد وضعوه ... فغدا وهو مشرقٌ ولموع
كان هذا في عام سبع وألف ... وتمام النظام فيه بديع[٣]

وفاة القاضي أحمد بن عيسى المرشدي:

وفي هذه السنة: توفّي الفاضل العلاّمة القاضي أحمد بن عيسى المرشدي العمري الحنفي.

ولقد أجاد السيّد علي بن أحمد نظام الدين، حيث ترجمه فأنافه في كتابه المسمّىٰ بالسلافة، فقال: شهاب الفضل الثاقب، الشهير المآثر والمناقب، سطع في سماء الأدب نوره، وتفتّق في رياضه زهره ونوره، وامتدّ في البلاغة باعه، فشقّ علىٰ من رام أن يشقّ غبارة اتباعه، لا تلين قناة فضله لغامز، ولا يلمز أدبه المبرأ من العيب لامز، كان قد ولي القضاء بمكّة المشرّفة، فنال به من أمله ما طمح بصره إليه واستشرفه.

---

(١) ذكر ترجمته السيّد علي خان في كتابه سلافة العصر ص ٢٥٦، فراجع.

(٢) في السمط: والمعالي.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

ولمّا حصل أخوه في قبضة الشريف أحمد بن عبدالمطّلب، ومني منه بذلك الفادح الذي قهر به وغلب، حصل هو أيضاً في القبض والأسر، وأردف معه علىٰ ذلك الأدهم بالقسر، حتّىٰ جرع أخوه تلك الكأس، فأنعم عليه بالخلاص بعد اليأس، فراش الدهر حاله، وأعاد منها ما غيّره وأحاله، ولم يزل فارغ البال، من شواغل النكد والبلبال، إلىٰ أن انقضت أيّامه، وتنبّه له من داعي المنون نيامه، فتوفّي لخمس خلون من ذيالحجّة الحرام سنة سبع وأربعين وألف، واتّفق تأريخ وفاته صدر هذا البيت :

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أُحاذر

وله نظم بديع الأُسلوب، يملك برقّته المسامع والقلوب[١]. إنتهىٰ ما ترجمه به صاحب السلافة رحمه الله تعالىٰ ورحم أسلافه. ثمّ أورد له قصيدته الدالية المتقدّمة في ترجمة الشريف مسعود بن إدريس.

وأورد له في السلافة قوله معلّلاً تسمية القدح قدحاً :

مذ صبّ ساقينا الطلا حتّىٰ تناثر واتّضح
خالوا شراراً ما رأوا فلأجل ذا قالوا قدح[٢]

قال سيّدنا الوالد ـ دام إفادته ـ عند ذكر هذين البيتين: قال الشهاب الخفاجي في كتاب طراز المجالس[٣]، من جملة فرائد فوائده، ودرر قلائده: الإيداع، وهو أمر غريب، وسرّ عجيب، وهو أن يودع في الكلمة ما يدلّ على المعنىٰ أو صفته، أو

---

(١) سلافة العصر ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) سلافة العصر ص ٩٨.

(٣) ذكره إسماعيل باشا في كتابه ايضاح المكنون ٢: ٦٩ برقم: ٧٨٥٢.

معنىٰ وضعه أو لفظه، أو شيء من لفظه، كحركات ونحوها .

إلىٰ أن قال: ومن الإشارة إلىٰ حال اللفظ أو جهة وضعه، كقول ابن الرومي :

غارت عليهنّ الندىٰ ... هناك من لمس الغلائل

وإذا لبسن خلاخلاً ... كذّبن أسماء الخلاخل

إنتهىٰ .

أقول: إذا عرفت هذا ظهر لك واتّضح، معنىٰ بيتي القدح، فإنّه من قبيل الإشارة إلىٰ جهة وضع اللفظ بالطيف الإمارة. إنتهىٰ كلامه رفع مقامه، وهي فائدة شريفة، وتحفة لطيفة .

عوداً إلىٰ ذكر صاحب الترجمة، لا زالت غيوث الرحمة عليه منسجمة :

قلت: راجعت تأريخ العصامي[١]، فوجدته قد ترجم القاضي المذكور بفقرات هي أبهىٰ من الدرّ المنثور، فلمّا أرسلت نظر النقد والاختبار إليها، ألفيت الشيخ قد أغار عليها، وأدرجها في ضمن كلامه، وأوهم أنّها من نبات فكره، ولآلي نظامه، ولا أوضح لي بيان ذلك وانكشافه، إلاّ مراجعتي لترجمة القاضي المشار إليه في السلافة، فإذا هي بعينها .

فليت شعري متىٰ يقوم شيخنا بأداء قرض السلافة ودينها، وقد فعل مثل ذلك في تأريخه عند ذكر السيّد أحمد بن مسعود بن الحسن، وعند ذكر غيره أيضاً، مشىٰ علىٰ هذا المنوال والسنن، فلو علم ابن معصوم ما أصابه، لجرعه علقم العتب وصابه.

ومن شعر القاضي المذكور قصيدة امتدح بها السيّد شهوان بن مسعود، ومطلعها:

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٣ .

فيروزج أم وشام[١] الغادة الرود يبدو علىٰ سمط درّ منه منضود

ومنها: قوله في المخلص:

صهباء تفعل في الألباب سورتها فعل السخاء بشهوان بن مسعود[٢]

وله وكتب علىٰ شداد مطيّة الشريف زيد بن محسن صاحب الترجمة:

أُفق الشداد بدت به شمس الخلافة والهلال

ومن العجائب جمعه ليث الشرافة والغزال

وله غير ذلك من المحاسن[٣].

وفاة السيّد علوي السقّاف:

وفي سنة ثمان وأربعين: توفّي السيّد الجليل الأوحد الأمجد الأصيل، السيّد علوي بن علي بن عقيل السقّاف، نزيل مكّة المشرّفة، أقام بها وتزوّج وأولد واشتهر، وأقبل عليه الناس، وكان له عند ملوك مكّة السادة الأشراف مكانه، أطّد بها من مجده أركانه، وله كرامات تروىٰ، وحضر جنازته الشريف زيد بن محسن المشار إليه، ودفن بحوطة ابنا عمّه بالمعلاّة.

وفاة السيّد محمّد السقّافي العلوي:

وفيها: توفّي السيّد الجليل محمّد بن بركات السقّافي العلوي، المعروف جدّه بـ«كريشة» هكذا نقل المؤرّخون، وتوفّي ببندر المخا، ودفن بها، وقبره بها ظاهر معلوم يزار.

---

(١) كذا في السلافة والنسختين، وفي السمط: وسام.

(٢) سلافة العصر ص ٩٩.

(٣) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٤.

وصول بشيرآغا الحبشي الطواشي :

وفي سنة تسع وأربعين: أقبل من الديار الروميّة بشيرآغا الحبشي الطواشي، ومعه أوامر بمطلق التصرّف، وحين وروده إلىٰ بندر ينبع لحقه الخبر بوفاة السلطان مراد ابن أحمدخان، فكتمه ليتمّ له ما يريد .

وأمّا مولانا الشريف زيد، فحين بلغه وصول بشيرآغا، اضطرب وشرع يهيّىء له الأماكن اللائقة به، والفرش اللائق به، وأخذ جميع المدارس الحرميّة والبيوت، وأمر بفرشها، وعزم علىٰ تلقّيه من وادي مرّ، وأرسل من يعتمد عليه لملاقاته إلى الينبع، وليعرّفه أيضاً بما معه من الخيل والرجال .

فلمّا وصل إليها بلغه هذا الخبر، فرجع مسرعاً إلىٰ أُستاده وأخبره بذلك، فلمّا تحقّق ذلك عند مولانا الشريف أمر بتحويل الفرش، وغلق تلك الأماكن إلاّ بعضها، فأقبل بشير وعنده أنّ الخبر مكتوم لم يسمع به أحد، فحين لاقاه الشريف زيد بقرب مكّة، فلمّا تقاربا وتصافحا، همز مولانا الشريفﷺ فرسه متقدّماً علىٰ بشيرآغا وناكبه، وقال: «الله رحمت أيله سلطان مراد» فحين سمعه بشيرآغا تداخل في جسمه ومشىٰ كالأسير، وهذا من جملة سعودات حضرة مولانا الشريف ذي القدر العالي المنيف .

ومن جملة ما اتّفق أنّ الشريف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ رأىٰ ليلة في منامه أنّ شخصاً ينشده هذا البيت :

كأن لم يكن أمرٌ وإن كان كائن[1] لكان به أمرٌ نفىٰ ذلك الأمر

فانتبهﷺ وكتبه بالسواك علىٰ رمل في صحن نحاس خشية النسيان، وكانت

---

(١) في «ن»: كائناً .

هذه الرؤيا في الليلة التي أسفر صباحها من ورود هذا الخبر، فاستمرّ بشير إلىٰ آخر السنة، وحجّ وتوجّه صحبة الحاجّ.

وقد نظم السيّد محمّد الآنسي المغربي قصيدة يمدح بها مولانا الشريف زيد، وضمّنها البيت المذكور، وهي هذه:

سلوا آل نُعمٍ بعدنا أيّها السفر أعندهم علمٌ بما صنع الدهر

تصدّىٰ لشتّ الشمل بيني وبينها فمنزلي البطحا ومنزلها القصر

رآني ونعمىٰ لاهيين فغالنا فشلّت يد الدهر الخؤون ولا عذر

فوالله ما مكر العدوّ كمكره ولكنّ مكراً صاغه فهو المكر

فقولا لأحداث الليالي تمهّلي ويا أيّهاذا الدهر موعدك الحشر

سلامٌ علىٰ ذاك الزمان وطيبه وعيشٍ مضىٰ فيه وما نبت الشعر

وتلك الرياض الباسمات كأنّ في عواتقها من سندسٍ حللٍ خضر

تنضّد فيها الأقحوان ونرجسٌ كأعين نُعمٍ إذ يقابلها الثغر

كأنّ غصون الورد قضب زبرجدٍ تخال من الياقوت أعلامه الحمر

إذا خطرت في الروض نُعمٌ عشية تفاوح من فضلات أردانها العطر

وإن سحبت أذيالها خلت حيةً إلى الماء تسعىٰ ما لأخمصها إثر

(كساها الجمال اليوسفي ملابساً فأهون ملبوسٍ لها التيه والكبر)(١)

فكم تخجل الأغصان منها إذا انثنت وتغضي حياءً من لواحظها البتر

لها طرّةٌ تكسي الظلام دياجياً علىٰ غرّةٍ إن أسفرت طلع الفجر

وصحنان خدّ أشرقا فكأنّها مصابيح رهبانٍ أضاء بها الدير

---

(١) الزيادة من السمط.

وجـيدٍ مـن البـلّور أبـيض نـاعمٍ ... كـعنق غـزالٍ قـد تكـنّفها الذعـر
ونـحرٍ يـقول الدرّ إنّ بـه غـنىً ... عـن الحـلي لكـن بـي إلىٰ مثله فـقر
وحـقّان كـالكافورتين عـلاهما ... مـن النـدّ مـثقالٌ فـندّ بـه الصبر
رويـدك يـا كـافور إنّ قـلوبنا ... ضعافٌ ومـا كـلّ البـلاد هـي المـصر
تـبدّىٰ بـقدٍّ بـاسقٍ[1] مـتأوّداً ... علىٰ نـقو مـن رمـلٍ يـطوف بـه نـهر
يكـاد يـقدّ الخـصر مـن هـيفٍ بـه ... روادفـها لولا الثـقافة والهـصر
لهـا بشـرٌ مـثل الحـرير ومنطقٌ ... رخـيم الحـواشـي لا هـراءٌ ولا نـزر
رأتـني سـقيماً نـاحلاً والهـاً بـها ... فأدنت لهـا عـود[2] أنـاملها العشـر
إذا كـنت مـطبوباً فـلا زلت هكـذا ... وإن كنت مسحوراً فلا بـرىء السـحر
فـقلت لهـا والله يـا ابـنة مـالك ... لمـا صـابني[3] إلاّ القـطيعة والهـجر
رمـتني العـيون البـابليات أسـهماً ... فأقـصدني مـنها سـهامكم الحـمر
فقالت وألقت في الحشـا مـن كـلامها ... تأجّـج نـار أنت مـن مـلكنا حـرّ
فـوالله مـا أنسـىٰ وقـد بكـرت لنـا ... بـإبريقها تسـعىٰ بـه القـينة البكـر
تـدور بكـاسات العُـقار كأنـجمٍ ... إذا طـلعت مـن بـرجـها أفـل البـدر
نـدامـاي نُـعْمٌ والربـاب وزيـنبٌ ... ثـلاث شـخوصٍ بـيننا النـظم والنـثر
عـلى النـاي والعـود الرخـيم وقـهوةٍ ... يـذكّرها ذنـباً[4] بأقـدامـنا العـصر

---

(١) في السمط: باسقاً.

(٢) في السمط: عوذ.

(٣) في السمط: لما شفّني.

(٤) في السمط: دنياً.

فـتقتصّ مـن ألبـابنا ورؤوسـنا   فلم ندر هـل ذاك النعاس أم السكـر
مـعتّقةً مـن عـهد عـادٍ وجـرهمٍ   ومـوعدها الأدنـان لقمان والنسر
مشـعشعةً صـفراًكأنّ حـبابها   عـلىٰ فـرشٍ مـن عسجدٍ نـثر الدرّ
إذا فـرغت مـن كأس نـعمٍ وأُخـتها   تشـابه مـن ثـغريهما الريـق والخـمر
خـلا أنّ ريـق الثـغر أشـفىٰ لمـهجتي   إذا ذاقـه قـلب الشـجي خـمد الجـمر
وأنـفع دريـاقٍ لمـن قـتل الهـوىٰ   فمات ارتشاف الثـغر إن سـمح الثـغر
بهذا عرفت[١] الفرق مـا بـين كأسـها   وبـين مـدام الظـلم إن أشكـل الأمـر
فوالله ما أسـلو هـواهـا عـلى النـوىٰ   بلىٰ إن سلا بذل الندى[٢] الملك القسر
أبـوحسنٍ زيـد المـحاسن والعـلا   له دون أمـلاك الورىٰ المـجد والفـخر
إذا مـا مشـىٰ بـين الصـفوف تـزلزت   لهـيبته الأقـيال والعسكـر المـجر
وترجـف ذات الصـدع خـوفاً لبأسـه   فـتندكّ أطـواد المـمالك والقـفر
فلو قـال للـبحر المـحيط ائت طـائعاً   أتـاه بـإذن الله فـي السـاعة البـحر
تـظلّ مـلوك الأرض خـاشعةً له   ومـا خشـعت إلاّ وفـي نـفسها أمـر
كـريمٌ مـتىٰ تـنزلْ بأعـتاب داره   تـجد مـلكاً يـزهو بـه النـهي والأمـر
تجد مـلكاً يـغني الوفـود ويـنجز الو   عـود وأدنـىٰ بـذله الدهـم والشـقر
عـلىٰ جـوده مـن وجـهه ولسـانه   دليـلان للـوفد البشـاشة والبشـر
فـما أحـنفٌ حـلماً ومـا حـاتمٌ نـدىٰ   ومـا عـنترٌ يـوم الحـقيقة أو عـمرو
هـو المـلك الضـحّاك يـوم نـزاله   إذا مـا الجـبان الوجـه قـطّبه الكـرّ

---

(١) في السمط: عرفنا.
(٢) في السمط: النوىٰ.

لقد قرّ طوق الملك منه لأنّه ... لديه النوال الحلو والغضب المرّ
حياةٌ وموتٌ للموالي وللعدىٰ ... لقد جمعا في كفّه الجبر والكسر
أنخ عنده يا طالب الرزق إنّ ما ... حواه أنوشروان في عينه نزر
ولا تصغ للعذال أذناً وإن وفوا ... بإحسانهم منه فما العبد والحرّ
وهل يستوي عذبٌ فراتٌ مروّقٌ ... وملحٌ أجاجٌ لا ولا التبن والتبر
فلو سمعت أذن العداة بمجده ... مزاياه لاستحيتْ ولكن بها وقر
فما قدروا زيد العلا حقّ قدره ... وماذا عليهم يا ترىٰ لهم الخسر
مليكٌ إليه الانتهاء فقيصرٌ ... يقصّر عنه بل وكسرىٰ له كسر
مليكٌ له عند الإلٰه مكانةٌ ... تبوّأها من قبله الياس والخضر
مليكٌ له سرٌّ خفيٌّ كأنّما ... يناجيه في الغيب ابن داود والخفر[1]
فإن كذبت أعداء زيدٍ فحسبه ... من الشاهد المقبول قصّته البكر
ليالي أن جاء الخصيّ وأكثروا ... أقاويل غيٍّ ضاق ذرعاً بها الصدر
فأيقظه من نومه بعد هجعةٍ ... من الليل بيتٌ زاد فخراً به الشعر
كأن لم يكن أمرٌ وإن كان كائنٌ ... لكان به أمرٌ نفىٰ ذلك الأمر
وفي طيّ هذا عبرةٌ لأُولي النهىٰ ... وذكرىٰ لمن كانت له فطنةٌ تعرو
فيا زيد قل للحاسدين تحنّطوا ... بغيظكم إن لم يطيعكم الصبر
فمجدي كما قد تعلمون مؤثّلٌ ... وكلّ حمام البرّ يفرسه الصقر
من القوم أرباب المكارم والعلا ... ميامين في أيديهم العسر واليسر
مساميح في اللأوا مصابيح في الوغىٰ ... تصالح في مغناهم الخير والشرّ

---

(١) في السمط: والجفر.

أســنّتهم فــي كــلّ شـرقٍ ومـغربٍ إذا وردت زرقٌ وإن صــدرت حـمر
مســاعير حــربٍ والقــنا مـتشاجرٌ ويــوم النـدىٰ تـبدو جـحاجحة غـرّ
بــني حســنٍ لا بــعّد[١] الله داركـم ولا زال مــنهلاً بأرجــائها القــطر
ولا زال صدر المـلك مـنشرحـاً بكـم فــعنكم ولاة البـيت يـنشرح الصـدر
وصــلّىٰ عــلى المـختار والآل ربّـنا وسلّم مـا لاح السـماكـان والغـفر[٢]

وكانت وفاة السلطان مراد في شهر شوّال من السنة المذكورة، والظاهر أنّه كان مسيره إلىٰ بغداد في أوائل هذه؛ لأنّه فيها افتتح بغداد وأخذها من يد العجم؛ لأنّ تأريخ فتحه لبغداد لفظ «غمد» وهي ألف وتسع وأربعون، وتولّىٰ بعده السـلطان إبراهيم خان بن أحمد خان.

وفاة الشيخ تاج الدين زكريا النقشبندي:

وفي سنة خمسين بعد الألف: توفّي في عاشر[٣] جمادي منها، الشيخ تـاج الدين زكريا بن سلطان النقشبندي، ودفن في رباطه المعروف به في سفح جـبل قعيقعان، أخذ عنه الشيخ أحمد بن إبراهيم بن علاّن، والشيخ عبدالله، وأخوه الشيخ محمّد إبنا الشيخ سعيد باقشير[٤].

---

(١) في السمط: أبعد.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٥ ـ ٤٦٨، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) في السمط: ثامن عشر.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٨، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٧٤، وخلاصة الأثر ١: ٤٦٤.

وفاة الشيخ محمّد بن أحمد حكيم الملك :

وفيها: توفّي الجمال محمّد بن أحمد بن حكيم الملك بالديار الهنديّة، قاله العصامي في تأريخه[1].

قلت: لقد قصّر غاية التقصير مع هذا الفاضل العلاّمة الشهير، جامع الفضائل والمناقب، والحائز لدقائق العلوم بفكره الثاقب، مع كونه يترجم في تأريخه من لا يعبأ به، ولا يلتفت إلىٰ حسبه ونسبه، وهذا خلاف منهج العدول من المؤرّخين، وذوي الإنصاف من العلماء الراسخين.

وها أنا أثبت لك من قلائد عقيانه، ما يشهد بفضله، وعلوّ شأنه، بعد إيراد ترجمته من سلافة العصر، حتّىٰ تعلم أنّه كان غرّة جبهة ذلك العصر.

قال رحمه الله تعالىٰ، وأولاه رحمات توالىٰ: فاضل تأزّر بالفضل وارتدىٰ، وسلك سبل المكرمات واهتدىٰ، سام في فنون العلم وسرح، وأوضح متون الأدب وشرح، فقوّم ما آده، وقام بعباءه فما آده، وهو من بيت رئاسة وجلالة، وقوم لم يرثوا المجد عن كلالة، وكان لسلفه عند ملوك الهند التيموريّة محلّ تستضوع المراتب ريّاه، وتستسقى المناصب ريه.

ولمّا وفد جدّه على السادة الملوك بني حسن، قابلوه مقابلة الجفن المسهّد للوسن، فأكرموا لديهم نزله، وقلّدوا بأيادي مننهم بزله، وولد سبطه هذا بمكّة المشرّفة، فنشأ في حجر الفضل والمجد، وانتشق عرف خزامي تهامة وشميم عرار نجد، فجمع بين تليد المجد وطارفه، ورفل من فضفاض الأدب في أبهىٰ مطارفه.

ولم يزل متبوّءً تلك الدار، محمود الإيراد والإصدار، مع تمسّكه من سلطانها

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٨.

الشريف محسن بالعروة الوثقىٰ التي لا تنفصم، وحلوله لديه بالمكانة التي ما حلّها ابن أبي داود[(١)] لدى المعتصم، حتّىٰ حصل علىٰ مكّة شرّفها الله تعالىٰ من الشريف أحمد ما حصل، وانحلّ عقد ولاية الشريف محسن منها وانفصل.

فكان الشيخ محمّد[(٢)] المذكور ممّن أنهب الشريف داره وماله، وقطع من الأمان أمانيه وآماله، فالتجأ مستأمناً إلىٰ بعض الأشراف، فآمنه علىٰ نفسه بعد مشاهدته الوقوع على الهلاك والإشراف.

فلمّا قتل الشريف أحمد، وتولّىٰ بعده الشريف مسعود، رأى الشيخ من الاعراض[(٣)] منه ما تحقّق معه إنجاز الوعيد لا الوعود، فهاجر إلى الديار الهنديّة منتقلاً[(٤)]، وهجر تلك المواطن المشرّفة لا عن قلىً، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين وألف، فألقىٰ بالديار الهنديّة عصاه، إلىٰ أن بلغ من أمد العمر أقصاه، فتوفّي بها سنة خمسين بعد الألف.

ومن مشهور نظمه ونثره، الذي دلّ علىٰ إشراق بدره في سماء الأدب ونجمه، رسالته التي كتب بها إلىٰ إمام العلوم، وذرّة تاج ذوي المنطوق والمفهوم، مولانا القاضي تاج الدين المالكي، وبعث بها إليه من الهند في سنة سبع وأربعين وألف، شاكياً من كربة الغربة، بعبارات تصدع معانيها في قلوب المخلصين، وألفاظها قلوب الحاسدين، وأوّلها:

---

(١) في السلافة: ابن داود.

(٢) في «د»: أحمد.

(٣) في السلافة: الأغراض.

(٤) في السلافة: مثقلاً.

سقى الدمع مغنى الوابلية بـالحمىٰ سواجم تغني جانبيه عـن المـحل
ولا برحت عيني تنوب عن الحيا بدمعٍ عـلىٰ تـلك المـناهل مـنهل
مغاني الغوانـي والشـبيبة والصـبا ومأوى الموالي والعشيرة والأهل
سقىٰ صوب الحيا دمناً(١) بـــجرعاء اللـوىٰ درسـا
وزاد مــحلّك المأنـوس يـــا دار الهــوىٰ أنســـا
لإن درست ربـوعك فـا لهوىٰ العذري مـا درسـا
سقىٰ بالصفا الربعي(٢) ربعاً به الصفا وجـاد بأجـياد ثـرىٰ مـنه ثـروتي
مــخيّم لذّاتـــي وســـوق مآربـــي وقـــبلة آمـــالي ومـوطن صـبوتي

إنّما المحافظة على الرسوم والآداب، والملاحظة للعوائد المألوفة في افـتتاح الخطاب، لمن يملك أمره إذا اعتن ذكر زينب والرباب، ولم تحكم عقال عقله يد النوىٰ والاغتراب، ولست كمن كلّما لاح بارقٌ ببرقه تهمّد، فكأنّه أخو جنّةٍ مـمّا يقوم ويقعد، تتقاذفه أمواج الأحزان، وتترامىٰ به طوامح الهواجس إلىٰ كلّ مكان .

فهو وإن كان فيما ترى العين، قاطن بحيّ من الأحياء، يوماً بحزوىٰ(٣)، ويوماً بالعقيق، وبالعذيب يوماً، ويوماً بالخليصاء، لا يأتلي مقسم العزمات، منفصم عرى العزيمات، لا يقرّ قراره، ولا يرجي اصطباره، إن روّح القلب بذكر المنحني، أقام الحنين حنايا ضلوعه، أو استروح روح الفرج من ذكر ليالي الخـيف ومـنىٰ، أو مضت بوارق زفراته، تحدر بعارض دموعه .

---

(١) في «د»: الجياد منىً .

(٢) في السلافة: للرتع .

(٣) في السلافة: بجزوىٰ .

من تمنّىٰ مالاً وحسن مآل فمناي منىً وأقصىٰ مرادي

فيا له من قلب لا يهدأ خفوقه، ولا قني لامعة بروقه، ولا يبرح من شموله لأحزان صبوحه وغبوقه، يساور هموماً فما مساورة ضئيله من الرقش، ويناجي أحزاناً لولا مسّ بعضها الصخر الأصمّ لأنهش، ويركب من أخطار الوحشة أهوالاً دونها ركوب النعش، يحنّ إلىٰ مواضع إيناسه، ويرتاح إلىٰ مراتع غزلان صريمه وكناسه، ويندب أيّام يستثمر الطوب من أفنان أغراسه .

أيّام شرح شبابي روضة أنف ما ريع منه بروع الشيب ريعاني
أيّام غصني لدن من نضارته أصبو إلىٰ غير جاراتي وجيراني

ثمّ انقضت تلك السنون وأهلها، فكأنّها وكأنّهم أحلام .

لم يبق منّي الشوق غير تفكّري فلو شئت أن أبكي بيكت تفكّراً

لم أكن علىٰ مفارقة الأحباب جلداً، فأقول وهي تجلّدي، وإنّما وهي جلدي، ممّا حملت النوائب علىٰ كبدي، وفتّت صروف البين المشتّت من أفلاذ كبدي .

جربت من صرف دهري كلّ نائبةٍ أمرّ من فرقة الأحباب لم أجد
فراقاً قضىٰ أن لا تأسي بعد ما مضىٰ منجداً صبري وأوغلت منهما
وفجعة بين مثل صرعة مالك ويقبح بي أن لا أكون متمّما
خليلي إن لم تسعداني على البكا فلا أنتما منّي ولا أنا منكما
وحسّنتما لي أسوة[1] وتأسّياً ولم تذكرا كيف السبيل إليهما

آليت لا أفتح لسرور علىٰ قلبي المعنىٰ باباً، ولا أُعير طرفي قاصرات الطرف كواعب أتراباً، ولا أجيل نظري في رياض نضره، ولا أسرح فكري في الإخفار

---

(١) في السلافة: سلوة .

إلىٰ حدائق خضره، ولا أحور إلىٰ محاورة أنيس، ولا أحضر لمحاضرة جليس، ولو أنّه الشيخ الرئيس، لأنّي آيساً من ذلك[١] فعلت، وعلىٰ أيّ واحد منها لتنفيس الكرب عوّلت، تذكّرت عهد الأحبّة فأعولت، وصدع الحنين والتذكار أعشار فؤادي فولولت.

فما رأت[٢] عيني مذ فارقتهم شيئاً[٣] يروق الطرف من هذا الورىٰ
إن كنت أبصرت لهم من بعدهم مثلاً فأغضيت علىٰ وخز القفا[٤]

فكففت[٥] همّتي علىٰ مساورة الهموم، ومسامرة النجوم، والاتّساء بشيخ كنعان، في اتّخاذ بيت الأحزان.

فحزني ما يعقوب بثّ أقله وكلّ بلا أيّوب بعض بليّتي

رحلت عن كعبة البطحاء والحرم، ونزلت بساحة قوم لا يدرون ما حماية الحرم، كمثل من هو خارج من الأنوار إلى الظلم، ونقلت من جوار البيت وسدنته، إلىٰ حيث خوار العجل وجوار عبدته، واستبدلت بالوقوف عند الركن والمقام، بالوقوف بين يدي عبدة الأصنام، وهجرت مهابط الوحي والتنزيل، ومتردّد الروح الأمين جبريل، إلىٰ مساقط (أنداء)[٦] الكفر والضلال، ومرابط الأنعام والأفيال.

---

(١) في السلافة: لأنّي لي أيّاماً من ذلك.

(٢) في السلافة: فما أطبىٰ.

(٣) في السلافة: شيء.

(٤) في السلافة: السفا.

(٥) في السلافة: فعكفت.

(٦) الزيادة من السلافة.

وعوّضت بالمشاعر الإسلاميّة حيث الفروض والسنن، معتكف أقوام يجرون في رفض الفرائض علىٰ سنن، وبدّلت بزمزم والحطيم، ومقام إبراهيم، زمزمة البراهمة على الحطيم، بديار لا تطيب إلاّ لمن خلع ربقة الإسلام من عنقه، ولا ينعم بها سوىٰ من أمعن في توحيده[١]، إلىٰ ميادين الضلال وعنقه، لا يصفو لي بها عيش، ولو أنّه علىٰ ما يقال أيش وأيش.

كيف يلتذّ بالحياة معنىً ... بين أحشائه كوري الزناد
في قرى الهند جسمه والأُصيحا ... ب حجازاً والقلب في أجياد

أُقاسي[٢] من متاعب الوحدة، كلّ محنة وشدّة، وأُعاني من أهوال الغربة كلّ غمّة وكربة.

فما غربة الإنسان في شدّة[٣] النوىٰ ... ولكنّه[٤] والله في عدم الشكل
وإنّي غريبٌ بين بستٍ وأهلها ... وإن كان فيها أُسرتي وبها أهلي

كنت ممّن قد أُتي عليّ حين من الدهر متخلّياً عن أشجاني[٥]، متسلّياً بمن شأنه في اعتيام الحوادث شاني، حزيناً لما منيت به من مفارقة جيراني وأوطاني، حتّىٰ طرق الطارق، وما أدراك ما الطارق، نبأ هائل، وخبر واعيه ذاهب اللبّ ذاهل، وهو وصول الأتراك من اليمن، وإجهازهم علىٰ رمقي تلك الفتن، السابقة

---

(١) في السلافة: تخريده.

(٢) في السلافة: يقاسي، وفيما سيأتي: ويعاني.

(٣) في السلافة: شقّة.

(٤) في السلافة: ولكنّها.

(٥) في السلافة: بأشجاني.

والمحن، ومصارع السادة الأشراف الصفوة من بني الحسن، فزاد كما يعلم الله الفؤاد جمراً إلىٰ جمر، وغادر الأحشاء كأنّما تشكّ بأطراف المثقفة السمر .

فهل يا مولاي علىٰ مغمور بغمران هذه الأحوال، ومطمور من سهام النوائب بين أنياب أغوال، من لائمة إذا ذهب عمّا يجب من تقديم الثناء علىٰ تلك الشمائل، وتقويم ماهية الرسائل التي هي إلىٰ قوام الأرواح أعظم الوسائل، بيت[١] يسير من حميدات الخصائل، لتلك الذات الجامعة لجميع الفضائل، بعد تقبيل أرضها التي تعشوشب بأكنافها العلوم والآداب، أعشاب الأعشاب .

وتشرق بساحتها شموس الحقائق والمعارف، فتؤمن من الضلال بظلمات الشبه في مسالك الهداية المخاوف، الإمام الذي غذي بلبان الكمالات والفضائل، الهمام التي نصّت عليه مخدّرات العلوم، فكان أجلّ كفء بحلّ عويصاتها كافل، العلاّمة المبرز علىٰ أقرانه، بفضائل غير متناهية تشكّك في امتناع التسلسل وصحّة برهانه، كالشمس قلت وما للشمس أقران، خلاصة العلماء الأعلام، سلالة العظماء، الذين سادوا بمجدهم الأنام، مولانا وسيّدنا القاضي تاج الدين، زاد الله في إجلاله.

ثمّ إنّه[٢] قد تبيّن من شرح نبذة من أحواله، بما بسطه[٣] من مقاله، وهجر به هجر الواله، ما هو جواب عن سؤال مقدّر، واستفهام يقتضيه المقام مضمر، فيعطف عن استقصاء ذلك عنان القلم خاسئاً وهو حسير، ويصرفه إلى استعطاف ذي الفضل الكبير، مبتهلاً سائلاً، متضرّعاً قائلاً: اللّهمّ فبحقّ من انتخبتهم لتبليغ

---

(١) في السلافة: ببثّ .

(٢) في السلافة: ثمّ ينهي أنّه .

(٣) في السلافة: بثّه .

رسالاتك، وأيّدتهم بحججك البالغة وآياتك، وبحقّ المقتدين بآدابهم، من ذرّياتهم وأصحابهم، وبحقّ الصافّين في طاعتك أقدامهم، المستغرقين في جلال أحديتك[١] لياليهم وأيّامهم، وبحقّ سماواتك وما فيها من آيات للمتبصّرين، وبحقّ مجاوري بيتك الحرام حجّاجاً ومعتمرين، إلاّ ما رزقتني العود إلىٰ حرمك، وقضيت لي بالرجوع إلىٰ جوار بيتك بجودك وكرمك.

ويلتمس من فضلكم هذا الدعاء في الملتزم والمستجار، وفي أدبار الصلوات وبالأسحار، لعلّ الله سبحانه يمنّ عليه بالخلاص من هذه الديار، والإياب إلىٰ تلك المشاعر المشرّفة الأقطار[٢]، إنّه علىٰ ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

والمأمول من فضلكم أن تؤنسوا وحشته بمكاتبتكم الكريمة، وتصلوا وحدته بمراسلاتكم التي هي من داء الهيام عوذة وتميمة، فإنّه في دار وحشة ليس بها أنيس، وفي جيل إنسٍ منهم اليعافير والعيس، لا يتسلّىٰ إلاّ بأبيات من الشعر سمح بها فكر قد صلد زناده، وصرد إيقاده، وحمّ بشآبيب الحوادث إخماده، في مكان إعرابه أهناده، فهو لا يستأنس بإنشادها إلاّ في الخلوات، وإسعادها بالمسامرة إذا جنّت الظلمات، لا لأنّها لذلك أهل، بل لأنّ[٣] الهشيم يرعىٰ لا محالة في المحلّ، وعند الضرورة يعتاض تمايل الأغصان بالنسيم عن الهيف، ويقتنع لفقد محيا الحبيب بالبدر علىٰ ما فيه من الكلف، والجوع يرضى الأسود بالجيف، وقد أدّاه ما

---

(١) في السلافة: هدايتك.

(٢) في السلافة: الأوطار.

(٣) في السلافة: بل لكون.

ادّعاه من الوله والهيام إلىٰ إثباتها، كيلا يكون دعواه مجرّدة ببيناتها[١]، وهي :

صوادح البان وهنا شجوها بادي ... فمن عذير فتىً في فتّ أكباد
صبٌّ إذا غنت الورقاء أرّقه ... تذكيرها نغمات الشادن الشادي[٢]

وهذه القصيدة طويلة جدّاً شهيرة إلى الغاية، وهي في سلافة العصر، وللقاضي تاج الدين المالكي عليها، وهي :

غذيت درّ التصافي قبل ميلادي ... فلا ترم يا عذولي فيه إرشادي

وقد مرّ للقاضي أحمد بن عيسى المرشدي قصيدة علىٰ وزنها مادحاً بها الشريف مسعود بن إدريس، وكذلك قصيدة المالكي ممدوحه فيها الشريف المشار إليه، وزفّت القصيدتان إليه في يوم واحد .

قال الشيخ محمّد المترجم المذكور بعد خلوصه من القصيدة المذكورة: وحسبي يا مولانا التصديع بهذا الهذيان، وإنّما أوجبه القصد إلىٰ إقامة البرهان، علىٰ ما ادّعاه من الوله والهيمان، لا زلتم محفوفين بعين الله، من طوارق الحدثان، وصلّى الله علىٰ سيّدنا محمّد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم[٣] .

قلت: وإذ قد ذكرت الرسالة، فلا بأس بذكر جواب القاضي المذكور وإن كان فيه نوع إطالة، وهي :

يقبل الأرض إجلالاً ويشرح ما ... لاقىٰ من الوجد والأشواق والحرق
ويشتكي بعض ما لاقىٰ وأعجب ما ... رآه أن تخمد النيران في الورق

---

(١) في السلافة: عن بيناتها

(٢) سلافة العصر ص ١٥٨ ـ ١٦٥ .

(٣) سلافة العصر ص ١٦٥ .

محبّ جرعه الدهر مرارة النوىٰ[١]، وأضرم في أحشائه حرارة الجوىٰ، فـهو يشتكي النوىٰ طوراً، فيتمالأ في طورها ويتغالىٰ، ويرجع باللؤم علىٰ نفسه فورا، فيشند بقايا ثناء ليس هي ارتجالاً، هجيراه سقيا معاهد الأحبّة من عهاد دموعه، وسميراه التلهّف علىٰ ذلك العهد وتمنّي رجوعه .

أرىٰ آثـــارهم فأذوب شـوقاً ... وأسكب في مواطنهم دمـوعي

وأسأل مـــن بـفرقتهم رمـاني ... يـمنّ عـليّ مـنهم بـالرجـوع

قد حارب جفنه الرقاد، فليس بينهما صلح، ودجىٰ عليه ليل الفراق، فلم يتبلّج له صبح .

وطـــال عـليّ اللـيل حـتّىٰ كأنّـه ... من الطول موصولٌ به الدهر أجمع

لا يزال يسامر النجوم والقمر، ويساور الهموم والفكر، وتـتلاعب بـه لواعـج الأشواق تلاعب الصوالج بالأكر، وينشد إذا هجع النوّام، وطـلب المسـعد عـلى السمر.

أيّـها النـائمون حـولي أعـينو ... ني على الليل حسبة وائتجارا

حـدّثوني عـن النـهار حـديثاً ... وصفوه أنّي[٢] نسـيت النـهارا

كيف لا ينسى النهار، وينكر سائر الأغيار، من لا يرتسم[٣] في مرآة تصوّره إلاّ تصوّر تلك الذات، ولا يجول في فكرة تذكّره إلاّ سابق تلك الأيّام المستلذّات، ولا يغيّر ودّه تقادم العهد، ولا يسوغ أن يسبغ ماء السلو ولو أدّاه تعطّشه إلى اللحد .

---

(١) في السلافة: الثوىٰ .

(٢) في السلافة: وصفوه فقد .

(٣) في السلافة: من لم يرتسم .

ولي نفس حرٍّ لو بذلت لها علىٰ تناسيك ما فوق المنىٰ ما تناست

لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا إذ طالما غيّر النأي المحبّينا

والله ما طلبت أرواحنا بدلاً عنكم ولا انصرفت فيكم أمانينا

فليس عهدكم عهد الغمام فما كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

ولولا تعلّل الناس بعلّ وعسىٰ، ورجوي صنيع[1] القادر علىٰ جمع الشيئين لقضيت أسا.

ما أقدر الله أن يدني علىٰ شحطٍ من داره الحزن ممّن داره حول[2]

رجع، يا مولانا فقد أجرى الملوك جوار قلمه مرخي العنان، وشرح من أنموذج حاله ما هو عند مولانا كالعيان، وأنساه بثّ شوقه ما هو الواجب من تصدير السلام، وتقديم الثناء الذي لا تستوفيه الأرقام، ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام، ولئن شغل المملوك عمّا هو الأحرىٰ، فقد أقام البيت المشهور له عذراً.

وشغلت عن ردّ السلا م فكان شغلي عنك بك

فهو تحمل عبوديّته[3] هذه من التحيّات ما يتضوّع قبل نشرها نشره، ومن الأثنية ما يضاهي الأُفق زهره، ويباهي الرياض زهره، إلىٰ ذلك المقام الذي سحب علىٰ فرقد الفراقد ذيل علوّه، وأورد نهر المجرّة خيل مجده وسموّه، وسلّم له أهل الحلّ والعقد، وأذعنت لبلاغته جهابذة النقد، وألقت إليه الفصاحة مقاليدها، وكتبت ملوك البراعة باسمه تقاليدها، وأقرّ بفضله حتّى الحسود، وأجمع علىٰ

---

(١) في السلافة: جمع.

(٢) في السلافة: صول.

(٣) في السلافة: يحمل العبوديّة.

سؤدده السيّد والمسود، وأرى الناس مجعين علىٰ فضلك، ما بين سيّد ومسود .

إمام جماعة الصناعتين، ومالك زمام براعة البراعتين، العلاّمة الذي خاض من العلوم بحراً، وقفت بساحله العلماء، وقفت أثره فانتهت إلىٰ حدّها من نقطة العلم وشكلة الحكم الحكماء، سلالة الوزراء الذين اقتعدوا صهوة الجلالة والمجد، وخلاصة العلماء الذين تركوا الغير في الغور، وافترعوا من المكانة المكان النجد، مولانا الشيخ محمّد بن حكيم الملك، لا زال محروساً بعناية مجري الفلك، بمحمّد وآله أجمعين[١] .

وينهي ورود الكتاب الذي استهلّت البراعة من براعة استهلاله، وأتىٰ بالسحر الذي لا حرج في القول باستحلاله، وحرم على الأُدباء حياكة حكايته[٢]، والنسج علىٰ منواله .

أنّىٰ تجاريه فرسان القريض ومن   غباره في هواديهنّ ما نقضوا

يجزم المتأمّل في فاتحته أنّها فريدة وقتها، ويتلو عليه ما بعدها، وما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من اُختها، فقبّل المملوك منه مواقع الأقلام، شوقاً لتقبيل مواضع الأقدام، وقرأه سطراً سطرا، ولم يكد[٣] يستطيع مجاوزة فقرة منه إلى الأُخرىٰ، وسرح الفكر في معانيه التي هي إلى الأفهام أجرىٰ من الماء تحدر في صبب، وأفعل بالألباب من ابن غمام زوّج بابنة العنب، فأضحك المملوك بما تضمّنه من

---

(١) في السلافة: آمين .

(٢) في السلافة: حكاية حياكته .

(٣) في السلافة: ولم يكن .

تقلّب مالكه في رياض البقاء، وشغله في مراتب العزّ والارتقاء، وأبكاه[١] بما انطوىٰ عليه من شرح الحال التي عند المملوك شاهدها، والغربة التي يعالج لواعجها المملوك، وإن كان في ظنّه[٢] ويكابدها .

يودّ من عمره أن لا يفارقكم   ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه

فصبراً يا مولانا علىٰ ما جرت به الأقدار، ورضاً بإرادة الله واختياره، فإنّهما خير ممّا يريده العبد لنفسه ويختار، ولا أبلغ في الوعظ والتنبيه لمن طلب منهما الغاية، من قوله تعالىٰ ﴿وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خير﴾[٣] الآية، وعذراً يا مولانا فإنّي[٤] بهذه المواعظ كمن جلب التمر إلىٰ هجر، وأهدىٰ الى البحر الدرر .

ولكنّني أتيقّن أنّ مولانا لا يرىٰ ذلك لحسن الظنّ والنظر، ثمّ انتهي المملوك إلىٰ تلك القصيدة التي كلّ بيت منها بيت القصيد، فكلّل تاجه من جواهر عقدها الفريد، واستخرج من بحرها البسيط فرائد الفضل المديد، وعلم أنّ مولانا أراد إثبات عجز من عارضه، فتمّ له ما يريد، وأكدت صوادح البان بشجوها أشواقه، ولا أقول زادت فليس عليها مزيد :

وترنّمت ذات الجناح بسحرةٍ   بالواديين فهيّجت أشواقي
ورقا تعلّمت البكا والبثّ من   يعقوب والإلحان من إسحاق
إنّي تضاهيني هوىً وصبابةً   وأساً وفرط جوىً وفيض ماقي

---

(١) في السلافة: وأبكىٰ .

(٢) في «ن»: طنّه، وفي السلافة: وطنه .

(٣) سورة البقرة: ٢١٦ .

(٤) في السلافة: فأنا .

وأنا الذي أملي الهوىٰ من خاطري وهـي التـي تـملي مـن الأوراق

وكيف يا مولانا يقبل المزيد شوق هو أعظم ممّا تصف الألسن وتشرح الأرقام، وفوق ما يتصوّره الفكر وتتخيّله الأوهام، ووراء ما يمكن أن يرى في الأحلام، أطفأ الله حرّ النوىٰ بالمشافهة، وأغنىٰ عن المراسلة بالمواجهة، وعجّل لكم الإياب إلىٰ حرمه الشريف، والإقامة بسوح بيته المنيف، إنّه علىٰ ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير(١).

إنتهى النقل من السلافة مع الحذف والاقتصار، طلباً للاختصار.

ولنثني عنان القلم، مخافة الملل والسأم، وما أوردناه فوق ما أردناه، فهو كافٍ في إثبات جلالة مقام الشيخ ومقداره، وتقصير الشيخ الآخر في إخفاء سنا بدره تحت سراره.

عوداً إلىٰ ما نحن فيه:

وفاة الشيخ فتح الله النحّاس:

ففي سنة ثنتين وخمسين وألف: توفّي في ثاني عشر صفرها الأديب المجيد، المحيي آثار البحتري وابن العميد، دمية عصره، ويتيمة دهره، الشيخ فتح الله النحّاس الحلبي الشاعر(٢).

قال صاحب السلافة رحم الله أسلافه، مترجماً له، بلّغه الله أمله: ناظم قلائد العقيان، وفاضخ(٣) نغمات القيان، الشاعر الساحر، والباهر بما هو ألذّ من الغمض

---

(١) سلافة العصر ص ١٥٨ ـ ١٦٨.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٨.

(٣) في السلافة: وفاضح.

في مقلة الساهر، فهو صانع إبريز القريض وإن عرف بابن النحّاس، ومسترقّ حرّ الكلام فما أشعار عبد بني الحسحاس، والمبرز في الأدب علىٰ من درج ودبّ .

وحسبك أن لقّبه الأُدباء بمحك الأدب، ولولم تكن له إلاّ حائيته التي سارت بها الركبان، وطارت شهرتها بخوافي النسور وقوادم العقبان، لكفته دلالة علىٰ علوّ إنافة قدره، وإشراق شمسه، في سماء البلاغة وبدره، وله ديوان شعر لم أره، ولكنّي سمعت خبره، وقصيدته المشار إليها هي قوله مادحاً الأمير محمّد بن فروخ أمير الحاجّ الشامي :

بات ساهي[1] الطرف والشوق يلحّ ... والدجىٰ أن يمضّ جنح بات جنح

فكأنّ الشرق بابٌ للدجىٰ ... ما له خوف هجوم الصبح فتح

يقدح النجم لعيني شرراً ... ولزند الشوق في الأحشا قدح

لا تسل عن حال أرباب الهوىٰ ... يابن ودّي ما لهذا الحال شرح

لست أشكو حال جفني والكرىٰ ... إن يكن بيني وبين الدمع[2] صلح

إنّما حلي المحبّين البكا ... أيّ فضلٍ لسحابٍ لا يسح

يا نداماي وأيّام الصبا ... هل لنا رجعٌ وهل للعمر فسح

صبّحتك المزن أعلا منزلٍ[3] ... كان لي فيه خلاعاتٌ وشطح

حيث لي شغلٌ بأجفان الظبا ... ولقلبي مرهمٌ منها وجرح

كلّ عيشٍ ينقضي ما لم يكن ... مع مليحٍ ما لذاك العيش ملح

---

(١) في السلافة: ساجي .

(٢) في السلافة: النوم .

(٣) في السلافة: صبّحتك المزن يا دار اللوىٰ .

وبـذات الطـلح لي مـن عـالجٍ   وقفة أذكـرها مـا اخـضرّ[١] طـلح
حـيث مـنّا الركب بـالركب التـقىٰ   وقـضىٰ حـاجاته الشـوق المـلح
لا أذمّ العـيس للـعيس يـدٌ   فـي تـلاقينا وللأسـفار نـجح
قـربت مـنّا فـما نـحو فـمٍ   واعـتنقنا فـالتقىٰ كشـحٌ وكشـح
وتـزوّدت شـذا مـن مـرشفٍ   في فمي[٢] مـنه إلىٰ ذا اليـوم نـفح
وتـعاهدنا عـلىٰ كأس اللـمىٰ   إنّـني مـا دمت حـيّاً لست أصـحو
يا ترىٰ هـل عـند مـن قـد رحـلوا   إنّ عـيشي بـعدهم كـدٌّ وكـدح
كـم أُداوي القـلب قـلّت حـيلتي   كلّما داويت جـرحـاً سـال جـرح
ولكـم أدعـو ومـا لي سـامعٌ   فكأنّـي عـند مـا أدعـو أبـح
حسّـنوا القـول وقـالوا غـربة   إنّـما الغـربة للأحـرار ذبـح
أشـتكي بـرح الجـوىٰ إن لم يـرىٰ   كـابن فـرّوخٍ فـتىً لم يشك بـرح
ابـن مـن كـان لعـاب سـيفه   مـا له إلاّ بأعـلى القـرن مسـح
فـإذا قـيل ابـن فـرّوخٍ أتـىٰ   سـقطوا لو أنّ ذاك القـول مـزح
كـلّ مـن أسـهره مـن رعـبه   نـومه اليـوم بـظلّ السـيف سـدح
بـطلٌ لو شـاء تـمزيق الدجـىٰ   لأتـاه مـن عـمود الصـبح رمـح
بأبـي أفـدي أمـيري إنّـه   صادق القـول نـقي العـرض سـمح
كـلّما قـد قـيل مـن تـرجـيحه   في الندىٰ أو في الوغىٰ فهو الأصح
كـم طـروسٍ بـالقنا يكـتبها   وسـطورٍ بـلسان السـيف يـمحو

---

(١) في السلافة: ما اخضلّ.

(٢) في السلافة: بفمي.

يــا عــروس الخـيل والسـيف له ... من قراع الخـيل والأبـطال صـدح
يا رحــاء[١] الحـرب والخـيل لهـا ... في حياض الموت بالفرسان سـبح
حطّ سيف الجود فـي حـظّي الذي ... هـــو كـــالدهر يـمنّي ويشــح
وانــــتقذني واتّـــخذني بــلبلاً ... صـدحه بـين يـدي عـلياك مـدح
طـــالع الأدبـــار مـــا لي وله ... إن يكن مـن كـوكب الإقـبال لمـح
كـلّ بـيتٍ فـي العـلىٰ أنـحته ... مـن نـضيد الدرّ واليـاقوت صـرح
نـــاطقٌ عـــنّي بـالفضل الذي ... إن يـباري فـله فـي الفـوز قـدح
بـــقوافٍ كســـقيط الطــلّ أو ... أنّـــها مـــن وجـنات الغـيد رشـح
خـــلقت طـوىٰ يـدي كـيما تـرىٰ ... لا كـــمن يـتبعها وهـي تشـح[٢]

إنتهى النقل من الكتاب المذكور، واقتصرت من قصائده الطنّانة علىٰ حائيته، إذ هي أحسن من عينيته وداليته، فكلّ بيت منها فريد، كأنّه قصر مشيد، وشعره كلّه درّ، ونسج كلام حرّ، فاكتفينا منه بالقليل خوف التطويل.

ومن مقاطيعه الحسنة، ومنازعه المستحسنة، قوله مضمّناً:

لا يــدّعي بــدرٌ لوجـهك نسـبةً ... فأخاف أن يسودّ وجـه المـدّعي
والشـمس لو عـلمت بأنّك دونـها ... هبطت إليك من المحلّ الأرفع[٣]

وقوله:

أنا الكوكب السيّار في كـلّ بـلدةٍ ... تــراعـيه أعـيان العـلىٰ وتـجلّه

---

(١) في السلافة: يا رحان.

(٢) سلافة العصر ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

(٣) سلافة العصر ص ٢٧٩.

تطوف علىٰ سمع البلاد قـصائدي ويخدمني سهل الكلام وجـزله[١]

قوله وأجاد :

تـــوهّمت إذ مــرّت بــنا الغــيد بكــرةً
تــلهّب خــال فــي لظــى خــدّ أغــيد
ورددت طـــرفي ثـــانياً فـــرأيـــته
فؤادي الذي قد ضاع في الحبّ من يدي[٢]

عوداً إلى الفوائد التأريخية :

إنشاء السبيل والحنفية بمكّة :

وفي سنة ثلاث وخمسين بعد الألف: أنشأ مولانا الشريف زيد سبيلاً وحنفيّة بمكّة المشرّفة، فأرّخ بناه الفاضل العلاّمة القاضي تاج الدين المالكي، فقال :

لله تأســـيسٌ نـــما خـــيره وفـــاز بـــالتطهير مـــن أمّ لهْ
ســبيل إحســانٍ وحــنفية[٣] وسـلسبيلٌ فـارتشف سـلسله
له نبا فـي الفـيض مـهما روىٰ حـــديثه أروىٰ بـــما سـلسله
ســالت عـطاياه لجـيناً فـمن رام نـــداه نـــال مـــا أمّـــله
وحـــيث لم تكـــتف ســـؤّاله فـــلا يكـفّ البـذل إذ أرسـله
لأنّ مـــــن أسّس بــــنيانه غيث الورىٰ في السنة الممحله

---

(١) سلافة العصر ص ٢٨٥ .

(٢) سلافة العصر ص ٢٨٥ .

(٣) في السمط: به سبيلٌ وحنفية .

مَن نفسه يوم عطاه ترىٰ ... إن وهب[١] الدنيا فقد قلّ له
تـوّجه الله بـتاجٍ زهـىٰ ... بجوهر المجد الذي كلّله
والله مـن وافر إحسانه ... أجرىٰ له الأجر الذي أجزله
فإن تسل عن ضبط تأريخه ... فخذ جواباً يوضح المسأله
أسّسه سلطان أُمّ القرىٰ ... زيدٌ يدوم العزّ والسعد له[٢]

قتل مصطفىٰ بيك والي جدّة:

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر جمادي الآخرة: من سنة سبع وخمسين بعد الألف، قتل مصطفىٰ بيك صاحب بندر جدّة المتقدّم ذكره في حرب العسكر اليماني، ولقتله نقل غريب نقله العصامي وغيره.

وهو أنّه لما كان أوائل السنة المذكورة، طلع السنجق المذكور إلى الطائف لزيارة قبر حبر الأُمّة رضي الله عنه، ثمّ طلع بعده بشيرآغا الحبشي غلام السلطان مراد المتقدّم ذكره، وهذا في مجيئه الثاني متولّياً مشيخة الحرم النبوي، فأقام بالطائف ما شاء، ثمّ نزل إلىٰ مكّة المشرّفة.

ولمّا كان في النقب الأحمر المعروف علىٰ طريق عقبة كراء، وقد تفرّقت عساكره خلفاً وأماماً، ولم يبق معه أحد سوى السائس، وثب عليه رجل عربي كان يتعهّده بالإحسان إليه، يقال له: الجعفري، فضربه بسكّين العرب حتّىٰ أنفذها من أحشائه، وذهب ولم يدر محلّه، فتلاحقت العساكر، فلم يلبث إلاّ نحو ساعتين وتوفّي شهيداً، ودخل به إلىٰ مكّة غرّة رجب المعظّم في تخت، ودفن أمام قبّة

---

(١) في «د»: ذهب.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٩، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٧٤.

السيّدة خديجة رضي الله عنها .

وكان مولانا الشريف زيد في تلك السنة قد توجّه إلىٰ ناحية الشرق، وأُبعد إلىٰ قريب الخرج[(١)]، وقائم مقامه لحفظ البلاد، مولانا السيّد إبراهيم بن الشريف محمّد بن الشريف عبدالله بن الشريف حسن، فاستاوى[(٢)] بعض عساكر السنجق المقتول، ثمّ بعد وصول بشير آغا من الطائف عادوا إليه بحيلة ونقل طويل لا يترتّب عليه قائلاً، وقد ذكره العصامي مفصّلاً[(٣)] .

زيارة الشريف زيد للمدينة :

وفي سنة تسع وخمسين: عزم مولانا الشريف زيد إلىٰ زيارة جدّه ﷺ، وكان دخوله المدينة المنوّرة يوم الخميس ثامن شهر شعبان من السنة المذكورة، فنزل بالقاضيّة خارج السور، واتّفق أن وقعت حادثة ليلة عاشر الشهر المذكور، وهي أنّ حضرة زفر أفندي قاضي الشرع الشريف نزل لحضور صلاة الصبح في اليوم المذكور، والوقت غلس، ومعه ثلاثة من الخدّام .

فلمّا كان عند الدفتردارية وثب عليه شخص، فضربه بالحدّ في ظهره، فأنفذها من صدره، فأكبّ علىٰ دابّته، ولم تزل سائرة به إلىٰ أن دخلت به محراب عثمان بن عفّان، وإمام الشافعية قائم يصلّي في المحراب الفجر، فقام بعض الناس وأنزلوه علىٰ آخر نفس، وهو يقول: يا رسول الله يا رسول الله، ووضع أمام الوجه الشريف، وبعد لحظة قضي عليه، فحشدت العساكر، واجتمعت وأغلقت أبواب سور المدينة،

---

(١) الخرج: واد فيه قرىٰ من أرض اليمامة، أرضه أرض نخل وزرع .

(٢) في السمط: فاستدنا .

(٣) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٦٩ ـ ٤٧١، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٧٤ ـ ٧٦ .

ووجّهوا المدافع إلى الشريف زيد، وشرعوا ينادون: أُخرج عنّا، وفعلوا ما هو وصفهم دائماً.

فبعث إليهم الشريف زيد أكابر جماعته، وأكابر جماعة عسكر مصر، فحلفوا لهم بأن لا علم للشريف بذلك ولا شعور، ولوّموهم علىٰ ذلك خطاباً من تحت السور، فتراجعوا وفتحوا بابا السور.

وفي اليوم الثاني استدعىٰ وجوههم لينظر في حال قتلة الأفندي، ويبحث عنهم، فلم يزل يمسكهم واحداً بعد واحد، وحبسهم مدّة مديدة، ثمّ حصلت في بعضهم شفاعة، ففكّ وذهب بالباقين وهم تسعة أنفار، وأمر بإبقائهم في ينبع، واستمرّوا إلى الحجّ، فاستشفعوا بأمير الحاجّ، فأُتي بهم مستشفعاً فيهم فشفّعه، ثمّ تعسكروا الغيطاس بيك أمير بندر جدّة ونزلوا معه.

واتّفق أنّه في نزوله هذا إلىٰ بندر جدّة كان مغضباً علىٰ مولانا الشريف زيد بأسباب ذكرها المؤرّخون، وأقواها وأعظمها تردّد السيّد عبدالعزيز بن الشريف إدريس المذكور سابقاً في دولة الشريف نامي علىٰ حضرة غيطاس بيك، وإفساده على الشريف زيد، وتوغّل خاطر البيك المذكور عليه من شيء سابق في باطنه عليه، فواطأه علىٰ إسعافه، وإلباسه شرافة مكّة المشرّفة.

فبعد نزوله إلىٰ جدّة لحقه السيّد عبدالعزيز المذكور، فألبسه شرافة مكّة، ونودي له بالبلاد، وولي حاكماً فيها، وهو سعيد أو ناصر بن سعيد عتيق مصطفى السيوري، ثمّ خرج غيطاس بيك والشريف عبدالعزيز ومراجلهما، وخرج إليهم الشريف زيد بمراجله وجميع السادة الأشراف، وتلاقوا يوم الخميس تاسع عشر جمادي الآخرة سنة ستّين وألف فوق التنعيم، وصار بينهم قتال عظيم، أُصيب فيه السيّد وبير بن محمّد بن إبراهيم، وعدد كثير من الجانبين.

فلمّا اشتدّ الحال دخل السيّد عبدالعزيز علىٰ عادتهم المألوفة على السيّد مبارك ابن بشير طالباً الأمان لغيطاس بيك وجماعته، فعرّف السيّد مبارك الشريف زيد بذلك، ووقع الصلح بينهم، والتمس السيّد عبدالعزيز من الشريف زيد إرسال جماعة صحبة غيطاس بيك يوصلونه مأمنه، فأرسل معه خمسين نفراً من عسكره يوصلونه إلىٰ بندر جدّة.

ثمّ بعد مدّة جاء عزله من جهة الدولة، فذهب إلىٰ بندر ينبع، واستمرّ به إلىٰ وصول الحاجّ، ومكث إلىٰ عوده من مكّة، ثمّ مشىٰ صحبته واستقرّ بمصر، ولحقه السيّد عبدالعزيز، أو مشىٰ صحبته وأقام بمصر سنتين، وفي السنة الثالثة وصل خبر وفاته بالطاعون.

وأمّا غيطاس بيك، فأقام بمصر سنة إحدىٰ وستّين، وفي ثاني عشر ربيعها الأوّل اُلبس إمارة الحاجّ الشريف، ووصل في موسمها أميراً، فتوهّم منه مولانا الشريف زيد غاية التوهّم، إلاّ أنّه خرج للخلعة على العادة، إنّما أخلّ بالقانون القديم، وهو المناكبة، فصافحه بيده الشريفة، ومن تلك السنة تركت المناكبة وبقيت المصافحة إلىٰ عصرنا هذا، فقضىٰ حجّه وذهب[١].

تعمير قبّة الفراشين بالمسجد الحرام:

وفي سنة ثلاث وستّين: عمّرت قبّة الفراشين بالمسجد الحرام، فأرّخ عمارتها القاضي تاج الدين المالكي بقوله:

اُنظر لحسن قبّةٍ جدّدها مؤسّساً فخر الملوك الأمجد
وقل إذا أرّخت عاماً كان في أثنائه بناؤها المشيّد

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧١ ـ ٤٧٤، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٧٧ ـ ٨٠.

عـــمّرها ســـلطاننا مـــحمّد الملك السامي العليّ الأوحد

قال العصامي: ولمّا أرادوا الشروع في العمل، حملوا المـؤونة عـلى الحـمير، وأدخلوها من باب البغلة، ويعرف هذا الباب قديماً بباب بني سفيان بن عبدالأسد، كذا قاله الأزرقي.

وعرّف الفاسي هذا الباب بباب البغلة، قال: ولم أدر ما سبب هذه الشهرة.

قال العلاّمة الشيخ محمّدعلي بن علاّن: لعلّ سببها[١] أنّ بغلته صلى الله عليه وآله ربطت أو وقفت ثمّة في بعض الأوقات[٢]. إنتهىٰ.

إصابة الشاه جهان فلج:

وفي سنة ثمان وستّين وألف: أصاب سلطان الديار الهنديّة شاه جـهان فـالج أقعده، فحصل بين أولاده حروب كثيرة، إلىٰ أن استقلّ بالمملكة أُورنكزيب، وقتل أخاه داراشكوه، فاستقرّت البلاد به[٣].

وفاة السيّد عمّار بن بركات الحسني:

وفي سنة تسع وستّين: توفّي السيّد عمّار بن بركات بـن جـعفر بـن أبـي‌نمي بالديار الهنديّة، وذلك في يوم الجمعة لعشر بقين من شوّال[٤].

وقد ترجم هذا السيّد صاحب السلافة رحمه الله تعالىٰ، فقال: عمّار[٥] أبـنية

---

(١) في «د»: سببه.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٤، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨٠.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٤.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٥.

(٥) جاء اسمه محرّفاً بعماد في السلافة.

المجد والمكارم، ورافع ألوية شرف آبائه الخضارم، نسبٌ في السياة كعمود الصبح، وحسبٌ تنزّه بجدّه الحسن عن القبح، طلع في أُفق الجلالة بدراً، وسما في سماء الأيالة قدراً، رأيته في حضرة الوالد بالديار الهنديّة، وقد تفيّأ ظلال مكارمه الندية[١]، وكان قد دخلها في سنة ثنتين وستّين وألف، فرأيت الفضل فيه مصوّراً، وجنيت به روض السرور منوّراً.

ولقد كان يجمعني وإيّاه مجلس والدي حسب الاقتراح، وبيننا من المصافاة ما بين الراح والماء القراح، وهو كهل شبت بالظرف شمائله، وهبت باللطف جنائبه وشمائله، وربما جمعتنا حلبة أدهم وكميت، أو بيت شعر لم يتحكّم فيه[٢] لو ولا ليت، فنتنقّل من متن جوادٍ إلىٰ شرح بيت، وله شعر يفعل بالألباب فعل السحر. إلىٰ آخر ما ذكره، وأورد له شعراً، وذكر وفاته طبق ما رقمناه.

ثمّ قال: وقلت أرثيه:

لنـا كـلّ يـومٍ رنّـةٌ وعـويل	وخطبٌ يكلّ الرأي وهو صقيلُ
بكـيت لو أنّ الدمع يـرجع ميتاً	وأعولت لواجدي الحزين عويل
لحـى الله دهـراً لا تـزال صـروفه	تكـرّ عـلينا دائـماً وتـصول
عـلام وفـيم قـد أصـاب مـقاتلي	ومـا شـهدت مـنه عـليّ نـصول
وحـمّلني خـطباً تـضاءلت دونـه	ومـا أنـا قـدماً للـخطوب حـمول
بـموت كـريمٍ مـاجدٍ وابـن مـاجد	له المـجد دارٌ والعـلاء مـقيل
فتىً قد عنت يـوم الهـياج له القـنا	وراح الحسام العـضب وهـو ذليـل

---

(١) في السلافة: وقد تفيّأ ظلالها وأفاض مكارمه الندية.

(٢) في السلافة: عليه.

بكـــاه القـــنا الخـــطّي عـلماً بأنّـه ... كســـــيرٌ وإنّ المشــــرفي كـــليل
فـمن للـعوالي بـعد كـفّيه والنـدىٰ ... ومن في صفوف النـاكـثين يـجول
ومن بعده للسيف والضـيف والعـلا ... ومـــن بـــعده للـــمكرمات كـــفيل
ربـــيبُ عُـلىً شـحّ الزمـان بـمثله ... وكـــلّ زمـــانٍ بـــالكرام بـــخيل
ولمّا نعى الناعي(١) فضاق بي الفضا ... وراحت دموعي الجـامدات تسـيل
وهـــيهات أن تأتـي النسـاء بـمثله ... ويـــخلف عـنه فـي الأنـام بـديل
سأبكيك يـا عـمّار مـا نـاح طـائرٌ ... ومـــا نـدبت بـعد الرحـيل طـلول
مـــصابي وإن طـوّلته عـنك قـاصر ... ودمـــعي وإن أكـثرت فـيك قـليل
لك الدهر فـي قـلبي مكـان مـودّةٍ ... ودادك فــــيه ســـاكـــنٌ ونــزيل
وإن هاطلات السحب شجّت بسقيها ... سقاك مـن الجـفن القـريح هـمول
عـــليك ســـلام الله مـــنّي تـــحيةً ... مدى الدهر ما غال البريّة غـول(٢)

وفاة القاضي عصام الدين العصامي :

وفي أواخر شهر رمضان من هذه السنة: توفّي الفاضل العلاّمة القاضي عصام الدين بن علي زاده العصامي بالطائف المحروس، وخلّف ابنين نـجيبين، وهـما القاضي علي، والقاضي محمّد.

وتوفّي القاضي محمّد عن ابنين أيضاً، وهما: القاضي أحمد، والقاضي حسين، توفّيا في سنة واحدة، وهي سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف، كما سيأتي، وماتا عن

---

(١) في السلافة: نعاه لنا الناعي.

(٢) سلافة العصر ص ٣١ ـ ٣٦.

أولاد كثيرين، وفّقهم لمناهج آبائهم[١] .

الغلاء والقحط الشديد بمكّة :

وفي سنة سبعين: حصل بمكّة المشرّفة غلاء، وصلت كيلة الحبّ فيه إلىٰ سبعة عشر محلقاً، فأشار العالم العلاّمة الشيخ محمّد البابلي على الشريف زيد بتركه التسعير، فنادىٰ مناديه بذلك، فتواجدت الحبوب، وجلب من سائر البلدان .

وسبب الغلاء كثرة الجراد بأرض الحجاز واليمن، وأعقبه الدبا، فأكل جميع الأشجار والزراعات، فأرّخه بعض الأُدباء بقوله «غلاء وبلاء»[٢] .

تعمير زمزم :

وفي سنة ثنتين وسبعين: عمرت زمزم والبناء الذي عليها، ماعدا الجهة القبلية، وأُدير باب المصعد إلىٰ أعلاها إلى الجهة الجنوبية[٣] .

المطر والسيل العظيم بمكّة :

وفي سنة ثلاث وسبعين في يوم السبت بعد الظهر لسبع خلون من شهر شعبان من السنة المذكورة: حصل مطر عظيم، وسال منه سيل كبير ملأالمسجد، وغرق فيه نحو ستّة أنفار، فتصدّىٰ مولانا الشريف زيد لتنظيفه، ونادىٰ في الناس، وحضر بنفسه .

وحضر أيضاً متولّي بندر جدّة في تلك السنة، وهو الأمير سليمان بيك، وهو يومئذ قائم علىٰ عمارة المقامات، وترميم المشاعر، فاشتغل الأشراف والعلماء

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٥ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٥، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨١.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٦ .

والخطباء والمدرّسون بأيديهم، وبذلت أموال عظيمة علىٰ ذلك، فكمل تنظيفه في سبعة أيّام.

وأرّخ ذلك السيّد أحمد بن السيّد أبيبكر بن سالم بن شيخان بقوله:

قهقه الرعد عندما ابتسم البر	ق فأبكى الغمام قطر المياه
وأذابا قلوبنا الخوف والر	عب فويلٌ لغافل القلب ساهي
وأتانا طوفان نوحٍ وبالمو	ت قطعنا لولا جناب الإلٰه
إن تقل أوضحوا فسابع شعبا	ن وسبتٍ ليوم ستّ مضاهي
أو ترد عامه المهيل فأرّخ	بات سيلٌ يطوف البيت داهي[1]

قلت: هذا التأريخ ساقط نظماً ومعنىً، كما تراه.

تعمير المقامات الأربعة:

وفي سنة أربع وسبعين وألف: عمّرت المقامات الأربعة: مقام الخليل، والثلاثة، وبيّضت جميع قباب المسجد الحرام ظاهراً وباطناً، ورمّمت جميع المشاعر بعرفات، ومسجد مزدلفة، ومسجد الخيف بمنىٰ، وأعلام الجمرات، وحدود الحرم[2].

خروج الشريف زيد لقتال قبيلة جهينة:

وفي سنة ستّ وسبعين: خرج الشريف زيد لقتال قبيلة جهينة، طلباً لثأر السيّد مساعد، والملزم له علىٰ ذلك السيّد غالب بن محمّد بن مساعد بن مسعود ولي الدم الأدنىٰ، فتوجّه بجميع من معه من السادة الأشراف وأتباعهم وعساكره وعساكر

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٦، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٦، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨٢.

مصر المقيمين بمكّة المشرّفة، وأقام ببدر .

وتوجّه السيّد حمّود بن عبدالله إلىٰ زيارة جدّهﷺ علىٰ خيله وركابه، فاتّفق أن لاقاه الآغا المكرّم عمادالدين أفندي الرومي في الخيف، وأعزّه إعزازاً عظيماً؛ لأنّه ورد في هذه السنة إلىٰ مكّة المعظّمة، ثمّ زار السيّد حمّود ورجع، فوجد الشريف علىٰ حاله مقيماً ببدر، ونزل هو علىٰ ماء مخشوش[١]، وهو موضع معروف، ثمّ توجّها معاً لحرابة جهينة، وكان قائم مقام الشريف زيد بمكّة السيّد أباالقاسم بن السيّد حمّود[٢] .

كثرة الأمطار ورخصة الأسعار :

وفي تلك السنة: كثرت الأمطار بالحجاز، فرخصت الأسعار جدّاً، حتّىٰ بيع الأردب القمح بثلاثة حروف عددي، والمنّ والجبن بمحلقين، والألبان واللحوم وجميع الخيرات كثيرة إلى الغاية[٣] .

وفاة الشريف زيد صاحب الترجمة :

وفي سنة سبع وسبعين: توفّي الشريف زيد صاحب الترجمة، كما مرّ ذلك، فرحمه الله تعالىٰ، وأولاه ألطافاً توالىٰ. ثمّ انتقلت الشرافة إلى ابنه الشريف سعد بن زيد[٤]، كما سيأتي بيان ذلك، وفّقنا الله وإيّاكم لأقوم المسالك .

---

(١) في السمط: محشوش .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٦ ـ ٤٧٧، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨٤ .

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٧، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨٤ .

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٧، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨٣ ـ ٨٤ .

شرافة الشريف سعد بن زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرفة رحمه الله تعالىٰ

قال العصامي: ولمّا مات الشريف زيد، وقعت بمكّة رجّة عظيمة في التولية على المسلمين، وفي من يقوم مقامه، بين ولده الشريف سعد وبين السيّد حمّود بن عبدالله، وقام كلّ من الرجلين أشدّ قيام، وجمع الجموع، وبذل المال[١]، وتحصّنوا في البيوت والمنائر .

وانضمّ الأشراف جميعهم إلى السيّد حمّود، ولم يبق مع الشريف سعد إلاّ السيّد مبارك بن محمّد الحارث، والسيّد راجح بن قايتباي، والسيّد عبدالمطّلب بن محمّد، والسيد مضر بن المرتضىٰ، والسيّد الحسين بن يحيىٰ، والسيّد فارس بن بركات، والسيّد محمّد بن أحمد بن علي، وهو الذي كان مع المنادي .

وكان في مكّة رجل عظيم الشأن، قد ورد في العام الذي قبل هذا العام، وهو عام ستّ وسبعين، وسنجق جدّة، وشيخ حرم مكّة المشرّفة عماد أفندي المتقدّم ذكره آنفاً، فردّوا الأمر إليه، وأحضر خلعة عنده، والرسل تسعىٰ من الشريف سعد إليه إلى الضحوة .

فاتّفق الرأي أن يلبسوا الخلعة الشريف سعد، فأخذها من تحت ركبته شخص من أكابر عسكر مصر، يقال له: المسلماني، وذهب بها إلى الشريف سعد، فلبسها في بيته من غير وعد .

وكان مجلس عماد أفندي[٢] في دكّة عند باب رباط الداووديّة، فبعد أن

---

(١) في «ن»: الأموال .

(٢) في السمط: عمادآغا .

أُخذت منه الخلعة، قيل له: إنّ ابن الشريف زيد السيّد محمّد يحيىٰ هو المولىٰ، وقد أخذ له والده أمراً سلطانياً بذلك، فقال لمن أخذ الخلعة: قولوا للشريف سعد: بشرط أنّك قائم مقامه، ومشوا.

وفي رواحهم دخل المسجد من باب بني سهم المسمّىٰ بباب العمرة جماعة من الأشراف، منهم: السيّد محمّد بن أحمد بن عبدالله، والسيّد مبارك بن الفضل بن مسعود، والسيّد عبدالله بن أحمد، والسيّد محمّد بن أحمد بن حراز، وغيرهم في نحو ثمانية عشر شخصاً[١]، فوقفوا علىٰ عماد أفندي، وقد رأوا جماعة من الأتراك وبيدهم الخلعة قد قاربوا باب المسجد النافذ إلىٰ بيت الشريف سعد، فقال لهم عماد أفندي: نحن ألبسنا الشريف سعد بشرط أنّه قائم مقام أخيه السيّد محمّد يحيىٰ؛ لأنّه هو القائم بعد أبيه بأمر سلطاني، فلم يردوا له جواباً.

ثمّ إنّهم رجعوا من الباب الذي دخلوا منه، ووصلوا إلىٰ بيت السيّد حمّود، فوجدوا جميع الأشراف في بيت السيّد حمّود، فلاقاهم السيّد حمّود في درجة البيت، وهو ذاهب لموالاة الشريف زيد، فأخبروه بما شاهدوه، فعاد معهم[٢]. إنتهىٰ مع اختصار وتغيير وحذف كثير.

وقال في موضع آخر ما معناه: إنّه كان مع مولانا الشريف زيد مملوكان: أحدهما تركي الجنس اسمه ذوالفقار، والآخر حبشي اسمه بلال.

أمّا الأوّل، فكان عند مولاه منذ زمان حتّىٰ كبر وصار شيخاً للعسكر اللهام، فقام عليهم أحسن قيام، وكان ذا هيبة ورأي سديد، فدعاه الشريف زيد، وأوصاه

---

(١) في «ن»: شخص، وفي السلافة: أشخاص.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

علىٰ بنيه وعوله[١].

فلمّا انتقل الشريف إلىٰ رحمة الله قام علىٰ قدميه، وشمّر عن ساقيه، ورتّب العساكر في المواضع الحصينة، وضبط قانون الحرابة من سائر الجهات، والسيّد حمّود لم يبرح من بيته مع بني عمّه وشيعته، ونار الفتنة قائمة أشدّ قيام.

فجلس الشريف سعد للتهنأة والسرور، وتأطّد له الملك بفأل اسمه والحبور، ودعا مشايخ العرب وأهل الإدراك، وفعل ما تفعله الملوك حال الجلوس، مع ما صار من الاضطراب في البلاد وبين البادية والأعراب، وشدّة الاختلاف في الطرقات، وجميع ما حول مكّة المشرّفة من الجهات، بأسباب موت هذا الملك العظيم، والركن الثابت القديم، إلاّ أنّه بعد أن أخلص النيّة، ووجّه همّته العليّة، أمنت البلاد، واطمأنّت العباد.

فأرّخ جلوسه الشريف الأديب الأريب الشيخ أحمد[٢] بن قاسم الخلّي بقوله:

قام بأمر البلاد سعدٌ	أيّد ربّ السماء ملكه
بغاية المجد أرّخوه	قد نلت بالسيف أمر مكّة

وأرّخه الإمام فضل[٣] ابن الإمام عبدالله الطبري أيضاً بقوله:

---

(١) في السمط: وعولته.

(٢) هو العلاّمة الأديب الشيخ أحمد بن القاسم الخلّي المكّي، ولد بمكّة سنة (١٠٥٤) ونشأ وتعلّم بها، برع في الشعر، له ديوان في مدح النبيّ ﷺ والغزليات والموشحات، وله قصائد غرر، توفّي في أوائل القرن الثاني عشر، وقد أكثر المؤلّف النقل عن ديوانه هذا في كتابه هذا.

(٣) هو جدّ العلاّمة محمّد بن علي بن الفضل، صاحب كتاب إتحاف فضلاء الزمن

قالوا لنا اليـوم مـات زيـدٌ والناس تخشىٰ وقوع عركه
والقوم لا يسّاءلون هذا[١] قال كذا مـن يـروم مـلكه
فقلت والقـيل قـد تـناهىٰ والخلق في ضجّةٍ وربكـه
بيتاً صـحيحاً لهـم جـواباً مؤرّخاً قد أجدت[٢] سبكه
يـــبايعوه يـــملّكوه سعد بن زيدٍ شـريف مكّـه

وأرّخه أيضاً العالم العلاّمة القاضي أحمد ابن القاضي مـرشدالديـن العـمري بقوله:

شمس الخـلافة أشـرقت وبــدا مــنيراً سـعدها
مذ حازها الشـرف الذي بــعلاه زيّــن عــقدها
ســعد الذي تأريــخه خير الملوك سعيدها[٣]

قلت: هذا التأريخ لا بأس بنظمه، غير أنّ في شطر التأريخ وقفة؛ لسقوط حرف العطف ليتمّ التأريخ، وبثبوته يتمّ الوزن، وتزول الوقعة، غير أنّه يزيد التأريخ سنة، فلو أثبته ووطىء لإخراج هذا العدد لكان أحسن وأسبك، وإن كان هذا النوع كثير في شعر العرب، كقوله في الحماسة ...[٤].

واتّفق أن حصل في اليوم الثالث من جلوسه، وهو يـوم الخـميس اضـطراب

بتاريخ ولاية بني الحسن، وتوفّي جدّه الفضل هذا سنة (١٠٨٤) وكان أديباً شاعراً.

(١) في السمط: والقوم يسألون هذا.

(٢) في السمط: مؤرّخاً فيه رمت.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٨٦ ـ ٤٨٧ وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨٧ ـ ٨٨.

(٤) هنا في النسختين بمقدار سطر واحد بياض.

عظيم من بعد الظهر إلىٰ بعد العصر، بين الشريف سعد والسيّد حمّود، وكلّ منهما جمع جيوشه، وتحصّنوا في البيوت والمنائر، وركبوا جماعة السيّد حمّود على الجبل الذي خلف بيته، والجبل المعروف بجبل عمر، وتراموا بالرصاص من بعد، ولم تحصل مواجهة، ثمّ إنّهم استمرّ بهم الحال، وكلّ يوم يصبحون في قيل وقال، وكلّ من الفريقين واقفٌ علىٰ قدميه كالسبع الصيّال .

ولمّا كان اليوم الثالث عشر وقع الاتّفاق بين الشريف سعد والسيّد حمّود علىٰ قدر معلوم من المعلوم، وعيّنت جهاته، وكان يوماً عظيماً عند الناس، وحصل بذلك الأمن، وارتفع البأس، وأمر الشريف سعد بالزينة ثلاثة أيّام .

ثمّ كتب محضر من الشريف سعد إلىٰ الدولة العليّة بإنهاء ما صار من وفاة الشريف زيد رحمه الله تعالىٰ، وجلوس الشريف سعد بعده، والتماس تأييده وبقائه، وعليه خطوط الأعيان، وذهب به عبد والده المذكور سابقاً بلال آغا إلىٰ مصر، وسلّمه صاحب مصر، فأرسله إلى الدولة العليّة مع مزيد الاعتناء من عنده، وأصحبه مكتوباً من عنده .

وصدر أيضاً عرض آخر من السيّد حمّود ينقض ما كتبه الشريف سعد، ولم يكن عليه إلاّ خطوط السادة الأشراف، وأرسله مع رجل من أهل مصر يسمّىٰ الشيخ عيسىٰ، فقضى الله عليه بعد دخوله إلىٰ مصر بيومين، فوجدوا العرض في تركته، فلم يجده[1] .

وصدر أيضاً عرض ثالث من السيّد محمّد يحيىٰ بن الشريف زيد من المدينة؛

---

(١) في السمط: ولم يصل مقصده .

لأنّه كان عليها[١] خطوط الأعيان من أهل المدينة، وألزم نفسه أربعين ألف دينار لوزير الدولة العثمانيّة.

فلمّا كان اليوم الثاني والعشرون من شهر رجب المعظّم: وصل البشائر والأخبار الصحيحة، بأنّ الدولة قد أنعمت على الشريف سعد بشرافة مكّة المشرّفة.

وفي سادس عشرينه: وصل رسول حضرة السلطان بالخلعة الشريفة، ومعها مصلاّه الذي يصلّي عليه والأمر السلطاني، فلبس الخلعة مولانا الشريف سعد بالمسجد الحرام على العادة المألوفة، وقرىء الأمر السلطاني بحضور جميع أعيان مكّة المشرّفة في اليوم المذكور من الشهر المذكور من السنة المذكورة.

فتأطّدت شرافته، وشيّدت بالتوفيق خلافته، وعطس بالمسرّة أنف صباحه، وأضاء في قصور المجد نور مصباحه، فأمر ونهىٰ، وتسنّم ذروة السهىٰ، وأحسن السيرة، وأخلص مع رعاياه السريرة، فاستقام ملكه، واستقلّت في بحار السعادة سفنه وفلكه[٢].

وأمّا ذاته السامية الشريفة، فقد تفيّأ عفاته ظلال مكارمه الوريفة، لأنّه علم الكرم[٣] المشار إليه، ومعلّم الجود المجمع بالثناء عليه، ولي شرافة مكّة أربع مرار، ودفاع أياديه ليس له حدّ ولا قرار.

فتىً يروم المكارم عن يديه ... زكيٌّ عن زكي عن زكي
سيولٌ عن حياءٍ عن بحور ... عن الإفضال عن كفٍّ ملي

---

(١) في «ن»: بها.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٨٨ ـ ٤٩٠.

(٣) في «ن»: الكرام.

والحاصل أنّ أخبار كرمه تتناقلها الركبان، ويرويها لسان الزمان، لا يعفىٰ لها أثر، ولا تنسخ لها أيّة خبر، مع كونه محك الآداب، ومفترع أبكار معاني خردها الكعاب، بفهم يتجدّده، وذكاء يتوقّده، مدحه شعراء زمانه، فقلّدهم بعقود برّه وإحسانه.

فمن جملة من مدحه، وأنعم من برّه قدحه، الأديب الفاضل، والأريب الكامل، الشيخ عبدالملك العصامي[١]، بقصيدة طائية مطلعها:

سقى الغيث ذيّاك الأُبيرق والسقطا ... فأنبت في أرجائها[٢] الرند والأرطا
وحيّا رُبا تلك المعاهد فاكتست ... رياضٌ لها من نسج إبرته بسطا
معاهد لمياء البديد تعطّرت ... ومائث ميثاها بما تسحب المرطا
لها بشرٌ كالماء إذ قلبها صفا ... وناظرها كالسيف لكنّه أسطىٰ
إذا ما دجى ليلٌ حكىٰ ليل شعرها[٣] ... وإن لاح نجم الأُفق سمنا به القرطا
رواحٌ إذ لاحت فكالبدر[٤] أورنت ... فكالظبي أو ماست ترى الحلّ والربطا
أراشت لأحشائي رواشق مقلةٍ ... ترىٰ نبلها يصمي الفؤاد إذا أحطا

ومنها:

---

(١) وهو عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكّي، توفّي سنة (١١١١) له كتاب سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، قد أكثر المؤلّف النقل عنه في كتابه هذا.

(٢) في السمط: أرجائه.

(٣) في السمط: ليل جورها.

(٤) في السمط: رداحٌ إذا لاحت فكالشمس.

سقاها ومرباها سحوحُ من الحيا ... وروّىٰ علىٰ أكنافها الأثل والخمطا
فوا شوق أحشائي للحظة لحظها ... وأنّىٰ بها إذ قد نأت دارها شحطا
بلىٰ قد نأت عنّي ولا بين بينها[(١)] ... وبدّلت من عين الرضا بالجفا سخطا
كذلك أخلاق الغواني ومن يرم ... بهنّ الوفا كالمبتغي في الأضا قرطا

ومنها :

ومن لم يذد دون[(٢)] التصابي وسربه ... قصاراه فيها إن يذلّ وينحطّا
ويمسي صريع العين لا ناصر له ... سوىٰ عبرة يروي تفجّرها سطّا
نعم لو نحا في كلّ أمر يؤوده ... مليك الورىٰ سعد بن زيد لما شطّا
مليكٌ له من طينة المجد جوهرٌ ... به ازدانت الدنيا وقدماً هي الشمطا
شريف العلا والذات في الوصف منتم ... إلىٰ خير أصلٍ طاب في قنّه[(٣)] ربطا

ومنها :

طويل البنا رحب الفنا منهل الغنا ... مزيل العنا مولى المنىٰ للهىٰ[(٤)] سفطا
عريض الجدا غوث الندا مورد الندا ... حمام العدىٰ مردي الردا للهدىٰ فرطا
فيابن رسول الله وابن وصيّه ... ودرّة عقدٍ كنت أنت له وسطا
لقد حطت أكناف الخلافة عزمةً ... وقمت بها حفظاً وشيّدتها ضبطا

ومنها :

---

(١) في السمط: بيننا .

(٢) في السمط: ذود .

(٣) في السمط: قنسه .

(٤) في السمط: باللهىٰ .

أبـــى الله إلاّ أن تـــحلّ مـــحلّه ... بـمرتبةٍ عـزّت لغـيرك أن تـمطىٰ
فوافـاك بـالتأييد مـا كـان كـامناً ... من الأزل العلوي يـنتظر الشـرطا
فما خطّ تقليداً على الطرس كاتبٌ ... ولكن قـضاء الله مـن قـبله خـطّا

ومنها وهو آخرها:

سأمــلأ ديــوانــي بـمدحك مـدحةً ... لشعري لكي يستوجب الحمد والغبطا
فـدم وابـق واسـلم لا بـرحت مـؤيّداً ... عــلى العـزّ مـهما أن تـحاوله تـعطىٰ
ولا زلت مــحفوف الجــناب عـزيزه ... رعاياك لا تخشى اهـتضاماً ولا قـنطا
مدى الدهر ما طاب القريض بمدحكم ... فأخجل مسك الختم والندّ والقسطا[١]

هذا ما اخترته من القصيدة فأوردته، وهو المقدار المتضمّن لما أردته، ومدائحه رحمه الله تعالىٰ كثيرة لا تحصىٰ، ولا يستوعبها الاستقصاء.

عوداً إلى حال الشريف سعد والسيّد حمّود:

قد تقدّم تفصيل ما بني الصلح بينهما عليه، واستند كلّ منهما إليه، فاستمرّا علىٰ كيفيّة حسنة، وحالة مستحسنة، إلىٰ أن حصل بينهما التنافر والفراق، وقام كلّ واحد منهما في مقاومة صاحبه علىٰ ساق، وذلك بأسباب عدم إيفاء الشريف سعد بـما رتّبه للسيّد حمّود من تلك المقرّرات والوعود، مع مـا فـي نـفسه مـن اخـتلاف الأحوال عمّا كان في ذهنه.

فأزمع على الترحّل عن البلاد، ومفارقة العيال والأولاد، ففارق الشريف سعد، وبرز يوم الأربعاء ثامن ذي‌القعدة الحرام من سـنة سـبع وسـبعين وألف، وأقـام بالزاهر، ثمّ توجّه إلىٰ وادي مرّ، وأقام به بمن معه من السادة الأشراف والخـدّام

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٩١ ـ ٤٩٣.

والأتباع.

وفي أثناء إقامته يرسل إلىٰ مكّة ليلاً من يصيح في أطرافها، ويشنّع بالنهب في حوافّها وأخطافها، استنهاضاً لسلطانها، ليذبّ عن سكّانها، فيحصل المراد، بخروجه إلىٰ ظاهر البلاد، غير أنّه لم يستخفّه الطيش، ولا برز من داره بجيش، بل حفظ بلاده، وحشد عساكره وأجناده.

ولم يزل السيّد حمّود مقيماً بالوادي إلىٰ يوم أربع من ذي‌الحجّة الحرام، فقدم عليه الحاجّ المصري، وأميره في تلك السنة أُزبك بيك.

قال العصامي: ولمّا كان يوم السبت رابع ذي‌الحجّة الحرام من السنة المذكورة، قدم على السيّد حمّود الحاجّ المصري، والأمير عليه أُزبك بيك، فركب إليه السيّد حمّود ومن معه من السادة الأشراف والأتباع.

فقعدت الأشراف من أنفسها طوقاً علىٰ، وطاق الأمير وعسكره، ولم يدخل إليه إلاّ ثلاثة أشخاص: السيّد حمّود، والسيّد أحمد الحارث، والسيّد بشير بن سليمان، فأنهوا إليه الحال[١]، وعدم الوفاء من الشريف سعد فيما التزم لهم به من معاليمهم ومجاهيهم[٢]، وأنّنا أيّها الأمير لا ندع أحداً يحجّ إلاّ أن نأخذ ما هو لنا، وكان قدره مائة ألف أشرفي، فالتزم للسيّد حمّود أن ينقده الشريف سعد قبل الصعود خمسين ألفاً منها، فقبل ذلك منه، وخلّىٰ سبيله ومن معه.

فلمّا دخل الأمير مكّة يوم خامس ذي‌الحجّة الحرام، خرج إليه الشريف سعد إلى المختلع، فلبس الخلعة المعتادة، ثمّ كلّمه الأمير فيما التزمه للسيّد حمّود ومن

---

(١) في السمط: حالهم.

(٢) في السمط: ومجانيهم.

معه، فصدّق التزامه، وأسلم خادم السيّد حمّود الخمسين الألف قبل الصعود من السيّد إبراهيم بن محمّد بإحالة من مولانا الشريف، ثمّ دخل الأمير الشامي في سابع ذيالحجّة الحرام، وألبس مولانا الشريف على العادة .

إلىٰ أن قال: ثمّ لمّا كان يوم الاثنين عشرين ذيالحجّة الحرام، وصل مكّة مولانا السيّد حمّود، ومعه السيّد عبدالمعين بن ناصر بن عبدالمنعم بن حسن، والسيّد محمّد بن أحمد بن عبدالله بن حسن، والسيّد بشير بن سليمان بن موسى بن بركات بن أبينمي، والسيّد مبارك والسيّد نافع إبنا السيّد ناصر بن عبدالمنعم في نحو تسعة أشخاص، ومن العبيد نحو خمسة وستّين عبداً .

وما ذاك إلاّ لأنّ أمير الحاجّ وكبار العساكر قصدوا الصلح بينه وبين الشريف سعد، فتردّدت الرسل بينهم وبينه يطلبونه لذلك، وألزموه برسل من القاضي وصلوا إليه إلىٰ وادي مرّ، فجاء وحضر عند مولانا الأفندي، وحضر الأُمراء ووجوه أركان الدولة وعماد آغا، وأكابر العساكر المصريين .

فأرسل مولانا الشريف سعد بلال آغا وكيلاً عنه في الخصومة والدعوىٰ، فاغتاظ مولانا السيّد حمّود من ذلك، وأراد الفتك به في ذلك المجلس، فذهب مسرعاً فزعاً، فأرسل الشريف أخاه السيّد محمّد يحيىٰ وكيلاً عنه، وتطالبا علىٰ يد الحاكم الشرعي، وطال المجلس، ولم يقع بينهما اتّفاق، ثمّ ادّعىٰ عليه بما أخذه من طريق جدّة من الأموال، ولم يثبت عليه وجه شرعي في ذلك، وطلب مولانا السيّد حمّود أن يتوجّه إلى الديار المصريّة، ويرفع أمره إلى الحضرة السلطانيّة، فأذنوا له، واتّفق الحال علىٰ ذلك .

ثمّ إنّه لمّا توجّه الحاجّ الشامي وسائر الحجّاج، توجّه معهم حتّىٰ توصّل إلىٰ بدر، فتخلّف عنهم وأقام بها .

ولمّا دخلت سنة ثمان وسبعين وألف، توجّه مولانا السيّد حمّود من بـدر إلىٰ ينبع في شهر صفر منها، وأرسل ولده السيّد أباالقاسم بن حمّود، وأرسل مـولانا السيّد أحمد الحارث ولده السيّد محمّد بن أحمد، ومعهما السيّد غالب بن زامل بن عبدالله بن حسن، وجماعة من ذوي عنقاء السيّد بشير ومحمّد وظافر بني السيّد واضح، والسيّد محمّد بن عنقاء وولده، وأرسل معهما قوداً هديّة إلىٰ باشا مـصر المسمّىٰ عمر باشا نحو ستّة أفراس، منهنّ البغيلة والهدبا والكحيلة .

فساروا إلىٰ أن بلغوا الحوراء[1] المنزلة المعروفة، فلاقاهم قاصد من إبراهيم باشا المتولّي بعد صرف عمر باشا، بمكاتيب متضمّنة للأمر بالإصلاح، والاتّفاق علىٰ نهج النجاح، فرجع السيّد غالب بن زامل صحبة القاصد لينظر ما يتمّ عليه الحال، فتقطع مادّة القيل والقال، وتسقط كلفة الارتحال .

فأقام القود ومن معه بالحوراء نحواً من خمسة عشر يوماً ينتظرون الفرج بعد الشدّة، فلم يصل إليهم خبر بعد هذه المدّة، فلمّا لم يصل إليهم خبر ساروا إلىٰ مصر، فدخلوها ليلة عيد المولد، وقدّموا مكاتيبهم والقـود لإبـراهـيم بـاشا، فأكـرمهم وأعظمهم وأضافهم واحترمهم .

فاستمرّ الحال كذلك إلىٰ شهر جمادي الآخرة، ولم يرجع ذلك القاصد من مكّة إلىٰ مصر، فأُشيع بها أنّ السادة الأشراف قتلوه، فحصل الهرج والمرج، وجـاءت الأكاذيب فوجاً بعد فوج، فأشار بعض الأشقياء على الباشا بـإمساك السـيّدين أباالقاسم ومحمّد، فأمر بنقلهم من محلّهم الأوّل وهو قايتباي إلىٰ بيت يوسف بيك .

---

(١) الحوراء: كورة من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحـجاز، وهـو على البحر في شرقي القلزم .

أقول[١]: قد وصل السيّد محمّد يحيى بن الشريف زيد إلىٰ مكّة في أواخر سنة سبع وسبعين، وتقدّم أنّه هو الذي كان وكيلاً عن أخيه الشريف سعد في الدعوىٰ على السيّد حمّود، لمّا حضر بمجلس أفندي الشرع الشريف في موسم السنة المذكورة، فاستمرّ معه إلىٰ عقب ذهاب الحجّ، ثمّ طلب من أخيه الشريف سعد أن يجعل له ربع محصول البلاد، وينادي له به، فامتنع الشريف من ذلك، فغضب وبرز من مكّة متوجّهاً إلى السيّد حمّود، وأقام بالزاهر مدّة .

ثمّ إنّ هذا الخبر بلغ السيّد أحمد بن زيد وكان بالشرق، فجاء مسرعاً، ولحق السيّد محمّد يحيىٰ قبل أن يتوجّه، وأرضاه بجملة من المال، فلم يرض إلاّ بالمشاركة في الربع وبالنداء في الحال، وتوجّه ولحق بالسيّد حمّود واتّفق معه[٢]. إنتهىٰ ما أردنا نقله من تأريخ العصامي .

واقعة السيّد حمّود والعساكر المصريّة

نقول: قد تقدّم ذكر اعتقال صاحب مصر للسيّدين الشريفين: السيّد أبي القاسم ابن السيّد حمّود، والسيّد محمّد بن أحمد الحارث، حين بلغه ما شاع بمصر من أنّ السادة الأشراف قد لزموا رسوله الذي أرسله لقصد الصلح وقتلوه، مع تحسين ذلك الشقي له لزمهما واعتقالهما، ثمّ نقله لهما من ذلك الموضع إلىٰ أضيق منه، ثمّ عزم وصمّم علىٰ إرسال عسكر نحو خمسمائة لمقاتلة السيّد حمّود ومن معه، وأقام عليهم يوسف بيك أحد سناجق مصر، وبعثهم إليهم، ومعهم مسلم بندر جدّة .

فلمّا بلغ ذلك السيّد حمّود والأشراف الذين معه، جمعوا جموعاً من أهل ينبع

---

(١) القائل هو صاحب السمط .

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٤٩٤ ـ ٤٩٦ .

وجهينة وغيرهم، وورد عليهم أيضاً في أثناء هذه المدّة السيّد سعيد بن شبّر[١] بن حسن بن أبي‌نمي؛ لأنّه وصل في تلك الأيّام من جهة بيشة، ثمّ لم يتّفق مع الشريف سعد، فلحق بالسيّد حمّود ورفاقته، ووفد عليهم في تلك الأيـام، فـقربت مـنهم العساكر، فأرسل إليهم السيّد حمّود بأنّكم لا تمرّون بنا إذا لم يكن معكم السـيّد أبوالقاسم والسيّد محمّد، فتشاوروا بينهم؛ لأنّ مقصدهم الوصول إلىٰ مكّة أوّلاً، ثمّ العود إليهم ثانياً.

فأشار على البيك كبار جماعة بالعدول عن هذا الطريق إلىٰ طريق أُخرىٰ، فلم يلتفت إلىٰ هذا الرأي، والحال أنّ صحبته جماعة من التجّار ومعهم أموال عظيمة، وهم من جملة من أشار عليه بالعدول، فأبىٰ إلاّ تنكّب طريقه التي هـو سـالكها لأجل وقوع قضاء الله تعالىٰ بهم، وكان أمر الله حتماً مقضياً.

فأوقع بهم السيّد حمّود واقعة عظيمة، وأغار عليهم غارة جسيمة، لا تصدر إلاّ عـن أبـناء الحسـن السـبط، الذيـن مـا شأن أصـلهم الشـريف روم ولا قـبط، واستأصلوهم عن آخرهم إلاّ مقدار مائة شخص منهم، والبـاقون ذهـبوا تـحت السيف، وغنموا منهم أموالاً جزيلة لا تحصىٰ.

وأمّا صاحب أمرهم يوسف بيك، فأمسكوا عليه، وأمر مولانا السـيّد حـمّود بجمع حريمه وحريم غيره ونصب لهم خياماً، وأجرىٰ عليهم نفقاتهم، ثـمّ مـات البيك المذكور في ينبع بعد الواقعة بأيّام، وكانت وفاته يوم الأربعاء رابع عشر شهر رجب المعظّم سنة ثمان وسبعين وألف.

وأمّا قتلى السادة الأشراف ـ رحمهم الله تعالىٰ ـ فهم أربعة، وهم: السيّد سرور

---

(١) في «ن»: بشير، وفي السمط: شنبر.

ابن حسين بن عبدالله، والسيّد شبير بن أحمد بن عبدالله، والسيّد إليـاس[١] بـن عبدالمنعم بن حسن، وشخص من ذوي عنقاء يسمّىٰ السيّد زيـن العـابدين بـن ناصر، تغمّدهم الله برضوانه، وأسكنهم فسيح جنانه .

وكان وصول الخبر بهذه الواقعة إلىٰ مكّة المشرّفة في تاسع عشر رجب المعظّم، وصار بمكّة اضطراب عظيم .

وأمّا السيّدان الجليلان السيّد أبوالقاسم بن حمّود، والسيّد مـحمّد بـن أحـمد الحارث، فلمّا وصل الخبر إلىٰ مصر بما صار من السيّد حمّود وبني عـمّه عـلىٰ عساكرهم، اشتدّ خنق صاحب مصر، وأمر بقتل من بها من أتباع هذين السيّدين، وتتبّعهم في محالّهم، وضيّق على السيّدين في اعتقالهما بنقلهما إلىٰ حبس شنيع لا يليق بهما، وجمع العلماء واستفتاهم في قتلهما، فامتنعوا عن الافتاء بذلك، فغلظ عليهما الحبس .

واستمرّ إلىٰ أن رفع إبراهيم باشا، وتولّىٰ أيالة مصر شخص آخر سنة ثمانين، فسأل عن حالهما من حين دخوله، وعن سبب حبسهما، فـأُخبر بـقضيتهما، ثـمّ تفحّص إلى الغاية عن حالهما بسؤالات كـثيرة، حـتّىٰ ظـهر عـنده وبـان أنّـهما مظلومين، فأمر بالإفراج عنهما، وإحـضارهما لديـه، فأكـرمهما غـاية الإكـرام، وخيّرهما بين الإقامة والعود، بعد أن أنزلهما في بيت نقيب الأشراف، وأكرمهما هو أيضاً بما لا مزيد عليه .

ثمّ مشى السيّد محمّد إلىٰ مكّة المشرّفة علىٰ ركائب، ووصل مكّـة فـي سـنة ثمانين. وأمّا السيّد أبوالقاسم، فتأخّر عنه بأسباب، واستمرّ إلىٰ أن دعـاه داعـي

---

(١) في النسختين: لباس .

الحقّ فأجاب، وكانت وفاته في شهر شوّال من سنة إحدىٰ وثمانين وألف بالطاعون[١].

كيفيّة الصلح بين سعد وحمّود

قلت: لم يزل السيّد حمّود ـ رحمه الله تعالىٰ ـ مقيماً بينبع بعد الواقعة المشروحة، ثمّ انتقل إلىٰ جهة الشرق، وصارت له به الواقعات العظيمة، المقرونة بالظفر والنصر، المرويّة إلىٰ هذا العصر بلسان الدهر، كوقعة نعار مع عنزة، ووقعة بني حسين، ووقعة هيتم العوازم، ووقعة مطير، ووقعة ظفير[٢]، وغير ذلك.

ولم يزل علىٰ هذا الحال وهو في غاية الإعزاز والإجلال، إلىٰ أن أذن الله بينهما بالصلح المستمر، والحال الجميل المستقر.

فهيّأ بقدرته الصالحة لتقريب المداخلة بينهما والمصالحة، فأبرز سعداً وذويه، إلىٰ جهات الشرق ونواحيه، في أوائل سنة إحدىٰ وثمانين، لإطفاء نار فتن المفسدين، من الأعراب المتمرّدين، فوصل في سابع عشر جمادي الآخرة إلىٰ أرض المبعوث، واستدعىٰ به عبدة يعوق ويغوث، من هؤلئك البادية الطغام، المجدّدين لأيّام الجاهلية بعد الإسلام، فحكّم في قمعهم بأثر صولته، واقتضىٰ فيما صدر منهم في مدّة دولته، فناصفهم في أموالهم، بعد أن شتّت بعظيم هيبته منتظمات أحوالهم.

ثمّ دخل الطائف لزيارة حبر الأُمّة، وواسطة عقد الأئمّة، فوفد عليه مولانا السيّد حمّود، فصفت بينهما الخواطر، وتبدّل الوعيد بالوعود، وخمدت نيران الفتن،

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٤٩٧ ـ ٥٠٠.

(٢) قد ذكر أرباب التواريخ تفصيل هذه الوقعات، لا مجال هنا لذكرها، فراجع.

وغاضت دواعي المفاسد والإحن، بعد أن تلقّاه بنهاية الإعزاز والإكرام، وأردف عليه غنائم العطايا والإنعام.

ثمّ بعد ثلاثة أيّام من وروده تكاتبا وتعاهدا علىٰ تشييد مباني الصلح المحكم الأساس، بمرأىٰ من ضريح سيّدنا عبدالله بن العبّاس، واستمرّا علىٰ ذلك[١].

فصل منيف

يتعلّق بحوادث أيّام هذا السيّد الشريف

الغلاء العظيم والقحط الشديد بمكّة :

ففي سنة ولايته: حصل بمكّة المشرّفة غلاء عظيم، وقحط شديد، وزاد وتقوّىٰ ذلك في سنة ثمان وسبعين، إلىٰ أن حلّت الميتة لأهل مكّة، وأُكلت الكلاب والبسس[٢]، وباعت الناس جميع أوباشهم وأثاثهم، وصار الفقراء يهجمون البيوت.

وذكر المؤرّخون أنّ غالب الفقراء والضعفاء يكون الواحد منهم ماشياً فيطيح ويموت، ومنهم من يكون جالساً فتهفت روحه، وقد شوهد ذلك.

وأمّا بندر جدّة، فكان من أعظم، بحيث إنّهم يرسلون إلىٰ مكّة لطلب القوت فلم يجدوه، وأهل الطائف فاجتمعت عليهم الكلمات الثلاث: البرد، والجوع، والمخافة، وصلت كيلة الحبّ عندهم إلىٰ خمسين محلقا[٣].

وفي سادس رمضان منها: اجتمع الرعية، وتوجّهوا إلىٰ مولانا الشريف سعد،

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٨٨ ـ ٩١.

(٢) البسس: الناقة التي لا تدرّ إلاّ على الإبساس.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠١ و ٥٠٣.

ورفعوا أصواتهم بين يديه يشكون الناظر والمحتسب عليه، فأمر بـإحضارهما، وحكم بعزلهما وحبسهما؛ لتواتر الخبر عنده بظلمهما وبأكلهما الرشا[١].

وفي هذه السنة: وصـلت قـيمة الأردب الحبّ إلىٰ أربـعين أحـمراً، ثـمّ إلىٰ خمسين، وطحنت الفول والحمص أهل مكّة وجعلوه خبزاً ولم يجز.

ثمّ عدم الحبّ وغيره بالكلّية، ومع شدّة الغلاء وقوّة القحط تـفرّقت البـوادي والعربان،كعتيبة وهذيل ولحيان وغيرهم في الطرقات، وصاروا ينهبون ويأخذون كلّما يجدوه[٢].

إغارة قبيلة عتيبة على القوافل:

وفي شهر رجب من السنة المذكورة: أخذت عتيبة قافلة نحو العشرين الجمل من أقوات وقماش في منزل السيل من طريق الطائف بعد قتال بينهم وبين أهـل المنزل المذكور، فقتل واحد من أهل المنزل، وجرح آخرون.

وفي ثامن شهر رمضان من السنة المذكورة: وصل إلىٰ وادي مرّ جملة من قبيلة عتيبة في مائة مردوفة ـ وقيل: مائتين ـ فأخذوا جميع مـا وجـدوه وانـصرفوا، فأرسل الشريف في أثرهم جمعاً من الأشراف والعساكر صحبة أخيه السيّد أحمد، فلحقوهم بعد ليالٍ، وظفروا بـهم، وأخـذوهم وقـتلوهم، وأحـرزوا مـنهم مـالاً عظيماً[٣].

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠١.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠١.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠١ ـ ٥٠٢.

ظهور عمود من نور في المغرب :

وفي الليلة الثالثة والعشرين من شهر رمضان: ظهر عمود من نور نحو الغرب مهيل طويل، وغلظه كطوله، وحصل بسببه رعب للمسلمين، وهو من الآيات للمعتبرين، وظهر في الليلة الثانية والثالثة لكنّه في الطول أكثر، بحيث إنّه امتدّ إلىٰ ثلث السماء، ثمّ إنّه صار يضعف نوره ويتقهقر إلىٰ ليلة الثامن من شوّال لم يظهر له نور بالكلّية، قاله العصامي(١).

وصول عساكر المصريين إلىٰ بندر جدّة :

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر شوّال من السنة المذكورة: وصل خبر من بندر جدّة بوصول جماعة من العسكر المصريين بحراً، وأخبروا بأنّهم مقدّم رتبة واصلة إلىٰ مكّة المشرّفة، يدخلون في ثلاثة آلاف، تجهّزت بعد قضية السيّد حمّود المتقدّم ذكرها لمحاربته ومحاربة من كان معه، وأُخبروا أيضاً بتجهيز المراكب، فاستبشروا أهل مكّة بذلك(٢).

قصد السيّد حمّود نهب ينبع :

وفي ثاني ذيالقعدة الحرام: بلغ مولانا الشريف أنّ السيّد حمّود قصده نهب ينبع، فجهّز مائتين من العسكر، وأقام عليهم بلال آغا ليمكثوا في ينبع، فمشوا بحراً، فاتّجهوا بعسكر التجريدة المتقدّم ذكرها، وعليهم محمّد جاووش، فردّهم معه إلىٰ بدر، ثمّ مشىٰ إلىٰ مكّة ومعه بلال آغا، وذهبت الرتبة إلىٰ ينبع البحر

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠٢.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠٣.

وأقامت به[١].

حمل الأرزاق إلىٰ مكّة :

وفي سابع عشرة: دخلت إلىٰ بندر جدّة عشرة مراكب وفيها العسكر، وحمل الحبّ وجرايات لأهالي مكّة، فحصل لهم بقدومها غاية الاستبشار بعد ذلك الغلاء والقحط[٢].

وصول الحجّاج المصريين :

وفي أوّل ذيالحجّة الحرام: دخلت إلىٰ مكّة المشرّفة حجّاج البحر والعساكر المصريون.

وفي الرابع منه: دخل الحاجّ المصري، وصحبته خلعتان لمولانا الشريف سعد: إحداهما من حضرة السلطان محمّدخان، والثانية من صاحب مصر.

وكان الحجّاج في هذا العام قليلين إلى الغاية، فخرج جمع يسير، وخرج قبلهم العساكر المصريون، فتلاقوا قبل ينبع بثلاثة أيّام، ودخلوا إلىٰ ينبع سواء، وأقاموا فيها نحو ستّة أيّام، وهم يكاتبون السيّد حمّود، ويجيبهم بأغلظ من كلامهم، فركبوا عليه، فلم يجدوا إلاّ خياماً خالية، ثمّ تشاوروا.

فاتّفق رأيهم أن يقيم البعض لحفظ البندر، والبعض الآخر وهو الأكثر يحجّ، فتوجّه العسكر ومعهم سنجقان، والثالث محمّد جاووش، وهو رئيس العسكر وكبيرهم وشيخ الحرم، وسنجق جدّة المعمور، فدخلوا في موكب عظيم يوم سبع

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠٤.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠٤.

من ذي‌الحجّة الحرام، وفي ثامن ذي‌الحجّة دخلت بقيّة الحجوج[١].

وفي سادس عشري ذي‌الحجّة الحرام: توجّه الحاجّ المصري والعسكر ومولانا الشريف سعد إلىٰ ينبع على السيّد حمّود، وأقام مقامه بمكّة أخاه السيّد أحمد، فلمّا وصلوا إلىٰ ينبع تشاوروا في أنّهم يقيمون في ينبع، أو يتوجّهون خلف السيّد حمّود، أو يرجعون إلىٰ مصر، فاتّفق رأيهم أنّهم يذهبون إلىٰ مصر، وأقام الشريف سعد وجيوشه ومحمّد جاووش.

وفي أثناء إقامته اقتنص جماعة من المفسدين الذين كانوا في حرابة السيّد حمّود وحبسهم، وغرّمهم أموالاً عظيمة، صار ذلك في شهر محرّم الحرام إفتتاح سنة تسع وسبعين وألف[٢].

ظهور ضوء هائل بالقرب من عين الشمس:

وفي الاثنين حادي‌عشر ذي‌القعدة الحرام من السنة المذكورة: وقع أمر مهيل بعد طلوع الشمس بساعتين، وهو أنّه ظهر من عين الشمس، أو بالقرب منها، ضوء هائل كالنجم، ثمّ استطال وامتدّ إلىٰ جهة المغرب، وحصل لمن رآه حال مع غشاوة علىٰ بصره، وارتعدت فرائصه، فانزعجت منه القلوب، وهو مشتمل علىٰ زرقة وصفرة وحمرة.

ثمّ إنّه ذهب طرفاه، وبقي الوسط، واتّسع في العرض، فخرج صوت كالرعد، ولم يكن غيم ولا سحاب، وظنّ بعض الناس أنّه صوت مدفع، واستمرّ ساعة، ثمّ اضمحلّ ذلك الباقي من الشعاع إلىٰ سحاب، فكثر كلام الناس في ذلك. انتهىٰ قاله

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠٥ ـ ٥٠٦.

العصامي[١].

بناء الشاخص في المسجد الحرام:

وفي هذا اليوم بنى الشيخ العالم العلاّمة الشيخ محمّد بن سليمان المغربي في صحن المسجد الحرام بعض أحجار، ليضع فوقها حجراً كبيراً مكتوباً فيه شاخصان من حديد، يستفاد منه بالظلّ ما مضىٰ وما بقي من النهار، بالتماس جماعة من المسلمين، ليكون نفعه عامّاً للأُمّة أجمعين.

فعند ذلك قال جماعة من الجهلة ممّن لا خلاق لهم: إنّ هذه الحادثة التي وقعت في السماء بأسباب هذه الواقعة التي في الأرض؛ لأنّهما كانتا في يوم واحد، وفي ساعة واحدة.

فكان الناس في شأنها حيارىٰ، وكثر فيها القيل والقال، حتّىٰ رفع الأمر إلى الشريف سعد، فأمر بوضعها، وعند تركيب الحجر المكتوب حصل منع من قاضي الشرع الشريف، فاستفتى الشيخ المذكور شيخ الإسلام، فأجاب بجواز وضعه إذا كان نفعه عامّاً للمسلمين، فوصل حضرة القاضي إلىٰ دار الشيخ معتذراً وأمر بوضعه، فوضع في اليوم الثاني وبقي علىٰ حاله[٢].

وصول حسن باشا إلىٰ مكّة ونبذة من أخباره:

وفي رابع ذيالحجّة الحرام ختام السنة المذكورة: وصل إلىٰ مكّة المشرّفة نجاب من المدينة المنوّرة بخبر حسن باشا مع الحاجّ الشامي، وأنّ بيده أرقام من الدولة العليّة بالتصرّف في أرض الحجاز والنظر العام.

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٠٩. وراجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٩٤.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٠، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٩٤.

وسبب ذلك: أنّه صدر من أهل المدينة المنوّرة شكايات للشريف سعد بكثرة مظالمه وتعدّياته مع جماعة منهم، فدخل حسن باشا المذكور إلى المدينة بنهاية العظمة، وتلقّاه أعيانها، ثمّ بعد استقراره وصلوا إليه أهل المدينة، وبثّوا لديه ما لحقهم وما صار عليهم، وأفهموه ببعض أشخاص ممّن كان يميل مع الشريف سعد ويعينه في تنفيذ أوامره بمظالمه، فأمر بإهانتهم واعتقالهم.

ثمّ توجّه إلىٰ مكّة المشرّفة، بعد منع خطباء المدينة المنوّرة عن التصريح بذكر الشريف سعد، فتوهّم الشريف منه غاية التوهّم، وجمع جموعاً من البادية واستعدّ لمقابلته استعداد مثله[١].

وفي اليوم السادس من ذيالحجّة: دخل الحاجّ المصري، ولبس الشريف الخلعة المعتادة. وفيه دخل الحاجّ الشامي، ثمّ بين الظهرين دخل حضرة حسن باشا في موكب عظيم، وهو في باطن تخته، ونزل عند باب السلام، ودخل المسجد الحرام[٢].

وفي اليوم السابع: دخل المحمل الشامي، ولبس حضرة مولانا الشريف سعد الخلعة الثانية على العادة والقانون من أمير الحاجّ الشامي الأمير عسّاف بن الأمير محمّد فروخ، إلاّ أنّه بعد شاع واشتهر وظهر من حسن باشا ما ظهر، توقّف الشريف سعد عن الصعود إلىٰ عرفات، حتّىٰ يستبين ما بيد المذكور من الأوامر السلطانيّة، فأفهمه بذلك وأفهم الأُمراء والأعيان، فاضطربوا اضطراباً شديداً، وعزّلت الأسواق، وخليت الطرقات.

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١١، واتحاف فضلاء الزمن ٢: ٩٥.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٢.

فوصل الأُمراء والأعيان إلىٰ حضرته الشريفة، وهوّنوا عليه الأمر، وتكفّلوا له جميع المخالفات من حسن باشا، فبعد أن اطمأنّ إلىٰ كلامهم نادىٰ مناديه بالأمان، وبسط الأسواق، والصعود إلى الحجّ على العادة، وصعد هو أيضاً علىٰ عادته، وحجّت الناس من غير ضرر ولا بأس(١).

وفي ثاني شهر محرّم الحرام من سنة ثمانين وألف: صار محضر خلف مقام الحنفي، وفيه الأمير عسّاف بن الأمير محمّد فرّوخ وأعيان الدولة وجمع من المسلمين، وحضره حسن باشا والشريف سعد، وأصلح هؤلاء الأعيان بينهما، وأزالوا تلك الكدورة، وقاموا فتداخلا وتهاديا.

وفي اليوم العاشر منه: توجّه حسن باشا إلىٰ بندر جدّة بعد اجتماع بينه وبين الشريف، تعاهدا فيه، وقدّم له حضرة الشريف جواداً مكمّلاً بالعدد الفاخر(٢).

وفي اليوم الخامس من شهر ربيع الأوّل: دخل السيّد الشريف السيّد محمّد يحيى بن الشريف زيد مصالحاً لأخيه، فحصل من العساكر المصريين المقيمين بمكّة المشرّفة بعض كلام في دخوله، حيث كان مشاركاً للسيّد حمّود في تلك الواقعة، فسكّتهم الشريف بكتاب وصله من حضرة الباشا باستحسان صلحه ودخوله البلاد(٣).

توجّه الشريف محمّد يحيىٰ إلىٰ قبيلة بني سعد:

وفي شهر ربيع الثاني: توجّه مولانا السيّد محمّد يحيىٰ إلىٰ قبيلة بني سعد

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٢.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٣.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٤.

لخروجهم عن الطاعة، فلم يقدر عليهم، فأرسل إلىٰ أخيه الشريف سعد يعرّفه بذلك، فأرسل إليه بجموع جزيلة، وقبل وصولهم إليه دانوا لطاعته علىٰ إعطاء الأموال وسلامة الأرواح[١].

وصول سلطان من سلاطين العجم إلىٰ مكّة:

وفي ثاني رجب الفرد: وصل إلىٰ بندر جدّة سلطان من سلاطين العجم، فأرسل إليه الشريف سعد رسلاً بالسلام، ومعهم ستّة تخوت، ولاقاه شيخ إسلام مكّة المشرّفة من مرحلة، ثمّ دخل به إلىٰ مكّة، ووالاه في جميع نسكه، وأدرك منه مولانا الشريف مالاً عظيماً[٢].

وفاة الشيخ عيسى الثعالبي:

وفي رابع عشري رجب المذكور: توفّي الشيخ الجليل العلاّمة الشيخ عيسى بن محمّد بن محمّد بن أحمد الثعالبي المغربي[٣].

وقوع صاعة مهيلة بمكّة:

وفي تاسع عشر رمضان من السنة المذكورة: وقعت بمكّة صاعقة[٤] قتلت رجلاً[٥].

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٤ ـ ٥١٥.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٥.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٦، وفيه «الجعفري» بدل المغربي.

(٤) في السمط: صاعقة جهة الشبيكة.

(٥) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٨.

وفاة الشيخ عبدالكبير بن محمّد المتوكّل :

وفي سادس شهر محرّم الحرام سنة ألف وإحدىٰ وثمانين: توفّي الشيخ عبدالكبير بن محمّد المتوكّل[١] .

تشريك السيّد أحمد مع الشريف سعد :

وفي سابع عشره: نودي بمكّة على الأشهار بالربع للسيّد أحمد بن زيد، وأمر الخطيب بالدعاء له بعد أخيه، وعرّف الدولة بذلك، فكانت تصل منهم خلعتان، يلبس كلّ واحد منهما واحدة[٢] .

فصل

في حال حسن باشا وما وقع عليه وما صدر منه ملخّصاً

وهو أنّه حجّ في ختام سنة إحدىٰ وثمانين، ثمّ لمّا كان اليوم الثالث من أيّام منىٰ، وهو واقف لرمي جمرة العقبة، وعساكره محدقون به، توالت عليه ثلاث رصاصات، فطاح من فوق فرسه، وتلقّاه خدّامه ووضعوه في التخت، وحصل عندهم مزيد الاضطراب فيما حدث بهم، ونزلوا به إلىٰ مكّة المشرّفة، وكلّ ما تجد عساكره أحداً تقتله، إلىٰ أن أدخلوه داره، وتحصّنوا خشية علىٰ أنفسهم، وحال دخولهم رموا علىٰ بيت الشريف سعد بنادق، ووجّهوا المدافع إلىٰ جميع الجهات، واستقرّوا علىٰ ذلك .

وأمّا الحجّاج وأهالي مكّة المشرّفة، فمنهم من هرب إلىٰ مكّة وأدخل أسبابه محلّه، ومنهم من تحصّن دور منىٰ، ومنهم من حجّ علىٰ رأسه، وذهب أرواح

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥١٩، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٩٦ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٢٠، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٩٦ .

وأموال، واضطراب عظيم في جميع الأحوال.

ثمّ نزل الشريف سعد وأخوه أحمد من منىٰ على العادة، وهما في غاية العزّة والسيادة، بعد أن أمر الجيوش والعساكر بتقلّد لامة الحرب، وإشهار الأسنّة والبواتر، ودخلا مكّة المشرّفة، رافلين في حلل الشرافة المفوّفة.

ثمّ توسّط أعيان الدولة العليّة، وأرباب الآراء السامية الجليّة، بالصلح بين حسن باشا وهذين الشريفين الساميين المنيفين؛ لأنّه قطع عليهما في تلك المدّة مبلغاً عظيماً من محصول بندر جدّة، فاتّفق الحال علىٰ تسليم عشرين ألف قرش سلّمها إليهما.

ثمّ توجّه صحبة الحاج المصري في ذلك العام ودخل مدينة سيّد الأنام، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وسلّم، وهدانا لنهجه القويم وعلّم، وألبس بها السيّد أحمد الحارث شرافة مكّة المعظّمة، وقلّده عقود سلطنتها المنظّمة، ونادىٰ له فيها بها، وألحقه بأصيل نسبها، ودعي له في المنابر، برغم كلّ عدوّ ومكابر.

وسبب اجتماعه بالسيّد أحمد في تلك البقعة الشريفة، حتّىٰ أفاض عليه خلعة الولاية المنيفة: هو أنّه لمّا خرج من مكّة مسافراً صحبة الحاج، لحقه السيّد محمّد ابن السيّد أحمد في بعض تلك الفجاج، فأمره باستلحاق والده، لينيله غاية طريف المجد وتالده، فقصده ولده إلىٰ منزله المسمّىٰ بالشعرىٰ من أرض نجد، وكلّف راحلته إليه ليتسنّم به ذروة كاهل المجد، فوصل المدينة المنوّرة، ومتّع نظره بحدائقها المنوّرة، بعد أن تشرّف بزيارة جدّه، وشام بوارق سعده وجدّه، فأجلّه حسن وأنافه، وألبسه خلعة الشرافة، وكان ذلك في شهر محرّم الحرام افتتاح سنة ثنتين وثمانين وألف.

وأمّا الشريف سعد، فكان قد مشىٰ عقب الحاجّ المصري إلىٰ ينبع وأقام به، فلمّا

بلغه ما صدر من حسن باشا من إلباس السيّد أحمد الحارث خلعة الشرافة، كتب إلى السيّد أحمد كتاباً سلك فيه مسلك مثله من الاعتراف بحقّ الأكبر مع مزيد اللطافة.

ومضمونه كما ذكره العصامي في تأريخه: وهو بعد مزيد الثناء، وحميد الدعاء: إنّ هذا الواقع الذي سمعنا به، من تقمّصك لبرد الملك وأثوابه، فهذا أمر أنت بيته الأعلىٰ، ومثلك أحرىٰ به وأولىٰ، فإنّك أنت الشيخ والوالد، الحائز لكلّ طريف من الكمال وتالد، فإن كان هذا بحكم الأساس والبنيان، جارٍ علىٰ مقتضىٰ مرسوم السلطان، فنحن بالطاعة أعوان، وإن كان الأمر خلاف ذلك، وإنّما كان من تسويلات هذا الظالم الغادر، وتنميقات ذلك المذمّم غير الظافر، فأجلّ حلمك أن تستخفّه نكباء الطيش، أو أن تستزّله أخلاط الأشاوب وغوغاء الجيش.

فأرسل إليه الجواب مولانا أحمد: بأنّ الأمر لم يكن علىٰ هواي وإنّما هو إلزام، مع علمي بأنّ هذا الابتداء لا يكون له تمام، والسلام[١]. إنتهىٰ ما ذكره العصامي.

وربما بلغ حسن باشا أنّ الشريف سعد قد زمّ جميع أحواله، وعزم علىٰ محاربته وقتاله، فزمهر للمسير إليه، والركوب عليه، فثبّطه السيّد أحمد عن ذلك، وسهّل له الأمر فيما هنالك، فترك الحركة واستقرّ وأقام بالمدينة.

واستمرّ إلىٰ أن وافاه القاصد بعزله، ونقض نسجه وغزله، فكفى الله سعداً أمره، إذ كفّ عنه مكائده وعذره، فرحل حسن باشا من المدينة، وصادف في طريقه حتفه ومنونه.

وتوفّي في طريق غزّة وتلك الجهات، ودفن في هاتيك الهامّة والفلوات،

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٢٤.

ووصل صحبة ذلك المقاصد خلعة للشريف، وحقيقتها ضرب من المكائد[١] .

ثمّ لمّا كان أواخر شهر ذيالقعدة من السنة المذكورة، قدم محمّد جاووش المتقدّم ذكره؛ لأنّه عاد إلىٰ مصر من جملة من عاد، ثمّ رجع هذه المرّة الثانية بنحو من خمسة آلاف من العساكر المصريين، ونصبوا خيامهم بالزاهر، واستمرّوا في مخيّمهم إلىٰ وصول الحاجّ الشريف، يدخلون مكّة في أثناء ذلك ثمّ يعودون .

وصول حسين باشا السلحدار إلىٰ مكّة :

وفي تلك السنة: وصل صحبة الحاجّ الشامي حسين باشا السلحدار بنحو ألفي شخص من العساكر، ودخل مكّة ليلة سبع من ذيالحجّة الحرام، ختام سنة ثنتين وثمانين وألف .

فخرج مولانا الشريف سعد يوم سبع المذكور للبس الخلعة على العادة، وإنّما كان بروزه لذلك من جهة الحجون، فوقف منتظراً لإرسالها إليه، وإفاضتها عليه، فأرسلوا إليه بالطلب للحضور، وأن يخاطر بنفسه الشريفة تحت هذا المحذور، فأبت شهامته الامتثال، فعاد إلىٰ مكّة عازماً على الحرب والقتال .

فلمّا تلوّحوا منه ذلك المرام، خشيوا علىٰ حجّاج بيت الله الحرام، فأرسلوا الخلعة خلفه بنهاية الإسراع، توقّياً من شرّه، وخشية من عذره، وأخّروا مرادهم إلىٰ ما بعد، ليتمّ لهم قبض الشريف سعد، ثمّ حجّ وحجّت الناس من غير مكروه وبأس .

وفي اليوم الثاني من منىٰ، وهو يوم بلوغ الآمال والمنىٰ: أرسل حضرة الشريف

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٢١ ـ ٥٢٤، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ٩٧ ـ ١٠٠.

سعد في طلب خلعة الاستمرار، والأمر السلطاني الذي يقرىء على رؤوس الأشهار، فامتنع حسين باشا عن ارساله، وأضمر على قبضه واعتقاله، فحاول حضرة الشريف الصولة عليه، بعساكره وعربانه المنضمّين إليه، ثمّ عدل عن ذلك وفرّ في تلك الليلة، وامتطى ركابه وخيله .

فما أصبح الصباح، إلاّ وقد ذهب وراح، وانقضت أيّام دولته، وعظيم هيبته وصولته، وكان خروجه ليلة ثالث عشر ذي الحجّة الحرام ختام سنة ثنتين وثمانين وألف، فكانت مدّة دولته ستّ سنوات إلاّ أحد وعشرين يوماً(١) .

وقد تقدّم أنّه ولي شرافة مكّة المشرّفة أربع مرار، وفي الرابعة توفّي إلى رحمة ربّه وسار :

فالدولة الأولى

هي التي قد مرّ بك تفصيلها، وأثبت وضيعها وجليلها، فدونكها روضة أريضة، وجنّة طويلة عريضة .

الدولة الثانية

هو أنّه ـ رحمه الله تعالى وأفاض عليه شآبيب غفران توالى ـ لمّا عزل عن الشرافة توجّه إلى الطائف، ثمّ ارتفع إلى عبّاسة، ثمّ إلى تربة، ثمّ الى بيشة وأقام بها، ثمّ سار منها إلى جهات عديدة .

ثمّ توجّه إلى الديار الروميّة وأقام بها، وخدم الدولة العليّة إلى سنة ألف ومائة وثلاث، فمنّت عليه الدولة بمنصبه، وأنالوه أسنى مقصده ومطلبه، وصاحب مكّة إذ ذاك ولده الشريف سعيد، فأرسل إليه والده خلعة ليكون قائم مقامه، إلى أن يأتي

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٢٦ ـ ٥٢٧، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٠٤ .

في سنته وعامه، أرسلها إليه في أثناء السنة المذكورة .

ثمّ وصل هو بنفسه صحبة الحاج الشريف في موسم ختام سنة ثلاث ومائة وألف، واستمرّ بها متولّياً إلىٰ يوم الجمعة سابع ذي الحجّة الحرام ختام سنة خمس ومائة وألف، أخرجه منها إسماعيل باشا أمير الحاجّ الشامي، ومحمّد باشا صاحب بندر جدّة، ووضعا بدله الشريف عبدالله بن هاشم، كما سيأتي، وكانت مدّة دولته هذه سنتين .

فصل
في حوادث دولته هذه

توجّه الشريف سعد لمحاربة قبيلة حرب :

ففي السنة الأُولىٰ، وهي سنة أربع ومائة وألف: توجّه مولانا الشريف سعد لمحاربة قبيلة حرب القاطنين بين الحرمين، وهي قبيلة عظيمة، إلاّ أنّها ملفّقة لم يذكرهم أهل علماء النسب، كصاحب نهاية الإرب في أنساب العرب[1]، ولا غيره، فقصدهم الشريف سعد إلىٰ مواضعهم مقاتلاً لهم .

وسبب ذلك: أنّهم قتلوا سابقاً السيّد عبدالله بن السيّد أحمد الحارث، فألزم الشريف سعد بالخروج إليهم وقتالهم واستئصالهم السيّد ناصر بن أحمد الحارث أخو المقتول، فخرج مولانا الشريف وجميع السادة الأشراف والعساكر والبادية .

ولمّا استقرّوا في ديرتهم، أرسلوا إلىٰ حضرة الشريف وبني أعمامه، يلتمسون منهم الصلح والقيام بما يجب لهم، فامتنعوا وثارت بينهم الحرب واستمرّت، ثمّ

---

(١) هذا الكتاب للعلاّمة أبي العبّاس أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله القلقشندي المتوفّىٰ سنة (٨٢١) هـ.

كانت الصولة لقبيلة حرب علىٰ مولانا الشريف وجيوشه، وعادوا إلىٰ مكّة .

وفي سنة خمس ومائة وألف: عاد إليهم مولانا الشريف سعد والسادة الأشراف بجيوش عظيمة لا تحصىٰ، ولم يزالوا سائرين إلىٰ أن اتّصلوا بهم، فثارت بينهم الحرب، وكانت للشريف سعد عليهم، وحصل بها المطلوب، وعادوا إلىٰ مكّة في غاية السرور[١] .

عزل الشريف سعد عن شرافة مكّة :

وفي موسم هذه السنة عزل الشريف سعد عن شرافة مكّة المشرّفة .

وسبب عزله: أنّه كان ببندر جدّة شخص يسمّىٰ محمّد باشا والياً من قبل السلطنة العليّة عليه، فعزل عنها، وفي أثناء ولايته وعزله وقعت بينه وبين حضرة الشريف أُمور أوجب المشاحّة والمباغضة بينهما، وصدرت منه سعايات في الشريف المذكور عند الدولة العليّة .

ثمّ توجّه إلى الأبواب العثمانيّة، واجتهد فيما هو بصدده، حتّىٰ غيّر خاطر الدولة عليه، وصمّمت علىٰ عزله، فبعثت محمّد باشا المذكور، وجردة من العساكر ليسير بهم إلىٰ مكّة المشرّفة صحبة الحاجّ الشامي، وعلى الحاجّ الشامي إسماعيل باشا أيضاً أميراً بعساكره وخيله، وأن تكون كلمتهما واحدة، ويتعاضدان ويتساعدان في عزل الشريف سعد، وتولية الشريف عبدالله بن هاشم أيالة أقطار الحجاز، فوصلا جميعاً إلىٰ مكّة المشرّفة .

فخرج مولانا الشريف سعد للبس الخلعة على المعتاد، وهو في غاية القوّة من العساكر والبادية والسادة الأشراف، فلمّا وقف في الموضع المسمّىٰ بالمختلع

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٧١ ـ ١٧٢ .

منتظراً للخلعة، تحرّكت عساكر إسماعيل باشا ومحمّد باشا، فعند تحرّكهم تحرّكت أيضاً عساكر الشريف، فأوشك أن تقع الفتنة بين العسكرين في ذلك الوقت.

فحين رأىٰ حضرة الشريف ذلك رجع إلىٰ مكّة، فلمّا حاذىٰ طوىٰ لحقته مراسيل إسماعيل باشا بالخلعة مع العذر له، لما لم يروا قتاله في ذلك الوقت صلاحاً، وأنّ التأخير في ذلك أولىٰ.

ولمّا كان اليوم السابع من ذي‌الحجّة: طلب إسماعيل باشا ومحمّد باشا السيّد عبدالله بن هاشم إلى الأبطح، وألبساه خلعة الشرافة، وتوجّها معه بالعساكر.

فلمّا بلغ الشريف سعد ذلك، حفظ داره وما حولها من البيوت والمنائر، وشحن الجميع بالعساكر.

فلمّا أقبل الشريف عبدالله والأُمراء والعساكر، منهم عساكر الشريف، فصدّوهم[1] عن النزول، فتراسل الرمي بالرصاص من الفريقين، واستمرّ من ضحوة ذلك اليوم إلىٰ مضي نصف الليل من ليلة ثمان، فخرج الشريف سعد بعد أن رفع جميع أوباشه، وتوجّه إلىٰ جهة اليمن.

وفي صبح يوم ثمان: نودي للشريف عبدالله المذكور، وأمنت البلاد[2].

القبض على الوزير عثمان حميدان:

وفي هذا الشهر: بعد النزول من منىٰ، قبض محمّد باشا على الوزير المكرّم عثمان بن زين العابدين حميدان وزير الشريف سعد.

وسبب ذلك: أنّه كان بينه وبين هذا الوزير مشاحنات في أيّام أيالته لبندر جدّة،

---

(١) في «ن»: فصدّهم.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٧٨ ـ ١٧٩.

فأسرّها في نفسه ولم يبد له شيئاً من ذلك، وكان يتعاطي خدمته وخدمة إسماعيل باشا، ويتردّد عليهما لقضاء حوائجهما، وعند قرب سفرهما تواطئا علىٰ قتله، فأرسلا إليه وطلباه، واعتقلاه في خيمة من خيام العسكر، ودرّكابه[١] شخصان[٢] من كبار العسكر، وأمراه أن يأتي به إليهما بعد مضي ستّ ساعات من الليل ليقتلانه .

فلمّا جزم بالهلاك، إشتدّ به الحال، وآيس من الحياة، فاستند إلىٰ صندوق في الخيمة وهو يفكّر في حاله، فمضىٰ جانب من الليل وهو علىٰ هذه الحالة .

فبينما هو كذلك وإذا الرجل الموكّل به منكبّ علىٰ وجهه يصيح مدد مدد، فحرّكه بيده وناداه باسمه مراراً، فلم يجبه، فعظم روعته، ثمّ عمد إلىٰ إبريق وأخذه بيده ليبول ثمّ يعود .

فلمّا خرج عن الخيمة، خيّل له أنّهم الآن ينتبهون ويعيدونه بغلاظة وإهانة، فعزم على العود، فأحسّ عند ذلك بدافع يدفعه إلىٰ قدّام، مع زوال ما كان به من الارتياع، ووقدة[٣] جميع الحرّاس المحيطين بالخيمة، فتقدّم ومشىٰ، ولحقه غلام كان له كان معه، إلىٰ أن اتّصل بجدار المعلاّة، ثمّ قفز من الجدار إلىٰ داخل المقبرة، واختفىٰ ببعض المحالّ المقاربة لقبّة السيّدة خديجة رضي الله عنها .

فانتبهت الحرّاس، وأوقدوا المشاعل، وفزعت الخيل والعساكر خلفه وهو يشهدها، فلمّا غابت عنه وزال وهمه قام ومشىٰ في المقابر، وخرج من باب تربة

---

(١) كذا في النسختين، ولعلّ الصحيح: وبركابه .

(٢) في «د»: شخصاً .

(٣) في «ن»: ورقدت .

الشيخ محمّد بن سليمان.

ثمّ أخذ طريق قلق عبدالمطّلب بن هاشم، ثمّ إلىٰ وادي قضا[١]، ثمّ إلى المسجد الحرام، ثمّ إلىٰ بيت الشريف عبدالله بن هاشم شريف مكّة حالاً، فأخفاه، فأصبح الأميران يدوران عليه، ثمّ انحلّت القضية بدفع مال عظيم، وأنجاه الله تعالىٰ من ذلك الواقع، أخبرني جمع من الثقات بذلك نقلاً عنه من فيه[٢].

الدولة الثالثة

لمّا عزل عن الشرافة توجّه إلىٰ جهة اليمن، وأقام به وجمع بادية، ثمّ أتىٰ بهم وقاتل الشريف عبدالله بن هاشم وأخرجه منها، ودخل في سابع ربيع الثاني من سنة ستّ ومائة وألف.

ولمّا استقرّ بها كتب إلى الدولة عرضاً يعتذر إليهم فيما صدر منه، ويلتمس إبقاه في منصبه، فأجابته الدولة إلىٰ مرامه، واستمرّ متولّياً إلىٰ يوم الجمعة تاسع عشر شهر ذيالقعدة الحرام سنة أربع عشرة ومائة وألف، نزل بها لولده الشريف سعيد في اليوم المذكور، وكانت مدّة دولته سبع سنين وسبعة أشهر واثناعشر يوماً.

فصل

في الحوادث الواقعة في مدّة دولته هذه

تغلّب الأعراب على البصرة:

ففي سنة ستّ ومائة وألف: تغلّبت الأعراب على البصرة، ورئيسهم مانع رئيس

---

(١) في «ن»: شظا.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٨٤.

بني المنتفك[١]، فأخرجوا من كان بها من قبل الدولة العثمانيّة، وقتلوا الأمير حسن آغا وأخاه سرحان باشا أمير الحاجّ العراقي، ثمّ بعد استيلاء مانع وقومه على البصرة أخذتها من أيديهم أشراف الحويزة[٢] وباديتها، ورئيسهم إذ ذاك السيّد الشريف المعظّم السيّد فرج الله الحسيني[٣].

ثمّ أرسلوا إلىٰ سلطان العجم يعرّفونه بذلك، ويطلبون منه أن يبعث أميراً لحفظها، فبعثوا إليها أميراً.

ثمّ أرسلوا إلى الدولة العثمانيّة يخبرونهم بما صار، ويعرّفونهم أنّنا قد أرسلنا من طرفنا من يحفظها بطريق النيابة عنكم، فابعثوا من يسلّمها؛ لأنّهم كان بينهم في

---

(١) قبيلة كبيرة عرفوا باسم أبيهم المنتفق بن معاوية بن عامر بن عقيل، نزلوا حوالي بصرة، وكانت زعامة البصرة وحواليها علىٰ أيديهم.

(٢) وهم الموالي المشعشعيون، من أعقاب المولىٰ محمّدالمهدي المشعشعي، حكموا الحويزة وما والاها عدّة سنين، وكان أعظمهم شأناً، وأجلّهم نبلاً، هو المولىٰ محسن المشعشعي، فقد حكم الحويزة والبصرة وحواليهما ما يقرب من خمسين سنة.

(٣) هو السيّد فرج الله بن السيّد علي خان حاكم الحويزة، حكم الحويزة بعد أخيه السيّد عبدالله خان سنة (١٠٩٨) وجرت بينه وبين أقاربه منازعات يطول شرحها، واستقرّ له حكم الحويزة، وذلك في عهد الشاه سليمان الصفوي، وصدر له فرمان من الشاه حسين بتاريخ سنة (١١٠٤) يصفه بعالي جاه عمدة الولاة العظام للسيادة والأيالة والشوكة والجلالة والاقبال السيّد فرج الله خان والي عربستان، وكانت مدّة حكمه سنتين، ثمّ عزل وعيّن ولده السيّد عبدالله، وملك المترجم البصرة سنة (١١٠٩).أعيان الشيعة ٨: ٣٩٦.

ذلك الزمن محاسنات وملاطفات .

وفي سنة سبع: أُعطي إسماعيل باشا المتقدّم ذكره مصر[١] .

وفاة عبدالله أفندي عتاقي زاده :

وفي سنة ثمان: توفّي العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، شيخ الإسلام، ومفتي بلد الله الحرام، عبدالله أفندي بن شمس الدين عتاقي زاده، وكانت ولادته عام تسعة وأربعين وألف .

قال صاحب لسان الزمان: وكان من أجلاّء العلماء، طلب العلم وجدّ واجتهد، ولازم الشيوخ، ثمّ ولي إفتاء مذهب الإمام أبي حنيفة بمكّة المشرّفة، وكان ذاسمة ووقار وبهاء، وأخلاق حسنة، كثير التواضع لعامّة الناس وخاصّتهم، كثير التحرّي في الفتوىٰ .

وهو أوّل من حضرت مجلسه من العلماء وأنا صبي صغير بالطائف، وكان يقرأ في بعض كتب الحديث، ويشرح ذلك شرحاً حسناً بسكينة ووقار، وكان فقيهاً جيد المعرفة في الفقه، وله مشاركة في سائر العلوم، وأُعطي السعادة والرئاسة والقبول عند الأكابر ما لم يعطه أحد[٢] .

المطر والسيل العظيم بمكّة :

وفي هذه السنة: حصل بمكّة مطر عظيم، وسيل كبير، دخل المسجد الحرام، واعتلىٰ إلىٰ باب الكعبة الشريفة، وامتلأ المسجد الحرام، فاجتهد أهل مكّة خاصّة وعامّة في نزح ذلك الماء، وإخراج الأوساخ، واستمرّت الفعلة في إخراج التراب

---

(١) في «ن»: بمصر .

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٢٠٣ .

وتنظيف المسجد أربعة أشهر، وأُدخلت الدوابّ إلى المسجد الحرام[١].

وفاة الشيخ أحمد القطّان:

وفي سنة تسع ومائة وألف: توفّي الشيخ الجليل العلاّمة الشيخ أحمد القطّان المكّي.

قال صاحب لسان الزمان: ولد بمكّة المشرّفة، ونشأ بها، وجدّ واجتهد، وكان ذا فهم ثاقب، وذكاء مفرط، استقلّ علىٰ أجلاّء الشيوخ، وشارك في سائر العلوم المتداولة، وتصدّر للتدريس، فأخذ عنه الطلبة، وانتفعوا به في سائر العلوم، وكان من التواضع والديانة علىٰ جانب عظيم. إلىٰ آخر ما ذكره ملخّصاً[٢].

توجّه العساكر العثمانيّة إلى البصرة:

وفي هذه السنة: وجّهت السلطنة العثمانيّة إسماعيل باشا بعد عزله عن مصر، ومحمّدباشا المذكور سابقاً، بعساكر عظيمة إلىٰ جهة البصرة، لتغلّب البادية علىٰ أميرها من قبلهم، واستيلائهم علىٰ أطرافها، فسارا وأخذا البصرة، وجرت بينهما وبين البادية حروب عظيمة.

وفاة الشيخ عبداللطيف الشيبي:

وفي سنة عشر ومائة وألف: توفّي الشيخ الجليل ذو القدر السامي النبيل، عمدة الخاصّ والعامّ، وفاتح بيت الله الحرام، الشيخ عبداللطيف بن الشيخ عبدالواحد الشيبي القرشي. توفّي في حياة والده الشيخ عبدالواحد، وأعقب ابنين، وهما: الشيخ محمّد، والشيخ عبدالقادر.

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٢٠٢.

(٢) لسان الزمان لابن عقيلة مخطوط لم أظفر عليه.

وفاة الشيخ عبدالملك العصامي :

وفي سنة إحدىٰ عشرة ومائة وألف: توفّي الشيخ الجليل الفاضل الأديب الشيخ عبدالملك بن جمال الدين العصامي صاحب التأريخ المشهور بأرض الحرمين الذى ننقل منه في بعض المواضع من هذا التأريخ[١] .

ولقد ترجمه[٢] صاحب السلافة، فقال: هو عبدالملك بن جمال الدين بن صدرالدين بن عصام الدين الاسفرائيني المشهور بالملاّ عصام، صاحب الحاشية على الشرح الجديد على الكافية، والأطول الذي عارض به المطوّل، وغيرهما من التصانيف المفيدة، والتآليف السديدة .

وعبدالملك هذا إمام العلوم العربيّة وعلاّمها، والمنشورة به في الخافقين أعلامها، والسالك أوضح مسالكها، والمالك لأزمّتها وابن مالكها، ورد عذب الفضل نهلاً وعلاً، وفاز من سهامه بالقدح المعلّىٰ، فجدّد مغنى العلم الدريس .

ونصب نفسه للإقراء والتدريس، واشتغل بالتصنيف والتأليف، وتخلّى عن كلّ أنيس وأليف، حتّىٰ بلغت مؤلّفاته الستّين، من شرح مفيد ومتن متين، فلقّب بخاتمة المحقّقين، وعدّ من أرباب الفضل واليقين، إلىٰ زهد وصلاح، وتقوىٰ أشرق نورها في أُسرة وجهه ولاح، وإلمام بالأدب وافر، طلع في أُفق الاحسان بدره المسافر، إلاّ أنّه قلّ ما أعار ذهنه وفكره، غير مسائل العلم التي خلدت في صحائف الأيّام ذكره، فمن نظمه قوله مضمّناً :

أهدي لمجلسه الكريم ... فرائداً تهدىٰ إليه

---

(١) وهو كتاب سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي .

(٢) في «د»: ترجم جدّه، وهو غلط وتحريف .

كالبحر يـمطره السـحا ب ولا له فضل[١] عليه

إلىٰ آخر ما قاله صاحب السلافة[٢]، ولم يذكر انتقاله إلىٰ رحمة ربّه وانصرافه، والسبب أنّه كان في قيد حياته، حين جمع ابن معصوم لسلافته[٣].

حصول وباء عظيم بمكّة :

وفي سنة اثنتي عشرة ومائة وألف: حصل بمكّة وباء عظيم، حتّىٰ أنّه لم يبق بيت إلاّ وقد دخله، ولكن من لطف الله أنّ الموت كان قليلاً[٤].

غزوة عنزة :

وفي هذه السنة: أقبل أمـير الحـاجّ الشـامي حسـن بـاشا بـجيوش عـظيمة لاستئصال قبيلة عنزة، لما صار منهم في السنة التي قبلها، فحجّ ثمّ سار راجـعاً، وفي رجوعه اجتمعت له عنزة ببكرة أبيهم، فحصل بينه وبين عنزة قتال عـظيم، فكسروا حسن باشا، ونهبوا غالب الحاجّ، بل لم يبق منه إلاّ النزر اليسير.

وفاة العلاّمة أحمد أفندي منجّم باشي :

وفي سنة ثلاث عشرة ومائة وألف: توفّي رئيس المحقّقين، وسلطان المدقّقين، العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، أحمد أفندي الشـهير بـالمنجّم بـاشي[٥]، قـاله

---

(١) في السلافة: منٌّ.

(٢) سلافة العصر ص ١٢٢ ـ ١٢٤.

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٢١٩.

(٤) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ٢٢٠.

(٥) هو العلاّمة أحمد بن لطف الله السلانيكي الرومي المولوي الصديقي، المعروف ⇩

صاحب لسان الزمان.

ورأيت في موضع آخر بخطّ بعض الأفاضل: إنّه توفّي في سنة ستّ عشرة ومائة وألف، والله أعلم بالحقيقة.

قال: وكان هذا الرجل أُعجوبة من عجائب الدهر، وفريدة من فرائد العصر، وهو من الأروام، جدّ واجتهد في طلب العلم، وقرأ علىٰ يحيىٰ منقاري زاده، وغيره من أكابر العلماء، وصارت له يد طولىٰ في علم المعقول والحكميات والطبّ.

وأمّا الفلك والتنجيم، فكان فريد دهره، ووحيد عصره. وكذلك كانت له اليد الطولىٰ في علوم العربيّة، مثل النحو والصرف والمعاني والبيان، واتّساع في الأدب، ومعرفة أشعار العرب، وتبحّر في علم التأريخ وأخبار الأُمم السالفة.

واختصّ بصحبة السلطان محمّدخان بن إبراهيم خان، ولازمه نحواً من عشرين سنة، وكان من خواصّ جلسائه وندمائه، ومحترماً لديه مقبولاً عنده.

إلىٰ أن قال: وكان خفيف الروح، لطيف الشمائل، كثير التواضع، حجّ في أيّام السلطان محمّد وهو في رئاسته، ورجع إلىٰ اصطنبول، ثمّ عاد مرّة ثانية، فأقام

ـــه بالمنجّم باشي، مؤرّخ مشارك في بعض العلوم، تولّىٰ مشيخة زاوية المولويّة بمكّة، وتوفّي بها في ٢٩ رمضان سنة (١١١٣) هـ. من تصانيفه: وسيلة الوصول إلىٰ معرفة الحمل والمحمول، جامع الدول في التاريخ، شرح كتاب الأخلاق للقاضي عضدالدين، صحائف الأخيار في التاريخ، وفيض الحرم في آداب المطالعة.

أقول: وعندي نسخة مصوّرة كاملة من كتابه جامع الدول في التاريخ بخطّ مؤلّفه في مجلّدين ضخمين جدّاً، ما رأيت في كتب التاريخ أبسط وأجمع وأشمل منه، تعرّض لتاريخ جميع الأُمم والمماليك والدول إلىٰ سنة وفاته.

بالمدينة المنوّرة، فأخذ عنه جماعة من أهلها وانتفعوا به، ثمّ أتىٰ إلىٰ مكّة شرّفها الله، فصحبته وجالسته، وقرأت عليه بعض الكتب، وانتفعت به، وله حواشي كثيرة نفيسة علىٰ كتب المعقول والعربيّة وغير ذلك. إنتهىٰ ملخّصاً من لسان الزمان.

قلت: وقد رأيت له تعليقة على الحديث الشريف، وهو قوله صلى الله عليه وآله «إنّي تارك فيكم خليفتين: كتاب الله تعالىٰ، حبل ممدود بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، وإنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض» الحديث. وفي بعض الروايات زيادة: فاعرفوا[١] كيف تخلفوني فيهما[٢].

قال رحمه الله: وقد نقلها سيّدي الوالد دام فضله من خطّه رحمه الله، ومن خطّه نقلت، لا يخفىٰ أنّ في هذا الحديث الشريف مواضع ينبغي للناظر المتبصّر أن يقف فيها حتّىٰ يقف علىٰ ما فيها من النكات والمزايا:

أوّلها: تصدير الكلام بالجملة الإسميّة المؤكّدة بكلمة «إنّ».

ثانيها: وجه نصب الخليفتين، وعدم الاكتفاء بواحدة منهما.

ثالثها: أنّ الظاهر من خلافة الكتاب أن تكون في إفادة الأحكام الشرعيّة الاعتقاديّة والعمليّة، وسائر ضروريات الدين.

---

(١) كذا، ولعلّ الصحيح: فانظروا، كما في روايات القوم.

(٢) رواه القندوزي بهذه الكيفيّة في ينابيع المودّة ١: ١٢٠ برقم: ٤٥ عن الطبراني في الكبير برجال ثقات، والمعجم الكبير للطبراني ٤: ١٥٤ حديث: ٤٩٢٢، وجواهر العقدين للسمهودي ٢: ١٧١، وجنى الجنّتين للمحبّي ص ٤٧، ومفتاح النجا للبدخشي ص ٣ مخطوط، وهو حديث متواتر جدّاً رواه الفريقين في كتبهم، راجع تفصيل ما رواه العامّة في كتبهم إلىٰ كتاب إحقاق الحقّ ٩: ٣٠٩ ـ ٣٧٥.

وأمّا خلافة العترة، ففيها احتمال إلىٰ أُمور :

منها: كونها في بيان ما خفي من أحكام الكتاب، وتوضيح مشكلاته .

ومنها: أن يكون في إجراء الأحكام بين الأُمّة .

ومنها: تعليم الأخلاق المحمّدية، والصفات الأحمديّة، بطريق الحال لا المقال، وعلىٰ سبيل الإرادة دون الرواية .

ومنها: الوقوف علىٰ أسرار النبوّة وباطن الشريعة .

ومنها: المحبّة الخالصة التي تجب علىٰ كلّ مؤمن؛ لأنّ أصل الإيمان إنّما يحصل بتصديق النبيﷺ في جميع ما جاء به، وكمال الإيمان إنّما يحصل بالمحبّة الخالصة في حقّه، كما نطق به بعض الأحاديث الشريفة، فتكون المحبّة لتلك الخليفة عين المحبّة في حقّه عليه الصلاة والسلام .

رابعها: تشبيه كتاب الله تعالىٰ بالحبل، ثمّ وصفه بكونه ممدوداً بين السماء والأرض .

خامسها: تأكيد العترة بأهل البيت .

سادسها: تعليق النجاة عن الضلال بالتمسّك بهما جميعاً، وهذا يشعر بأنّ كلّ واحدة من الخليفتين في أمرٍ غير ما استخلف فيه الأُخرىٰ، وإلاّ قيل: بأيّهما أو بأحدهما .

سابعها: تعقيب هذا الكلام بعد تمامه بقوله «وإنّهما لن يفترقا» الخ، ووجه ارتباطه بما سبق .

ثامنها: إثباته بجملة إسميّة مؤكّدة، بأنّ خبرها جملة فعليّة منفية بأداة دالّة علىٰ تأكيد النفي .

تاسعها: تخصيص الحوض بالذكر من بين سائر المواضع .

عاشرها: ما وقع في الزيادة المرويّة من قوله «فاعرفوا» الظاهر منه أن يكون للتنبيه، فعلىٰ أيّ شيء نبّه وما قصد بقوله «كيف تخلفوني فيهما» .

والحادي‌عشر: أنّ العترة إن أُريد بها معناها الحقيقي علىٰ ما يقتضيه التأكيد بأهل بيتي، كان الحديث نصّاً في خلافة أهل البيت عليهم‌السلام ، وهذا خلاف ما عليه أهل السنّة. وإن أُريد بها المعنى المجازي، كان التأكيد لغواً، بالنظر إلىٰ ما هو الأغلب في التأكيد؛ إذ الغالب فيه دفع توهّم المجاز، وكلامه عليه الصلاة والسلام مبرىءٌ عن الاشتمال على اللغو .

والثاني‌عشر: أنّ هذا الحديث الشريف يدلّ بطريق المفهوم علىٰ وعيد عظيم، وهو أنّ من لم يتمسّك بشيء من الخليفتين، أو تمسّك بأحدهما ولم يتمسّك بالأُخرىٰ يقع في الضلال ولا ينجو منه، مع خفاء ما هو المراد من الخليفة الثاني؛ إذ لولم يكن فيه خفاء لم يقع الخلاف بأنّ المراد من العترة هل هو المعنى الحقيقي كما يقتضيه التأكيد، أو المعنى المجازي كما يقتضيه ما اتّفق عليه أهل السنّة، والله تعالىٰ أعلم .

رحم الله تعالىٰ من يكشف القناع، ويرفع الحجاب عن وجوه هذه النكات الجليلة، ويزيل ظلمة الشبهة بالتنوير والتوضيح، ومن الله التوفيق للتحقيق. انتهت الرسالة المشار إليها، وهي تدلّ علىٰ تمكّن عظيم في علم العربيّة وغيره رحمه الله تعالىٰ .

وصول الأمر السلطاني بقراءة حديث بدء الوحي :

وفي هذه السنة: وصل الأمر الشريف السلطاني من حضرة السلطان مصطفىٰ، بأن يحصل مجمع بالمسجد الحرام في ليلة السابع عشر من شهر رمضان، ويقرىء فيه حديث بدء الوحي، ثمّ ينتقلون جميعاً إلى الحطيم ويفتح البيت الحرام، ويقف

الشيبي ويدعو لحضرة السلطان، ثمّ تفاض عليهم الفراء السمامر[١] على الشريف، وعلىٰ قاضي الشرع الشريف، وعلىٰ مفتي الحنفية بمكّة المشرّفة البهيّة، وعلىٰ فاتح بيت الله الحرام، وعلىٰ شيخ الحرم الشريف، وأصواف وقفّاطين على القارىء والإمام والخدمة والمباشرين، وصرر من الدراهم، ويمدّ لهم الحلوىٰ وماء السكّر والسموم.

جملة المنصرف في تلك الليلة أربعة آلاف قرش إلاّ قليل، وحضر في تلك السنة الشريفة سعد شريف مكّة وسليمان باشا، ولم يزل مستمرّاً.

وفاة الشيخ حسن العجيمي المكّي:

وفي ثالث شوّال من هذه السنة: توفّي الشيخ الجليل، والمقام العالي النبيل، عمدة العلماء الأعلام، وقدوة فضلاء الإسلام، العلاّمة الفهّامة، صدرالدين أبوعلي الشيخ حسن بن علي العجيمي المكّي.

قال صاحب لسان الزمان: وكان آية في الذكاء والفهم، وسرعة الجواب، وكثرة الاستحضار، لم أر فيمن رأيت أفصح عبارة منه، ولا أجود بياناً إذا تكلّم، فكان ألفاظه الدرّ النضيد.

ولد بمكّة رحمه الله تعالىٰ، وطلب العلم، وجدّ واجتهد، ثمّ توجّه إلى المدينة المنوّرة، فصحب بها العارف بالله الكبير، والولي الشهير، الشيخ أحمد بن محمّد القشاشي، وأخذ عنه العلوم الظاهرة والباطنة، ولقّنه الذكر، وألبسه الخرقة، وأجازه

---

(١) الفراء جمع الفرو: شيء كالجبّة يبطّن من جلود بعض الحيوانات كالأرانب والسمّور. والسمامير جمع السمّور: حيوان برّي يشبه ابن عرس وأكبر منه، لونه أحمر مائل إلى السواد، تتّخذ من جلده فراء ثمينة، وربما أُطلق السمّور علىٰ جلده.

بالإجازات العامّة والخاصّة في جميع ما يجوز له أن يرويه عن مشـايخه، وقـرأ عليه كثيراً من كتب الأسماء والخواصّ .

ثمّ رجع إلىٰ مكّة، فلازم بها الشيخ العـلاّمة الفـهّامة الشـيخ عـيسى المـغربي الجعفري، وأخذ عنه، وانتفع به، وصحب السيّد العارف بالله الكبير الشهير، السيّد عبدالرحمٰن المحجوب المغربي وانتفع به، ثمّ تصدّر للإقراء والتدريس بالمسجد الشريف، فانتفع الناس به .

إلىٰ أن قال: والحاصل أنّه كان إماماً في سائر العلوم المتداولة، مع جودة الذهن، وذكاء الخاطر، ورحل في آخر عمره إلى الطائف وأقام به، وتوفّي فيه ودفن به. إنتهىٰ ملخّصاً .

نزول الشريف سعد عن الشرافة لولده سعيد :

وفي يوم الجمعة تاسع عشر ذيالقعدة الحرام من سنة أربع عشرة ومائة وألف: نزل مولانا الشريف سعد المشار إليه لولده الشريف سعيد بن سعد بشرافـة مكّـة المعظّمة، كما تقدّم بيانه .

الولاية الرابعة

هو أنّه لم يزل مع ولده مجلّلاً مكرّماً، إلىٰ أن ثارت الفتنة بين ولده والسـادة الأشراف، إلىٰ أن أخرجوه منها، كما سيأتي ذلك في ترجمة ولده إن شاء الله تعالىٰ، فنابا مدّة ثمّ افترقا .

ثمّ وصل مولانا الشريف سعد إلىٰ مكّة ببادية اليمن علىٰ عقبة الطائف، ودخلها ضحىٰ نهار الاثنين سلخ شهر رمضان سنة ستّ عشرة ومائة وألف، وأخرج من بها من طرف الشريف عبدالكريم بن محمّد الآتي ذكره في ترجمته .

واستمرّ إلىٰ غروب شمس يوم الخميس ثامن عشر شهر شوّال، وكانت مدّته

ثمانية عشر يوماً، وتوفّي إلىٰ رحمة الله في الليلة التاسعة عشر من الشهر المذكور، وأُتي به إلىٰ مكّة المشرّفة من أطراف المعابدية[1] لأنّه مات بها، وغسّل وكفّن ودفن بقبّة السيّد أبي طالب بن حسن، رحمه الله رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأئمّة الأطهار.

وكانت مدّة ولايته الأربع خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وتسعة أيّام مفرّقة كما رأيت، وقد صار من البادية الذين دخل بهم مكّة المشرّفة في هذه الدولة الأخيرة نهب شنيع، وفعل فضيع، يدخلون بيوت أهل مكّة كأنّها بيوتهم، وينهبون جميع ما فيها، وأهل البيوت واقفون يرون ولا يقدرون علىٰ مدافعتهم.

ثمّ في اليوم الثاني وما بعده يدورون بهذه الأوباش المأخوذة في سوق مكّة المشرّفة، ويبيعونها علىٰ أهلها.

وأعجب من ذلك: أنّهم إذا فهموا أنّ هذا المشتري صاحب الحاجة المبتاعة، منعوا من البيع عليه لو أعطاهم مثليها، حتّىٰ وقع بهم قضاء الله في دخول الشريف عبدالكريم كما سيأتي، وقتلوا قتلاً شنيعاً، كما ستقف عليه في ترجمة الشريف عبدالكريم إن شاء الله تعالىٰ، ونسأله التوفيق.

ترجمة الشريف بركات بن محمّد بن إبراهيم بن بركات ابن أبي نمي صاحب مكّة المشرّفة

قلت: قد تقدّم في آخر ترجمة الشريف سعد الأُولىٰ، وصول محمّد جاووش بتلك العساكر المصريّة، وإقامتهم بالزاهر، إلىٰ أن وصل حسين باشا أمير الحاجّ الشامي، ختام سنة ثنتين وثمانين وألف.

---

(١) في «ن»: العابدية.

ثمّ صارت تلك الرجّة يوم لبسه للخلعة، وعوده إلىٰ مكّة راجعاً، ثمّ إلحاقه الخلعة، خشية منهم عن وقوع فتنة تذهب بواسطتها الأُمّة، وكان مقصدهم أيضاً قبضه، وتعذّر عليهم ذلك، فرأوا تأخير ذلك إلىٰ منىٰ ليحلقوا علىٰ بيته ويقبضوه، فلمّا فهم ذلك سرىٰ ليلة ثاني عشر ذي الحجّة الحرام، ولم يصبح إلاّ أثره، كما تقدّم تفصيل ذلك .

قال العصامي: ولمّا كان ظهر اليوم الثاني عشر، حضر حسين باشا، ومحمّد جاووش، وأكابر الدولة، وأُمراء الحاجّ، واستدعوا جماعة من الأشراف، منهم: مولانا المرحوم السيّد أحمد بن محمّد الحارث، ومولانا السيّد بشير بن سليمان، ومولانا الشريف بركات بن محمّد، وأظهروا أمراً سلطانياً بصريح اسم مولانا الشريف بركات بن محمّد في شرافة مكّة المشرّفة، وأنّها تحت تصرّفه، وأُلبس خلعة الولاية في ذلك الجمع .

ونزل إلىٰ مكّة في موكبٍ يبهر العين، ويدهش السمع، ونزل إلىٰ بيت أبيه المعروف بزقاق ظاعنة، ووقفت علىٰ بابه الخيول صافنة، وهرعت السادات إليه والأعيان، والحضر والعربان، يهنّؤونه بالملك والولاية، ويدعون له بطول البقاء والثبات بتوفيق العناية .

فأرّخ بعضهم عام ولايته بقوله نثراً ما نصّه «بارك الله لنا في بركات» إلاّ أنّه لسنة ثلاث وثمانين، والتولية إنّما كانت في موسم اثنين وثمانين، لكن التفاوت زيادة سنة، أو نقصها عند أهل التأريخ مغتفر [١]. إنتهىٰ ما ذكره العصامي .

وقال في موضع آخر: قيل: إنّ ولايته كانت بسعي الشيخ محمّد بن سليمان

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٢٧ .

المغربي السوسي، وذلك أنّ الشيخ المذكور تشفّع عند الشريف سعد في رجل أُزبكي كان يسمّىٰ السيد محمّد الفصيحي، فعل جرماً مع مولانا الشريف سعد، فلم يشفعه فيه، وذلك في سنة ثمانين وألف.

فاتّفق أنّ أخا الوزير الأعظم حجّ في موسم تلك السنة، وكان له ولعٌ في علم[1] الفلك، فاجتمع بالشيخ محمّد بن سليمان المذكور، فأخذ عنه، وطلب من الشيخ أن يسافر معه إلى الأبواب السلطانيّة، فسافر معه، واجتمع بالسلطان، وطلب منه أن يزيل أشياء كانت بمكّة المشرّفة، فأمر السلطان بإبطالها.

منها: أنّ صدقة السلطان جقمق كانت تقسّم علىٰ أرباب البيوت حبوباً، وكانت سابقاً تطبخ شربة وخبزاً للفقراء أصحاب القدح، فردّت إلىٰ ما كانت عليه سابقاً، وأُضيف إلىٰ ذلك حبّ السلطان قايتباي.

ومنها: توليته علىٰ جميع الأربطة، وأن لا تكون إلاّ لمن يستحقّها بشرط الواقف.

ومنها: إبطال الدفوف في الزوايا.

ومنها: منع النساء من الخروج ليلة المولد الشريف، وتمّ جميع ذلك، وجعله ناظراً علىٰ جميع أوقاف الحرمين[2]. إلىٰ آخر ما ذكره. إنتهىٰ.

وفي هذا الموسم: وصل صحبة حسين باشا كتابان للسيّد حمّود بن عبدالله المتقدّم ذكره:أحدهما من الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلي، والآخر من صاحب مصر. وكتابان آخران منهما إلى السيّد الشريف أحمد بن محمّد الحارث، ومثلهما

---

(١) في السمط: بعلم.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٢٩ ـ ٥٣٠، وراجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٠٧.

للسيّد بشير[١] بن سليمان .

فأمّا كتاب السيّد حمّود من حضرة الوزير المذكور، فلفظه: فرع ذؤابة هاشم، ونبعة وشيج المحامد والمكارم السيّد حمّود، نظم الله عقوده، وأباد حسوده آمين. وبعد: لا يخفاكم[٢] أنّ الكعبة البيت الحرام، ومطاف طواف الإسلام، هو أوّل بيت وضع للناس، وأُسّس على التقوىٰ منه الأساس، وأنّه لم يزل في هذه الدولة العثمانيّة آمناً وأهله من النوائب، وروضاً مخصباً بأحسن الأطائب، إلىٰ أن ظهر من السيّد سعد من الأمر الشنيع، ما يشيب عنده الطفل الرضيع، وماكفاه ذلك حتّىٰ شدّد الخناق علىٰ أهل المدينة البهيّة، وأذاقهم كأس المنون رويّة .

فلمّا بلغ هذا الحال السمع الكريم السلطاني، أمر بعزل السيّد سعد عن شرافة مكّة، وتفويضها إلى الشريف بركات، ليعمل فيها بحسن التصرّفات، وتكونوا له عوناً[٣] وظهيراً، وناصحاً ونصيراً[٤]، وكلّ من يتفرّع غصنه من دوحة فاطمة الزهراء عليها السلام، وتتّصل نسبته إلى الذرّية الغرّاء، تهدونه إلىٰ طريق الصلاح[٥]، وترشدونه إلىٰ معالم النجح والفلاح، وأنتم علىٰ ما تعهدونه من التكريم والتبجيل، والله علىٰ ما نقول وكيل[٦] .

---

(١) في «ن»: شبير .

(٢) في السمط: فلا يخفىٰ عليكم .

(٣) في السمط: معيناً .

(٤) في السمط: ومشيراً .

(٥) في السمط: طريق الخير والصلاح .

(٦) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٢٧ ـ ٥٢٨ .

وأمّا بقيّة الكتب، فكلّها بهذا المضمون، غير أنّ العبائر مختلفة، فلا حاجة إلى التطويل بنقلها، ففي هذا كفاية، مع كونها ليست بجيّدة النثر، كما تراه.

فصل

في ذكر الحوادث الواقعة في أعوام دولة هذا الملك الهمام

مع ذكر وفيات بعض الأفاضل ممّا ساق إليه الاطّلاع، وتفصيل شيء من أحوالهم وأقوالهم، مع إيراد لمعٍ من فتوحات هذا الملك، وقطع من أحواله وأقواله ونوادره وقضاياه.

خروج الشريف بركات لإبعاد الشريف سعد:

ففي سنة ثلاث وثمانين وألف: خرج مولانا الشريف بركات لإبعاد الشريف سعد من نواحي الشرق وتلك الجهات؛ لأنّ الشريف سعد كان لمّا توجّه من مكّة المشرّفة بعد تعريته من حلل شرافتها المفوّفة، قصد الطائف وناسه، ثمّ ارتفع إلىٰ عبّاسة، فقضىٰ منها إربه، ثمّ قصد تربة، ثمّ مقتضيات المعيشة، طوّحت به بلدة بيشة، فامتار منها، ثمّ بان عنها، ولم يزل طلوع الهمّة الهاشمية، إلىٰ أن سنمته غارب السعادة بالديار الرومية[1].

وأمّا حضرة مولانا الشريف بركات بن محمّد، فشمّر عن ساق اجتهاده، وأروىٰ في قطع دار آل زيد عن بلاده، وقدح زناده، حتّىٰ فرّقهم شذر بذر، ولم يبق أحداً من أتباعهم ولم يذر، وتزلّ إلىٰ نفي بعض أهل الأسباب ممّن كان ينسب إلىٰ تلك الأبواب، من ساقطٍ لا يلتفت إليه، ولا يعوّل في المهمّات عليه.

وعلىٰ هذا الريح نشر قلاع فلكه، في بحار خلافته وملكه، فبرح من البلاد بعد

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٠، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٠٨.

تمهيدها، وتأطيد مباني الخلافة وتشييدها، خلف سعدٍ وذويه، ليبعده عن ملك أقطار الحجاز ونواحيه، وفي خدمته محمد جاووش بعساكره، ولم يزالوا خلفه إلىٰ تربة، ثمّ عاد إلىٰ المبعوث، ثمّ دخل الطائف المحفوف باللطائف، واستمرّ به إلىٰ شهر شعبان، وهو يمهّد البادية والعربان، ثمّ عاد إلىٰ مكّة المعظّمة، متحلّياً بعقود الرئاسة المنظّمة.

وسبب عوده إلى الديار الحرميّة: أنّه وصلت خلع سلطانيّة، ومراسيم خاقانيّة، صحبته قاصد عظيم، قوبل بنهاية الاجلال والتكريم، ووضعت في مقام سيّدنا إبراهيم، إلىٰ أن وصل الشريف المشار إليه، وأُفيضت الخلعة عليه، وحصل في أواخر هذا الشهر قبض لبعض الأعيان، ونفي إلىٰ بعض البلدان[١].

وفي أثناء شهر شوّال: خرج إلىٰ ركبة استدعى السيّد حمّود بن عبدالله[٢].

وفاة الشيخ إبراهيم الخياري المدني :

وفي هذه السنة: توفّي الشيخ الجليل أبوإسحاق إبراهيم بن عبدالرحمٰن الخياري المدني بالمدينة المنوّرة فجأة، ويقال: إنّه مسموم، وهذا البيت بيت علم وجلالة.

خروج الشريف بركات إلىٰ قتال قبيلة حرب :

وفي سنة أربع وثمانين: برز مولانا الشريف بركات وجميع السادة الأشراف العساكر المصريّة والعربان، إلىٰ قتال قبيلة حرب المتقدّم ذكرهم في ترجمة الشريف سعد، وشيخهم حال خروج مولانا الشريف بركات أحمد بن رحمة،

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٠ ـ ٥٣١.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣١.

فحفروا خنادق قبل وصول مولانا الشريف إليهم، وتأهّبوا المقاتلته .

فأقبل عليهم بجيوشه، ونزل بدراً، وأقام به مدّة مصابراً لهم، وهم متحصّنون في جبالهم وسبوره عليهم، وسعاته في بعض قبائلهم بانحلالهم عن الآخرين، مع أنّه في كلّ عشرة أيّام أو أقلّ يـزمهر بـالحركة عـليهم والروب إليـهم ليسـتظهرهم ويستنشرهم، ثمّ يحلّ عزمه عن القتال، فعل ذلك بهم مـراراً عـديدة مـع طـول الإقامة، وتفرّق أكثرهم بهذه المصابرة مع أشياء أُخر، حتّىٰ صـاروا لا يـهتمّون بحركته ولو عظمت .

ففي أثناء ذلك وثب عليهم وثوب الأسد، فكسرهم واستأصلهم، وأقـام فـي أخذهم نحو ستّة أيّام، وجيوشه تحمل أوباش حرب إلىٰ بدر، وقطع نخيلهم .

وأمّا جثث القتلىٰ، فهي مترادمة علىٰ بعضها في كلّ جبل وواد من تلك الجبال والأودية، مع سبي النساء، وقتل الأطفال حـتّىٰ أبـادهم، ومـهّد تـلك الأقـطار، وأجرىٰ فيها أحكامه، وكانت هـذه الواقـعة مـن أعـظم فـتوحات هـذا المـلك المعظّم [١] .

ورأيت في بعض التواريخ أنّه كانت وقفة بين السيّد حمّود وبين السيّد أحمد بن غالب أحد ملوك مكّة المشرّفة الآتي ذكر ترجمته الشريفة، وهـذا قـبل ولايـته شرافة مكّة، فلمّا انتظم موقف الحرب، وآن وقت الطعن والضرب، أقبل عليهما هذا الملك العظيم، بل الملك الكريم، وأقسم عليهما إلاّ ما اصطلحتما في هذا الموقف، فاعتنقا وتصالحا .

وإلاّ لكان الأولىٰ بسياسة الملك أن يذكي جمرة البغضاء بين هذين العظيمين،

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣١ .

ويقرّب كلاًّ منهما إليه، ليجتهد كلّ واحد منهما فيما يقرّبه من خاطر الملك، ولا عليه بأس في بقائهما متوافقين إلىٰ أن ينقضيا، إنّما لما كان دأبه وديدنه لمّ شعث رفاقته لمحبّته لهم، وأن تكون كلمتهم واحدة، وبذلك تنموا أقدامهم، ويرتفع صيتهم، عدل إليه عمّا كان هو الأولىٰ لسياسة ملكه، فلله درّه .

وفاة القاضي عبدالمحسن القلمي :

وفي هذه السنة: توفّي الفاضل النبيه، العالم العلاّمة القاضي عبدالمحسن بن الشيخ سالم القلمي، وكان ذا فضل واسع، واجتهاد في طلب العلوم شاسع، حفظ عدّة من المتون في مذهب الإمام أبي‌حنيفة، ثمّ تصدّر للتدريس، وولي نيابة القضاء بمكّة المشرّفة مراراً، وكان مع جلالته ورئاسته كثير التواضع .

(وفي هذه السنة توفّي الأديب الأريب، العالم الفاضل ...[١] جدّ في طلب العلم، حتّىٰ تقلّد منصب الإفتاء علىٰ مذهب الإمام الشافعي بمكّة المشرّفة، مع خفّة روحه ولطافته)[٢] .

وفاة السيّد حمّود بن عبدالله :

وفي سنة خمس وثمانين وألف: توفّي زعيم السادة الأشراف، ورئيسهم بلا خلاف، السيّد حمّود بن الشريف عبدالله بن حسن، وكانت وفاته بالطائف، ودفن خلف حبر الأُمّة رضي الله عنه، وبني علىٰ قبره تابوت وعليه حوطة، رحمه الله

---

(١) بياض في نسخة «ن» .

(٢) ما بين الهلالتين أضفناها من نسخة «ن» فقط، ولم يذكر اسم المتوفّىٰ .

أقول: توفّي في هذه السنة ممّن لم يذكرهم المؤلّف: السيّد محمّد بن عمر شيخان، والعلاّمة فضل بن عبدالله الطبري المكّي، راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٢ ـ ١١٣.

تعالىٰ[١].

وفاة السيّد أحمد بن محمّد الحارث:

وفي تاسع رجب منها: توفّي السيّد الشريف، والهمام القطريف، ذي الأخلاق الرضيّة، والمزايا المرضيّة، السيّد الشريف أحمد بن محمّد الحارث المتقدّم ذكره، حين ولاّه حسن باشا في المدينة المنوّرة، وكانت وفاته بمكّة المشرّفة، ودفن في قبّة السيّد مسعود بن حسن، وضع عليه تابوت رحمه الله تعالىٰ[٢].

قلت: وقد أرّخ وفاته صاحب لسان الزمان في سنة أربع وثمانين. وفي العصامي[٣] طبق ما ذكرناه، وهو المعتمد.

وفاة السيّد عبدالرحمٰن المحجوب:

وفي هذه السنة: توفّي السيّد الجليل، والسند الأصيل، علم العلوم والمعارف، السيّد عبدالرحمٰن المحجوب[٤].

قال صاحب لسان الزمان: وكان محبوباً في القلوب، قلّ أن يراه شخص إلاّ وأحبّه.

إلىٰ أن قال: وكان ذا همّة كبيرة الشأن، كثير الشفاعات عند الملوك والأكابر، باذلاً نفعه لله تعالىٰ، لا يرد أحداً ممّن يقصده، ولا يصدّ من أراده بشفاعة أو

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٢، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٢.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٣، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٢.

(٣) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٣.

(٤) هو السيّد عبدالرحمٰن بن أحمد بن محمّد بن عبدالرحمٰن بن علي الأندلسي المكناسي المغربي الشريف الحسني الشهير بالمحجوب.

معروف، وكانت الملوك والأكابر تقبل قوله، وتمتثل شفاعته، وكان له عند شريف مكّة الشريف زيد وجاهة عظيمة، وقبول تامّ، وكان يمتثل أمره، ولا يخالف رأيه، وكان باذلاً همّته وكلّيته في إصلاح شأن الشريف زيد محبّاً له، وكان بينهما من المودّة أمر عظيم.

ثمّ إنّه عرض له فالج منعه عن القيام والمشي، فأقام في بيته يزوره الناس، ويقصدونه من كلّ جانب، وكان يلبس ثوباً واحداً، ويجلس علىٰ خصفة وعنده وسادة من أدم ينام عليها، وكانت تأتيه النذورات العظيمة، والفتوحات والهدايا من أرض الهند والروم والعجم والمغرب والسودان، فينفق الجميع، ويستدين حتّىٰ يبلغ دينه عشرة آلاف وخمسة عشر ألف أحمر، فإذا جاءته الفتوحات قضىٰ دينه، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وكان آية في الكرم، حتّىٰ أخبرني عنه بعض الأصحاب أنّه كان يقول: لو أعلم أنّ جسدي ينفع الناس لقطّعته وأعطيته للخلق ينتفعون به، وله كرامات كثيرة، نقل منها صاحب لسان الزمان شيأً كثيراً، وغير ذلك، وإنّما نقلت ذلك ملخّصاً مع حذف كثير اختصاراً.

توفّي في سابع عشر ذيالقعدة الحرام من السنة المذكورة، ودفن بزاوية السيّد سالم شيخان، وكان قد اشتراها منه، وأوصىٰ أن يدفن بها[1].

وفاة السيّد محمّد الحسيني الشامي نقيب الأشراف:

وفي هذه السنة: توفّي السيّد العلاّمة محمّد بن كمال الدين الحسيني الشامي، نقيب الأشراف بمدينة دمشق، وكان واسع العلم، فاضلاً نبيهاً، وله مؤلّفات، منها

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن للطبري ٢: ١١٣.

شرح تنوير الأبصار، وحاشية علىٰ شرح الألفية لابن المصنّف، وحاشية علىٰ تفسير البيضاوي، قاله صاحب لسان الزمان.

وفاة يحيىٰ أفندي المنقاري:

وفي هذه السنة: توفّي شيخ الإسلام، ومرجع الخاصّ والعامّ، يحيىٰ أفندي بن محمّد أفندي المنقاري، مفتي الديار الروميّة، والتخت السلطاني العثمانيّة[١].

كان واسع العلم، جمّ الفضائل، له مشاركة واسعة في العلوم، وغوص علىٰ دقائق المسائل، ترقّىٰ في المناصب إلىٰ أن ولي قضاء مصر، ثمّ ولي قضاء الحرمين، وكان يدرّس بمكّة دروساً جليلة، ويحضره أفاضلها، وله في تلك الدروس لطائف وظرائف وتحقيقات، نقلت عنه وحفظته.

إلىٰ أن قال[٢]: وله مؤلّفات منها حاشية علىٰ تفسير البيضاوي، وحاشية علىٰ حاشية الملاّ يوسف القرباعي، وانتهت إليه الرئاسة في العلم، وحظي عند الملوك، ثم التمس النزول عن الإفتاء، وأن يكون فيه أحد تلامذته. من لسان الزمان ملخّصاً.

وفاة الشيخ علي الأيزي المكّي:

(وفي هذه السنة: توفّي الفاضل الشيخ علي بن محمّد الأيزي الشافعي المكّي)[٣].

---

(١) في «د»: العثماني.

(٢) أي: العلاّمة محمّد بن أحمد عقيلة صاحب كتاب لسان الزمان.

(٣) ما بين الهلالتين من «ن» فقط، ولم توجد في «د».

وفاة السيّد أبوبكر بن سالم شيخان :

وفي هذه السنة: توفّي السيّد الجليل الأصيل، الفاضل المثيل، السيّد أبوبكر ابن المرحوم المقدّس السيّد سالم شيخان، كان من أجلّة علماء التصوّف، وأخذ عن الشيخ أحمد بن محمّد القشاشي وغيره، وله شعر لطيف[١] .

وفاة القاضي أحمد بن عيسى المرشدي :

وفي هذه السنة: توفّي الفاضل الكامل، القاضي إمام الدين بن أحمد بن عيسى المرشدي العمري، مفتي الحنفية بمكّة المشرّفة[٢] .

خروج الشريف بركات إلى الفرع :

وفي هذه السنة في سابع رجب منها: كان خروج حضرة الشريف بركات إلى الفرع وأقطاره لتمرّد أهله عليه، وخروجهم عن طاعته، فسار إليهم في التأريخ المذكور .

وخرج معه صاحب بندر جدّة بعساكره ومدافعه، فتلاقيا علىٰ عسفان، وسارا جميعاً، وأدركهم شهر الصوم قبل وصولهم إليه بقليل في منزل يسمّىٰ «قويزة» فأتمّ به صيامه وعيّد، ثمّ توجّه إليه ووصله، ونزل بقرية منه تسمّىٰ «أُمّ العيال» وأمر السيّد ناصر بن السيّد أحمد الحارث بالنزول بقرية منه تسمّىٰ «أبو ضباع» .

ثمّ استمرّ مقيماً بتلك الديرة، إلىٰ أن أذهب جميع أموالهم ومزارعهم، حتّىٰ عادوا إلىٰ طاعته راغبين من غير قتال .

ثمّ لمّا مشىٰ من عندهم، لزم خمسة وعشرين شخصاً من كبار شيوخهم، وأتىٰ

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٢، وذكر أنّ وفاته كانت في ثامن صفر .

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٢، وذكر أنّ وفاته كانت سنة (١٠٨٦) .

بهم الىٰ مكّة في الحديد، إلىٰ أن ماتوا بأجمعهم واحداً بعد واحد .

خروج السيّد سعيد بن بركات إلى الروم :

وفي سنة سبع وثمانين وألف: كان مشي السيّد سعيد بن الشريف بـركات إلى الديار الروميّة، وصحبته عرض من والده يلتمس فيه من الدولة العليّة أن تكون الشرافة بعده في ابنه السيّد سعيد، فأكرمته الدولة لمّا ورد إليهم إكراماً تامّاً، وأنالوه مطلوبه بأمر سلطاني وصل به، وتمّ له ذلك بعد وفاة أبيه، كما سيأتي إن شـاء الله تعالىٰ[١] .

وفاة الشيخ محمّد البكري الصديقي :

وفي هذه السنة: توفّي الشـيخ الجـليل، الفـاضل النـبيل، الشـيخ مـحمّد بـن زين العابدين بن محمّد تاج العارفين بن أبي الحسن البكري الصديقي .

وفاة الشيخ حسين بافضل :

وفي هذه السنة: توفّي الشيخ حسين بن محمّد بافضل بمكّة المشرّفة، وكان ذا فضل .

وفاة الشيخ نورالدين الشبراملسي :

وفي هذه السنة: توفّي العالم العلاّمة شيخ الإسلام، الشيخ نورالدين بن عـلي الشبراملسي، كان رئيس العلماء، ومقدّم الفضلاء، انتهت إليه رئاسة العلم بـمصر وغيرها .

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٤ .

تهمة تلويث أستار الكعبة والحجر والباب :

وفي سنة ثمان وثمانين: صارت بمكّة قضيّة[1] من أعظم ما يؤرّخ؛ لأنّها من أكبر

(١) وهي المجزرة الدامية الفجيعة ضدّ الشيعة الإماميّة الاثني عشرية بمكّة، قتل فيها جماعة من علمائهم وصلحائهم وعبّادهم، بتهمة لا أصل لها، كما يظهر من هذه الترجمة وغيرها.

قال العلاّمة الشيخ أحمد الحرّ العاملي أخو العلاّمة المحدّث الكبير الشيخ محمّد العاملي في كتابه الدرّ المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك (٢: ٣٣٩): وفي سنة تسع وثمانين وألف قتل في المسجد الحرام جماعة من الشيعة علىٰ تهمة باطلة، وكان أخي الشيخ زين العابدين بمكّة مجاوراً، فخرج إلى اليمن، فتوفّي بصنعاء اليمن رحمه الله.

أقول: وقد وقع نظير هذه القضية المؤلمة في تاريخ مكّة المكرّمة مراراً، ومن تتبّع التاريخ يجد عدّة مواضع اتّهموا الشيعة بأمثالها، مع أنّها مجرّد تهمة لا أصل لها.

فمن ذلك: ما وجدته في المجلّد الثالث المخطوط من كتاب تاريخ مكّة المعروف إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ بني الحسن، لجمال الدين محمّد بن علي بن فضل الطبري المكّي المتوفّىٰ سنة (١١٧٣) وكان الفراغ من تأليفها سنة (١١٤٠) والنسخة حصّلت صورتها من إحدىٰ مكتبات القاهرة.

قال: وفي ثمانية وعشرين شعبان سنة (١١٣٩) بعد صلاة العشاء اجتمعوا عساكر مصر وغيرهم علىٰ رجل من العجم، وجرّوه كغيس الغنم، وقد ثخنوه باللكم والضرب والشتم، وأطلعوه إلى الشرع الشريف، وشهدوا عليه أنّه تفّل على الحجر الأسود المكرّم، وأنّه يسبّ الشيخين، فجلّده القاضي جلداً محكماً، واستنطقه بالترضّي عن الشيخين، فترضّىٰ، وتلك منه تقيّة لا تسمع، فسألوا القاضي حرقه، ⇩

المصائب في الإسلام، وذلك في يوم الخميس ثامن شهر شوّال من السنة المذكورة، اتّفق أنّ أستار الكعبة الشريفة والحجر الأسود وباب الكعبة لوّثت بشيء نتن يشبه العذرة.

فلمّا أصبح يوم الثامن المذكور، حصلت ضجّة عظيمة بالمسجد بين حضّار المسجد من الأتراك وأهل البلاد، وكان من جملتهم رجل من أعيان الأروام، يلقّب «درس عام» نسب هذا الفعل إلى الأرفاض[1]، كما قاله العصامي[2]؛ لأنّه كان ملازم المسجد، ويرىٰ صلاتهم وكثرتها، وبعض حركات لهم يستغفر بها، فيهمّ أن يعدىٰ عليهم، حتّىٰ صارت هذه القضيّة، فنسبها إليهم، وأنّها من أعمالهم.

فعمد إلىٰ رجل من كبار أبناء أهل البيت، وهو السيّد الجليل الأصيل التقي الصالح، السيّد محمّد مؤمن الحسيني التقوي[3]، وكان في تلك الساعة خلف

⇐ فقال: خذوه إلىٰ حبس الحاكم، ووضعوه في قيد وجنزير. وأمّا العجم فلا تسأل عمّا جرىٰ عليهم، وقد تدسّسوا الماء حوفي بطون بيوتهم كالخنافد، وكلّ منهم يتعوّذ ويتبرّم، ثمّ ذكر من قصيدة له في ذلك.

(١) أي: الشيعة الإماميّة التابعة لمذهب أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٣، نسبته إلى العصامي كناية عن عدم صحّة القضيّة عند المؤلّف.

(٣) في «ن»: القرشي، وفي السمط: الرضوي.

أقول: كان السيّد محمّدمؤمن الحسيني عالماً فاضلاً فقيهاً محدّثاً صالحاً تقيّاً ورعاً زاهداً عابداً، له ترجمة مبسوطة في المعاجم الرجاليّة، لا بأس بالإشارة الإجماليّة إلىٰ بعضها كي يتّضح أنّ هذه القضيّة كانت تهمة واضحة لقتل أمثال هؤلاء ⇩

المقام يتلو كتاب الله تعالىٰ، فأخذوا المصحف من يده، وشرعوا يضربونه علىٰ رأسه، ثمّ جرّ علىٰ وجهه، إلىٰ أن أخرجوه إلىٰ خارج باب السلام، ثمّ كرّروا عليه الضرب والرمي بالحجارة إلىٰ أن زهقت روحه، واعترضهم حال خروجهم به من

↩ الأبرياء والصلحاء والعبّاد، الذين جاوروا البيت الحرام للنسك والعبادة.

قال المحبّي الحنفي في خلاصة الأثر عند ترجمة الحرّ العاملي: قدم مكّة سنة سبع أو ثمان وثمانين وألف، وفي الثانية قتلت الأتراك جماعة من العجم لما اتّهموهم بتلويث البيت، فخاف علىٰ نفسه، فالتجأ إلى السيّد موسى الحسني، فأخرجه مع أحد رجاله إلى اليمن، وجاء الأتراك إلى الحرم، فصادفوا خمسة فيهم السيّد محمّدمؤمن وكان مسنّاً متعبّداً يعرف بالتشيّع، فقتلوا الخمسة الخ.

وقال الحرّالعاملي: محمّدمؤمن الأسترابادي ساكن مكّة، عالم فاضل فقيه محدّث صالح عابد شهيد، له رسالة في الرجعة من المعاصرين.

وقال الفاضل الأفندي في الرياض: أدركته في الحجّة الأُولىٰ، ومات شهيداً بمكّة سنة سبع وثمانين وألف في مسجد الحرام بتهمة التنجيس.

وقال المحقّق الطهراني: محمّدمؤمن بن دوست محمّد الحسيني الأسترابادي المكّي، المجاور للحرم الشريف الإلٰهي حيّاً وميتاً، والشهيد للتشيّع في الحرم سنة (١٠٨٧) عن عمر طويل، وهو العالم الفقيه المحدّث صهر الملاّ محمّدأمين الأسترابادي علىٰ بنته، وابن أُخت المير فخرالدين السماكي، وصاحب كتاب الرجعة، والذي يروي عنه المجلسي الثاني بإجازة، ويروي عنه أحمد بن محمّد بن يوسف المقابي البحراني بإجازة تاريخها سنة (١٠٨١) يروي عن نورالدين أخي صاحبي المدارك والمعالم، ثمّ مؤسّس بيت الله الحرام في سنة (١٠٤١) زين العابدين ابن نورالدين علي الكاشاني المكّي المجاور بمكّة والشهيد بها.

المسجد مجروراً سيّد آخر رفاعي[١]، فوضعوه فوقه وثلاثة آخرين أيضاً، رحم الله الجميع برحمته الواسعة.

قال العصامي: ولقد رأيت ذلك الشيء وتأمّلته، فإذا هو ليس من القاذورات، وإنّما هو من أنواع الخضروات عجين بعدس ممخخ، وأدهان معفّنات[٢]، فصار ريحه ريح النجاسات، وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة، ولم يعلم الفاعل لذلك، وغلب علىٰ بعض الظنون أنّ ذلك جعل عمداً وسيلة إلىٰ قتل أُولئك، والله العالم بالسرائر، وهو متولّي البواطن والظواهر[٣].

وفاة السيّد إبراهيم بن محمّد الحسني:

وفيها: توفّي السيّد الشريف، والهمام الغطريف، السيّد إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نمي، صنو الشريف بركات، وكان ذا رئاسة وديانة، وهمّة وأمانة، مسموع الكلمة عند أخيه، وفصيلته التي تؤويه، وخلّف أبناءً أجلّة، قد طلعوا في سماء الرئاسة أهلّة، فيساغ للقائل فيهم أن يقول:

إذا مات منهم سيّدٌ قام سيّدٌ ... قؤولٌ بما قال الكرام فعول

نزول مطر عظيم:

وفي هذه السنة: حصل مطر عظيم ليلة النفر من عرفة، والنحر بمنىٰ، واستمرّ إلىٰ بعد مضي نصف الليل[٤].

---

(١) يقال له: السيّد شمس الدين الرفاعي.

(٢) وهذه من عطريات الهنود، كما رأيناها مراراً.

(٣) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٤، إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٨.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٤، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٨.

السيل العظيم بالمدينة :

وفي سنة تسع وثمانين: سالت أودية المدينة المنوّرة سيلاً لم يعهد مثله، فأخرب دوراً كثيرة، وملأ تلك الحدائق دماراً، حتّىٰ صاروا يضرعون إليه تعالىٰ ليلاً ونهاراً، أهلك شخصاً واحداً وامرأة وولدها بالحمراء، وذهب ببعض الجمال والأحمال[١] .

الفتنة العظيمة بالمدينة :

وفي سنة تسعين في الثالث والعشرين من رمضانها: صارت بالمدينة المنوّرة فتنة عظيمة، وحادثة جسيمة، وهي أنّ بعض عساكرها من حفّاظ واردها وصادرها عدىٰ علىٰ وزير حضرة الشريف، ذي الظلّ المنيف، المتقلّد عقد وزارتها من قبله، ذلك العام، على العادة المألوفة في جميع الأعوام، وهو الجمال محمّد بن أحمد الخلفاني، ومعه أنصار كثيرون، بدعوىٰ أنّه سبّ حضرة السلطان فاستحقّ القتل، فاجتمعوا علىٰ بابه يطلبونه إلى الوجه الشرعي .

فأجاب بتفرّقهم وتعيين الخصم، ثمّ يكون ما تريدونه، فامتنعوا عن سماع ذلك، ثمّ هجموا عليه وأوردوه حياض المهالك هو ومن كان معه من جماعته .

فلمّا بلغ الشريف هذا الأمر الهائل، والقضاء النازل، عرض إلى الدولة العليّة في هؤلاء الفاعلين، وهم كانوا قريباً من ثلاثين نفراً، فورد الأمر الشريف بقطع جوامكهم ونفيهم عن البلاد[٢] .

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٤ ـ ٥٣٥، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١١٩ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٥، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٢١ .

(وفي هذه السنة توفّي الفاضل الفهّامة الشيخ ...[١] اجتهد في طلب العلم، وأخذ عن فضلاء كثيرين، واتّسع فضله في الفقه والفرائض والحساب والفلك، وله تأليف حسنة، ذكرها صاحب لسان الزمان)[٢].

ظهور نجم له ذنب طويل :

وفي سنة إحدىٰ وتسعين في أواخر شهر شوّال: ظهر نجم له ذنب طويل إلىٰ جهة الشرق، واستمرّ إلىٰ آخر السنة، ثمّ اضمحلّ[٣].

المطر والسيل العظيم بمكّة :

وفي هذه السنة في الثاني والعشرين[٤] من ذي الحجّة الحرام: حصل بمكّة مطر كأفواه القرب، وتحصّل منه سيل عظيم، أذهب قريباً من خمسمائة شخص وجمالاً محمله[٥]، وأخرب الدور، ودخل المسجد الحرام، وارتفع على المقامات، ماعدا مقام الحنفي ومقام الشافعي، وعلا علىٰ قفل باب الكعبة، وذهب بخلق كثيرين من الحاجّ المصري.

والحاصل أنّه كان كالطوفان، وأُرّخ بلفظتي «طغى الماء» وأكثر أهل مكّة يؤرّخ

---

(١) بياض في «ن».

(٢) ما بين الهلالتين من نسخة «ن» فقط.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٥، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٢٢، والدرّ المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك ٢: ٣٣٩.

(٤) في السمط: الثاني عشر.

(٥) في السمط: وأخذ الجمال محملات.

بعامه[1].

وفاة السيّد أحمد شيخان العلوي :

وفي هذه السنة: توفّي السيّد الأجلّ، السيّد أحمد بن أبيبكر بن السيّد سالم شيخان العلوي، نشأ بمكّة المشرّفة في حجر والده، وأخذ العلوم عن والده، وعن الشيخ عيسى المغربي، وعن السيّد عبدالرحمٰن المحجوب، وعن الشيخ محمّد بن سليمان المغربي، وأمره بالتدريس والإفتاء، فدرّس وأخذ عنه الطلبة بالمسجد الحرام، وله شعر لا بأس به، مات بمكّة، ودفن بحوطة آل باعلوي[2].

وفاة الشيخ محمّد المنوفي :

وفي هذه السنة: توفّي الأديب الأريب، الفاضل النجيب، الشيخ محمّد بن محمّد بن أحمد المنوفي المكّي.

وكان ذا فصاحة وبلاغة، دونهما قدامة وابن المراغة، وعلم متّسع وافر، ووجه في الرئاسة سافر، تقدّم عند سلطانها الشريف زيد بن محسن، ووفىٰ له بنجح آماله دهره المحسن، وتبحّر في مذهب الإمام محمّد بن إدريس، وشيّد مغاني ربعه الأنيس، وخلّف أبناءً كرام، صاروا بعد اندراجه أعلام بلد الله الحرام[3].

وفاة الشيخ أحمد باعنتر الطائفي :

وفي هذه السنة: توفّي الشيخ الصالح التقي، الشيخ أحمد باعنتر الطائفي، سكن الطائف، ومدّ به ظلّ علومه الوارف، فانتفع به الناس، وارتفع به عن سكّانه الشبهة

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٥ ـ ٥٣٦.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٢٣.

والالتباس، وبنىٰ به مسجداً نيّراً يعرف به، وإلى الآن عامر بسببه؛ لأنّه خلّف أولاداً أخيار، لهم بالطائف أعظم اشتهار، فقاموا به حسب الامكان، مع إقامة الصلوات، وتلاوة القرآن، وفّقهم الله لأقوم طريقه .

وفاة الخطيب أحمد البرّي المدني :

وفي سنة ثنتين وتسعين: توفّي العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، الخطيب أحمد ابن عبدالله الحنفي المعروف بالبرّي المدني .

قال صاحب لسان الزمان: كان آية في العلم والفهم، وجودة المنطق، وكان إليه المرجع بالمدينة المنوّرة، وهو المشار إليه في ذلك الوقت، وكان يخطب بالمسجد النبوي، فيأتي بالخطب البليغة .

إلىٰ أن قال: أخبرني الشيخ تاج الدين بن أحمد الدهّان، أنّ الخطيب أحمد كان إذا مرّ بالطرق بالمدينة المشرّفة لم يجلس أحد في طريقه: إمّا أن يقوم له فيتلقّاه، أو يدخل في داره إجلالاً له، وكان رئيساً لطيفاً، حسن المفاكهة[١]. إنتهىٰ .

وقد ترجمه السيّد علي بن أحمد معصوم في كتابه سلافة العصر، بقوله: خطيب صبغ بالفضل أديماً، فكأنّما عناه من قال قديماً .

شرح المنبر صدراً ... لترقيه[٢] رحيبا
أترىٰ ضمخ طيباً ... أم ترىٰ ضمّ خطيبا

له الفضل الذي بهرت روايته، ورسخت في تخوم العلوم درايته، وهطلت بالإفادة غمائمه، وسجعت علىٰ أفنان الفنون حمائمه، والأدب الذي تناسقت في

---

(١) لسان الزمان، مخطوط لم أظفر عليه .

(٢) في السلافة: لتلقّيه .

نظام الاحسان درره، ووضحت في بهيم البيان حجوله[١] وغرره، فهو رايض جموح الكلام، ومصرف أعنّة الأقلام، ومنفق كساد المعاني والألفاظ، ومكسد خطب قسّ في سوق عكاظ، وخذ ما شئت من وقار وسكينة، ومكانة في الزهد والتقىٰ مكينة، وحفظ لذمام الصحبة، ورعي لعهود الأحبّة[٢]. إلىٰ آخر ترجمته رحمه الله تعالىٰ.

وأورد له شعراً يشهد بنبله، ونثراً يدلّ علىٰ غزارة فضله، توفّي وعمره ينوف على الثمانين، وقد رثاه جماعة من الأُدباء، ومن أحسن ما رثي به قصيدة الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد الخياري المتضمّنة لتأريخ وفاته، ومطلعها:

فجأ الأنام جميهم	خطبٌ ألمّ بهم عجيب
ومصيبةٌ قد أوجبت	للطفل منها أن يشيب
ورزيةٌ عظمت بدا	ر المصطفىٰ طٰه الحبيب
فقدوا الإمام الحافظ	العلاّمة الشهم الخطيب
فهّامة العصر المليّن	بوعظه القلب الصليب
كنز الحقائق مجمع البحر	ين ذا الرأي المصيب

ومنها وهو آخرها وفيه التأريخ:

مولاي فاهن بجنّة الفر	دوس والمأوى الرحيب
اختارك المولىٰ لدا	ر الخلد كي فيها تطيب
قد قيل لي ما ضبط هذا	الأمر والخطب العجيب

---

(١) في السلافة: نجومه.

(٢) سلافة العصر ص ٢٥٩.

فأجـــبته مــــتأوّهاً بـلسان مـحزونٍ كـئيب
زل أوّل الأعــداد مــن تأريـخه تكـن المـصيب
واســمع فــقد وافـا لنـا تأريخه مات الخطيب[١]

وفاة إمام اليمن أحمد المؤيّد :

وفي هذه السنة: توفّي إمام اليمن الإمام أحمد بن القاسم بن الحسن، وكان لقبه المؤيّد رحمه الله تعالىٰ .

وفاة الشيخ حسن بن علي الدهان :

وفي سنة ثلاث وتسعين: توفّي الشيخ حسن بن علي الدهان، ولد بمكّة سنة أربع وألف، ومات وقد ناهز التسعين[٢] .

خروج الشريف أحمد بن غالب من مكّة :

وفي شهر صفر منها: خرج السيّد الشريف أحمد بن غالب مـن مكّـة مـفارقاً للشريف بركات، ومعه خمسة وثلاثون شريفاً، فرحل إلى الديار الروميّة، ووصل الشام وصاحب أيالته إذ ذاك حسين باشا السلحدار، فأكرمه هو ومن مـعه مـن السادة الأشراف، وأنزلهم في بيت نقيب الأشـراف، وشـملهم بـجزيل إحسـانه، وجميل برّه وامتنانه، فكتبوا عرضاً متضمّناً لشكوىٰ حالهم، ملتمسين فيه نـجاح آمالهم، وكتب هو أيضاً بمثل ذلك، وأرسلوهما صحبة شريفين، وهما: السيّد محمّد ابن مساعد، والسيّد بشير بن مبارك، وأقاموا بالشام[٣] .

---

(١) لعلّ هذه الأشعار مأخوذة من كتاب لسان الزمان، وغير موجودة في السلافة .
(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٦ .
(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٦ ـ ٥٣٧، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٢٣ .

وفاة الشريف بركات صاحب الترجمة :

وفي ليلة الخميس الثامن والعشرين من شهر ربيع الثاني من السنة المذكورة: توفّي الشريف بركات صاحب الترجمة وملك مكّة المعظّمة، وصلّىٰ علىٰ جنازته الشيخ عبدالواحد بن محمّد الشيبي القرشي بوصيّة منه رحمه الله، ودفن عند الشيخ النسفي بوصيّة منه أيضاً، وكانت مدّة ولايته[١] عشر سنين وأربعة أشهر وستّة عشر يوماً[٢].

ترجمة السيّد الشريف سعيد بن بركات بن محمّد بن إبراهيم بن بركات بن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرّفة

كان جلوس هذا الملك الهمام، والغضنفر القمقام، ذي المجد الراسخ، والحسب الباذخ، والفخر الشامخ، خدين الهمم العليّة، والآراء السامية الجليّة، علم أرباب الشجاعة والبسالة، ومعلّم أصحاب الرئاسة والأيالة، والراوي لأحاديث الكرام[٣] وأبنائه، عن نفسه العصامية وعن آبائه.

شرفٌ تتابع كابراً عن كابر ... كالرمح أنبوبٌ علىٰ أنبوب

في يوم وفاة والده وانتقاله، وطيران طاووس إقباله، فشمّر عن ساعده، وقام بقوانين الملك وقواعده، ولا غرو أن يحذو الفتىٰ حذو والده، ولشرافته نقل مختصر، قد ضبط كيفيّتها وحصر.

وهو أنّه لمّا دعى الحقّ أباه، فأجابه ولبّاه، مشىٰ جماعة من السادة الأشراف

---

(١) في «ن»: دولته.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٣٨، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٢٤.

(٣) في «د»: الكرم.

ومعهم السيّد عمرو، قاصدين حضرة قاضي الشرع الشريف، لرفع هذا الأمر ملمّين من جنابه العالي السديد، خلعة يلبسونها حضرة الشريف سعيد، فسأل عن رضا السادة الأشراف، خوفاً من وقوع الزيغ والخلاف، فأجابه السيّد عمرو بما رآه، ممّا يرفع عن فكره الاشتباه.

فدفع إليهم الخلعة حسب مرادهم، بعد الإعزاز لهم في إصدارهم وإيرادهم، فرفّوا الخلعة إلىٰ حضرة الشريف، وألبسوه إيّاها في بيته السامي المنيف، كلّ ذلك كان قبل تجهيز والده المرحوم، ودفنه في الموضع المعلوم، ثمّ نادىٰ مناديه باسمه العالي، محفوفاً بجملة البواتر والعوالي، وصحبته فخر السادة الأعاظم السيّد عبدالله بن هاشم.

وفي اليوم الثاني: عقد مجلساً عظيم الشأن، ينطوي علىٰ كبار السادة وجميع الأعيان، وأبرز أمراً سلطانياً (مضمونه)[1] أنّه ولي عهد أبيه، وخليفته في المنصب دون سائر بنيه، فارتفع القيل والقال، واطمأنّت الخواطر في جميع الأحوال[2].

وفي ثاني‌عشر رجب من سنة ثلاث وتسعين: وصل قفطان من صاحب مصر لحضرة الشريف سعيد بحراً[3].

وصول الخلعة السلطانيّة:

وفي ثامن عشر شهر شوّال: وصلت الخلعة السلطانيّة، والأوامر الخاقانيّة، صحبة رجل من الأعيان، من خدّام حضرة السلطان، فصار مجمع عظيم، في

---

(١) الزيادة من «ن».

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٤٢ ـ ٥٤٣، وإتحاف فضلاء الزمن: ١٢٤.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٤٣.

الموضع الشريف المعروف بالحطيم، فلبس الخلعة بحضور الأكابر وجميع السادة، وقرأت المراسيم على العادة، فحصل بذلك سرور تامّ، لمكان بلد الله الحرام .

إخراج الشيخ محمّد بن سليمان :

وفي شهر شوّال: ورد أمر سلطاني بإخراج الشيخ الجليل العلاّمة الشيخ محمّد ابن سليمان المتقدّم ذكره، فأرسل إليه القاضي وشريف مكّة الشريف سعيد، فاستمهلهم ثلاثة أيّام، ثمّ توجّه بالسيّد ثقبة بن قتادة في الصبر عليه إلى الحجّ، فتوجّه السيّد ثقبة على الشريف وقاضي الشرع، فوجّهاه في ذلك، ثمّ توجّه صحبة الحاجّ الشامي؛ لأنّ الأمر الوارد بإخراجه قد عيّنوا فيه مسيره إلى القدس، كما قاله العصامي[1]، وإلىٰ أيّ موضع شاء، كما قاله صاحب لسان الزمان .

وصول الأمر السلطاني بتقسيم البلاد :

وفي أواخر سنة ثلاث وتسعين: وصل صحبة الحاج الشريف أمر سلطاني بتقسيم البلاد أربعة أرباع: ربع لشريف مكّة، والثلاثة الأرباع للسادة الأشراف .

والسبب في ذلك: أنّه لمّا توجّه الشريف أحمد بن غالب إلى الديار الروميّة في السنة المذكورة، صدر من الشريف بركات عرض يتضمّن شكاية حاله مع السادة الأشراف، وأنّه ناله أشدّ التعب منهم؛ لعدم رضاهم بما كان يعطيهم إيّاه، فإنّه قانع بالربع من محاصيل البلاد .

فجزموا بأنّ هذا مراد للشريف بركات، فأصدروا هذا الأمر بهذا المضمون، فوصل صحبة الحاجّ، فأراد الشريف سعيد كتمه، فبلغ السادة الأشراف ذلك، فاجتمعوا على الشريف وطلبوه منه، وألزموه بإحضاره، فلمّا لم ير بدّاً عن إخراجه

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٤٣ .

أبرزه لهم، فسجّلوه في المحكمة المكّية مضمونه .

ثمّ قسّموا مدخول البلاد والإخوان أربعة أقسام، فوضعوا الشريف في الربع، ووضعوا السيّد محمّد بن أحمد بن عبدالله بن حسن، والسيّد ناصر بن أحمد الحارث، وجماعة من السادة في الربع، ووضعوا السيّد أحمد بن غالب، والسيّد أحمد بن سعيد وجماعة في الربع، ووضعوا السيّد عمرو بن محمّد، والسيّد غالب ابن زامل في الربع، فاستمرّوا علىٰ ذلك .

ثمّ حصل بينهم الزيغ والاختلاف بأسباب ذلك؛ لأنّ كلّ واحد من هؤلاء الأعيان ممّن بيده ربع رام أن يسوق سياق الملوك[1]، واستعدّ بالخدّام والكتبة والعساكر .

وأكثرهم استعداداً في ذلك السيّد أحمد بن غالب، فحصل عند الشريف تعب من ذلك، وأمره بترك العساكر، فامتنع مستنداً إلىٰ أنّ السوالف قد سبقت بذلك لصاحب الربع، وأسعفوه كبار السادة الأشراف علىٰ ذلك، فتوهّم الشريف وطلب كفالة جمع من الأشراف عليه، فكفّلوا على السيّد أحمد .

وبهذه الأسباب حصل بمكّة لسكّانها غاية الاضطراب والنهب لبيوت مكّة ليلاً وعناءً ليس له آخر، فادّعى الشريف سعيد على الأعيان أهل الأرباع بأنّ البلاد قد خربت، وكثر فيها السرق بالليل، فلابدّ أن يصل من كلّ جماعة من أهل الأرباع أشخاص يعسون البلاد مع جماعتي، فعملوا بذلك، ولم تزل البلاد في غاية الاختباط والخوف ممّا كان يصير بها من أشياء عديدة لا يمكن تفصيلها

---

(١) في «ن»: الملك .

وبيانها[١].

حوادث سنة أربع وتسعين وألف :

وعلىٰ هذه الكيفيّة دخلت سنة أربع وتسعين .

وصول هدية جليلة من الهند :

وفيها في خامس شهر رمضان منها: وصل إلىٰ مكّة المشرّفة هديّة من ملكة «آش» وهي بلدة بأقصى الهند، وتلك مقابل هديّة كان أهداها إليها الشريف بركات، منها ثلاثة قناطير ذهب مصطنع يصفي على النصف خالصاً، وثلاثة غلايين ذهباً، وثلاثة أرطال كافور، وجانب عظيم من القرنفل والجاوي، وآواق من الزباد الآشي، وللكعبة بخمسة قناديل، ومبخرتين وشمعدانين، وللمدينة كذلك قناديل ومباخر وشماعدين .

فنازع السادة الأشراف الشريف سعيد، طالبين منه الثلاثة الأرباع منها، فامتنع، فقامت النفوس بينهم وبينه، ثمّ وقع الصلح علىٰ إعطائهم النصف، قاله العصامي[٢].

وفاة الشيخ محمّد المالكي السوسي :

وفي هذه السنة: توفّي العالم العلاّمة، والفاضل الكامل الفهّامة، المحقّق المدقّق، الشيخ محمّد بن سليمان المالكي السوسي .

قال صاحب لسان الزمان: أخذ العلم بالمغرب، وصحب أجلاّء الشيوخ من أهل المغرب، ولازم أكابر العلماء، ثمّ رحل فطاف المغرب، ثمّ رحل إلى الشرق فدخل مصر، وأخذ عن أكابرها وعلمائها، ثمّ دخل أرض الحرمين وأقام بالمدينة

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٤٤ ـ ٥٤٥ .

(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٤٥، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٢٧ .

المنوّرة، ملازماً غالب أوقاته للذكر والخلوة عن الناس .

ثمّ وصل إلىٰ مكّة المشرّفة، وصحبته الفضلاء، وأخذوا عنه، وكان عالماً متضنّناً متّسعاً، عديم النظير، فصيح المنطق[١]، ذا هيبة وجلالة، وفراسة في إصابة الرأي، وصار له بمكّة شهرة، فاعتقده كثير من الناس. إنتهىٰ .

قلت: وقد تقدّم له ذكر شريف فيما سبق من هذا التأليف، حين صحبه أخو حضرة الوزير مصطفىٰ باشا، وبلغه من ترقّي مراتب العزّة ما شاء، إلىٰ أن رحل معه إلى الديار الروميّة .

واجتمع بسلطان تلك الأقطار السنيّة، وحصلت منه الإشارة بتولية الشريف بركات لمكّة المشرّفة وتلك الجهات، ورفع بعض أُمور تقدّم تفصيلها، وفوّض إليه النظر العامّ في الأوقاف والربط الكائنة بالبلد الحرام، فانتهىٰ إليه بمكّة الحلّ والعقد، حيث قلّد صاحبها من مننه السامية ذلك العقد، واستصحب معه أُموراً سلطانيّة تتضمّن إجراء ملك الأحوال الرحمانيّة، فكان لا يقطع أمر بدون رأيه، ولا يعرف الإقبال والإدبار بأحسن من توجّهه ورأيه .

بنىٰ بمكّة رباطاً للفقراء، يعرف باسمه العالي إلى الآن، ومقبرة أيضاً تعرف بمقبرة ابن سليمان، وأقام بمكّة وأقطارها تلك المدّة، فأمره نافذ علىٰ قلّ غلاظة وشدّة، إلىٰ أن تبدّلت تلك السعودات بالنحوس، وهبط بعد أن كان علىٰ الرؤوس، فورد في إخراجه الأمر السلطاني كما تقدّم، فتعب من ذلك أشدّ التعب وتندّم، فمشىٰ صحبة الحاجّ الشامي إلى الشام، وبها دعاه داعي الحقّ، فسكن تربتها وأقام .

---

(١) في «ن»: النطق .

وكانت وفاته في حادي عشر شهر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة، ودفن بالصالحيّة بسفح قاسيون من التربة[١] اللانجية المعروفة، وله التصانيف المفيدة، والتآليف السديدة[٢].

إدخال القناديل إلىٰ داخل الكعبة:

وفي سادس عشر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة: أُدخلت القناديل المتقدّم ذكرها إلى الكعبة، وعلّقت فيها بحضور الشريف سعيد، والسيّد محمّد بن حمّود، ونائب الحرم الشريف.

وفاة السيد محمّد بن أحمد:

وفي يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة المذكور: توفّي السيّد الشريف الأمجد، المنيف الأنجد، السيّد محمّد بن أحمد بن عبدالله.

توقّف السادة الأشراف من العرضة:

وفي شهر ذي الحجّة الحرام: توقّف السادة الأشراف من العرضة المعتادة مع الشريف سعيد، وبعد النزل من منىٰ عقد مجلساً احتوىٰ[٣] علىٰ صالح باشا أمير الحاجّ الشامي، وأحمد باشا صاحب بندر جدّة، وأمير الحاج المصري ذوالفقار بيك، وجميع أعيان الدولة العثمانيّة، وأنهىٰ إليهم شكاية من الشريف أحمد بن غالب في جمعه العساكر ومناكدته له وفساده عليه، وفساد جماعته وعساكره في البلاد، فأرسلوا إليه السيّد غالب بن زامل ليحضر في هذا المجلس، ويسمع دعوى

---

(١) في «ن»: بالتربة.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٤٧ ـ ٥٤٩ وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٢٨.

(٣) في «ن»: يحتوي.

الشريف سعيد .

فامتنع من الحضور في بيت الشريف، إلاّ أن صار هذا المجلس في المسجد الحرام، وإن كانت دعوىٰ فيصلكم وكيلنا، فأرسلوا إليه من جهة العسكر، فأجابهم بأنّ هذا قانون بيننا قد سلف، وحضرة الشريف يعرف ذلك، واسألوا كبار السادة الأشراف عن ذلك، هل هذا قانون لمن يكون بيده الربع أم لا؟ وأمّا ما ادّعاه من إفساد جماعتنا في البلاد، فاسألوا عن ذلك، وتفحّصوا وأطلقوا في البلاد منادياً بذلك تظهر لكم الحقائق .

وفي مدّة هذه المراسلات قد اجتمع رأي السادة الأشراف علىٰ مقاومة هؤلاء إن صارت منهم حركة، فجمعوا مراجلهم وخيولهم، ولبسوا الدروع، وألبسوا الخيل، وتأهّبوا للقتال .

وكان من جملة المخاطبات أن أرسل صالح باشا للشريف أحمد: إنّكم إذا لم تصطلحوا طوعاً أصلحناكم بالسيف، فأجابه السيّد أحمد بأنّ السيف لنا يا بني هاشم، ما هو لفلاليح الشام .

فلمّا وعوا جوابه مع كونهم غير جازمين بخطأ السيّد أحمد، بذلوا الهمّة بالصلح بينهما، علىٰ أن يكفل كلّ واحد منهما جماعة من السادة الأشراف، وكتبت بينهما حجّة بذلك، والتمسوا من السيّد أحمد أن يصل إلى الشريف سعيد، فوصل إليه في شهر الحجّ قبل خروج الحاجّ الشامي ليلاً مرّة واحدة .

وفي اليوم الثاني من هذا المجلس: وصل صالح باشا في مرجلة زهيدة إلىٰ بيت السيّد أحمد بن غالب معتذراً فيما صدر منه، وقبّل يده، فقابله السيّد بما هو أهله من الإعزاز والإكرام .

حوادث سنة خمس وتسعين وألف :

ثمّ دخلت سنة خمس وتسعين، وفي ثاني عشر محرّم الحرام منها: صارت قضية بين السادة الأشراف وبين أحمد باشا صاحب بندر جدّة، وهو أنّه وضع يده علىٰ ربع الحبّ المختصّ بشريف مكّة، فخاطبوه في ذلك، فلم يجبهم إلىٰ مطلوبهم، فتركوه إلىٰ يوم مسيره إلىٰ جدّة، وفي ذلك اليوم تأهّبوا لمقاومته إذا لم يجبهم إلىٰ ذلك، ويخلّصهم ما هو لهم .

وكان اجتماعهم في بيت السيّد محمّد بن حمّود، والمرسول إليه السيّد ثقبة، والحال أنّه قد أرسل ثقله وحريمه، فصار أحير من ضبّ، وقد خاطبه: بأنّك إذا لم توفي السادة الأشراف حقّهم، وإلاّ فيأخذون جميع أوباشك، وينهبون حريمك، ثمّ يقتلونك(١)، فأذعن بما هو لهم، وكتب علىٰ نفسه حجّة شرعيّة، وكفّل علىٰ نفسه معماراً كان بمكّة في ذلك العام اسمه كرد أحمد، وجميع آغاوات العساكر المصريّة، والوزير المكرّم عثمان حميدان المتقدّم ذكره، ثمّ خرج آخر النهار(٢) .

وفي تاسع ربيع الأوّل منها: ورد إلىٰ مكّة المشرّفة شخص من طرف السلطنة العثمانيّة، ومعه قفطان للشريف سعيد، وأمره بلزم كرد أحمد المعمار .

وسببه: أنّه كان قد أرسله الوزير مصطفىٰ باشا وزير الدولة العليّة لعمارة المسجد الحرام، وبعض عمارات في بندر جدّة، فعمّر في بعض الروايات، وفرشها بالحجر الشبيكي، إلاّ بعض مواضع منها بقيت بلاطاً، ثمّ عمّر عيناً بجدّة جرّها من الموضع المعروف بالقوز، وعمّر بجدّة أيضاً مسجداً ومنارةً وحمّاماً، وعمّر أوقافاً

---

(١) في «ن»: يقتلوك .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٤٩ .

كبيرة موجودة إلى الآن على المسجد المذكور لمصارفه.

فلمّا حصل الغضب علىٰ أُستاذه الوزير المذكور من الدولة العليّة، بسبب ما نسب إليه من الولس[(١)] من الكفّار على المسلمين، وكان هذا المعمار من خواصّ الوزير المذكور، فأرسلوا في لزمه ومحاسبته، فلزمه الشريف سعيد ومرسول الدولة وحاسبوه، ثمّ كتبوا بذلك حجّة شرعيّة، وأخذه الرسول بعد ضبط جميع أمواله وتعلّقاته، وذهب به بحراً في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة[(٢)].

وقوع أمر عجيب بمكّة:

وفي هذه السنة: وقع فيها أمر عجيب، وهو أنّ حرمة في جهة الشبيكة من نساء العرب وضعت كلباً، فخافوا الفضيحة، فقتلوه ودفنوه. إنتهىٰ قاله العصامي في تأريخه[(٣)].

وفاة الأمير يحيىٰ بيك الحسائي:

وفي هذه السنة: توفّي الأمير المكرّم الأديب الأريب، يحيىٰ بيك بن علي باشا الحسائي بالمدينة المنوّرة، وقد كان والده المرحوم علي باشا أمير الحسا، ثمّ آلت منه إلىٰ ولده محمّد باشا، ثمّ استقلّوا بها العرب، وهم بنو خالد، فأقام علي باشا وأولاده بالمدينة المنوّرة، وقد أطال الشيخ عبدالملك العصامي الكلام في شأن يحيىٰ بيك ووالده علي باشا، فراجعه ثمّة[(٤)].

---

(١) الولس: الخدعة والخيانة.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٥٠.

(٣) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٥٠.

(٤) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٥٢ ـ ٥٥٥.

وصول خلعة للشريف سعيد:

وفي ثالث شهر شوّال من السنة المذكورة: وصل إلى الشريف سعيد خلعة من صاحب مصر، أرسلها إليه بعد أن أرسل يعرض إلى الدولة حال[1] مكّة المشرّفة وما صار فيها من الفساد؛ لأنّ الشريف سعيد كان قد أرسل ترجمانه إلىٰ صاحب مصر يخبره بما وقع بمكّة المشرّفة من الفساد، ويطلب إرسال عسكر يتقوّىٰ بهم، فأرسل إليه هذه الخلعة، وبعث إلى الدولة عرضاً يتضمّن ما شكاه حضرة الشريف مع ترجمانه كما تقدّم، فوصلت الخلعة في اليوم المذكور ولبسها.

كثرة البلاء والمحن بمكّة:

وفي هذه السنة: اشتدّ الحال بأهالي مكّة المشرّفة، حتّىٰ كسرت البيوت والدكاكين ليلاً ونهاراً، وكثر القتل في الطرقات والمنافذ، واشتهر الفساد اشتهاراً عظيماً من العبيد وأتباع السادة الأشراف، وربما آل الأمر إلىٰ إيقاع الفساد بحريم الناس بمرأىٰ من رجالهم، لا يقدرون علىٰ ممانعتهم، فضجّت الأُمّة، وتضرّعوا إلى الله تعالىٰ في رفع هذا البلاء عنهم.

فاستجاب الله دعاءهم بعزل الشريف سعيد عن مكّة المشرّفة، وخروجه في الليلة الثامنة والعشرين من شهر ذي‌القعدة الحرام أواخر سنة خمس وتسعين وألف، فكانت آخر مدّة دولته هذه[2].

وكان لخروجه في تلك الليلة نقل لطيف واتّفاق غريب، وهو أنّه كان في ذلك اليوم، وهو يوم السابع والعشرين من ذي‌القعدة، وقد صعد في النهار إلىٰ أحمد باشا

---

(١) في «د»: في حال.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

صاحب جدّة، وهو ببستان الوزير عثمان حميدان، وهذا البستان موجود إلى الآن، فاستمرّ عنده إلىٰ ذهاب جانب من الليل، ثمّ نزل في قطعة من الخيل وقصد عقبة الحجون، ذاهباً إلى السيّد غالب بن زامل؛ لأنّه كان مقيماً بذي طوىٰ ونازل.

فصادفه[١] في مسيره رجل تسنّم غارب بعيره، فقال له: من هذا الملمّ، في الليل المدلهمّ؟ فأجابه بأنّه رجل من بني الصخر، أقبل قاصداً إلىٰ أرباب المكارم والفخر، فقال له: قد سقطت على الخبير، فأبن لنا أبشير أنت أم نذير؟ وإذا لم تبد لنا صدق كلامك، وإلاّ جرّعناك كأس حمامك.

فلمّا قطع بعدم نتيجة ذلك المكر والكيد، أخبره بأنّي مرسل من الشريف أحمد ابن زيد، فأمسك عليه وذهب به، وسأله عن حقيقة خبر صاحبه وسببه، فأوضح له الخبر، وصدّق في حديثه وبرّ، بأنّ الدولة العثمانيّة المكرمة، قد أنعمت على الشريف أحمد بن زيد بشرافة مكّة المعظّمة، فارتفع شأنه هناك وعلا، ثمّ أجهد ركائبه مقبلاً حتّىٰ لحق الحاجّ الشامي بالعُلا.

ثمّ ألزمني بالمسير إلىٰ مكّة كالطالب، وحملني كتباً إلى السيّد أحمد بن غالب، ليكون قائم مقامه ببلاده، حتّىٰ يصل صحبته حجّاج بيت الله ووفّاده، فأخذه من ليله وذهب به إلىٰ بيت السيّد عمرو، واستدعىٰ بالسيّد غالب بن زامل، والسيّد عبدالله بن هاشم، ليرو كيف يكون إظهار هذا الأمر، فاتّفق رأيهم علىٰ أن يعدلون بها إلى السيّد مساعد بن سعد، ويتلون قوله تعالىٰ ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾[٢].

---

(١) في «ن»: فصدفه.

(٢) سورة الروم: ٤.

فأرسلوا السيّد عبدالله بن هاشم إليه، ليأت به حتّىٰ يبثّوا حقيقة الحال عليه، فأُتي به إلىٰ ذلك المجلس المعلوم، ومأوىٰ خبرهم المكتوم، ثمّ أخبروه بحقيقة هذا الأمر الوارد، صحبة ذلك القاصد، بأنّ الشريف قد منّت الدولة بإعطائها لعمّك، فأحببنا إنهاء شريف علمك، فالقصد أن تتوالي أمر بلاده، وتنادي بصريح اسمه، وتجتهد في دفع الفساد وإبعاده .

ثمّ أرسل الشريف سعيد إلىٰ جميع العساكر المكّية المصرية واليمنية، بأنّ الشرافة قد آلت إلىٰ ذلك الشريف، فكونوا تحت أمر السيّد مساعد عاملين برأيه المنيف، وأودع السيّد مساعد جميع طوارفه على المعتاد، وخرج في آخر تلك الليلة وترك البلاد، ثمّ توجّه ...[١] .

ترجمة السيّد الشريف أحمد بن زيد بن محسن بن حسين ابن حسن بن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرّفة

قال الشيخ عبدالملك العصامي في تأريخه عند ذكر الشريف أحمد المذكور: إنّه لمّا انفصل عن إمرة مكّة هو وأخوه الشريف سعد إلى الطائف، ثمّ منها إلىٰ بيشة، فأقام بها، وتوجّه الشريف أحمد إلىٰ ديرة بني حسين، فإنّ له بها أهلاً وولداً، واستمرّ مقيماً بتلك الديرة إلىٰ أوّل ذي‌القعدة الحرام .

فرحل عنها قاصداً المدينة المنوّرة لزيارة جدّه عليه الصلاة والسلام، فدخلها ليلة السابع والعشرين ليلة دخول الحاجّ الشامي، وواجه بها في ذلك العام أمير الحاجّ الشامي فقابله بأتمّ الإجلال والإكرام، والتمس منه إتمام بعض مرام من شريف مكّة الشريف بركات .

---

(١) بياض في النسختين، راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

ثمّ رحل من المدينة المنوّرة ثاني شهر ذي‌الحجّة الحرام من العام المذكور، ونزل علىٰ شيخ حرب أحمد بن رحمة، واستمرّ عنده إلىٰ عود الحاجّ الشامي، فواجهه الباشا وأخبره بعد تمام ذلك المرام، بعد أن أرسل إليه الخبر من مكّة بالإعلام.

ثمّ توجّه في أوّل عام أربعة وثمانين إلى الفرع، واستمرّ به مدّة يسيرة، ثمّ لمّا خرج الشريف بركات إلىٰ حرابة حرب في أواسط السنة المذكورة، عاد إلىٰ حرب وحضر الحرابة، ثمّ بعد انقضائها توجّه أيضاً إلى الفرع، ثمّ أرسل إليه أخوه الشريف سعد، واستمرّا بين السوارقية والفرع، وأكثر الإقامة الفرع.

ولمّا توعّد الشريف بركات لأهل فرع أوائل سنة خمس وثمانين، تنحّوا إلىٰ جهة وادي النقيع من ديرة حرب من بني السفر وبني علي وعوف، واستمرّا ومن معهما إلىٰ شهر رمضان، ثمّ عنّ لهم التوجّه إلى الديار الروميّة، والأبواب العليّة، فوصلوا إلى حول المدينة الشريفة، ونزلوا بالغابة مجتمع الأسيال غربي أُحد أواخر رمضان، فعيّدوا في ذلك المحلّ، وليس في نزل الأُسود بالغابة، ملامة ولا معابة، وتقضّوا مصالح وأغراضاً، وتزوّدوا منها.

وقد أخبرني الثقة بأنّهما اجتمعا بالمحلّ المعروف ببئر واسط لمولانا السيّد مبارك والحارث، وكان هو المشير عليهما بقصد الأبواب العالية، وترحّلوا من الغابة خامس شهر شوّال من السنة المذكورة متوجّهين إلى الشام، لا يمرّون بحيّ من الأحياء إلاّ أكرمهم بمزيد الإكرام.

ومن أعجب الاتّفاق: نزولهم علىٰ مراح بن سحيم من غير علم منهم بذلك، وكان الشريف سعد قد قتل أباه، فلمّا علم بهم وعلموا به حصل لهم كرب عظيم، فلم يشعروا إلاّ وولده مواجه لهم بالعبوديّة والسلام، والإجلال والإعظام، وأهدر دم

والده وأكرمهم، وذبح لهم الذبائح، ومنح المنائح، وهذه لا شكّ أنّها معجزة من جدّهم، وكرامة من سعادة جدّهم.

ولم يزالوا علىٰ مثل ذلك مع كلّ من مرّوا عليه من العربان، من جمع ووحدان، إلىٰ أن وصلوا الشام، فتلقّاهم أهل الشام وأُمراؤها وعلماؤها، وكبراؤها وأشرافها ونقباؤها، وكان يوماً مشهوداً.

ثمّ أقاموا بالشام، وأرسل صاحب الأمر بها يستأذن لهم بالوصول، فعاد الجواب بالإذن، فتوجّهوا ودخلوا إلىٰ أدرنة في ربيع الأوّل من سنة ستّ وثمانين، وحصل لهم من المقابلة واللطف، ما يكلّ[١] عنه الوصف، فأقاموا مدّة يسيرة، ثمّ توجّهوا بأمر من الدولة العليّة إلىٰ إسلامبول، واستمرّوا بها بقيّة سنتهم المذكورة.

ثمّ دخلت عليهم سنة سبع وثمانين وهم بها، فلمّا كان شهر صفر من السنة المذكورة وصل مولانا السلطان وجميع الدولة من أدرنة إلىٰ بلاد إسلامبول.

وفي شهر ربيع الثاني: أنعم علىٰ مولانا الشريف سعد بولاية المعرّة، وأمره بالتوجّه إليها، واستمرّ بها يتجهّز إلىٰ أن كان خروجه إليها حادي عشر جمادي الأُولىٰ.

واستمرّ مولانا الشريف أحمد بإسلامبول، وعرضت عليه ولاية طرسوس، وهي بلد بساحل الشام، وأُخرىٰ بجهة الروملي، فلم يقبل واحدة منهما، وكان جوابه: إن تفضّلتم بولاية بلادنا، وإلاّ فنحن تحت أعتاب السلطنة العليّة.

واستمرّ السلطان بإسلامبول إلىٰ أواسط شعبان من السنة المذكورة، ثمّ توجّه إلىٰ أدرنة أيضاً، ثمّ بعد خروجه في ثاني أو ثالث مرحلة، توفّي الوزير أحمد باشا

---

(١) في السمط: ما يقصر.

بعد أن خرج مريضاً، فأُعيد إلىٰ إسلامبول ودفن بها، وتولّىٰ مكانه قائم مقامه مصطفىٰ باشا.

واستمرّوا متوجّهين إلىٰ أدرنة، وأقاموا بها إلىٰ آخر السنة المذكورة وشهر من أوّل سنة ثمان وثمانين، ثمّ عادوا إلىٰ إسلامبول أيضاً في شهر صفر أيضاً، وتأخّر الوزير أيّاماً ثمّ وصل، واستقرّت الدولة بإسلامبول.

واستمرّ مولانا الشريف أحمد مقيماً بها تحت ظلّ الدولة العليّة، وفي كلّ سنة يتجدّد له من الإكرام والترقّيات ما فوق المرام، وفي كلّ شتاء بثلاثمائة بغل محملة من جميع ما يحتاج إليه البيت، وزيد في سنة إحدىٰ وتسعين ثلاثمائة أُخرىٰ.

وحصلت بينه وبين قزلار آغاسي محبّة أكيدة، وطلب الاجتماع بالوالدة، فاجتمع بها، وأغدقت عليه سوابغ الإنعام، ووعدته بتمام المرام، وقد سبق وعدها وعد الملك العلاّم.

واستمرّ كذلك إلىٰ سنة ثلاث وتسعين وألف، فوصل فيها إلى الديار الروميّة السيّد محمّد بن مساعد، والسيّد مبارك بن بشير، مرسولين من السيّد أحمد بن غالب من الشام، فركبا إليه وقيّلا عنده، فأوحىٰ بعض المفسدين إلى الوزير الأعظم، وقال: إنّ إقامة مولانا الشريف أحمد بإسلامبول يخشىٰ منها، فالأولىٰ عدم إقامته بها، فأحضره الوزير وألبسه قفطاناً بولاية «كرك كنيس» إسم محلّ بينه وبين أدرنة ثمان ساعات فلكيّة.

وكان قبل ولايته بشهرين أُرسل بأخيه الشريف سعد إلى البلد المسمّاة «ويزة» بكسر الراء وتخفيف الزاي، وهي أيضاً قريب من كرك كنيسة، بينها وبينها ثمان ساعات أيضاً.

واستمرّ كلّ منهما بمكانه إلىٰ سنة أربع وتسعين، فتوجّه السلطان إلى السفر،

فعند دخوله إلىٰ أدرنة فسح لهم بالتوجّه إلىٰ حيث شاؤوا مـن الديـار الرومـيّة، فتوجّه الشريف سعد إلىٰ إسلامبول، واستمرّ الشريف أحمد في بلدته المـذكورة، وطابت له وتأنّس بها .

إلىٰ أن كانت سنة خمس وتسعين، فوصل فيها ترجمان الشريف سعيد يعرض إلىٰ صاحب مصر، يذكر فيه ما شرحناه من إفساد مكّة بأيدي العبيد، والنهب الذي لا ينقص بل يزيد، وأنّ البلاد خربت، والأحوال اضطربت، وطلب مـنه عسكـراً لإصلاحها، ومالاً يستعين به علىٰ أُمور نجاحها، وأظهر أنّه مغلوب عليه، وأنّ كلّ من أراد شيئاً فمنه وإليه .

فلمّا وصل إليه أرسل رسولاً إلى الدولة العليّة، بالتعريف بهذه الأحوال، وأرسل معه الترجمان المذكور، فوصلا يوم عيد الفـطر، وحـصل عـند الدولة[1] العـليّة اضطراب لهذا الخبر، فاشتورت الدولة، واتّفقت علىٰ أن لا يصلح هذا الخـلل إلاّ أهله (العرّيفون)[2] وحماته الذين هم في بيت الملك عريقون .

وبرز في الوجود ما كان في علم الله كامناً، وما قدّر به لبلده أن يعود كما كان آمناً، فاستدعىٰ مولانا السلطان وهو مقيم بأدرنة عند رجوعه من السفر مـولانا الشريف أحمد من محلّة كرك كنيسة المـذكورة، يـوم ثـالث شـوّال مـن السـنة المذكورة.

فبادر بالوصول إليه، فدخل عليه بعد صـلاة العـصر، فـقابله بـغاية الإجـلال والإكرام، والتحيّة والقيام، ووضع كفّه بكفّه، وتصافحا من قيام، قائلاً «اللّهمّ صلّ

(١) في السمط: السلطنة .

(٢) الزيادة من السمط .

علىٰ محمّد وعلىٰ آل محمّد عليه الصلاة والسلام» .

فكان أوّل خطاب وقع بينهما أن قال: يا شريف أحمد الحجاز خراب، أُريدك تصلحه، فوضع يده علىٰ رأسه ممتثلاً للأمر، فألبسه ثمّ جلس، وأمر الشريف أحمد بالجلوس، وكرّر عليه الكلام الأوّل مرّتين أو ثلاثة، وهو يجيبه بما أجاب به أوّلاً .

ثمّ التمس من حضرة السلطان بعض أوامر سلطانيّة، فأمر له بها، وقدّم له مركوب جميل مكمل، وأتبعه من الإكرام والإحسان، ما لم يحصره بنان ولا بيان .

واستمرّا في أدرنة إلىٰ يوم التاسع من شوّال المذكور، ثمّ توجّه إلىٰ كرك كنيسة، فأقام بها يومين، وضمّ مفرّقات أُموره وأحواله، وأوصىٰ علىٰ أهله وعياله، ثم توجّه إلىٰ إسلامبول، ومنها إلىٰ أسكدار .

ثمّ جدّ في مسيره ليلاً ونهاراً، وأرسل إلىٰ أمير الشامي يتربّص له بالعلا، وأرسل كتاباً إلى السيّد أحمد بن غالب ليكون مقامه، وكتاباً إلى الوزير المكرّم عثمان حميدان، كما تقدّم ذكره، ولحق الشامي بالعلا، ودخل المدينة المنوّرة، ولبس الخلعة السلطانيّة بحجرة جدّه كما لبسها أبوه، واستسرّت القلوب برؤية محياه، وتبلّجت الوجوه. إنتهىٰ نقل العصامي مع حذف واختصار[١] .

قلت: قد اتّضح لك من نقل العصامي، بيان نقل هذا السيّد الشريف السامي، إلىٰ أن لحظته عين العناية الربّانيّة، فعطفت عليه عواطف الدولة العثمانيّة، فأنالته غاية مأربه، وسنّمته ذروة منصبه، كما قد مرّ بك إيضاحه، وتبلّج لك صباحه، فورد مكّة المشرّفة، رافلاً في حلل الشرافة المفوّفة، وبرز علىٰ أُفق مكّة من تلك المطالع، كالبدر الطالع، فآمنت بقدومه البلاد، واطمأنّت العباد .

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٥٦ ـ ٥٦٠ .

وكان دخوله إلىٰ مكّة في اليوم السابع من ذي‌الحجّة الحرام إنتهاء سنة خمس وتسعين وألف.

وأمّا ورود الخبر بشرافته، والنداء باسمه الشريف، فكان في اليوم الثاني والعشرين من ذي‌القعدة من السنة المذكورة، كما تقدّم ذلك في آخر ترجمة الشريف سعيد بن بركات.

وأمّا لبسه لخلعة الشرافة، فكان في اليوم الثالث من شهر شوّال من السنة المذكورة.

وقد أرّخ ولايته الأديب الأريب جمال الدين محمّدعلي بن سليم بقوله وأجاد:

حين بشرى الشريف أحمد وأفت ... ملأ الكون بشرها وتجدّد
عاود التخت مالكاً قلت أرّخ ... عود يمنٍ بذلك العود أحمد[١]

وأرّخ ولايته أيضاً الأديب الفاضل الشيخ عبدالملك العصامي بقوله:

قضىٰ إلٰه العرش ربّ السما ... أنّك والي الفرش صوّانها
وأنّها بعد خراب بها[٢] ... حسّاً ومعنىً أنت عمرانها
قال حجاي وهو من طفحة السـ ... ـكر من الأفراح نشوانها
يجيد فيه ضبط تأريخه ... أتىٰ إلىٰ مكّة سلطانها[٣]

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٤.

(٢) في السمط: وأنّك من بعد خراب بها.

(٣) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٤.

فصل
في حوادث أيّام شرافته ومدّة ولايته وخلافته

قدوم الوزير محمّدعلي بن سليم :

وأوّلها افتتاح سنة ستّ وتسعين، ففي ثاني عشر جمادي الآخرة: كان قدوم الوزير المكرّم الجمالي محمّدعلي بن سليم، ناظم التأريخ المتقدّم، من نواحي اليمن، كان هذا الرجل وزيراً لأخيه الشريف سعد في دولته الأُولىٰ، وكانت له في تلك الدولة يد طولىٰ.

ثمّ خرج من مكّة ليلة خروج مخدومه، وتوجّه تلقاء اليمن وأقام بها مترقّباً لقدومه، وصار في غيابه ذاك نقض وإبرام لماله بمكّة من الأملاك.

ولمّا بلغه وصول الشريف أحمد إلىٰ أقطار الحجاز، أقبل عليه، فعامله بالإكرام والإعزاز، فألقىٰ بها عصاه، واستوطن من العزّ أقصاه، فهذه نتيجة عاقبة الصبر علىٰ حدوث الأيّام وحوادث الدهور والأعوام، فلابدّ أن يعقبه الفرج، ويرتفع ذلك الحرج.

هي الأيّام والغير ... وأمر الله منتظر
أتيأس أن ترىٰ فرجاً ... فأين الله والقدر[1]

وفاة الشيخ يحيى بن محمّد النابلي :

وفي هذه السنة: توفّي العالم العلاّمة، والفاضل الكامل الفهّامة، أبوزكريا يحيى ابن الفقيه الصالح محمّد البابلي[2] الشاوي الملياني المغربي[3].

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٥.

(٢) في «د»: النسايلي.

قال صاحب لسان الزمان: كان إماماً فاضلاً نبيهاً، سكن مصر وأقام بها، وأخذ الناس عنه بها، وله مؤلّفات، منها: حاشية علىٰ أُمّ البراهين للسنوسي نحو عشرين كراساً، وشرح على التسهيل لابن مالك، وكتاب في النحو لطيف، وكان آية في الحفظ والفهم. انتهىٰ.

وفاة الشيخ أحمد البشبيشي :

وفي غرّة شهر رجب: توفّي الشيخ الجليل، الشيخ أحمد بن عبداللطيف البشبيشي الشافعي المشهور، وكانت ولادته سنة إحدىٰ وأربعين وألف، وله عدّة شيوخ أخذ عنهم، حتّىٰ صار إماماً في جميع العلوم، وقصده الفضلاء إلىٰ مصر، ونشر بها العلوم، ثمّ رحل إلىٰ مكّة المشرّفة حاجّاً، وأقام بها ثلاث سنوات، ثمّ عاد وتوفّي في بلده بشبيش في السنة المذكورة(٤).

دخول شيخ آل ضفير إلىٰ مكّة :

وفي شهر شعبان من السنة المذكورة: دخل شيخ آل ضفير سلامة بن مرشد بن صويت مكّة المشرّفة، فأنزلهم الشريف أحمد بخيام قد نصبها لهم بالمحصّب، ثمّ سمح عنهم وأخذ لهم خواطر السادة الأشراف جميعاً؛ لأنّهم كانوا جنية لهم، ووصلوا في أمان الشريف أحمد، وأمانهم جميعاً ثمّ عادوا(٥).

خروج الشريف أحمد إلىٰ عنزة :

وفي سنة سبع وتسعين وألف في عاشر ربيع الثاني منها: كان خروج الشريف

---

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٥.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٧، وتاج العروس ٩: ٦٢.

(٥) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٧ ـ ٥٦٨.

أحمد بن زيد إلىٰ جهة الشرق، ثمّ قصد عنزة، وهي قبيلة عاصية، فوصل إليهم واستأصلهم، حتّىٰ دخلوا تحت طاعته[١].

وزارة سليمان باشا ميرياخور:

وفي هذه السنة: ولي الوزارة العظمىٰ سليمان باشا مير ياخور[٢]، ووصل منه خلعة سنيّة صحبة قاصد للشريف أحمد، وكان دخوله مكّة المشرّفة سابع عشر شهر ربيع الثاني من السنة المذكورة، وحضره الشريف بالمبعوث[٣].

وفاة السيّد محمّد بن يعلى الحسني:

وفي هذا الشهر من السنة المذكورة: توفّي السيّد العظيم الأمجد، السيّد محمّد ابن يعلى بن حمزة بن موسى بن بركات بن أبي‌نمي، والد شريف مكّة المعظّمة الشريف عبدالكريم الآتي ذكره، وكان من رؤساء السادة، وممّن ثنيت له بينهم الوسادة[٤].

وفاة إمام اليمن محمّد المؤيّد:

وفي هذه السنة: توفّي إمام اليمن الإمام محمّد المؤيّد، وحصل باليمن اختلاف عظيم بين أبناء الأئمّة، ثمّ استقرّ الأمر وقام بالإمامة جمال الدين أبو عبدالله محمّد ابن أحمد بن الحسن بن القاسم، ولقّب بالمهدي.

وكان ذا كرم بارع، وفضل نوره ساطع، ودولة قاهرة، وصولة باهرة، وصلات

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٨.

(٢) في السمط: ميرأخور.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٨، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٣٣.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٨، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٣٣.

عميمة، وهبات جسيمة، واستمرّت دولته مدّة مديدة، إلىٰ أن عزل منها بالقاسم بن حسين، كما سيأتي ذلك في سنة عزله، وسنترجمه ترجمة سنيّة، لا يـقة بـحضرته العليّة.

فصل
في ذكر ملوك اليمن

وإذ قد ذكرنا وفاة هذا الإمام المذكور الذي كان مستولياً عـلىٰ قـطر اليـمن المشهور، فلا بأس بذكر ملوك هذا القطر علىٰ سبيل الإجمال، لحـيث المـناسبة، وزيادة الفائدة، مطلوبة علىٰ كلّ حال.

وقال بعض عمد المؤرّخين: وقطر اليمن هذا ملك واسع ضخم، يشتمل عـلىٰ مدائن عظيمة، وملوكه أهل شوكة، وسكّانه العرب العرباء؛ لأنّ سام أولد إرم، ومنه تفرّعت قبائل العرب، وسكنوا أرض اليمن، ومنهم قـبائل عـاد، وسكـنوا أرض الشام والحجر والبلقاء، ومنهم قبائل ثمود، وكانت ملوكهم من أولاد عـاد أهـل شوكة ونجدة.

ومنهم من غالب المعمور من الأرض، مثل شدّاد بن عاد، ثمّ من بعده من ملوك حمير، ومنهم ذو القرنين الأوّل، وكان في عهد إبراهيم عليه السلام دوّخ الأرض ومـلك غالب المعمور.

ثمّ التتابعة من ملوك حمير، وهم ثلاثة: تبّع الأكبر، وتبّع الأوسط، وتبّع الأصغر، وهو الذي ملك الأرض، وصحبته حبران من أحبار اليـهود مـن مـدينة يـثرب، فحملاه علىٰ اتّباع شريعة موسىٰ عليه السلام، وكانت قبائل حمير عبدة أوثان علىٰ ملّة العرب، فدخل تبّع إلى اليمن بشريعة موسىٰ عليه السلام، وجرىٰ بينه وبين أهـل اليـمن منازعة، ثمّ دخلوا معه في الدين، وهذا تبّع هو المشار إليه في قوله تعالىٰ ﴿أهم

خير أم قوم تبّع﴾[١] فصارت مدائن اليمن كلّها علىٰ دين موسىٰ عليه السلام.

إلىٰ أن دخل اليمن حبر من أحبار النصارىٰ، يقال له: ميمون، إلىٰ نجران من أرض اليمن، فأتبعه شخص منهم، يقال له: عبدالله بن السامر، ولم يزل يظهر للناس كثيراً من المعجزات والآيات، حتّى أتبعه جمع من أهل تلك الأرض.

فلمّا علم ملك اليمن ذو نواس نهى الناس عن ذلك، وأن لا يتبعوا دين عيسىٰ عليه السلام، وتوعّد من فعل ذلك، ثمّ خدّ الأُخدود، وهو حفيرة مستطيلة، وأوقد فيها النار، وصار يعرض من خرج من ملّة اليهوديّة إلى النصرانيّة، فمن رجع تركه، ومن أبىٰ ألقاه فيها، وذلك قول الله تعالىٰ ﴿قتل أصحاب الأُخدود * النار ذات الوقود﴾[٢].

ثمّ لمّا فعل ذو نواس ما فعل بمن تنصّر، فرّ رجال منهم حتّىٰ وفدوا علىٰ قيصر ملك الروم، وشكوا عليه ما فعل ذو نواس، وكان قيصر علىٰ دين النصارىٰ، فغضب لذلك، وقال: إن أرضي بعيدة من أرضكم، ولكنّي أكتب إلى النجاشي ملك الحبشة، فكتب لهم إلى النجاشي، فأرسل النجاشي معهم بجنود من الحبشة، فأخرجوا ملوك حمير التتابعة، واستولوا على جميع إقليم اليمن، وأقاموا علىٰ ذلك مدّة.

إلىٰ أن توجّه سيف بن ذي يزن إلىٰ ملك الفرس كسرىٰ، واستنجده، فأمدّه بقليل من العساكر، وشيء من المال، فتوجّه معهم وجميع قبائل اليمن، فحارب بهم الحبشة وأخرجهم منها، واستولىٰ على اليمن، وأقامت معه نوّاب ملك الفرس باليمن، وتوالدوا وتناسلوا، فسمّوا الأبناء وهم أولاد الفرس، ومنهم وهب بن منبّه،

---

(١) سورة الدخان: ٣٧.

(٢) سورة البروج: ٤ ـ ٥.

وهمام بن منبّه، وعبدالرزّاق الصنعاني صاحب المصنّف، وغيرهم.

ثمّ ظهر الإسلام، وصار نوّاب الفرس على اليمن مشاركين لولاته، فلمّا أسلم أهل اليمن أرسل إليهم النبيﷺ ولاة، منهم: عليعليه السلام، ومعاذ بن جبل، وغيره.

فلمّا توفّي رسول اللهﷺ وارتدّت قبائل العرب، قامت نوّاب النبيﷺ(١) باليمن، وجاهدوا من ارتدّ عن الإسلام، وأرسل أبوبكر عمّاراً إلى اليمن من طرفه، وكذا عمر وعثمان وعليعليه السلام.

فلمّا صار الملك إلىٰ معاوية بعث ولاة من طرفه، فلمّا مات وولي ابنه استولىٰ على الحجاز واليمن والعراق عبدالله بن الزبير، وبعث ولاته إلى اليمن.

فلمّا قتل عبدالله في أيّام عبدالملك بن مروان، واستولىٰ أميرهم الحجّاج على الطرق، وبعث أخاه محمّداً وولده عاملين على اليمن، ولم يزل الحال كذلك في دولة بني اُمية ترد ولاتهم على اليمن.

وشرع في أثناء هذه المدّة قيام بين السادة الحسنيين والحسينيين، وغيرهم من الهواشم.

فلمّا صارت الخلافة في بني العبّاس، كثرت الدعاوي باليمن، وجرىٰ بينهم وبين بني العبّاس حروب وخطوب.

وفي أواسط بني العبّاس ظهر باليمن، رجل يقال له: الصليحي، وهو من دعاة الباطنيّة الإسماعليّة، وكان يدعو للعبيديين أصحاب المغرب ومصر، واستولىٰ على اليمن جميعه، ثمّ قتل.

وبعد مدّة ظهر باليمن شخص، يقال له: عبدالنبي، وهو أيضاً من دعاة الباطنيّة،

---

(١) في «ن»: رسول اللهﷺ.

وله زندقة ومروق عن الدين، فملك اليمن، وبقيت دولته مدّة هو وأقاربه .

ثمّ انقرضت بدولة بني أيّوب الأكراد الذين ملكوا مصر، وأقامت دولة هؤلاء بني أيّوب باليمن مدّة، وينازعهم بعض الدعاة من السادة، ويستولي علىٰ بعض الجهات .

ثمّ انقرضت دولة بني أيّوب بدولة بني رسول، وهم الذين يقال لهم: بنو غسّان، ودامت إلىٰ أن انقرضت في أواخر أيّام الجراكسة(١)، وكان آخر بني غسّان عامر ابن عبدالوهّاب وأخوه .

ثمّ لمّا صار الملك لبني عثمان، أرسلوا من طرفهم باشوات وأُمراء، فاستولوا على اليمن، وكان أيضاً ينازعهم في بعض جهاته بعض الدعاة من السادة، ويستولي علىٰ بعض الجهات، مثل السيّد شرف الدين وأهل بيته، حتّىٰ قام الإمام القاسم بن محمّد بالدعوة، فلم يزل ينازع الباشوات، إلىٰ أن استولىٰ علىٰ جميع قطر اليمن وأخرجهم منه، وآخر من خرج من عساكر آل عثمان في سنة ثمان وأربعين وألف .

ثمّ استولىٰ على اليمن بعد الإمام القاسم ابنه الإمام المؤيّد، ثمّ الإمام إسماعيل المتوكّل، ثمّ بعده الإمام أحمد بن الحسن، ثمّ الإمام المؤيّد أحمد(٢) بن المتوكّل، وتوفّي في سنة سبع وتسعين وألف، فوقع التشاجر والخلاف، إلىٰ أن استقرّ الحال بالإمام محمّد بن أحمد بن الحسن، كما تقدّم ذكره، وسيأتي تأريخ عزله بالإمام القاسم بن حسين إن شاء الله تعالىٰ عند ذكر وفاته، فهذه جملة مفيدة تتعلّق بقطر

---

(١) في «ن»: الشراكسة .

(٢) في «ن»: محمّد .

اليمن وولاته إلىٰ هذا الزمن .

عوداً إلىٰ ما نحن بصدده :

وصول الشريف أحمد إلىٰ جدّة :

وفي سادس عشر شهر شوّال من السنة المذكورة: كان وصول الشريف أحمد إلىٰ مدينة جدّة، بعد أن أغمد سيفه في عنزة، واستطاعهم حتّىٰ صار شيخهم بمنزلة عبده .

ومن يعص أطراف الزجاج فإنّه يطيع العوالي ركّبت كلّ لهزم

واستمرّ بالمدينة المشرّفة إلىٰ ثاني عشر ذيالقعدة الحرام، ثمّ توجّه الىٰ مكّة ودخلها ليلة هلال ذيالحجّة الحرام، ختام سنة سبع وتسعين وألف[١] .

وصول خلعة سنية للشريف أحمد :

وفي رابع الشهر المذكور: وصلت خلعة سنيّة ومرسوم شريف لحضرة مولانا الشريف، ومضمونه نشر الثناء الجزيل، علىٰ هذا السيّد الجليل، فلبس الخلعة السامية بالحطيم، وحصل له مزيد الإعزاز والتعظيم[٢] .

هدم البيوت الملاصقة بالمسجد :

وفي عشري الشهر المذكور: أمر أحمد باشا صاحب جدّة بهدم كلّ خلوة ملاصقة للمسجد المكّي، وما كان هدمه مخلاًّ بأجدرة المسجد أبقاه وسدّه، وسبب نقضها وقوع فسوق في بعضها[٣] .

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٨ ـ ٥٦٩، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٣٣ .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٩ .

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٩ .

حوادث سنة ثمان وتسعين وألف :

ثمّ دخلت سنة ثمان وتسعين وألف، وفي تاسع محرّم الحرام منها: عدا أحمد باشا المذكور علىٰ مفتي مكّة المشرّفة في تلك العصور، وهو العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، عبدالله أفندي عتافي‌زادة، فأوقع به ما لا يليق بمقامه، ولا يرضاه مسلم لبعض خدّامه، وأخال أنّه لغرض كان في نفسه، وعلّة كامنة من أمسه، فأبرزها في قالب الغضب عليه، عند صدور جواب قاسٍ من المفتي إليه .

وذلك في يوم كان قد طاف برواقات المسجد الحرام فيه، لرفع ما كان فيه زيادة من المدارس المشيّدة بنواحيه، فحين وقع منه ما وقع في شيخ الإسلام، ثار لذلك الخاصّ والعامّ، واستدعىٰ إلىٰ قاضي الشرع الشريف، فتوقّف عن الحضور خشية علىٰ مقامه العالي المنيف، ممّا يتوهّم وقوعه من العامّة من الرجم، وانتهاك حرمته بعد الهجم .

فاستدعاه حضرة الشريف ليلاً، وشمّر لتأديبه بقوارع اللسان ذيلاً، وأسمعه من الكلام، ما يعدّ من أعظم الكلام، فاعترف مبتدراً، وتنصّل معتذراً، وأنشد لسان حاله بعد وقوع ذلك الخطأ :

من لم يقف عند انتهاء حدّه ‏ ‏ ‏ ‏ تقاصرت عنه فسيحات الخطا[1]

بناء الحائط علىٰ مقابر مكّة :

وفي أواخر محرّم الحرام المذكور: شرع الوزير المكرّم عثمان حميدان وكيلاً من طرف الدولة العليّة آل عثمان، في بناء الحائط المستدير على المقبرتين، الباقي إلى الآن، وهي مقبرة السيّدة خديجة عليها السلام، ومقبرة الشيخ عمر العرابي، والثالثة

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٦٩ .

مقبرة الشيخ محمّد بن سليمان المتقدّم ذكرها[١].

وفاة الشيخ محمّد البخشي الدمشقي:

وفي شهر ربيع الآخر منها: كانت وفاة الشيخ الجليل الصالح، شيخ الطريقة، وإمام الحقيقة، الشيخ محمّد الشهير بالبخشي الدمشقي بمكّة المشرّفة، ودفن بالمعلاّة أمام قبّة السيّدة خديجة أُمّ المؤمنين، ودفن بجانبه السيّد محمّد بن زين العيدروس[٢].

إخراج التكرود من مكّة:

وفي شهر جمادي الآخرة: وقع إلزام من حضرة الشريف في إخراج جميع من بمكّة من جنس التكرود، بنداءٍ في الأسواق، فخرجوا برمّتهم.

وسبب ذلك أمران:

الأوّل: وقوع سرقة منهم في البلاد.

والثاني: التظاهر بعمل السحر بمكّة المشرّفة حتّىٰ فشي[٣].

عزل أحمد باشا والي جدّة:

وفي الثامن والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة: وصل الخبر بعزل أحمد باشا صاحب جدّة بمحمّد بيك[٤].

وفي غرّة شعبان: وصلت المستلم بصورة الأمر السلطاني بعزل أحمد باشا،

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٣٤.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٠.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٠.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧١.

والحثّ عليه بالوصول، وسجّل ذلك الأمر بمحكمة مكّة المشرّفة بنظر الشريف، وأكرم المستلم، ثمّ نزل إلىٰ بندر جدّة، وأكرمه أحمد باشا.

ثمّ تهيّأ للسير إلى الأعتاب، ووصل إلىٰ مكّة، وأعانه الشريف إعانة لا يليق بمقامه من الخيل والركاب، ثمّ مشىٰ إلى الدولة في عاشر شهر شعبان من السنة المذكورة، وأصحبه الشريف السيّد علي بن أحمد بن علي، وجملة من الرجال، ثمّ عادوا بعد مدّة(١).

وفي السادس والعشرين منه: وصل إلىٰ مكّة أمير اللواء محمّدبيك صاحب بندر جدّة، فتلقّاه الشريف بنهاية الإكرام، وفي غرّة رمضان نزل إلىٰ بندر جدّة(٢).

الوباء العامّ بالطائف:

وفي هذا الشهر: عمّ الطائف جميعاً أرضه وبيوته وحدائقه وباء، حتّىٰ ملأ السهل والوعر، وترك الأشجار عارية، لم يبق فيها شيئاً من الخضرة، واستمرّ مدّة، ثمّ ذهب(٣).

نصرة المسلمين على الكفّار:

وفي شهر ذي‌القعدة: وصل مبشّر من جهة الروم بنصرة سلطان الإسلام على الكفّار الطغام، والمفقود منهم ما بين قتل وأسر سبعون ألفاً، واسترجعوا جميع ما وضعوا أيديهم عليه من بلدان المسلمين(٤).

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧١.

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧١.

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧١.

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٢.

حوادث سنة تسع وتسعين وألف :

ثمّ دخلت سنة تسع وتسعين، وفي حاديعشر محرّم منها: انفصل عثمان حميدان عن وزارة الشريف بيوسف آغا سنان[١] .

انزعاج الشريف أحمد بن غالب :

وفي شهر صفر من السنة المذكورة: انفصل السيّد الشريف، والهمام الغطريف، ليث آل أبيطالب، السيّد أحمد بن غالب، عن الشريف أحمد لأمر اقتضىٰ ذلك، حتّىٰ هجر أقطار الحجاز وتلك المسالك، وتبعه جمّ غفير من السادة العظام، والمنهل العذب كثير الزحام، وقصد الديار المصريّة، ثمّ منها إلى الدولة العثمانيّة، بعزم سني، وإقدام حسني، وحزم[٢] له من دون يأجوج ماكر، ومأجوجهم سبك الحجا محكم السدّ .

وحلمٌ يخفّ الطود عدلاً بوزنه إلىٰ لطف ذاتٍ دونه سلسل الورد
وجودٌ محت آياته صيت من مضىٰ كذاك جرىٰ الوادي فطمّ على الثمد

وكان سيره في أواسط ربيع الأوّل من السنة المذكورة هو وجميع من معه من السادة بأكمل الأوصاف المستجادة. وبعد ممشاة أرسل الشريف في أثره، ردّ أفعاله عن مملكته وقطره، جملة من العساكر والأنصار، مرّتين أو ثلاث مرار[٣] .

وفاة الشريف أحمد بن زيد :

وفي الساعة الثالثة من يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر جمادي الأُولىٰ

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٢ .

(٢) في «ن»: وجزم .

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٢، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٣٥ .

من سنة تسع وتسعين وألف: توفّي حضرة الشريف أحمد بن زيد صاحب مكّة المشرّفة، رحمه الله تعالىٰ، وأولاه ألطافاً تـوالىٰ، ودفـن عـلىٰ والده المرحـوم الشريف زيد بقبّة الشريف أبي طالب.

فكانت مدّة ولايته باعتبار لبسه الخلعة الشرافة بـالأبواب السـلطانيّة ثـلاث سنوات وسبعة أشهر وتسعة عشر يوماً، وباعتبار ورود الخبر إلىٰ مكّة وقيام السيّد مساعد بنيابته ثلاث سنوات وخمسة أشهر وثلاث وعشرين يوماً[١].

قلت: كان هذا السيّد الأشرف، والسند الأمجد الأرأف، والملك الهمام، والأسد الضرغام، ذا هيبةٍ ووقار، وعدل شائع في الأقطار، ورد مكّة وهي مفعمة بالمظالم، فنصر المظلوم، وخذل الظالم، وأزال ما كان بها من الفساد، الذي أذهب العـباد، وأخرب البلاد، فغدت مكّة بها زاهرة، ودولته باهرة بها وقاهرة.

وقـــام بأمـــر الله لم يـــبق قـــاسطٌ ... بأحكـــامه إلاّ وقـــد راضـــه القسـط

وســـار عـــلىٰ نـــهج الســـداد بـــنيةٍ ... صـفا وردهـا لله مـا شـاء بـها خـلط

وأيّـــد مـــظلوماً وأضـــعف ظـــالماً ... إلىٰ أن غدا يسطو على الأجدل البسط

فلله درّه من ملك أسدّ، وعادل هدم ربوع المظالم وهدّ، وطـود حـلمٍ مـنيف، وجود خصبٍ وريف، مع فضل بارع، وفهم المسائل الغامضة قارع، وأدب غضّ ندي، تتهاداه الأسماع في كلّ محفل وندي، وفوائد في العلوم الأدبيّة جمّة، يرويها لسان الدهر لأُمّة بعد أمّة.

وإن أقرّ علىٰ رقٍّ أنـامله ... أرقّ بالرقّ كتّاب الأنام له

فلعمري لقد أوكر الشعر ببابه، وأبكر طلاّب الفوائد إلىٰ هاطل جنابه، فهبّت أمّ

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٣، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٣٥.

مرزم مكارمه عليهم، وصدّقهم سنّ بكر أمواله المنابة إليهم.

فمن جملة من بادر إلىٰ مدحه، وبتر بما مني جوده، وعنق برحه، نادرة عصره، وأديب مصره، صاحبنا الشيخ سالم الصعدي، قال:

سمح الزمان لنا بملك بني حسن ... فلذا شهدنا أنّه زمنٌ حسنْ
لله من زمنٍ صفت أوقاته ... بدوام دولة من له العليا شجن
المالك الملك المؤيّد أحمد بـ ... ـن المنتقى زيد المليك المؤتمن
رأس الملوك يمينهم زند الر ... عيّة كهفهم يوم المخاوف والمحن
ملكٌ أقام السعد يخدمه علىٰ ... رغم الحسود أخي الضغائن والإحن
ملكٌ له الفخر[1] المخلّد لم يزل ... عبداً يحفّ ركابه طول الزمن
ملكٌ غدا المجد الأثيل أليّةً ... نعلاً لأخمصه المصانة عن درن
ملكٌ له العزّ[2] المؤبّد قد غدا ... من جملة الأنصار والجند العون
ملكٌ تتوّج بالسيادة والعلا ... وتدرّع الفضل الذي لم يمتهن
ملكٌ له في الجود شهرةُ حاتمٍ ... وسماحة الغيث الملثّ إذا هتن
ملكٌ إذا نزل الفقير بسوحه ... أنساه تذكار الأقارب والوطن
ملكٌ إذا أمّ الفقير نواله ... أضحىٰ يطوّقه أعاجيب المنن
ملكٌ له يوم العطاء طلاقة الو ... جه الذي ماء الحياء به قطن
ملكٌ له الخلق الوسيم كذا له الـ ... ـخلق العظيم كذا له الفعل الحسن
من آل طٰه والبتول وحيدرٍ ... من نخبة الأشراف أبناء الحسن

---

(١) في السمط: العزّ.

(٢) في السمط: الفخر.

مـن سـادةٍ أضـحىٰ حـديث عـلاهم ... تـالله يـطوي نشـره عـنّا الحـزن
مـن قـادةٍ قـطعوا بـبيض سـيوفهم ... تلك المـواضـي دابـر القـوم الخـون
من عصبةٍ ساروا عـلىٰ سـنن الهـدىٰ ... قـدماً فـيا نـعما بـذيّاك السـنن
مـن فـتيةٍ شـمّ الأُنـوف القـائميـ ... ـن بحمل أعباء الفـرائـض والسـنن
وسليل زيـد المـلك هـذا المـرتضىٰ ... هـو خـيرهم نـفساً وأزكـاهم هـدن
هـذا الذي مـلك[1] البـقاع أمـانه ... فأراع جيش الخوف بـعد أن أطـمأن
حـتّىٰ رعـىٰ ذئب الفـلاة مـع الظـبا ... وتكـحّل الجـفن المسـهّد بـالوسن
هـذا الذي طـافت مكـارمه بأر ... ض الصـين بـالروم المـعمّر بـاليمن
هـذا الذي سـارت عـوارفـه مـن الـ ... ـبلد الحـرام إلى العـراق إلىٰ عـدن
وإلىٰ مآثـر طـيبة الغـرّا إلىٰ ... أرض الحجاز إلى الخبوت إلىٰ قـرن
هـذا الذي بكـمال وافـر عـدله ... خـمدت لظـىٰ نـار المـظالم والفـتن
صعب العـزائـم مـن فـرىٰ بـصفاحه ... ورماحه من شا ومـن شـا قـد طـعن
ثـبت الجـنان إذا التـقى الصـفّان أثـ ... ـبت من كسا جـنن البسـالة والمـنن
طـلق اللسـان إذا أشـار إلى البـيا ... ن أجلّ من وهب الفـصاحة والفـطن
يـابن الكـرام الأقـدمين ومـن لهـم ... غـرر المـعالي لم تـزل أبـداً خـدن
يـا أيّـها المـلك الذي حـمد الورىٰ ... أفـعاله اللاتـي بـها الخـير اقـترن
خـذها قـصيدة مـخلصٍ مـن ودّه ... لك في حميد السرّ مـنه وفـي العـلن
غـرّاء هـذّبها الذكـاء وصـاغها الـ ... ـفكر الذي هو بالمتاعب فـي وهـن
هـذا ولولا صـحبة الصـبر الجـميـ ... ـل لفارق الأهلين واصطحب الظـعن

---

(١) في السمط: ملأ.

فأجـــز مـــنضّدها اللـــجين فـــإنّه ... رجـــلٌ عـليه الدهـر بـالدينار ضـن
واســـلم ودم طـول الزمـان مكـرّماً ... ما غرّد القمري الطـروب عـلىٰ فـنن
وغدت جميع الخـلق تـنشد فـرحـةً ... سمح الزمان لنا بملك بني حسـن[1]

وقد نظم غير واحد درّ المدح فيه، ورضع درّ نائله بفيه، فاكتفينا بهذا القـليل، مخافة حصول الملل بالتطويل، وإنّما كان العصامي أرّخ وفـاته بأبـيات أخـطأه حسن السبك وفاته، ومطلعها :

فأجأنـا دهـرنا المـفاجيء ... سـطا عـلينا بـطول أيـدي
طـاش حـجانا لمـا دهـانا ... بمن حجانا صروف كـيدي

ومنها :

لموت سلطانا المرجّـي ... أبي‌سليمان زين أيـدي
الملك النائف المـراقـي ... وشـائد العـزّ أيّ شـيد

إلىٰ أن قال :

دونك بشرىٰ بفال خيرٍ ... تأريخ عامٍ بضبط جـيد
دار نـعيمٍ حـبىٰ كـريمٍ ... قرّ بها أحمد بن زيد[2]

ترجمة السيّد الشريف أحمد بن غالب بن محمّد بن مساعد ابن مسعود بن حسن بن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرّفة

قلنا: كان الذي ينبغي سيراً علىٰ نهج هذا التأريخ المسلوك، في ترتيب تراجم الملوك، تقديم الشريف سعيد بن سعد على الشريف أحمد بن غالب، كما فعل ذلك

---

(١) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٣ ـ ٥٧٥.
(٢) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٥.

العصامي[١] وغيره؛ لكونه تولّىٰ شرافة مكّة بعد عمّه، ونفذ بها علىٰ رفاقته ورعاياه أسنّة حكمه .

ونحن قدّمنا الشريف أحمد علىٰ صاحبه، غير ذاهبين إلىٰ تفضيل أحدهما على الآخر في مسالكه ومذاهبه، بل هما كالفرقدين إذا تأمّل ناظر لم يغل[٢] موضع فرقد من فرقد، وإنّما أخّرناه لأمرين .

أمّا الأوّل وهو الذي عليه المعوّل: أنّه لم يؤيّد من الدولة العثمانيّة، ولم يفض عليه بها خلعة سلطانيّة، بل من حين بلغهم انتقال الشريف أحمد بن زيد بأمر الله الغالب، وجّهوا الشرافة إلى الشريف أحمد بن غالب .

والأمر الثاني: كونها مدّة جزئيّة المقدار، مختبطة السيل والقرار، وأمّا دولته الطويلة المدد، الكثيرة العدد، فهي المتأخّرة بعد الشريف أحمد المذكور، والمنتشر بها صيته المشهور، وخصوصاً دولته الأخيرة، التي ورد فيها صافي العزّ ونميره، وفي آخرها دعاه أبويحيىٰ، وفارق دنياه، ومن بها من الأحياء، وأخال أنّي عملت بما هو الأحقّ إذا حصحص الحقّ، وسنوفي الشريف سعيد حقّ مقامه، إذا وصلنا إلىٰ وصلنا ترجمته بنهاية إعزازه وإكرامه .

عوداً إلىٰ ترجمة الشريف أحمد بن غالب، رحمه الله رحمة الأبرار، وحشره مع أجداده الأطهار .

قال الشيخ عبدالملك العصامي: وأمّا الخبر عن مولانا الشريف أحمد بن غالب، فإنّه لمّا سار هو ومن معه من السادة الأشراف والأتباع في شهر ربيع الأوّل، مضىٰ

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٥ .

(٢) في «ن»: لم يعل .

إلىٰ أن انتهىٰ به السير إلىٰ محلّ يسمّىٰ بحراً بين المحل المسمّىٰ بالأزلم، والمحلّ المسمّىٰ كفاف منزلتي الحاجّ المصري، فأقام به، ووصل إليه به سابع عشر جمادي الأُولىٰ أحمد آغا[١] صاحب القفطان، فقابله مولانا الشريف بغاية الإكرام، ونهاية الإجلال والإعظام، كما هو شأن طبعه الشريف، ودأب خيمه الزاكي المنيف، وأقام عنده يومين، ثمّ رحل من عنده بما أرسل به لمن أرسل إليه .

ثمّ إنّ مولانا الشريف أرسل مولانا السيّد بشير[٢] بن السيّد مبارك ومعه السيّد دراج الهجاري[٣] في جماعة من الأتباع إلىٰ محافظة مصر حسن باشا، بلغه الله من الخيرات ما شاء، بعرض يتضمّن ما أراده .

وكان رحيل السيّد بشير[٤] ومن معه يوم الخميس ثاني عشر الشهر المزبور، أعني: جمادي الأُولىٰ، وهو اليوم الذي توفّي الشريف أحمد فيه، فدخلوا مصر وأوصلوه العرض .

ولمّا كان يوم سابع عشر جمادي الآخرة: وصل خبر وفاة المرحوم الشريف أحمد بن زيد إلىٰ مصر، فحينئذ أخرج لهم أمراً وقفطاناً باسم مولانا الشريف أحمد ابن غالب، وسيّره مع كيخيته، وضمّ إليه آغاوات من البُلكات من كلّ بلد رجل[٥] عظيم الشأن، فخرجوا من مصر ثاني عشري شهر شعبان المعظّم .

---

(١) في السمط: القابجي أحمد آغا .

(٢) في السمط: شبير .

(٣) في السمط: الهجالي .

(٤) في السمط: شبير .

(٥) في السمط: بلك جوربجي .

ثمّ أعرض إلى الأبواب العالية لمولانا الشريف أحمد بأشدّ السير لتأييده بالأمر السلطاني، والقفطان الخاقاني.

ثمّ إنّ السيّد بشير[١] بعد خروجه من مصر، أرسل إلى الشريف أحمد: إنّا واصلون إليكم عن قريب صحبة القفطان ومن معه، فأقبل مولانا الشريف أحمد هو والسادة الأشراف، وخدّامهم وأتباعهم إلى الينبع، وأقام بها أيّاماً، ثمّ منها إلىٰ قرية بدر، وكان دخوله إليها خامس عشري شهر شعبان، فأقام بها.

ولمّا كان يوم الجمعة ثامن عشر رمضان: وصل إليه القفطان، ومن معه من الآغاوات، فألبسوه إيّاه بمسجد الغمامة منها، وهو الموضع الذي بني فيه العريش للنبي ﷺ، فقعد فيه يوم وقعة بدر المشهورة، كما ذكره المؤرّخون الأقدمون.

ثمّ ساروا جميعاً مقبلين إلىٰ مكّة ـ زادها الله شرفاً ـ وقد كان جاء يوم الاثنين رابع عشر رمضان المذكور، مورق إلىٰ مكّة المشرّفة من حضرة محمّدبيك صحبة مكتوب الىٰ حضرة الأفندي وأكابر عسكر مصر، مضمونه: إنّه جاءني صورة أمر من صاحب مصر بولاية الشريف أحمد بن غالب، وأن يبرزوا المقابلة القفطان ومن معه.

فلمّا وصل ذلك المكتوب، طلعوا إلى الشريف سعيد، وأخبروه بما فيه، وكان الشريف سعيد قد سمع بأنّه قد نودي باسم الشريف أحمد في جدّة، فأجابهم بقوله: إن كان بيد السيّد أحمد بن غالب، أو صاحب جدّة، أمر سلطاني، فليأتوا به، ونحن مطيعون للأمر السلطاني. وإن كان غير ذلك، فحكم الباشا علىٰ مصر وصعيدها يعزل فيه ويولي من يشاء، وما دون مكّة إلاّ السيف، فقال له الأفندي: يا مولانا

---

(١) في السمط: شبير.

هذا وزير مصر يعزل ويولي، فكذّبه صريحاً، وقال: يعزل ويولي لمثلك.

ثمّ قال لكبار العساكر: أنا لا أمنع من يريد الخروج، ولكن اعلموا أنّ أوّل خارج أوّل من أضع السيف فيه، وإلاّ فالزموا بيوتكم لا معنا ولا علينا، ثمّ سطر كتاباً لصاحب جدّة يقول له فيه مثل قوله الأوّل، فوصل الكتاب إليه وهو بالمحلّ المسمّىٰ بحرة من طريق جدّة، فأعاد إليه الجواب لابدّ من الدخول.

فلمّا سمع الشريف هذا الجواب، أمر عساكره بصعود المنائر، وشحنت بيوت بأعلا مكّة وأسفلها بالعسكر، وأرسل بنحو أربعين[1] خيلاً وعشرين دباباً، عليهم السيّد حسن بن عبدالكريم بن حسن بن علي بن باز، وقال: أينما لقيتموه فردّوه، فإن رجع، وإلاّ فكذا وكذا، فخرجوا بعد صلاة العشاء حتّىٰ واجهوا مخيّمه مقبلاً علىٰ أدنىٰ محلّ إلىٰ مكّة، فردّوهم، ثمّ ساروا هنيئة حتّىٰ لاقوه، فتقدّم السيّد حسن المذكور وقال له: يا سنجق يقول لك الشريف: إرجع وإلاّ فعلنا ما هو كذا وكذا في هذا المكان، ومن حذر فقد أنذر.

ثمّ قال لمن في صحبة السنجق من الأشراف، وهم السيّد محمّد بن مساعد، والسيّد عبدالله بن أحمد الحارث، والسيّد صالح بن مساعد: يقول لكم الشريف: ما لكم دخول إلىٰ ديرتي، ارجعوا من حيث شئتم، فرجعوا.

ثمّ رجع السيّد حسن، فوجد مورّقاً من الأفندي وكبار العسكر إلى السنجق، يعتذرون من الخروج لملاقاته، ويأمرونه بالدخول ليلاً هو ومن معه إلىٰ مدرسة الأفندي ليكون أمراً بيّت بليل، فازداد بهم البلاء والويل، هكذا روي.

وروي أيضاً أنّ ليلة الاثنين حادي‌عشر رمضان أنّ بعض عسكر رتبة الفرع

---

(١) في السمط: خمسين

مقبلاً[١] إلىٰ مكّة لغرض له، فوجد مكتوباً مع مورّق أرسله محمّد آغا البغدادي إلىٰ مولانا الشريف أحمد، فأوصله إلى الشريف سعيد، فقرأه ودعا البغدادي بعد صلاة التراويح ووبّخه، فأجاب بالإنكار، فأظهر له الشريف ذلك المكتوب، ثمّ أمر به فضمّ فوبّخ، واستدعىٰ بعبده، فأخذه من الحجر المطهّر، وأمر بحذف رأسهما من ليلتهما بأجياد، وكسرت أبواب بيوته، وأخذ ما فيها جميعه، وكان شيئاً كثيراً من أنواع كثيرة، بعد أن حاصر فيها أربعة من عبيده، ثمّ قتلوه.

ثمّ إنّ حضرة السنجق محمّدبيك استقبل مولانا الشريف أحمد بن غالب، ومن معه من السادة الأشراف والآغاوات بعساكره، ونوبته عند انفصالهم من ملاوي الوادي، أي: وادي مرّ، فواجههم وحيّاهم، ثمّ دخلوه معاً جميعاً، ثمّ أتىٰ عليهم به مولانا السيّد أحمد بن سعيد بن شنبر بن حسن، فركب إليه الشريف وتلقّاه من بعد، واعتنقا بخالص الصدقة والودّ، وأتاه في قريب من خمسين عنان كان الله له حيث كان.

وفي تاسع عشر رمضان: وصل الخبر بأنّ الشريف أحمد قد نزل بوادي مرّ هو ومن معه، فأمر الشريف سعيد حينئذ الفعلة ببناء متارس عديدة علىٰ رؤوس جبال الزاهر، ومضايق ثنيتي كداء وكدا، ورتّب فيها العساكر وفي غالب الأماكن وضبط قانون الحرب، إلىٰ أن ورد خبر وصول الشريف أحمد إلى النوارية، وأُشيع أنّ قصده الدخول، وذكر اسمه الشريف في خطبة العيد، فأرسل الشريف سعيد السيّد باز بن هاشم، والسيّد واصل بن أحمد إلى الشريف أحمد يطلب إرسال الأمر الذي وصل إليه ليشرف عليه.

---

(١) في السمط: مقبل.

فلمّا وصلا إليه وخاطباه، غضب السنجق المذكور، ومن معه من الآغوات وأعيان البُلكات، وقال: ليس هذا الأمر ملعبة، وحصل بينهم كلام، فقال مولانا السيّد أحمد بن سعيد: يا أمير نحن رفاقة ونصطلح.

ثمّ أخذ السيّدين المذكورين، وتكلّم معهما بكلام لم يبلغنا حقيقته، فرجعا إلى الشريف سعيد، فأخبراه، فعزم حينئذ علىٰ إخلاء مكّة والخروج منها، وأمر العساكر بمفارقة المتارس والدور التي كانوا بها، وخرج نصف الليل من ليلة الجمعة ثاني شهر شوّال، وخرج معه أخوه السيّد مساعد وابن عمّه السيّد عبدالمحسن وغيرهما، وتوجّهوا إلىٰ قرية الطائف، ثمّ طلب من الشريف إقامة مدّة شهرين بها فأُعطيا، وفي حال خروجهم دخل السيّد حسن بن غالب في جماعة من الأشراف لحفظ البلاد[١]. إنتهىٰ نقل العصامي مع حذف واختصار.

وقد ظهر لك من هذا النقل مصداق ما ادّعيناه، من أنّه لم يصدر أمر سلطاني ولا خلعة بعد وفاة الشريف أحمد بن زيد إلاّ إلى الشريف أحمد بن غالب، فكان أحقّ بالتقديم كما فعلنا.

ثمّ إنّه دخل إلىٰ مكّة المشرّفة يوم الجمعة ثاني شهر شوّال بنهاية الإعزاز والإجلال، في موكب عظيم، وجحفل جسيم، من العساكر والأجناد، والخيل الصافنات الجياد، ونادىٰ مناديه باسمه الشريف، وعمّ قصّاده بجوده الوريف، وضبط مكّة وأقطارها، وأزال مظالمها، وأخمد نارها، فغدت مكّة تحتال به تيها، وتفتخر بحضرته العليّة كأنّه ابن أبيها.

---

(١) سمط النجوم العوالي ٤: ٥٧٧ ـ ٥٨١.

(وأصـــبحت مكّـــة فـي عـدله وفضله تشبه روض الجنان)[١]

فصل

في حوادث دولته ومحاسنها وجمع نبذ من أحاسنها

ففي اليوم المذكور: عزل حاكم مكّة المشرّفة القائد أحـمد بـن جـوهر بـعبد الشريف سنبل، وقام بها أحسن قيام[٢].

وفي حادي‌عشر الشهر المذكور: لبس خلعة الوزارة السنيّة للدولة الأحمديّة الحسنيّة، الجناب المكرّم، والمآب المعظّم، إبراهيم بن علي حميدان، فـتعاطىٰ له كلّ أمر ودان[٣].

وصول الأمر السلطاني والخلعة للشريف أحمد :

وفي يوم السبت ثامن شهر ذي‌القعدة آخر سنة تسع وتسـعين وألف: وصـل الأمر السلطاني، والقفطان الشريف الخاقاني، صحبة سليمان آغا سلحشور، فنزل مولانا الشريف إلى الحطيم، ولبس الخلعة الشريفة به، وهو فـي غـاية الإجـلال والتعظيم، بحضور السادة الأشراف، والقادة من آل عبد مناف، وجميع الأعيان، المقيمين بمكّة المشرّفة في ذلك الزمان، وكان يوماً مشهوداً، خفقت به رايات جدّه المسعود، فهرعت الأُدباء بالتهنأة بهذا التأييد، وتلت آيات شعر بأيوانه السـامي الفريد[٤].

---

(١) ما بين الهلالتين من نسخة «د» فقط .

(٢) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٨٦ .

(٣) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٨٧ .

(٤) راجع: سمط النجوم العوالي ٤: ٥٨٤، وإتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٤٤ .

فمن جملة من أمّ بابه، ومدح جنابه، ونضّد بمديحه الشريف عقوده، وأفرغ في أوصافه الحميدة مجهوده، محبّه الأبر، ومخلصه الأكبر، سيّدي ووالدي السيّد محمّد بن علي بن حيدر أدام الله بقاه، وأيّد سعده وارتقاه، بقصيدة طنّانة، شيّد بها من مجده أركانه، عارض بها قصيدة القاضي تاج الدين المالكي التي امتدح بها الشريف إدريس بن حسن المتقدّم ذكرها، وقدّمها إليه في اليوم المذكور:

تساميت بالأجداد يسمو بك الجدّ ... وجدّدت مجداً دونه يقف الجدّ
وشرّفت أقدار الممالك عند ما ... زهىٰ بك دست الملك والتاج والعقد
بعزّك سوح الحلّ والحرم احتمىٰ ... غداة إليك الحلّ أصبح والعقد
ليهن ملوك العصر إن صرت بينهم ... كما قد رسىٰ بين الصوىٰ علمٌ فرد
فإنّك شمسٌ والملوك كواكب ... إذا اتّصلت ودّاً بها حفّها السعد
علىٰ أنّ شمس الأُفق بالبرج شرّفت ... وأنت لأبراج العلىٰ شرف عدّ
ولله كلّ الأمر والله قد قضىٰ ... بأنّ إليك الأمر من قبل أو بعد
وأخدمك الأقدار تسعىٰ لنيل ما ... تريد وفيها سرّ حكمته يبدو
وشرّف قدر الدهر لمّا أقامه ... لديك مطيعاً حيثما يقف العبد
وأولاك أسرار القلوب بودّها ... فأجسادها ما من إطاعتها بدّ
إذا ما رآك العارفون ذوو النهىٰ ... رأوا ملكاً كلّ القلوب له جند
فإن فتحوا عيناً هناك وحقّقوا ... رأوا ملكاً من قدسه النور يمتدّ
ومذهب أهل الشعر فيك مقالهم ... لقد جاد دهرٌ بالمنىٰ ووفى الوعد
ولكنّ أرباب الحقائق قولهم ... سرت نفحات اللطف عيس الرضا تحدو
تهنّ بما أولاك مولاك أنّه ... رآك له أهلاً فجا الحدّ يشتدّ
ألست الذي في العدل أوضح منهجاً ... بدا بدليل الشرع مسلكه القصد

وأجـــريت فـي ذاك السـبيل لقـاصدٍ عيوناً من الإفـضال طـاب بـها الورد
وظـــلّت مـــن حـرّ الهـواجـر فـوقه ســحائب حـلمٍ للــقلوب بـها بـرد
ولم ترض بـالحسنىٰ بـديلاً وإن أبـىٰ سوىٰ ضدّها مع فرط قـدرتك الحـقد
تـلطّفت بـالمعروف فـي حـقّ مـنكرٍ فحزت الثنا عفواً وقـد حـصل القـصد
فأنت لسرّ اللـطف فـي الكـون مـظهرٌ يــمازج ســرّ الانــتقام بــه الرشـد
فمن رحـمةٍ قـد صـوّرت ذاتك التـي تــصوّر مــن أقـدامـها الأسـد الورد
ألست المــنيل المــجد غـيثاً سـحابةً تــصوب ولا بـرقٌ يـخاف ولا رعـد
بلىٰ مرسلٌ ذاك السحاب صواعـقاً[(١)] تــقطّر للأقــتار قــلباً هــو الصــلد
ألست الذي ســـاد الفــخار بــهمّةٍ ونـــادون أدنـاها بـالاسكندر الجـهد
فـما قـلت فـي خـطبٍ أعـينوا بـقوّةٍ ولو صدّ دون القـصد مـن دهـرنا سـدّ
أغـــثت بـني أُمّ القـرىٰ وقـد انـبرت بـــنات الليـالي فـي مـضرّتهم تـعدو
فســوّغتهم درّاً[(٢)] مـن العـدل حـافلاً وقد ضـمّهم كـالطفل مـن رأفـةٍ مـهد
وألبســهم بــرداً مـن الأمـن ضـافياً يـــحاك عـلىٰ سـمر القـنا ذلك البـرد
تراعي نضيراً[(٣)] حين حاكت لك العلا مــلابس مــلكٍ ثــمّ ألبسك الســعد
لقـد حـاز مـلبوس الخـلافة إذ سـما بـــعطفك فــخراً هـزّ عـطفاً له الفـخر
طــوى البـحر ثـمّ البـرّ شـوقاً لسـيّدٍ هـــو البـرّ مـن إفـضاله البـحر يـمتدّ
فــيا خــلعةً لو أنّــها خــلعت سـناً على الشمس ما لاح الكسوف بها بعد

---

(١) في «ن»: صواعق.
(٢) في «ن»: داراً.
(٣) في «ن»: نظيراً.

تـمنّي عـيون الشـهب أنّ مـقرّها مـحاجر عـن أبـصارها مـا لهـا بـعد
وأبـهج نـجم الصـبح تشـبيهنا له بـنجّابها فـالبشر مـن أُفـقها يـبدو
حـوىٰ طـيّها نشـر المـودّة والثـنا فـمن نشـرها يـضوع المسك والنـدّ
وإنّ لسـلطان البـرايـا وسـيلةً بـودّك للـباري بـها ظـلّ يـعتدّ
إذا مـا مـباشير التـباشير أشـرقت بـمضمونها فـي العـقل يـتّضح الودّ
فـخلعته درعٌ مـن العـزّ سـابغٌ تأنّـق فـيها مـن عـنايته الردّ
دلاصٌ إلىٰ داود تـعزي أفـاضها عـليك سـليمان الزمـان له الحـمد
لهـا أبـداً والعـود أحـمد أحـمدٍ مـليك الورىٰ .... (١)
يـنادي لسـان الحـال مـنها مـصرّحاً بـتأييد مـلكٍ مـا لتـجديده حـدّ
على اليـمن والإقـبال والبشـر والهـنا بذلك طير الفـال فـي روضـها يشـدو
تعمّ التهاني فـي كـلّ شـرقٍ ومـغربٍ ترىٰ كلّ غـورٍ وهـو مـن فـرحٍ نـجد
لصوب الحـيا فـي كـلّ فـصلٍ ربـيعه سرور قلوبٍ فـي هـواكـم لهـا وجـد
تـردّىٰ مـن الآمـال أغـصان روضـةٍ بكـلّ زمـانٍ يـجتنىٰ فـوقها الورد
فـلا زالت الدنـيا بـملكك جـنّةً بـها كـلّ وقتٍ مـن نـعيمٍ هـو الخـلد
عـلىٰ كشـحها مـنه نـطاق مـفصّلٍ وفي جيدها مـن نـظم أحكـامه عـقد
ولا زلت مـحروس الجـناب مـمتّعاً بما شـئت أنّـىٰ شـئت لا يـنتهي العـدّ
ومـرآك بـدرٌ فـي سـعود مـطالعٍ تخلّص فـي حسـن الخـتام له الحـمد

خلع السلطان محمّد :

وفي هذه السنة: خلع السلطان محمّد بن السـلطان إبـراهـيم، وجـلس بـعده

---

(١) بياض في النسختين.

السلطان سليمان بن إبراهيم، وكان صغير السنّ، وتقلّد وزارته العظمىٰ، المقام الأجلّ الأسمىٰ، محمّدباشا الكبرلي، فقام به أحسن قيام، وهيّأه بأكمل نظام، وبيت الكبرلي هذا أعرق بيت في الوزارة والرئاسة، وأعرف بتدبير الحكومة والسياسة، ومحمّدباشا هذا بيت قصيدهم، ودرّة تاجهم، وقوام صحّة مزاجهم[1]، مع عقل كامل، وفضل شامل[2].

وينقل المؤرّخون عنه رواية، تعلن له بالولاية، وهو أنّه كان كثير السفك للدماء، فاعترض عليه بعض محبّيه، ممّن كان أيضاً في صحبة أبيه، فيما يصدر من حضرته من الإراقة، لتلك الدماء المراقة، فأجابه بأعظم الأقسام: إنّي لم أفعل ذلك إلاّ بأمر العزيز العلاّم.

ثمّ طلب من ذلك الشخص أن يبيت عنده تلك الليلة، حتّىٰ يحقّق له كلامه وقوله، فاستمرّ عنده إلىٰ وقت هجوم الكرىٰ، وإذا بشخص يسمع صوته ولا يرىٰ، يقول: إنّ في الموضع الفلاني من يستحقّ القتل، وفي الموضع الفلاني من يستحقّ ذلك من قبل، وفي الجهة الفلانية من البلاد قوم لا يزال دأبهم الفساد، فاعمل بهم كذا، فيبعث لهم الوزير، فيجدهم كما قال ممّا وصف من العلل[3]، فيعمل بما يؤمر، لكونه يجدهم طبق ما يخبر.

واستمرّ في منصبه هذا إلىٰ أن توفّي، ثمّ تولّى الوزارة بعده ولده أحمدباشا، وحسنت سيرته أيضاً.

---

(١) في «ن»: مراجهم.

(٢) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٤٤.

(٣) في «ن»: العمل.

ثمّ توفّي في منصبه، وتولّى الوزارة بعده مصطفىٰ باشا، ولمّا صارت المحنة العظيمة على الإسلام، بتقدير الملك العلاّم، بعد الفتوحات السابقة التي صارت الوزيرين الأوّلين .

فتجهّز هذا الوزير لغزو الكفّار، ونازل مدينة من مدائنهم الكبار، واستمرّ محاصراً لها بالرجال، والمدينة المذكورة مشحونة بالذخائر والأموال، وحضرة الوزير المذكور قد عكس طمعه الزائد ضوابط الحرب السلطاني المشهور؛ لأنّ المسلمين قد أحاطوا بتلك المدينة، وعزموا على الهجوم عليها، ووجّهوا همّتهم العليّة إليها، فمنعهم الوزير عن ذلك، طمعاً فيما هنالك، ورجاء أن يأتونه الكفّار بعد التأمين لهم، ويبذلون له جميع أموالهم علىٰ سلامة أرواحهم .

ففهمت الطائفة الباغية منه ذلك، وشرعت تراسله في ذلك، وفي ضمنه يرسلون إلىٰ من ورائهم للتقوية بهم .

فلمّا كثروا ورأوا قوّتهم قد عظمت، وقعوا بجيوش المسلمين وأهلكوهم، واستولوا على العسكر وأخذوه برمّته، وكان ذلك من سوء تدبير هذا الوزير، وطمعه في جمع الأموال، ثمّ مات ووجد عنده من الأموال ما لا يكاد يحصىٰ .

ثمّ تولّى الوزارة بعده سليمان باشا أمير ياخور، وكان أيضاً من الأخيار، وقام بتدبير الوزارة أحسن قيام، ثمّ تجهّز لغزو الكفّار، فغزاهم واستمرّ مدّةً في ذلك، ثمّ توفّي شهيداً .

وتولّى الوزارة بعده مصطفىٰ باشا الكبرلي في أوائل سنة تسع وتسعين .

وفاة القاضي علي المكّي :

وفي سنة مائة وألف: توفّي الفاضل القاضي علي ابن القاضي عصام الدين المكّي.

قتل محمّد عمّار :

وفي هذه السنة: قتل محمّد عمّار المشهور بالمدينة المنوّرة، وكانت له أُمور عجيبة، وحكايات غريبة، ترد بها الألسنة، إلىٰ هذه الأزمنة، أمّا مظهره في مبادي حاله، وما كان يصدر من أفعاله وأقواله، فأوشك أن يكون قطب زمانه، وولي ذلك العصر والأوان، مع أنّه كان أفسق العباد، في تلك البلاد، وله استخطاف عجيب لعظائم الأموال، وفتح لمغلقات الأقفال.

وفي تلك السنة فقد مبلغ عظيم من النقود، لشخص من المجاورين بالمدينة من الهنود، فرفع الأمر إلىٰ قائم مقام حضرة الشريف، وهو السيّد العالي المنيف، السيّد بشير بن مبارك المتقدّم ذكره، فسأل الهندي عمّن أتاه في ذلك اليوم، فأخبره بأنّه جاءني محمّد عمّار، واشتريت منه سواراً، وأعطيته ثلاثين ديناراً، فأمر الشريف بإحضاره لديه، وحصوله بين يديه، وشرع يلاطفه مرّة ويتهدّده أُخرىٰ، إلىٰ أن أقرّ بذلك المال وغيره، ودلّهم علىٰ موضعه، فأُتي به، فأخذ كلّ ذي حقّ حقّه، وصار أحير من بقّه في حقّه، ثمّ استفتي في قتله العلماء، فأجابوه إلىٰ ذلك، فأمر بشنقه وشنق. وأرّخ قتله الشيخ أحمد المدرّس بقوله من قصيدة «قتل ابن عمّار وعلق»[1].

عزل الشريف أحمد بن غالب عن شرافة مكّة :

وفي ليلة الثلاثاء الثانية والعشرين من شهر رجب من سنة إحدىٰ ومائة وألف: عزل الشريف أحمد بن غالب عن شرافة مكّة المشرّفة، بعد زمهرة عظيمة من السادة الأشراف، وحفظوا عليه بعض الأطراف، ثمّ دخلت يد الأتراك في جملتهم، فعزل بدون قتال بينهم، وخرج في تلك الليلة المذكورة، فكانت مدّة

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٥٠ ـ ١٥٣.

دولته سنة كاملة وتسعة أشهر وعشرين يوماً[١].

فصل

كان هذا الملك السديد، والملك الصالح الرشيد، ذا همّة علويّة، وشهامة علويّة ....[٢].

نقل من كتاب تاريخ الأديب الفاضل نورالدين علي ابن عبدالرحمٰن بن حسن بن شمس الدين البهكلي حول ترجمة الشريف أحمد بن غالب في خروجه إلىٰ نواحي يمن

كان[٣] مقدّم الشريف أحمد بن غالب من مكّة المشرّفة إلىٰ مدينة صبيا[٤] في العشر الأواخر من شعبان أحد شهور سنة إحدىٰ ومائة وألف، بحاشية مستكثرة

---

(١) راجع: إتحاف فضلاء الزمن ٢: ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٢) كذا بياض في النسختين، وكتب في هامش نسخة «د»: هكذا وجد بياض في الأصل، فلعلّ من جهة تاريخ العصامي أو غيره.

أقول: وذلك أنّ تاريخ العصامي المسمّىٰ بسمط النجوم العوالي ينتهي إلىٰ أواخر القرن الحادي عشر، وهو سنة (١٠٩٩) ولم يتعرّض للقرن الثاني عشر أبداً، مع أنّه توفّي سنة (١١١١) هـ ق، وقد أكثر المؤلّف النقل والاعتماد علىٰ هذا الكتاب.

وإلىٰ هنا انتهى النقل عن كتاب سمط النجوم العوالي، واعتمد المؤلّف رحمه الله في كتابه هذا عليه، وجعله مصدراً من مصادره.

(٣) من هنا نقل من كتاب تاريخ الأديب الفاضل نورالدين علي بن عبدالرحمٰن بن حسن بن شمس الدين البهكلي، وسيأتي التصريح بانتهاء ما نقله من هذا الكتاب.

(٤) صبيا: من قرىٰ عُشَر من ناحية اليمن.

من الخيل والمطايا والعبيد والعساكر، متوجّهاً إلى الإمام الناصر لدين الله[١] محمّد بن أميرالمؤمنين، واستهلّ رمضان بقرية الخماري[٢] من أرض عبس .

ووصل إلىٰ حضرة الإمام برداع[٣] العرش، أظنّه في العشر الوسطىٰ من رمضان، فقام الإمام بحقّه قياماً تامّاً، واستغاث بالإمام، واستنصره علىٰ أعدائه بمكّة الذين تمالوا علىٰ عزله، ومناه بملك مكّة ومصر والشام علىٰ يديه، وسهّل له من ذلك ما هو متعسّر، فصغى الإمام إلىٰ كلامه، ومال إلىٰ إجابته .

وجهّزه بما يكثر عدده من المال، وعيّن له علىٰ كلّ والٍ من ولاته رتبة من العسكر، وعلى الأُمراء الثلاثة من آل الإمام ثلاثة آلاف عسكري، وهم: القاسم بن المؤيّد، والحسن بن المتوكّل، وعلي بن أحمد، فضلّ الشريف راجعاً من رداع، أظنّه بعد عيد الأضحىٰ من السنة المتقدّمة .

وفي أيّام إقامته بحضرة الإمام، ظهر خلاف همدان بنواحي صنعاء، وحصروا مدينة صنعاء نحواً من خمسة عشر يوماً، وكان الشريف ممّن تجهّز لحربهم فيما روي، وكفى الله شرّهم، وقبض رئيسهم ابن خليل، وأودع حصن الحميمة[٤] أيّاماً، ثمّ أمر الإمام بقتله، فقتل صبراً، وشرّدهم الإمام في الآفاق، وتضعضع حالهم، وفلّ عزمهم، وانكسرت شوكتهم .

وصحب الشريف في رجوعه من رداع، الشريف الأكرم، الأسد الغشمشم،

---

(١) في «ن»: إلىٰ دين الله .

(٢) في «ن»: الحماري، وخمار بكسر أوّله وآخره راء مهملة: موضع بتهامة .

(٣) رداع: مخلاف من مخاليف اليمن، وهو مخلاف خولان، وهو بين نجد وحمير .

(٤) في «ن»: الجميمة .

جمال الدين أبوطالب بن محمّد بن حسين الحواحي، وولده الشريف محمّد بن أبي طالب، متولّياً لمدينة صبيا من جهة الإمام، والقاضي العلاّمة عمادالدين يحيى ابن إسماعيل الحياري حاكماً.

فوصل الشريف إلىٰ مدينة مور[1] لعلّه في آخر ذيالحجّة، أو أوّل شهر محرّم، واجتمع بابن الإمام الحسن بن المتوكّل بها، وقام ابن الإمام بما عيّنه الإمام من الجند والمال، وقبل وصول الشريف إلىٰ مور أمر الإمام بحبس السفن، ولم يكن في تلك السنة حجّ في بحر ولا برّ، وأقام الشريف بمدينة مور قريباً من شهر، وكثرت التأليف على ابن الإمام، فضاق صدره، وأعييٰ عليه أمره، مع انزعاج في الباطن، وخوف في الفؤاد كامن.

ويحكىٰ عنه أنّه عاد في تلك الأيّام إلىٰ بندر اللحية لبعض أغراضه، فخرج ذات ليلة في البحر متنزّهاً، وغاب عن الأبصار جزءً عظيماً من النهار، حتّىٰ توهّم أنّه لا يعود، ولم يزل مدرّعاً بالصبر، مظهراً للتجلّد، حتّى ارتحل الشريف من مور، في العشر الأُولىٰ من صفر سنة اثنين ومائة وألف، فوصل إلىٰ أبي عريش في العشر الوسطىٰ حاديعشر في هذا الشهر، ممّا يكثر عدده من الأجناد، والخيل المسوّمة الجياد، ولم يزل حاله يعلو، وأمره يرتقي وينمو.

وبعد استقراره بأبي عريش[2]، تظاهرت الأخبار بالقبض على القاسم ابن الإمام المؤيّد، لأُمور نقمها الإمام عليه، والأمر في هذا مفوّض إليه.

والحسن ابن الإمام المتوكّل بعد ارتحال الشريف، لم تزل القرائن تتظافر لديه،

---

(١) مور: ساحل لقرى اليمن.

(٢) في «ن»: وبعد استقراره ثاني عشر.

بأنّ الإمام في نفسه القبض عليه، فلم يزل في معاناة وفكرة، ودهشة وحيرة .

وكان من إقبال السعد لهذا الإمام، وقوده لما تعسّر من الأُمور بزمام، أن صمّم ابن الإمام، علىٰ تقويض الخيام، والارتحال بأولاده وجميع ما يملك إلى الشام، فأخفىٰ ذلك الأمر المستنكر، وأخذ في تأهّب عدّة الارتحال والسفر، وكان بعد أن تأخذ الناس مضاجعها، يأمر الخدم بلفّ أمتعته وأثقاله، رغبة في الكتمان ورهبة من فشو حاله، وكان إذا سئل تعريضاً أو تصريحاً ينكر ما هو مصمّم عليه، وينهي من يسمع ذلك أن يصغي إليه .

فلمّا كان غرّة ربيع الأوّل من السنة المذكورة: لم يشعر النـاس ذات ليـلة إلاّ بارتحاله، وركوبه البحر مع أولاده وأمواله، فزال ملكه في قدر لحظة، مـن غـير طعنة، ولا ضربة ولا لفظة، فحملتهم الجواري المنشآت، وضمّتهم كأنّهم أمـوات، بعد ما ضاق بهم القصر، وراق بهم العصر، ولله درّ القائل حيث قال :

هذه الدنـيا وهـذا شأنـها   أتعب الناس بها أعوانـها
وأُولوا الأحلام قالوا إنّـها   حُلُمٌ يقضي بـها يـقظانها

وأعجب من ارتحاله على الصفة التي ذكرناها، إلقاؤه بنفسه إلىٰ من بذل جهده في التأليب عليهم، بتحشّد الأجناد وإرسالها إليهم، كما قدّمنا من قيامه بما عـيّنه عليه الإمام من الجند للشريف أحمد بن غالب، فكان حلمه ذهب وغاب، وهكذا الأقدار تذهب عند نزولها الألباب .

واستقرّ في سفره إلىٰ بندر جدّة، ودخل مكّة المشرّفة، وأقام بتلك الجهات نحواً من خمسة أشهر، ثمّ أعمل الحيلة في خلوصه حتّىٰ تخلّص .

وروي أنّ من جملة ما بذل في تخلّصه، سكّيناً مقوّمة بثمانمائة قرش[١] ونيّف، لما فيها من الترصيع بالنفائس الثمينة، وبين تدبيره في استنقاذ نفسه ممّا قد وقع فيه، وبين إلقائها على الصفة التي ذكرناها أوّلاً بون بعيد.

وكان رجوعه إلى اليمن من جانب البحر، وأحسب وصوله إلىٰ بندر جازان كان في شهر رمضان، أو أوّل شوّال، واتّصل الخبر بمسامع الشريف، فبعث إلى البندر من يمنعه من دخوله إليه، وبلغت به الحال مع شدّة الظماء، أن منع الإغاثة بالماء، وأنشد لسان حاله متفكّراً حائراً، متعجّباً من مصيره، فرداً مأموراً بعد أن كان أميراً آمراً:

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً ... فردّك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملكٍ يسرّ به ... فإنّما بات بالأحلام مغرورا

وصام شهر رمضان هو وأهله في البحر، وقد كان يخرج إلىٰ قرية تحيص للتنزّه، وانتهىٰ أمره أن رجّح النهوض إلى الحضرة الناصريّة، والوقوف علىٰ ما وفّق الله ربّها إليه من خير وشرّ، وارتحل بنفسه وترك أولاده، وكان في ارتحاله يتجنّب المرور في الأمصار، ويقصد المضي في البوادي والقفار.

ولمّا انتهىٰ خبره إلى الإمام عطف عليه، ونظر بعين الرحمة إليه، وأمر بإنزاله مدينة ذمار[٢] من دون اجتماع به، وبعد استقراره بها استدعىٰ أهله وأولاده إليه، وهو الآن باقٍ هناك.

وكان ابن الإمام هذا من أكبر الأُمراء وسراتها، ووجوه الكبراء ودهاتها، ذات

---

(١) في «ن»: غرش.

(٢) الذمار: إسم قرية باليمن علىٰ مرحلتين من صنعاء.

دهاء وحلم، وذكاء وعلم، له معرفة تامّة بتدبير الدولة، وخبرة بأحوال الناس، فهو كما قال أبو الطيب:

ماضي الجنان يريه العزم[١] قبل غدٍ   بقلبه ما ترىٰ عيناه بعد غد[٢]

نظر في العلم في خلال إمارته، فوقع منه علىٰ قطعة لائقة بمنصبه وجلالته، وأكثر مرامه بجبل رازح وحبور، وكان جزل العطايا، كريم الأخلاق والسجايا، له معّة في القلوب، ساعده علىٰ مراده المقدور، والفلك بالسعادة له يدور، وكانت حضرته ملتقى الرحال، وموسم الفضلاء وقبلة الآمال.

وتغيّرت أحواله في آخر أيّامه، فبطش وغشم، وكان يبرم ما ينقض، وينقض ما أبرم، ولم تحصل النكبة عليه، حتّىٰ قتله الرعيّة وملّته، ومولده في سنة أربع وخمسين بعد الألف.

وفي شهر جمادي الآخرة، أو أوّل رجب من السنة المذكورة: كان قيام السيّد العلاّمة جمال الدين علي بن أحمد بن أمير المؤمنين، ويلقّب بـ«المتوكّل على الله» ووردت كتبه إلى الشريف أحمد بن غالب، وإلىٰ اناسٍ من أهل هذه الجهة، يدعو إلى الانتظام في سلكه، ولا نعلم أحداً أجابه إلىٰ ما طلب.

وتوجّه إلى اليمن، وترك بمدينة صعدة والياً، وبجبل رازح ولده السيّد الأجلّ قاسم بن علي والياً، ودخل مدينة الهجر بجموع كثيرة بعد حرب شديد، وكان بها طالب بن المهدي، وقتل في ذلك اليوم جمّ غفير، ونهبت المدينة نهباً فضيعاً، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وقبض علىٰ طالب بن المهدي، وأرسله تحت الحفظ إلىٰ

---

(١) في الديوان: الحزم.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبّي ص ٤٤.

مدينة صعدة، وجعل بمدينة شهارة ولده حسن بن علي والياً، وأقام في حمز أيّاماً.

ثمّ توجّه إلى الروضة وحاصر صنعاء، وملك السودة وشهارة، وبلاد الشرفين، وبلاد حجّة وكهلان، وعمران وكوكبان[١]، وأجابه أكثر أهل اليمن، ولبث إلى العشر الوسطىٰ من رمضان فيما أخال، ثمّ كرّ راجعاً.

وحين أحسّ أهل شهارة برجوعه، احتالوا في قبض ولده حسن بن علي ليكون لهم ذريعة إلى الإمام، فقبضوه وأوصلوه إلى الإمام، وأمر الإمام بإيداعه حبس الترشحانة ببندر المخا، واستقرّ علي بن أحمد بعد رجوعه في مدينة صعدة، والأقوال مختلفة في السبب الحاصل له على الرجوع.

وفي أيّام خروجه إلى اليمن، كان الشريف يتخطّف أطراف بلده، حتّىٰ جهّز محطّة أميرها الشريف حسن بن خيرات الحسني إلى المعنق، وكان به الأمير الكبير[٢] الشمس الشهير[٣] عزّالدين حسن بن عزّالدين القطبي من قبل علي بن أحمد، ورامت المحطّة استئصال من بالمعنق، فمنعها عن المراد، ثبت الجنان والفؤاد الأمير المذكور، وثبت ثباتاً يليق بشرفه وعنصره، مع قلّة خيله وعسكره، وربما قتل من قتل في ذلك اليوم، ورجعت المحطّة خائبة.

وبعدها استنجد الأمير عزّالدين بقاسم بن علي والي جبل رازح، واستغاث به، فنهض لنصرته ولأخذ الثأر ممّن تعرّض بالأذىٰ لأهل بلدته، ونزل بجنود يكثر عددها، وأخذ الشريف في تجهيز الأجناد، وتوجيه الأُمراء والقوّاد، وضربت

---

(١) هذه المواضع كلّها من نواحي اليمن، مشهور معروف.

(٢) في «ن»: الشهير.

(٣) في «ن»: الكبير.

الأُمراء خيامها بأرض شقر علىٰ مسافة نحو أربعة فراسخ من أبي عريش إلى اليمن والشرق، واجتمع معهم من الرجال والخيل عدد مستكثر.

والتقى الجمعان في العشر الأولىٰ من شهر رمضان من السنة المتقدّمة، فانهزمت الأجناد التهامية، وعصفت بها ريح الأجناد المشرقية، وقتل من أصحاب الشريف ما ينيف علىٰ خمسين رجلاً، وظفر أهل المشرق بخزانة الأُمراء بعد أن ذعروا اندعاراً مغروراً[١]، واتّصل الخبر بمسامع الشريف من أفواه الهاربين.

وروي أنّه اتّهم بالخديعة بعض الأُمراء المذكورين، وأجلىٰ أهل مدينة أبيعريش عنها، فأمست خاوية علىٰ عروشها، ولم يبق فيها إلاّ الشريف علىٰ حاله، لو أنّهم قدموا إليه، لملكوا المدينة عليه، ولكنّها سبقت بخلاف ذلك الأقدار، وتحقّق رجوع قاسم بن علي إلى البارّ، ولم يلبث حتّى اتّصل به الخبر برجوع أبيه من اليمن كما قدّمنا.

واستقرّ الشريف بقلعة أبيعريش، ونما خبره إلى الإمام، فعظم شأنه لديه، والتفت بعين الانصاف إليه، ورجع أهل المدينة إليها. وكان هذا أوّل إجلاء من أهل مدينة أبيعريش؛ لأنّهم أجلوا عنها في مدّة الشريف ثلاث مرّات هذه أوّلها.

ولم يزل الشريف باسطاً ظلّ العدل، ناشراً رايات الإحسان، يصل معروفه في كلّ ليلة إلىٰ أكثر من مائتي إنسان، والوزير سنبل وجّهه الشريف قبل قضية سقرا إلىٰ حرض. ولمّا بلغه الخبر برجوع علي بن أحمد، إرتحل من حرض إلى المقرض[٢]، ثمّ إلى اللجب، ثمّ إلى المحرق، بسيرة خشنة، وحالة غير مستحسنة،

---

(١) في «ن»: مزدراً.

(٢) في «ن»: المعرض.

وأقام بالمحرق نحو الشهرين، ثمّ عاد إلىٰ حضرة الشريف .

وفي ليلة الجمعة سادس شهر رمضان المكرّم من السنة: قتل الشريف الأكرم حسن بن مطاعن العواجي[1] والي قرية الشقيري وهجرة ضمد، وكان شريفاً جليلاً، رئيساً نبيلاً، له شجاعة وتدبير، وكرم من غير تبذير، وسياسة لأُمور الرعيّة، وقمع لأهل الفساد من البريّة .

قتله بعض بني عمّه بسبب اتّهامه له بقتل رجل مفسد من القبائل، آمنه المذكور ودخل به قرية الشقيري، فقبضه الشريف حسن وأودعه الحبس، وأصبح ذات يوم ميتاً، فقال الذين آمنه: لم يمت حتف أنفه، وإنّما مات قتلاً، فتبرّأ الشريف حسن من ذلك ولم يصدّقه، وانتهىٰ خبرهما إلىٰ أمير مدينة صبيا، فتوسّط بينهما بتسليم مال معلوم يكون لأهل المقتول .

ثمّ رجع الشريف الذي أمّن ذلك المفسد عن ذلك، ورأىٰ أنّ الذي يلبسه ثوب النقا عند القبائل هو الاقتصاص بالشريف حسن، لم يعلم أنّ التقمّص بثوب العار أهون من التقمّص بسربال النار، فغاله بالليل عند أخذ مضجعه، فقتله وفرّ فلم يقدر عليه .

ولمّا اتّصل الخبر بالشريف محمّد بن أبي طالب، وكان نظر جهة القاتل والمقتول إليه، سارع في الوصول إلىٰ قرية الشقيري، فوصل إليها في يوم الأحد ثامن شهر شعبان المذكور، ومكث بها نحو ثمانية أيّام، وتجاوز الحدّ في التأديب، وفعل أفعالاً قبيحة، وقبض جماعة من الأشراف اتّهمهم بالرضا بقتل المذكور، والمخادعة فيه، فأودعهم الحبس بمدينة صبيا .

---

(١) في «ن» الحراجي، وفي «د»: الحواجي .

وكان الشريف محمّد بن أبي‌طالب وأبوه يميلان إلىٰ هذا الشريف المقتول، ويرغبان إلىٰ توليته، ولا يكون أمر مدينة صبيا إلىٰ أحدهما إلاّ وأمر هاتين القريتين إليه من جهتهما .

وممّن أراد الشريف محمّد بن أبي‌طالب القبض له والتعزير الشريف مطاعن بن أبي‌طالب، فارتحل من قرية الشقيري عملاً بقول أبي‌الطيب :

ومقام الكريم في ساحة الذلّ وقد أمكن الرحيل حرام(١)

فاعتصم بالشريف أحمد بن غالب، وأقام عنده، ووقف لديه .

لدىٰ أسدٍ شاكي السلاح مقذّفٌ له لبدٌ أظفاره لم تقلّم

فتعذّر على الشريف محمّد بن أبي‌طالب قبضه وتعزيره؛ لأنّه لاذ بحصن من حديد. نعم والشريف بعد رجوع علي بن أحمد استمال مشايخ رازح، وخامرهم بالطمع، ولمّا أحسّ منهم الاذعان وجّه إليهم رجلاً، يقال له: الترجمان، فطردوا قاسم بن علي، وأخرجوه مرفقاً من بين أظهرهم، وأقام الترجمان في جبل رازح مدّة لا يصدر ولا يورد، والأمير الأكرم عزّالدين بن حسن القطبي لمّا تفاقم عليه الأمر وأعياه، كاتب الشريف يستأذنه في القدوم عليه، والانتظام في سلكه، وأذن له، ولمّا اجتمع به أنصفه، وأكرم مثواه، وأحسن نزله .

ثم تجهّز السيّد الرئيس حسين بن علي بن أحمد من صعدة، وقبض الترجمان، وسيّره إلىٰ صعدة، وأودع الحبس، وعاد جبل رازح لعلي بن أحمد، ثمّ كلّف الشريف الأمير عزّالدين بالطلوع الىٰ صعدة لاستخراج الترجمان من حبس علي ابن أحمد، فطلع وأحسن السياسة في استخراجه، ونزل به في أواخر شهر

(١) لم أعثر عليه في ديوان المتنبّي .

ذي الحجّة من السنة المتقدّمة، وهذا كلّه ولم يكن إلى الشريف من البلد سوىٰ مدينة أبي عريش، وبندر جازان، وعسىٰ أن يكون حرض.

وفي العشر الأوّل من شهر المحرّم أوّل سنة ثلاث ومائة وألف: جهّز الشريف أخاه حسن بن غالب والوزير سنبل في جموع يعسر ضبطها وحصرها إلىٰ بعض قبائل بني شعبة، وأمسوا بهجرة ضمد ليلة التاسع من الشهر المذكور، ومرّوا بقرية صلهبة، وكان ليلة حادي عشرة أو ثاني عشرة منه، أمسوا بموضع يقال له: صندلين، يسامت بسرقا قرية بيش، علىٰ حال اطمئنان ودعة وراحة، مهملين النظر إلىٰ ما قصده القائل:

ومن لم يخف من غائلات عدوّه ... فرت نحوه أنيابه ومخالبه

ومن جعل التفريط والعجز دأبه ... وخلّف رأي الحزم أعيت مطالبه

وشاع خبرهم في البدو، وكان فيهم جماعة من الفرسان، منهم الشجاع البطل، من لا يخاف البيض ولا الأسل، بشّار بن شريفة، فاستدرّهم أُولئك الفرسان، مغتنمين الفرصة، عاملين بقول زهير بن أبي سلمىٰ:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدّم ومن لم[1] يظلم الناس يظلم[2]

فانذعر ذلك الجمع، وعمي منهم البصر، وصمّ منهم السمع. وكان من أعجب صنع الفرسان وعظيم حذرهم، أنّهم لم يدخلوا المحطّة، وإنّما وقفوا علىٰ جوانبها، فمن انتبه من المحطّة قام مذعوراً، يظنّ أنّ الهرب ينجيه، وقع في أيديهم، فقتلوا من الجيش نحواً من ثلاثة عشر نفراً، وغنمت القبائل غنائم متّسعة، ورمي الشريف

---

(١) في الديوان: لا.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمىٰ ص ٨٨ طبع دار صادر بيروت.

حسن بن غالب في يده.

ولمّا حصل عليهم ما حصل، ثلم غرارهم، ومالوا إلىٰ مدينة صبيا، فدخلوها، وبعد استقرارهم بها حصلت النكبة على الشريف محمّد بن أبي طالب علىٰ يدي النقيب سعدون من قبل الإمام، وكانت لأغراض تطابق ما في نفس الشريف أحمد ابن غالب، وذلك أنّ الشريف لمّا مالت به الرعيّة إلىٰ تملّك مخلاف صبيا أعمل الحيل، وأعانه علىٰ ذلك أقوام جعلوه ذريعة إلىٰ زوال ملك محمّد بن أبي طالب، وغفلوا عن قول أبي الطيّب:

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه ... تصيّده الضرغام فيما تصيّدا

حتّىٰ وقعوا عليه، فغرم غارمهم إلى الإمام، وعظم أمر محمّد بن أبي طالب إليه، وكان من جملة المكائد التي أعملها أنّ مخلاف صبيا يحتمل خمسة آلاف مقاتل يكون بهم النفع والنكاية للعدوّ، فيستعان بهم علىٰ جهاز صاحب صعدة، فوقع ذلك الكلام من الإمام في قلبٍ فارغ واغترّ به، وعيّن علىٰ محمّد بن أبي طالب ذلك القدر، فإن عجز عنه، فأمر صبيا يكون إلى الشريف أحمد بن غالب، والشريف أحمد بن محمّد بن حسين يكون عاملاً من جهته.

فلمّا وقف محمّد بن أبي طالب علىٰ ذلك القدر أقرّ بالعجز عن تحصيله؛ لعدم وجوده في البلد، فجعلوا ذلك سبباً لعزله[1]، ولله درّ القائل:

يعدّ الفتىٰ إخوانه لزمانه ... وأعدىٰ له من صرفه ما أعدّه

وأخذ النقيب سعدون يتتبّع أذاه، ويطالبه بالأموال الجليلة، وأشاع أنّ من له عند محمّد بن أبي طالب مظلمة يأتي لها، وكان المظلوم يصل فرحاً مسروراً ظانّاً

---

(١) في «ن»: إلىٰ عزله.

عود ما أُخذ عليه إليه، فيخبرهم به، فيرقمونه، وبعد ذلك يعرضون عن المخبر ويزدرونه، والغرض هو تكثير ما يطالب به من الأموال،واستصغارها من بعد ذلك لبيت المال .

فاجتمع عليه أموال تعزّ عن أن تحصىٰ، وتجلّ عن أن تضبط وتستقصىٰ، فاجتاحت ما احتوىٰ عليه ملكه وملك أبيه من المنقولات، وأنواع الحلي والمصوغات، وعسر عليه من بعد ذلك الوفاء بما يطالب به، وانتهىٰ إلىٰ حال رثاه فيه الشامت، واشتفّت صدور أهل الحقد بما ناله، ومن ذا يأمن الدهر وأفعاله .

ثمّ توجّه هو وأبوه إلىٰ أبي عريش، وكان يظنّ أنّ في التقرّب إلى الشريف ما يسهل عليه ما نزل عليه[١] من العذاب المؤلم .

ورأيت له في بعض كتبه إلىٰ بعض أصدقائه بأبي عريش: إنّك تذاكر[٢] الشريف يطلبنا إليه، يعني ليكون ذلك مخرجاً له من الذي وقع فيه وأفاد. هذا معنىٰ كلامه في كتابه، ولكنّي أنسيت لفظه .

ولمّا وصل إلىٰ أبي عريش، عظم عليه التغليظ، ووقع في أشدّ ممّا كان فيه، فكان كالساعي إلىٰ مثغب، موالياً[٣] من سبل الراعد، وجرىٰ عليه من الإهانة والتعزير ما لا يليق بمثله، وكان هذا الفعل به وأبوه عنده، لكنّه لا يستطيع في الدفع عنه حيلة، ولا يهتدي إلىٰ خلاصه سبيلاً، ولسان حاله ينشد إنشاد حائرٍ متردّد :

أهم بأمر الحزم لو استطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

---

(١) في «ن»: به .

(٢) في «ن»: تذكر .

(٣) في «ن»: موائلاً .

وأخذ العامل للشريف في كيفيّة تفرقة الخمسة الآلاف علىٰ أهل القرىٰ، وكأنّهم رأوا أنّ تحصيلها رجالاً مقاتلة لا يمكن جعلوها تخييراً بين أن يكون رجالاً مقاتلة، وبين أن تكون نافعة مالاً عوّض كلّ رجل أحمر يكون بخمسة آلاف أحمر، جاءت حصّة صمد والشقيري وخضيرة ثلاثمائة وخمسين أحمر، ووكلوا أمر كلّ جهة إلىٰ نائب يخبر من تقاعس عن التسليم، فكان كلّ نائب يفعل ما أراده من غير توقّف على المال المطلوب والقدر المعين .

حتّىٰ روىٰ لي من استقصى المأخوذ من هجرة ضمد والشقيري وخضيرة، إنتهىٰ إلىٰ ألف وأربعمائة قرش، واجتمع للشريف من الأموال قدر متّسع .

وروي أنّ الشريف لمّا أنهىٰ إلى الإمام أنّ أهل هذه الجهات اختاروا أن يسلموا ما لا معونة على الجهاد عوضاً عن الرجال، طلب الإمام من ذلك المال قدر أربعة آلاف قرش، وما بقي منه يكون للشريف .

وكان هذا في شهر ربيع الأوّل أو الآخر من السنة المذكورة، وهذا أوّل ضررٌ نزل بهذه الجهات بعد توجّهها إلى الشريف، والثاني الإلزام بالضيافة والخرص في مخلاف صبيا، وهو ممّا جاء به الغارم[1] إلى الإمام في شأن محمّد بن أبي طالب، وهو في هذا المخلاف من البدع المحدثة .

علىٰ أنّ الإمام المؤيّد بالله يحيى بن حمزة قد روىٰ إجماع العترة علىٰ عدم جواز خرص الزرع، أمّا مع الصفة التي استمرّ عليها عمّال هذه الجهات، فلا يبعد اتّفاق علماء الأُمّة على التحريم، ولولا محبّة سلوك الطريق التي سلكها بعض السلف، لذكرت من ذلك ما لا يستغني عنه، وقد أبان العلّة في ذلك بقوله :

---

(١) في «ن»: العازم .

إنّي لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحقّ ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدّم في هذا أبو حسنٍ ... إلى الحسين وأوصىٰ قبله الحسنا
يا ربّ جوهر علمٍ لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وهذه الأبيات معزوّة إلىٰ الإمام زين العابدين عليه السلام[(١)]، وأنكر عزوها عن زين العابدين عليه السلام الغزالي في منهاج العابدين، وأنكر عزوها إليه بعض العلماء، والديلمي في التصفية، قال فيها: ولا معنىٰ لإنكار من ينكر ويزعم أنّ العلم لا يحلّ كتمه[(٢)]. انتهىٰ.

كيف وقد أخذ من قول الله تعالىٰ ﴿ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم﴾[(٣)] أنّ الحسن يصير قبيحاً، أو لأدّىٰ إلىٰ قبيح وكان سبباً له.

وكذا يؤخذ من قول الله عزّوجلّ حاكياً عن يعقوب ﴿يا بنيّ لا تقصص رؤياك علىٰ إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾[(٤)] إنّه يجوز إخفاء الفضيلة تحرّزاً عن الحسود.

قال في الثمرات: وهذا داخل في قولنا إنّ الحسن إذا كان سبباً للقبيح قبح، وقد

---

(١) نسبه إليه عليه السلام في مشارق أنوار اليقين ص ١٧، وروح المعاني للآلوسي ٦: ١٩٠، ونور الأبصار للشبلنجي ص ١٤٢، والاتحاف بحبّ الأشراف ص ٥٠، وينابيع المودّة ٣: ١٣٥، وديوان أهل البيت عليهم السلام ص ٤٧٨، والدرّ الثمين في ديوان المعصومين ص ٤٨٨.

(٢) كتاب التصفية للديلمي، لم أعثر عليه.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٨.

(٤) سورة يوسف: ٥.

ذكر المؤيّد بالله أنّه لا يفتي بصحّة إقرار الوكيل لفساد الزمان، فعرفت بهذا كلّه أنّ هذه الأبيات جارية علىٰ أحسن سنن، وأنّ لها من الأدلّة ما يعضدها(١).

نعم ولبث الشريف أحمد بن محمّد والياً، قيل: إلىٰ سلخ جمادي الآخرة، ثمّ عزل وجعل الشريف أحمد بن غالب الوزير سنبل والياً بمدينة صبيا، فملك وقهر، ونهىٰ وأمر، وبنى المباني الرفيعة، وسكن الدور المنيعة، واجترىء علىٰ مصاهرة من ليس لهم بكفوٍ رغبة ورهبة.

وفي أوّل هذه السنة: تولّىٰ بمدينة أبي عريش محمّد بن قاسم الغرباني، ولم يتمّ له الولاية إلىٰ آخرها، وأخاله كان من قبل الشريف وتحت نظره.

استقرار الوزير سنبل بمدينة صبيا:

وفي شهر رجب: بعد استقرار الوزير بمدينة صبيا كانت واقعة الشريف الهمام، البطل الضرغام، مهدي بن محمّد العواجي المكنّىٰ أباصالحة.

وكان من خبرها: إنّ الشريف المذكور أخذ علىٰ رجل من آل حبيب يسمّىٰ شبّراً(٢) فرساً معاقبة له في أمر صدر منه، ففزع الحبيبي إلى الوزير، يشكو ما فعل معه الشريف المذكور، فأرسل الوزير إلى الشريف المذكور من يصل به، فامتنع، وأحسبه تكرّر منه ذلك الارسال وذلك الامتناع، فجرّد الوزير وأراد أن ينهض بنفسه، فبدا له أن يرسل من ينوب عنه، فأرسل نحو خمسة عشر من أهل البندق، وخمسة من أهل الخيل علىٰ ما روي.

فوصلوا إلىٰ دار الشريف المذكور ولم يكن بها حينئذ، فأخذوا فرسه وفرس

---

(١) كتاب الثمرات لم أعثر عليه، راجع: كشف الظنون ١: ٥٢٢.

(٢) في «ن»: بشيراً.

الحبيبي، فركب الحبيبي علىٰ صهوة فرسه ونجىٰ بها، وكانت مغنمه، وشاع الخبر فأغار أبو صالحة وغيره، فكرّ على العسكر، فقتل منهم ثلاثة، وقيل: اثنين من عبيد الشريف، وضرب آخر ضربة لم يزهق بها روحه، ثمّ ولّت العسكر الأدبار، ونجوا بفرس الشريف .

ولم يذكر عن أحد من أهل الغارات فعل إلاّ عن هذا الفاطمي، فإن حملته علىٰ عدم احتمال الضيم نفسه الأبيّة، فصال هذه الصولة الهاشميّة، وبالأفعال يعظم الأخطار، وعلىٰ حسبها يكون ارتفاع الجدود وعلوّ الأقدار .

ولم أجد الإنسان إلاّ ابن سعيه   فمن كان أسعىٰ كان بالمجد أجدر

وعظمت هذه الفعلة عند الوزير وسيّده. وروي أنّ الشريف مهدي أذعن بتسليم قيمة العبيد، وقدر من الأدب، فامتنع من ذلك الشريف .

قيل: وطلب الشريف مهدي ومن معه الاذعان من الشريف بما ينطق به الشرع الشريف إن عليه وإن له، فثنىٰ عن ذلك عطفه، وبعد ظهور امتناعه صمّم الأشراف المذكورون علىٰ دفع باطله، وردّ ما جاء به من عنده، وتحزّبوا[1] وتجمّعوا، وأرسلوا صارخاً إلىٰ بني شعبة، فأجابهم منهم من أجاب، وساعدهم علىٰ ذلك بعض فضلاء العصر، حمية لله، وأنفة علىٰ ما روي، وعن جانبهم من أوامر الشريف التي ينزل بكلّ ركيك العزم ضعيف .

ثمّ ترجّح لبعض الأشراف أهل السلامة أن يرتحل إلى الشريف مباناً لأصحابه، خائفاً من بوائق عقابه، ولمّا انشقّت منهم العصا، وعصي الشريف مهدي في رأيه من ذويه من عصا، خذلهم من أجابهم من بني شعبة، وروجع الشريف في شأن

---

(١) في «ن»: وتحرّبوا .

البقيّة في أواخر شعبان من السنة المذكورة، وأذعن له بقدر مستكثر من الأدب يطابق غرضه، فكان قد أظهر الرضا، ولكنّه أبطن خلاف ما أظهر، وارتحل من مدينة أبيعريش في آخر شعبان، أثنى المراجعة إلىٰ مدينة صبيا لأجل الانتقام من أهل السلامة، واستصرخ بأهل البوادي، فأجابه من كلّ قرية جماعة.

وجهّز الوزير سنبل إلىٰ قرية السلامة في جمع كثير من الرجال والخيل، ولمّا علم أهل السلامة بوصول الشريف إلىٰ مدينة صبيا، انزعجوا وعملوا القدرة علىٰ مقاومته، مع انشقاق عصاهم، وخذلان بني شعبة لهم، فاستحسنوا الإجلاء عن بلدتهم، ولا لوم فيما لا يطاق، وإنّما يلام الفتىٰ فيما يطيق من الأمر.

فوصل الوزير إلىٰ قرية السلامة ولا أنيس بها، فأحرق بيوتها، وطمّ آبارها، وأفسد مزارعها، وبالغ في أن لا يبقي لها أثر، ولقيه أهل نبش وصيفة[1]، فدخل نبش وأقام بها ليلة أو ليلتين أو ثلاث، ثمّ استدعاه الشريف، فوصل ودخل الوزير قرية المحلّة والدهنا، فسام أهلها الخسف، وكلّفهم بما لا يطيقونه، وعاث وأفسد، وشتّت وبدّد، وفعل جنده من قبائح الأمور، ما لا يحسن إثباته في هذا المسطور، وأقام الشريف بمدينة صبيا إلىٰ آخر شهر رمضان، ثمّ عاد إلىٰ أبي عريش، وكان فرار الشريف مهدي وعشيرته إلى الدرب، بيتٌ دعائمه طوال، وطودٌ لا تنال قلله الأوعال.

بيتٌ حمت[2] عنه أسنّة تغلبٍ ... أن يستباح وأنّها لطوال

بيتٌ تخرّ الهام عن أطنابه ... مشدوخة وتعفّر الأبطال

---

(١) في «ن»: رصيفة.

(٢) في «ن»: حميت.

بيتٌ لو الأرماح تلمس قرنه   لاندقّ فيهنّ القنا العسّال

خروج الشريف أحمد إلىٰ وادي خلب :

وفي شهر شوّال من السنة المذكورة، قيل ليلة حادي وعشرين، وقيل: ليلة سابع وعشرين منه: ارتحل الشريف من مدينة أبي عريش إلىٰ وادي خلب، بخاء معجمة مضمومة ولام مفتوحة فموحّدة علىٰ وزن زحل النجم المعروف، وكان ذلك بتكليف الإمام له، وتحريضه عليه، بالنكاية لصاحب صعدة، والمماسّة لأطراف بلده، ولم يرتحل إلاّ وقد عيّن علىٰ أهل مملكته ألف رجل مقاتل، كان علىٰ مخلاف صبيا منه ثلاثمائة رجل مقاتل .

فضرب الشريف خيامه يماني مجرّة الوادي بأرض ذات ثمام مستوية، وبعد استقراره ألزم مشايخ تلك الأرض بتحصيل آلات البناء، فحصّلوا له من ذلك قدراً مستكثراً، فبنىٰ بيوتاً حينئذ واسعة، واستحسن مع طول الإقامة وازدحام الناس أن يجعل بذلك الموضع سوقاً، واستدعىٰ من المهندسين من يقيم أود السوق من العطّارين ونحوهم، فارتحل إليه من هذه الأجناس جمع كثير رغبة ورهبة .

ثمّ جعل لذلك السوق يوماً يجتمع الناس به في كلّ أُسبوع يوماً، فورد إليه الواردون، وأتاه من كلّ فجٍّ القاصدون، وصار ذلك السوق أحسن الأسواق، وأجمعها، لما إليه يطرب المشتاق، وبنىٰ بذلك الموضع مسجداً جامعاً .

وفي هذه السنة أو التي بعدها: جاءت له التولية من الإمام لبلد الشرفين والمحرق واللجب والمعرص وبلاد ظاعن وعاهم ومور والضحي(١)، فضخمت سعادته، واتّسعت دائرته، وامتلأ بالأُمم ذلك القاع، وصار أكثر أنيساً من سائر

---

(١) في «ن»: والصحي .

البقاع، وكان الواردون لا يردون إليه أفواجاً، وجبايات المملكة تساق وحداناً وأزواجاً.

وفاة الشريف أبي طالب بن محمّد العواجي:

وفي يوم عرفة أو يوم النحر من هذه السنة المذكورة: كانت وفاة الشريف أبي طالب بن محمّد بن الحسين العواجي، وهو الشريف الأكرم، الغضنفر الشهم، برد الإمارة المسهّم، أبو طالب بن محمّد بن حسين بن أحمد بن حسين بن عيسى العواجي.

فتيةٌ لم تلد سواها المعالي ... والمعالي قليلة الميلاد

هو من بيت سبق مجد ملكه، وانتظمت المعالي والمفاخر في سمطه وسلكه، أوّل قائم منهم الشريف المنزّه من كلّ شين، شمس الدين أحمد بن حسين في السنة السادسة بعد الألف، فأزال المنكرات والبدع، ورفع من الدين ما امتنع، وكان قيامه بهذه السهال، مضاهياً لقيام الإمام المنصور القاسم بالجبال، ولم يزل قائماً بأعباء ما حمّل، حتّىٰ لقي ربّه في السنة الثامنة والعشرين بعد الألف.

وفي أيّامه كانت واقعة الشريف عيسى بن مفيد العواجي، والقائد محمّد بن بدر من أُمراء صاحب مكّة كما ذلك معروف.

وقام بالأمر بعده الشريف الأمجد، عقد السؤدد المنضّد، حسام الدين حسين ابن أحمد، وبلغ من درجة الكمال ما لم يبلغه في وقته أحد من الرجال، وفي أيّامه كان خروج الباشا قانصوة، ومع عظم قهره، ونفاذ حكمه وأمره، لم يكن له في بلد الشريف المذكور الوطاء[1] الكلّية.

---

(١) في «ن»: الوطاة.

وروي أنّ الباشا حاول قبضه ولم يقدر، وربما قيل له: إنّ في قبضه من المفسدة ما يرجّح على مصلحته، لما هو عليه من القوّة والمنعة .

وكذا كان في أيّامه وصول الشريف اللسن، نابغة بني الحسن، أحمد بن مسعود ابن أبي‌نمي، وافداً على الإمام المؤيّد بالله محمّد بن القاسم، ومستنجداً له، ومدحه بقصيدته الدالية أحسب أوّلها :

خذا بدمي ذات الخلال والعقد

حتّىٰ خرج في مدح الإمام بقوله :

خطيباً إذا ما قام فـي رأس مـنبرٍ وخطبٍ علىٰ ظهر المطهّمة الجـرد

وسببه: كان خروج السيّد الإمام أحمد بن لقمان إلى الشام، وجرىٰ لهم ما هو مذكور معروف، وكان الفقيه العلاّمة، السابق في مضمار الفصاحة، والمعدود مـن أهل الإمارة والرجاحة، ضياءالدين إسماعيل بـن مـحمّد المـحلوي مـلازماً له، أعني: الشريف حسين بن أحمد في سنة ثلاث وخمسين من بعد الألف .

وروىٰ بعض فضلاء العصر: أنّه لمّا توفّي جاء نعيه إلى الفقيه إسماعيل، وكان الفقيه قد أصابه طرش، فلمّا قال له: عظّم الله أجرك في الشريف حسين بن أحمد، وقع يكتب على الأرض بعصا :

أمخبري أنّ الطريق قد عفت رسومه أنت قصمت ظـهري

تطلب أجراً في هلاك مسـلمٍ ما في هلاك مسلمٍ من أجـر

ولم أقف علىٰ نسبتها لأحد قبله، وقام بالأمر بعده السري المدرّة، الخائض في طلب المجد لجّ كلّ عشرة، جمال الدين محمّد بن حسين بن أحمد، وله من المعالي ما يملأ الفم والأُذن والعين، وعلى الجملة فله ولآبائه في المعالي والمكـرمات،

أخبار لا يتّسع لها هذه الوريقات، وأيّامهم مشهورة في عـددهم[١]، لهـا غـرر معلومة وحجول، وكانت وفاته ثامن شعبان سنة ستّ وسبعين من بعد الألف .

ولم تزل هذه النطفة تهاداها البطون والأصلاب، حتّى انـتهت إلى الشـريف أبي طالب بن محمّد بن حسين، فكان خاتمة الباب. جُبِل رحمه الله تعالىٰ عـلىٰ طباع الشرف والسيادة، وجمع من الخلال المحمودة ما لم يجمعه غـيره عـادة، ورزق جدّاً وسعداً، وملأ صيته غوراً ونجداً، وطلع بأيّامه نجم السعد، وأفل بها نجم النحوس، ولم تقابله الأيّام والليالي بمكروه ولا بؤس، وكان شجاعاً شهماً جواداً ممدّحاً، همّته عالية، وسيوفه للأولياء حامية، وعلى الأعداء بالردّ أقاضية .

يلقى الندا بـرقيق وجـهٍ مسـفرٍ فإذا التقى الجمعان عـاد صـفيقا
رحب المنازل ما أقام فإن سرىٰ في جحفلٍ ترك الفـضاء مـضيّقا

وكانت دواعي صدره سليمة، ونيته مع الله وعباده صحيحة غير سقيمة، وصفت مملكته أكثر من اثنتي عشرة سنة، كلّها عند المسلمين أعياد خالصة عن الشوائب والأفكار، رعوا فيها عشب النعيم الغضّ، ولبسوا أثواب الراحة والدعة المبيض، ثمّ اضطربت من بعد، فاضطربت أُمور المسـلمين بـاضطرابـها، ونـالهم البـؤس والضرّاء بذهابها، فكأنّها غرّة محتها أيدي الليالي، وزهرة قطفتها أيـدي الدهـر، وكذا الدهر لا يبالي عجباً، للدهر ما داسته ولأحداث الليالي عجبا .

وبعد وفاته رحمه الله توفّيت الآمال، وقصرت الهمم، وقد خرب بيت المجد، الذي كان قد شاده وانهدم، وبكت العيون لفقده دمعاً ممتزجاً بدم .

فإن تك أفنتة الليالي فأوشكت فـإنّ له ذكـراً سـيبقى اللـياليا

---

(١) في «ن»: عدوّهم .

وبعد[١] مضي عشرة أيّام من رزئه القاصم للظهور، شفعه[٢] رزء ولده محمّد ابن أبي طالب المذكور.

حوادث سنة أربع ومائة وألف:

وفي مستهلّ شهر محرّم الحرام أوّل سنة أربع ومائة وألف: جهّز الشريف وهو بخلب أجناداً يكثر عددها، وأمّر عليها السيّد حسن بن أحمد المرتضىٰ، والشريف علي بن حسن العنقاوي، وفي صحبتهم الشيخ الصنديد محمّد بن جابر الزريقي[٣] الشعبي، قاصدين موضعاً يقال له: الرنف، براء مفتوحة فنون ساكنة ففاء، أخاله من أعلىٰ مير وادي جازان، وكان به قبيلة دعجان، وفي نفوسهم أيضاً الغزو لآل عمر وآل حسن، ثمّ أخذ من أمكن أخذه من قبائل بني شعبة معاونة للشيخ محمّد بن جابر، فلمّا وصلوا ذلك الموضع وجدوه لا أنيس به، وقد غاب عنّي أهل قبيلة دعجان، وأجهت الشريف أو أجلت.

وأمّا آل عمر وآل حسن، فإنّه تعسّر عليهم أخذهم. وروي أنّهم تجمّعوا للدولة تجمّعاً قرباً، ولكن سبق مرور الدولة، أو قصر عن موضع تجمّعهم.

فلمّا قربوا من قرية الشقيري، قال الشيخ محمّد الزريقي: الرأي أن ننزل بهذه القرية ليعتلف الدوابّ، ويستريح الجند، كيما يقدروا علی النهوض فيما بعد، فاستمعوا لقوله ونزلوا تلك القرية، فباتوا بها تلك الليلة، وأصبح مكان الشيخ محمّد خالياً منه، فعرفوا عدم نصحه، وكتبوا إلى الشريف يعرّفونه بما جرىٰ.

---

(١) في «ن»: وقد.

(٢) في «ن»: سفعه.

(٣) في «ن»: الوريقي أو الرزيقي.

ودخلوا هجرة ضمد اليوم الرابع من الشهر المذكور، فباتوا بها تلك الليلة[١]، وقالوا أو شرعوا في القيلولة يوم الخامس، فورد عليهم كتاب الشريف يدعوهم فيه، فلم يلبثوا إلاّ ريثما يتزوّدون، وكانت هذه الفعلة من الشيخ محمّد من الحوامل علىٰ حبسه، كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم أنّ بني شعبة لمّا فعلت فرسانهم وقبائلهم ما فعلت في صندلين كما تقدّم، غضب الشريف عليهم، وبلغ ذلك منه مبلغاً عظيماً، وكان في نفسه أن يجعلهم ومن ينظرهم من القبائل تحت وطأته كسائر أهل مملكته .

ولم تساعدهم علىٰ ذلك شنشنتهم التغلبيّة، ونفوسهم العزيزة الأبيّة؛ لأنّهم لكمال نجدتهم وشدّة بأسهم، وقوّة عدّتهم، لم يرعوا إلاّ ثمر العزّ، ولم يشربوا إلاّ ماء الاحترام، وما ألفته النفس فهو عسر الفطام .

وكانوا لمّا عرفوا من الشريف الغضب من فعلة صندلين، أرادوا طيبة نفسه، وعدم حقّه رعاية لحقّه، وإغلاقاً لباب الفتنة، فعزم إليه منهم من عزم، وأحسب الشيخ زيد بن مرعي بعضاً ممّن عزم، ففلق الشريف رضاه عنهم، بشرط أن يأتوا ببعض منهم عيّنه لهم يكون لديه .

وروي أنّه شرط عليهم أيضاً تسليم قدر من الأنعام يستجهل من تلفّظ بها، فأرضوه في ذلك المجلس بالمقال، ونشطوا من مبركه العقال، ولحقوا بقومهم وبلدهم، فاستحكمت الوحشة، وانقطع بينهم الاتّصال، وكان كلّ منهم علىٰ حذر من الآخر، والشيخ محمّد بن جابر الزريقي رأىٰ أن يحزم هذه القاعدة، ويواصل الشريف استجلاباً للفائدة، ولله درّ القائل :

---

(١) في «ن»: فباتوا بها ليلة الخامس .

وما السيّد القمقام عندي بسيّدٍ   إذا استنزلته من علاه الرغائب

وربما ظهر للشريف أنّ آل جابر منفصلة بأحكامهم عن سائر بني شعبة، كما روي عنه، وأنّ الفاعل لتلك الفعلة في صندلين ليس من آل جابر، وكان يطمّع الشريف ويمنّيه بأنّه يستميل من يستميل، ومكث علىٰ ذلك برهة مرعيّ الجناب، لا يغلق دونه باب، وأخذ الشريف الطمع، وكان يجزل له المواهب، ويتلطّف في استخراجه بالرغائب، حتّىٰ مضىٰ وقت لم ير له فيه تأثيراً ولا نجعاً، وكانت منه تلك الفعلة مع السريّة المتقدّم خبرها، وانكشفت له أنّ ذلك منه إنّما كان مكراً وخدعاً، فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم.

ولمّا مضت أيّام من فعلته تلك، أخاله في آخر الشهر المذكور، دخل إلىٰ مدينة صبيا، وفي صحبته الشجاع الباسل، الكمي المناصل، بشّار بن شريفة وغيرهم، ومعهم قافلة، مظهراً أنّه يجلب للدولة المصالح، وعلىٰ ذهني أنّ ذلك كان أوّل دخول منه بعد فعلته تلك.

فلمّا استقرّ به المجلس بين يدي الوزير، أشار الوزير إلىٰ خدمه أن اقبضوه، فتسارعوا من بين يدي الوزير إلىٰ أخذ سلاحه وقبضه، وأودعوه الحبس، وركب بشّار بن شريفة صهوة جواده[1]، فيخال حصلت في المدينة زعزعة، وروي أنّه حصل نهب، وخرج الوزير بعد الهاربين غير بعيد وعاد.

وقيل: كان قبض الشيخ محمّد أنّ رجلاً من أصحاب الوزير عرف سلاحاً كان مع رجل من أصحاب الشيخ محمّد يدّعي أنّه نهب يوم صندلين، ودار الكلام حتّى ارتفعت الأصوات، وكاد الحرب أن يقوم علىٰ ساق، فتوهّم الوزير أنّ ذلك خديعة

---

(١) في «ن»: دابّته.

من الشيخ محمّد فقبضه .

والظاهر أنّ السبب في قبضه هو ما قدّمنا؛ لأنّه لم يفكّه بعد أن تحقّق براءته، وإن صحّ ذلك الذي قيل، فهو سبب انضمّ إلىٰ أسباب، ثمّ إنّ الوزير أرسل الشيخ محمّد مصفّداً إلى الشريف، وبقي عنده بخلب .

ولمّا وصل الأشراف بنو حسن: عبدالله بن هاشم، وراجح، وشبير، وبشير، أبنا مبارك، من مكّة إلى الشريف، صحبهم الشيخ علي بن جابر، وتعلّق بأذيال الشريف في شأن أخيه الشيخ محمّد، فطلب الشريف في فكّه قدراً من الأنعام مستكثراً، واحتمل به الشيخ علي بن جابر، فلمّا حصله وقف به بين يديه جعل لا يأخذ إلاّ ما أجمع[1] علىٰ حسنه، ويظهر للقبائل وغيرهم أنّ من عرفه من هذه الإنعام شيئاً يأخذه بعد أن يحلف عليه .

ولمّا كانت القبائل أهل معادة وبغي، وأكثر ما بأيديهم من مال غيرهم، انسلب ما جاء به الشيخ علي بن جابر، وبعضه كان معيباً علىٰ شرط الشريف، فأيس من خروج أخيه، فارتحل وفي فؤاده ما فيه .

وفي اليوم التاسع من شهر صفر، كان نزول الشريف حسن بن غالب من جبل رازح، بعد أن تحقّق خروج أولاد الإمام من مدينة صعدة، وجرىٰ عليهم من المصائب، ما يعجز عن ضبطه قلم الكاتب .

وقتل السيّد الرئيس الهمام، الضيغم الهرماسة القمقام، ضياءالدين إسماعيل ابن الإمام الناصر لدين الله، بعد خروجه من صعدة قريباً .

وروي أنّه ثبت ثبات من لا يرهب ولا يخاف، وجرّع من بغي عليه كأساً مترعاً

---

(١) في «ن»: اجتمع .

من السمّ الذعاف .

وكان سيّداً حازماً وقوراً عادلاً، محمود السيرة، محبّباً إلىٰ قلوب كثيرة، ولم ينج من أصحابه إلاّ من شذّ، ولم يكن لابن الإمام علي بن أحمد مشاركة في ذلك علىٰ ما روي، وإنّما الفاعل لذلك قبل تلك الجهات هالكاً على الطمع .

وكان هذا السيّد قد دخل هو وجماعة من آل الإمام ومن الرؤساء بأجناد يعسر ضبطها وحصرها إلىٰ مدينة صعدة بمواطأة منهم لقبائلها، وخرج ابن الإمام علي ابن أحمد خائفاً يترقّب بعد أن أحسّ بالخداع، وعلم أنّ الدفاع ليس بممكن ولا مستطاع، فتنحّىٰ إلىٰ بني جُماعة ـ بضمّ الجيم ـ فآووه وعزّوه، وأكرموه وتركوه بمدينة صعدة، وترك أهله من النساء والأطفال، وضيّع الحزم، وسلك غير سبيل أهل السياسة والعزم .

واستحسن بعض الرؤساء الداخلين إلىٰ مدينة صعدة تحميل أهل علي بن أحمد وإيصالهنّ إلى اليمن، وأكاده[1] وأغاضه ففعل، وروي أنّ الإمام لم يرتض ذلك .

قيل: وكان ابن الإمام علي بن أحمد قد عهد بأهله إلىٰ طالب بن المهدي، بعد أن أخرجه من حبسه، وصمّم على التنحّي. وربما روي أنّه أنكحه ابنته له .

ولمّا تهيّأ لأُولئك الداخلين ما تهيّأ، وملكوا من مدينة صعدة زمام عيسها، واجتلوا ضوء بدرها وشمسها، أقبلوا علىٰ قبائل تلك الجهات، فأخذوها بالعنف، وعاقبوا المجرم منهم معاقبة غليظة، فاختلّ عليهم أمر السياسة والتدبير، اللذين

---

(١) في «ن»: وأكادوه .

يهون[١] بهما من الأُمور كلّ أمر عسير، وأساؤا السيرة، وفعلوا من الأُمور التي لا تليق أفعالاً كثيرة، فتصدّعت قلوب القبائل ومالت، وأخذت بالحزم[٢] واستشعرت الصبر، فردّت عليهم أوامرهم، وأظهرت المخالفة لهم.

وجرت بينهم وبين آل الإمام حروب تحاكي حروب[٣] الفخار، وسدّوا طرق الموادّ علىٰ آل الإمام، فوقع عليهم الحصار، ودارت النوائب عليهم رحاها بالليل والنهار، ولبثوا علىٰ ذلك برهة من الزمان، حتّىٰ آل أمرهم إلىٰ ما ذكرناه من الخروج وقتل إسماعيل.

وكان الشريف لمّا أحسّ من أولاد الإمام بالزحف[٤] أيّام مقدمهم إلىٰ صعدة، جهّز من لديه من جهّز، وكان أخوه حسن بن غالب ممّن تجهّز، فطلعوا جبل رازح، وأقاموا به مدّة إقامة أولاد الإمام، وجرت لهم مع أولاد علي بن أحمد وقائع كثيرة، وكانت الحرب سجالاً بينهم، ولمّا تيقّنوا خروج أولاد الإمام من صعدة سارعوا إلى النزول، فنزلوا في التأريخ المتقدّم، وعادت نواحي صعدة وجبل رازح إلىٰ علي بن أحمد.

وهذه الواقعة لأولاد الإمام وصاحب صعدة تشبه واقعة جرت لبعض ملوك الزمان الماضي، ذكرها في سلوان المطاع[٥].

---

(١) في «ن»: يبون.

(٢) في «ن»: بالجزم.

(٣) في «ن»: حرب.

(٤) في «ن»: بالرجف.

(٥) وهو كتاب سلوان المطاع في عدوان الطباع، تأليف أبي عبدالله محمّد بن

نعم وكتب الشريف الإمام يعزّيه في ولده إسماعيل، وبعد وصول الشريف حسن بن غالب لم يمكث الوزير بمدينة صبيا، بل سار إلىٰ حضرة الشريف بخلب، والظاهر أنّ ذلك كان باستدعاء من الشريف، خوفاً من انفتاح الفتنة المشرقيّة، وتولّىٰ بعده الشريف حسن العنقاوي، وأنّ الشريف[1] استخلف أحمد بن محمّد، ثمّ جاء علي بن حسن من بعده.

وفي شهر ربيع أحسبه الأوّل، وصل جواب التعزية من الإمام بخطّ القاضي الأديب حسين بن أحمد الخيمي، مصدراً بهذين البيتين:

بقيت وقري وانصرفت عن العلىٰ ... ولقيت أضيافي بوجه عبوس

إن لم أشن على ابن هندٍ غارةً ... لم تخل يوماً من ذهاب نفوس

وهما من أبيات حماسة أبي تمام[2]، وطرق في سمعي من بعضهم أنّها للأشتر. وفي أثناء الكتاب عند ذكر مقتله:

تردّىٰ ثياب الملك[3] حمراً فما أتىٰ ... لها الليل إلاّ وهي من سندسٍ خضر

وهذا البيت من شواهد التلخيص، والشاهد فيه الطباق المعروف، وعند بعض

محمّد، وهو أبو عبدالله محمّد بن أبي القاسم بن علي القرشي، المعروف بابن ظفر المكّي حجّة الدين النحوي، المتوفّىٰ سنة (٥٦٨) صنّفه لبعض القوّاد بصقلية سنة (٥٥٤) وهو كتاب في قوانين الحكمة، ونوادر أخبار السلاطين علىٰ لسان الطيور والوحوش. كشف الظنون ٢: ٢٨٨.

(١) في «ن»: الوزير.

(٢) لم أعثر عليها في ديوان أبي تمام.

(٣) في الديوان: الموت.

أهل علم البديع تبديع الكناية، ذكر فيه لونين الحمرة وكنّىٰ بها عن القتل، والخضرة وكنّىٰ بها عن دخول الجنّة، وهي من قصيدة لأبي تمام يرثي فيها محمّد بن حميد الطوسي لمّا استشهد[1]، وأوّلها:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر[2]

وقيل: البيت الأوّل:

غدا غدوةً والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلاّ وأكفانه الأجر

وبعد البيت الأوّل:

كأنّ بني نبهان بعد وفاته نجوم سماءٍ خرّ من بينها البدر[3]

قال في معاهد التنصيص[4]: يروىٰ أنّه لمّا ورد نعيه، غمس أبو تمام طرف ردائه في مداد، وضرب به كتفه وأنشد القصيدة، وإلىٰ ذلك أشار ابن زنجي الكاتب يرثي الشيخ أباعلي ابن خلدون:

لولا الحياء وإن أُحيي بفعلةٍ يقضي عليّ بها سيوف ملام
وأكون متّبعاً لأتبع سنةٍ قد سنّها قبلي أبو تمام

---

(١) في سنة (٢١٤) هـ وهو يحارب الخرمية.

(٢) ديوان أبي تمام ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٣) ديوان أبي تمام ص ٣٠٤.

(٤) معاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص، تأليف الشيخ عبدالرحيم بن أحمد العبادي العبّاسي، المتوفّىٰ سنة (٩٦٣) وهو شرح لأبيات تلخيص المفتاح في المعاني للشيخ جلال الدين محمّد بن عبدالرحمٰن القزويني المعروف بخطيب دمشق المتوفّىٰ سنة (٧٣٩). كشف الظنون ١: ٤٧٩ ـ ٤٨٣.

للبست لبس الثاكلات وكنت في لبس السـواد كأنّـني مـن حـام

نعم بعد وصول الأشراف المذكورين إلى الشريف أرسـل إلى الإمـام، مـنهم: الشريف بشير بن مبارك، يستوهبه بندر اللـحية للاسـتعانة بـجبايته فـي أرزاق الأشراف الواصلين، فوهب له الإمام مدينة الزيدية[١].

ووصل الشريف بشير وفي صحبته الشريف النجيب حسن بن أبي طالب بـن محمّد، والنقباء الثلاثة: سرور، وياقوت، وسنبل. أو اثنان منهم، وأظنّ ذلك كان في آخر شهر جمادي الآخرة[٢]، والشريف عبدالله بن هاشم حـصلت بـينه وبـين الشريف أحمد بن غالب وحشة أوجبت ارتحاله، فارتحل وصحبه من الأشراف من صحب، وأرسل ورآه الشريف يطلب عوده، فامتنع عملاً بقول أبي الطيّب :

إذا ترحّلت عن قومٍ وقـد قـدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هـم[٣]

وفي شهر جمادي الآخرة: غزا الشيخ علي بن مـحمّد المـوكلي أهـل قـرية الحسيني، فأغاروا، ووقع الشيخ علي في أياديهم[٤]، فاستسلم، فقبضوه وسلّموه إلى الشريف علي بن حسن، وهو والٍ بمدينة صبيا، وبالغوا عليه في أن لا يوقع به مكروهاً غير الحبس، فالتزم لهم بذلك، وبقي الشيخ علي محبوساً أيّاماً، ثمّ بدا له فصلبه حيّاً، ولا علم لي أكان ذلك عن إذن[٥] الشريف، أو لم يكن عن إذنه.

---

(١) في «ن»: الزندية، والزيدية: قرية باليمامة فيها نخل وروض.

(٢) في «ن»: الأُولىٰ.

(٣) ديوان أبي الطيب ص ٢١٤.

(٤) في «ن»: أيديهم.

(٥) في «د»: عن علم.

غير أنّه روىٰ لي من روىٰ أنّ الوزير كان يعدّ ذلك من سقطات الشريف علي بن حسن، يقول: لو كان له من التدبير حظّ لما فعل ذلك الفعل الموجب لأتباع الفتنة بين الشريف وبين بني شعبة، فإن صحّ هذا الكلام، ففيه إيماء إلىٰ أنّ ذلك كان من غير إذن الشريف، وبقي الشيخ علي مصلوباً أكثر من يومين في ظنّي.

ما قاله الأُدباء في المصلوب:

وقد أذكرني صلبه، ودعاني إلىٰ ذكر ما قال الأُدباء في المصلوب، وتشبيه حالته وتصوير هيئته حال صلبه، فمن أبدع ما جاء في ذلك قول ابن الرومي:

كان له في الجوّ حبلاً يبوعه ... إذا ما انقضىٰ حبل أُتيح له حبل

يعانق أنفاس الرياح مودّعاً ... وداع رحيلٍ لا يحطّ له رحل

ومن ذلك قول الأخطل الأهوازي:

كأنّه عاشقٌ قد مدّ صفحته ... يوم الفراق إلىٰ توديع مرتحل

أو قائمٍ من نعاسٍ فيه لوثته ... مواصل لتمطّيه من الكسل

ووجه التشبيه في هذا هو الهيئة المركّبة من المواصلة للتمطّي مع سببه، وهو اللوثة والكسل، فقد نظر فيه إلى الهيئة المركّبة من الثلاث الجهات، ولذا كان لطيفاً، فهو كما ذكر أهل علم المعاني في قول أبي الطيّب المتنبّي يصف كلباً صاد صيداً بغير صقر معه:

يُقعي جلوس البدوي المصطلي ... بأربعٍ مجدولةٍ لم تجدل

من قصيدته التي أوّلها:

ومنزلٌ ليس لنا بمنزل ... ولا لغير الغاديات الهطّل[(١)]

---

(١) ديوان أبي الطيب ص ٨٧ ـ ٨٨.

فقوله «يقعي» أي: يجلس على الصيد مثل جلوس البدوي المصطلي بـالنار، فإنّه يكون لكلّ عضو من أعضاء الكلب في إقعائه موضع خاصّ، وللمجوع صورة خاصّة مؤلّفه من تلك المواقع، وكذلك صورة جلوس البدوي المصطلي بالنار.

ترجمة عمّارة بن علي بن زيدان المخلافي :

وللفقيه العلاّمة أحد مفاخر المخلاف السليماني، من لم يكن له في عصره ثاني، عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحدبي في المصلوب :

ومدّ علىٰ صليب الصلب منه ... يـميناً لا تـطول إلىٰ شـمال

ونكّس رأسـه لعـتاب قـلبٍ ... دعاه إلى الغوايـة والضـلال

وله أيضاً في وصفه :

ورأت يــداه عــظيم مـا جـنتا ... فقرّرت[١] ذي شرقاً وذي غربا

وأمـال نـحو الصـدر مـنه فـما ... ليــــلوم فــي أفــعاله القــلبا

قلت: وقول عمّارة هذا ليس من تشبيه هيئة المصلوب في شيء، وإنّما هو من حسن التعليل الذي ذكره أهل علم البديع؛ لأنّ إمالة الفم وتـفرّق الأيـدي مـن المصلوب له علّة، ولكنّها ليست ما ذكره من عظم الحزم ولؤم القلب في أفعاله، فهو في حسن التعليل نظير قول أبي الطيّب :

مـــا بـه قـتل أعـاديه ولكـن ... يتّقي إخلاف ما ترجو الذئاب

من قصيدته التي مدح فيها بدر بن عمّار، وأوّلها :

إنّما بدر بن عمّارٍ سـحاب ... هطلٌ فيه ثوابٌ وعقاب[٢]

---

(١) في «ن»: ففررن .

(٢) ديوان أبي الطيب ص ٩٦ .

وقوله «ما به قتل أعاديه ولكن» البيت من حسن التعليل؛ لأنّ قتل الأعداء في العادة لدفع مضرّتهم، حتّىٰ تصفو المملكة عن منازعتهم، لا لما ذكره من أنّ طبيعة الكرم غلبت عليه، ومحبّته صدق رجاء الراجين بعثته علىٰ قتل أعاديه، لما علم من أنّه إذا توجّه للحرب[١] صارت الذياب ترجو اتّساع الرزق عليها بلحوم من يقتل من الأعادي.

قال في شرح التلخيص: وهذا مع أنّه وصف بكمال الجود، ووصف بكمال الشجاعة، حتّىٰ ظهر للحيوانات العجم.

قيل: ومن العجائب أنّ عمّارة صلب بعد قوله هذا بقليل، صلبه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب، وكانت هذه الكلمات كالفال.

قلت: وسبب ذلك ما ذكره أبوالحسن الخزرجي في تأريخه[٢]: إنّها لمّا انقضت دولة العبيديين، جعل يكثر من ذكرهم، والتأسّف عليهم، والدعاء علىٰ من كان سبباً لهلاكهم، وكلّ ما همّ السلطان صلاح الدين بأذيته صدّ عنه القاضي الفاضل[٣]، حتّىٰ كان منه قوله فيهم:

لمّا رأيت عراص القصر خاليةً عن الأنيس وما في الربع سادات

أيقنت أنّهم من ربعهم رحلوا وخلّفوني وفي قلبي حرارات

---

(١) في «ن»: إلى الحرب.

(٢) هو كتاب تاريخ أبي‌الحسن علي بن الحسن الخزرجي النسّابة، المتوفّىٰ سنة (٨١٢) عنّي بأخبار اليمن، فجمع تاريخاً على السنين، وآخر على الأسماء، وآخر على الدول. كشف الظنون ١: ٣٥٦.

(٣) في «ن»: الفاضلي.

سألت أبلة قلبي فـي السـلوّ وقـد　　يقال للـيله فـي الدنـيا إصـابات

فقال رأيـي ضـعيفٌ لا يـطاوعني　　كيف السلوّ وأهل الفضل قد مـاتو

يا ربّ إن كان لي في قربهم طمعٌ　　عـجّل بـذاك فـللتسويف آفـات

وأنشدت الأبيات بأمر صلاح الدين، وكبر عليه، وأمر بشـنقه، بـعد أن قـالها بيسير، فشنق هو وجماعة ممّن كان علىٰ رأيهم، فيقال: إنّه تفأّل علىٰ نفسه باللحاق بهم.

وفي الغربال[١] ما معناه: إنّ سبب شنقه أنّه أُشيع عليه التعصّب للعبيديين مـع ثمانية من الروساء، وأنّهم يسعون في إعادة دولتهم.

قال في تأريخ أبيالحسن الخزرجي: فلمّا خرجوا يشنقونه، قال: مرّوا بي علىٰ باب القاضي الفاضل، فلمّا علم القاضي ذلك أمر بإغلاق باب داره، فلمّا مرّوا به هنالك ورأى الباب مغلقاً، قال ارتجالاً:

عـبدالرحـيم قـد احـتجب　　إنّ الخلاص هو العجب[٢]

فشنق في درب يعرف بخزانة البنود في القاهرة، وذلك يوم الثاني عشر من شهر رمضان سنة تسع وستّين وخمسمائة، ونسبه في حكم سعد[٣] العشيرة من مذحج.

قلت: وضبط ابن هشام مذحج في شرح بـانت سـعاد، بـضمّ المـيم وبـالذال المعجمة والحاء المكسورة.

---

(١) هو كتاب غربال الزمان المفتتح بسيّد ولد عدنان، في مختصر مرآة الجنان في التاريخ، لأبي الأهدل حسين بن عبدالرحمٰن اليمني.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٤: ٩٦.

(٣) في «ن»: ابن سعد.

قال الخزرجي: وكان عمّارة فقيهاً نبيهاً فرضياً نحوياً لغوياً شاعراً فصيحاً بليغاً، يعرف عند أهل زبيد بالعرضي، وعند أهل عدن والجبال بالفقيه، وعند أهل بلاده بالحدقي، وعند أهل مصر باليمني.

ورجّح أبو الحسن الخزرجي خروجه من مذهب أهل السنّة ودخوله في مذهب الفاطميين بني عبيد، قال: وأشعاره في مدائح القوم ناطقة بهذا مفصحة عنه، وكان مولده لبضع عشر وخمسمائة تقريباً.

قال ابن خلّكان: وذلك بوادي وساع بمدينة سمامرطان[1].

وكذا رأيته في الغربال، بزيادة علىٰ أحد عشر يوماً من مكّة بتهامة اليمن، وقال: ذكر ذلك عمارة في بعض تصانيفه.

قال الخزرجي: وذكر عمارة في مفيده: إنّ مولده في قرية الزرائب، وهي في الناحية الشرقية من المخلاف السليماني، وذكر أنّ أهل تلك القرية باقون على اللغة العربيّة من الجاهلية إلىٰ عصره لم تتغيّر لغتهم، وذلك لأنّهم لم يختلطوا بأحد من أهل الحاضرة، وهم قرار لا يضعنون ولا يخرجون منه، وخرج عمارة من بلده شابّاً في طلب العلم سنة إحدىٰ وثلاثين وخمسمائة، فلحق بزبيد.

قال في الغربال: وحجّ بسيرة صاحب مكّة قاسم بن هاشم إلىٰ صاحب مصر العبيدي، فمدحه بقصيدة ميميّة حسنة. قلت: أوّلها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أوليت من نعم

قال فيه فأجزل عطيته، ورجع إلىٰ مكّة، ثمّ إلىٰ زبيد، ثمّ حجّ ثانية، فأرسله صاحب مكّة ثانياً إلىٰ مصر، فاستوطنها، ولم يزل أمره قاهراً.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤: ٩٥ ـ ٩٦.

فائدة

في ذكر دولة العبيديين

ذكر في الغربال: إنّ ابتداء دولة العبيديين بأفريقية المغرب[١] في سنة تسع وتسعين ومائتين، ومدّتهم مائتا سنة وستّ وستّون سنة، ومقامهم بمصر مائتا سنة وثماني سنين، وجملة ملكهم أربعة عشر: أوّلهم المهدي، ثمّ القاهر، ثمّ المنصور، ثمّ المعزّ، ثمّ العزيز، ثمّ الحاكم، وهو الذي ملك الشام والحجاز مع المغرب، ثمّ الظافر، ثمّ المستنصر، ثمّ المستعلي، ثمّ الآمر، ثمّ الحافظ، ثمّ الطاهر، ثمّ الفائز، ثمّ العاضد.

قال فيه: وأكثر الناس لا يسلمون للعبيديين بنسبهم إلىٰ أهل البيت، وكتب الحاكم العبيدي إلىٰ صاحب الأندلس المرواني بهجوه ويذمّ نسبه، فكتب إليه المرواني: عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك وأجبناك، والسلام.

واشتدّ ذلك عليه وأفحمه، ووجد العزيز يوماً رقعة علىٰ منبر الخطبة، وفيها:

إنّا سمعنا نسباً منكراً ... يتلىٰ على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدّعي صادقاً ... فانسب أباً بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته ... فانسب لنا نفسك كالطائع
أو لا دع الأنساب مستورةً ... وادخل بنا في النسب الواسع
فإنّ أنساب بني هاشمٍ ... يقصر عنها طمع الطامع

قال فيه في سياق وفاة والدهم المهدي: وكان يظهر الرفض، ويبطن الزندقة،

---

(١) وقد ألّف الداعي إدريس عمادالدين المتوفّىٰ سنة (٨٢٧) كتاباً جامعاً مبسوطاً عن تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، مطبوع، فراجع.

وقتل هو وبنوه من بعده أربعة آلاف رجل ما بين عالم وزاهد، في دار النحر التي يعذّب فيها، ومنهم تولّد مذهب الباطنيّة باليمن والمغرب .

هذا، واعلم أنّ هذه المدينة التي ولد فيها عمارة قد اندرست معالمها في وقتنا هذا، ولا نعلم أحداً يعرف موضعها على التحقيق، وأمّا الجهة فهي معروفة، وزمان عمارة متقدّم علىٰ زمان اللسن البليغ القاسم بن علي بن هنتمل بما يجاوز الستّين سنة. وأظنّ أنّ مولد ابن هنتمل كان في زمان عمارة، وقد ذكره في قصيدته الدالية التي مدح بها الأمير فخرالدين بن علي العقيلي الخزاعي صاحب حلي، أوّلها :

فرطت يوم سويقة يا صائد   في الصيد وهو مخاتل ومكابد
وأضعت قلبك فالتحقه بناشد   إن كان يجمعه عليك الناشد

ولمّا خرج من مدحه يطلب منه اللهىٰ، ويذكر من مضىٰ ممّن يقول للمادح السائل، قال :

إن رشتني فزهير راش جناحه   هرم وريش جناحه متفاقد

وأخذ في تعديد هذه الأجناس، حتّىٰ قال :

وعمارة الحدّ في قام بحقّه   في مصر من ولد الحسين العاضد

وأمّا جهتاهما، فهما متقاربان بينهما قدر أربع فراسخ تقريباً .

تتمّة الحوادث :

نعم، وبعد أن صلب الشيخ علي الموكّلي، اتّسع على الراقع الخرق، ورأىٰ أبوه أنّ التقاعد عن الأخذ بالثأر بمعزل، فغدا يوعد أهل الحسيني ويجمع لهم الجموع، معتقداً أنّ السبب كالمباشر، ولتفرقة بينهما عند من لا يعلمها أمر غير ظاهر، وترعرع أهل الحسيني لعلمهم أنّ ذلك وعد غير مكذوب، وأنّ هذا الطالب لا يقدر علىٰ دفعه هذا المطلوب، فكحلوا نواظرهم ليالي بالسهاد، وفارقوا لذيذ المنام فرقاً

من ذلك الإبعاد.

ولمّا جاءهم العلم اليقين باليوم الذى يريد العدوان بهم فيه ما يـوقع، لم يألوا جميعاً في الاستصراخ بأهل القرى التي حولهم، وأرسلوا إلى الشريف عـلي بـن حسن بمدينة صبيا رسولاً يخبروه بما دهمهم، فجعل يتعلّل بأنواع العلل، يـقول الموضع قريب، والعدوّ لا يأتي إلاّ نهاراً، ثمّ تمهّل بعد دخول اليوم الموعود، حتّىٰ أوقع العدوّ ما أوقع قبل مجيئه، وكان هو الأحقّ بقول القائل:

فخير نحن عند الناس منكم　　　إذا الداعي المثوب قال بالا

وكان بقرية الحسيني من أهل الخيل في ظنّي ثلاثة أو أربعة، ومن أهل البنادق مثل ذلك، وألفين في أهل الخيل، هو الشريف الحسيب علي بن محمّد الذروي.

فلمّا أقبل العدوّ بعد الفجر يوم الخميس سادس وعشرين شهر رجب من السنة المذكورة، أوّلاً ضرب بالبنادق أهلها مرّة واحدة، فارتدع من العدوّ من ارتـدع، وجعل الشريف علي بن محمّد يدفع من شرّهم ما لا يندفع، ويجول بفرسه فيهم ولسان حاله ينشد:

تأخّرت أستبقي[1] الحياة فلم أجد　　　لنـفسي حـياةً مـثل أن أتـقدّما

ولسنا على الأعقاب تدمي كـلومنا　　　ولكـن عـلى أعـقابنا تـقطر الدمـا

فاعترضه الكمي الهرير شارس شريفه، وهو كما قال ابـن كـثير (البـرير)[2] الهذلي بكسر الموحّدة علىٰ وزن كريم:

---

(١) في «ن»: تأهّرت أستسقي.

(٢) الزيادة من هامش «د».

ممّن حملن به وهنّ عواقد　　　حبّك النطاق فشبّ غير مقبل[(١)]

فاعتنقه وسقطا جميعاً إلى الأرض، وجمحت فرس الشريف، فغنمها من غنم، وكاد الشريف مع ما أثقله من البيضة والدرع أن يقضي عليه، لولا حضور من ثبت جنانه، كشف عن ساق ابن شريفة، أراده لمضرّته، فاشتغل بنفسه، ونجا الشريف حتّىٰ توارى في خراب من البيوت، وأثخن العدوّ القتل في أهل القرية .

وكان من قتل في ذلك اليوم ثمانية عشر رجلاً، أحسب ثمانية من بني هاشم، وأحرقوا بيوت القرية إلاّ قليلاً، وطمّوا آبارها، وضاهي فعلهم بها فعل الوزير بقرية السلامة .

ثمّ تفرّق من بقي من أهلها عنها، وخذل أهل هذه القرية أهل القرىٰ، فتقاعدوا عن نصرتهم[(٢)]، مع بذلهم الجهد في الإعلام لهم، ولم تجىء الغارات إلاّ بعد أن قضي الأمر، ولله درّ القائل :

إنّ المرء[(٣)] ميتاً بانقضاء حياته　　　ولكن بأن يبغىٰ عليه فيخذلا

واعلم أنّ الاعتناق كان من عادة العرب العرباء في حروبها، ولا نعلم أحداً يفعله في زمننا، إلاّ قبيلة هذا الشجاع المذكور .

قال في شرح أبيات الجمل في شرح قول خربق[(٤)] بنت هتّان القيسيّة، أُخت طرفة بن العبد لأُمّه، من شعر رثت به زوجها بشر بن عمرو بن مرثد ومن قتل معه

---

(١) في «ن»: مهبّل .

(٢) في «ن»: نصرهم .

(٣) في «د»: الأمر .

(٤) في «ن»: خزنق .

من بنيه وقومه :

لا يبعدنّ قومي الذين هم هم　　سمّ العداة رأفة الجزر

النازلون بكلّ معتركٍ　　والطيّبون معاقد الأزر

النزول في الحرب علىٰ ضربين: أحدهما في أوّل الحرب، وهو أن ينزلوا عن إبلهم وتركوا خيلهم. والثاني في آخرها، وهو أن ينزلوا عن خيلهم، ويقاتلوا علىٰ أقدامهم، إذا كان القتال في موضع وعر لا مجال فيه للخيل .

قال: وربما اعتنق الرجل صاحبه، فسقطا جميعاً إلى الأرض، وهذا هو النزول الذي أراد مهلهل بقوله :

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا　　وأخو الحرب من أطاق النزولا

وهو الذي أراد عنترة بقوله :

فيهم أخو ثقةٍ يضارب نازلاً　　بالمشرفيّ وفارسٌ لم ينزل[١]

إنتهىٰ كلامه. وثقة بكسر المثلّثة المصدر، فإن فتحها فمعناه عدل، تقول رجل ثقة .

قلت: وقد ذكر الاعتناق أيضاً زهير في قوله :

ليثٌ بعثّر يصطاد الرجال إذا　　ما الليث كذّب[٢] عن أقرانه صدقا

يطعنهم ما ارتجوا[٣] حتّىٰ إذا طعنوا　　ضارب حتّىٰ إذا ما ضاربوا اعتنقا[٤]

---

(١) ديوان عنترة ص ٦٠ طبع دار صادر بيروت .

(٢) في الديوان: ما كذّب الليث .

(٣) في الديوان: ارتموا .

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمىٰ ص ٤٣ .

وقد أحسن وزاد على الإحسان في البيت الآخر، لاندماج الألفاظ فيه وانسباكها، وارتباط كلّ كلمة منها بأُختها وترتيبها عليها.

نعم، وكان بين الصباح وشنق المذكور نحواً من سبعة عشر يوماً، وكانت هذه الفعلة أوّل سطوة وقعت في أهل القرىٰ من بني شعبة.

والشريف لم يزل في اغتنام مسارّه، واجتلاء عرس[١] ملكه وأفكاره، حتّىٰ دهمه العلم بنزول الدولة المشرقيّة في العشر الأواخر من شهر رجب من السنة المذكورة أوّلاً، وذلك بعد امتناعه من الانتماء إليهم، والانتظام في سلكهم، وكثرت المكاتبة بينهم، وتردّدت الرسل.

ولم يرجع الشريف عمّا هو عليه من الانتماء إلى الإمام الناصر لدين الله، وأخذ في جمع الجمال، وتقريبها لجمع الأثقال، واستشار أرباب دولته في هذا الخطب الفادح، لاستفادة رأي منهم ثاقب صالح، وأجمع رأيهم علىٰ حسن النهوض إلىٰ أبي عريش؛ لأنّه من المرافق المعينة على الثبات، فألبس بهذا الموضع الذي هم فيه، من الآبار الكثيرة، والمباني الحصينة الممنعة، فقدّم الشريف الوزير سنبل بأهله وأثقاله.

ولمّا وصل إلىٰ أبي عريش، كان من فساد رأيه، واختلال تدبيره، أن منع أهل المدينة من الخروج بأثقالهم، من حين أن وصل الشريف بعده أذن لهم، ولكن تفاقمت الحادثة، فعدمت[٢] الجمال، وتعذّر عليهم حمل الأمتعة والأثقال، وخرجوا بالنفوس والأولاد.

---

(١) في «ن»: عون.

(٢) في «د»: فعمدت.

وكان هذا الإجلاء الثاني منهم عن وطنهم في مدّة الشريف، وفي قدوم الشريف من خلب إلىٰ أبي عريش، احترقت عليه خزانة البـاروت[١]، وأحـرقت النـار جماعة من أصحابه، وضاقت نفسه من أجل ذلك .

ثمّ أخذ في إعمال مكائد الحرب، فجعل من العسكر جزءً وافـراً فـي ثـلاثة متارس يصيبون ولا يصابون، وبقية العسكر معه بالقلعة، والدولة المشرقيّة وصلت عياش، بعين مهملة مفتوحة، فياء مثنّاة من تحت، فشين معجمة علىٰ وزن بقال: لمن يبيع البقل يوم الثلوت، أو يوم الربوع، وهو علىٰ نحو فرسخين من أبي عريش مشرقاً يميل إلى اليمن، واضطرب حال الشريف وتقلقل، لهجوم هذه الحادثة مع شدّة بأسه، وثبات جنانه .

ولمّا كان بعد شروق الشمس من يوم الجمعة سابع وعشرين من شـهر رجب الثاني ليوم وقعة الحسيني، أقبل من نحو المشرق يوم مستطير، وارتفع بالجوّ نقع قد أُثير، فأردع الشريف الحزم،واستشعر الصبر للاصطلاء بحرّ هذا اليوم، وأخذ هو وأهل خيله نحو المشرق بقدر مدّ البصر، فإذا جـيش كـثيف قـد طـبق الأرض بأطباقه، فليس من أطباقه مهرب،كؤوس المنايا به مترعة، ورؤس المحن والبلايا محدقة به مهطعة .

فحين أن رأوا الشريف وأصحابه، أطلقوا عليهم صواعق محرقة، تصتكّ مـنها المسامع، فكرّت الخيل راجعة، وغشيهم من يمّ ذلك الجيش ما غشيهم، وحملت الأجناد المشرقيّة حملة لم يتمّ لها أحد، وتفرّق شمل أهل الخيل، وأظلم الموضع بالقتام كالليل، ولولا ما كان أعمله الشريف من المكائد لما عاد منهم الى المدينة

---

(١) في «د»: البارود .

عائد، ومال الجيش المشرقي قبلي المدينة يجرّ، ولا يبعد اطّلاعهم علىٰ ما كان أعمله الشريف في يمانيها من المكائد.

ولولا أنّهم تجاسروا على الإقدام على القلعة لملكوها، ولكن سبق القدر بخلاف ذلك، وحملت منهم شرذمة، فجاءت قبلي القلعة، فالتفت عليها المتارس، وأهلكت منهم جزءً وافر، ودخل جزء من الجند المشرقي في البيوت والحوانيت إرادة للنهب، فكان من إحكام الشريف وعنايته، أن أمر بإحراق البيوت، فأحرقت النار منهم خلقاً؛ لعدم خبرتهم بالشوارع، وتهالكهم على الطمع، ثمّ اجتمعوا جميعاً في الجانب القبلي من المدينة، واستتروا بما يقيهم، وكفت الحرب.

وروي أنّ الشريف خرج بعد رجوع الخيل، وبعد الالتقاء إلىٰ موضع قبلي المدينة أو غربيها، ولم يرجع إلاّ بعد أن تحقّق أنّهم لم يدخلوا القلعة، وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً غمامته، كصائب صوبها الرزايا والنوائب، سفه فيه من الحليم الحلم، وكاد أن يجعل الوليد شايباً كالهمّ.

وروي أنّ قاسم بن علي بن أحمد قال: لم يكن في خلدنا أنّ الشريف يتزحزح من مكانه الذي كان به، وأنّه يرىٰ ذلك عاراً عليه؛ لما كان يظهره من التمدّح في الثبات. ولمّا فرّ إلىٰ أبي عريش قصداً للاختفاء، لم يسعنا إلاّ الإقدام، قال: ولم يكن معنا ما نستعين به علىٰ ما وفّقنا فيه.

حكي أنّهم[1] لم يكن معهم آلة الماء المعروفة في الجهة التهاميّة من الدلو والرشا، وكان ما يستقون به هو المزاود، وأرشيتهم حبال البيوت التي قبلها ليس بمحكم، ولغرّتهم وعدم خبرتهم كانوا إذا سقط عليهم ممّا يستقون به شيء لم

---

(١) في «د»: أنّه.

يمكنهم استخراجه، فاجتمع في الآبار من ذلك التي كانوا يستقون منها شيء كثير، أخرجه غيرهم بعد عزمهم، ثمّ إنّ الطرق كانت مسلّمة للشريف، فكان يريده يسير إلىٰ أيّ جهة شاء.

وروي أنّ بعض أصحاب الشريف كان يلقي الجيف بالليل في الآبار التي يستقىٰ منها أهل المشرق، فتصبح منتنة، وانضمّ بعض الأُمور إلىٰ بعض، فاستحكمت الشدّة علىٰ أهل المشرق، وكثرت مكائد الشريف لهم، فأخذوا في التوسيط إليه طلباً للصلح المترتّب عليهم سلامتهم وقت الخروج، فتبيّن له أنّه قد ظهر عليهم، فشمخ عن ذلك، وثني عطفه.

وروي أنّه طلب أن يبقي لديه بعض أُمراء السريّة وثيقة، فامتنعوا وصمّموا على الخروج، والحرب قائمة، عملاً بقول القائل:

إذا لم يكن إلاّ الأسنّة مركباً   فلا رأي للمضطرّ إلاّ ركوبها

فلمّا كانت الليلة الخامسة من دخولهم وذلك ليلة الأربعاء، أخذوا في جمع أثقالهم، وأكثروا من الرمي بالبندق، ليشتغل[١] الشريف وأصحابه، (وكان يخرجون فئةً بعد فئةٍ، فلمّا كان قبل أن يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، خمدت الأصوات دفعةً واحدةً، فاستنكر ذلك الشريف وأصحابه)[٢] وأمر من تجسّس، فوجد منازلهم خالية منهم.

فلمّا أخبر الشريف المتجسّس بذلك الذي قال، قال الشريف: الرأي أخذاً

---

(١) في «ن»: ليشغل.

(٢) ما بين الهلالتين ساقطة من نسخة «د».

بالحزم أن يبقي أهل المتارس بها، ويغير غيرهم[١].

فروي أنّه نهض بنفسه ومعه أهل الخيل وبعض الجند، فقيل: إنه ترآءى الجمعان، وحقّ التعارف على الخلصان، ورأى الشريف وأصحابه موجاً لا علم لهم بالسباحة فيه، فتقاعسوا عنه، وقهقروا علىٰ أدبارهم، والتقطوا المتأخّر والعاجز والضالّ، ورجعوا مسرورين، وأسرّوا الشيخ العوسجي وكان ممّن تأخّر، وسبق بالمهملة له القدر وقبض.

قيل: وبلغ عدد المقتولين من أهل المشرق نحو المائتين، على اختلاف في ذلك، ومن أصحاب الشريف نحو سبعة لا غير، وذلك لإقدام أهل المشرق على الموت، وبروزهم في أغلب الأوقات، وفي وقت وصولهم واختفاء أصحاب الشريف بما سترهم قبل وبعد.

وكان خروجهم يوم الأربعاء ثاني يوم من شعبان سنة أربع ومائة وألف، وأصاب أهل مدينة أبي عريش من النهب للمدائن، وما لا[٢] يستطيعوا حمله من الأثقال أمر لا يضبط، مع إحراق بيوتهم، وتعقّب خروج أهل المشرق أصحاب الشريف ينهبون ما وجدوا، ولا رؤي لأحد منهم يتبع، أو نهي ناه لهم عمّا ارتكبوه يسمع.

وروي أنّ المأخوذ من سوق البابيان بلغ ما قيمته ثمانية آلاف قرش[٣]، وأرسل الشريف بالرسل بالتهاني إلىٰ كلّ موضع، وربما ارتفع عند الإمام من شأنه

---

(١) في «ن»: عيرهم.

(٢) في «ن»: وما لم.

(٣) في «ن»: غرش.

ما ارتفع، وهنّأه السيّد الأكرم، السالك من الأدب مسلكه، والمتسنّم ذروة البلاغة في كلّ معركة، عماد الدين يحيى بن أحمد بن صلاح بن الهادي الوشلي المنيمي بهذه القصيدة:

إليك وإلاّ لا نـــــجاح لطـــالبٍ ... وفـــيك وإلاّ لا مـــديح لراغب
ومـــنك وإلاّ فـــالمؤمّل مـخطىء ... وعـــنك وإلاّ فـالثناء غـير واجب
يقول لي الحادي وقد جدّ في السرىٰ ... وللعيس وخـدٌ بـين تـلك الغـياهب
وقد خالط القوم النعاس من السـرىٰ ... وهم بـين مـاشٍ فـي القـفار وراكب
إلىٰ مَ التمادي في السرىٰ يا أخا السرىٰ ... وحـــتّىٰ مَ قـطع للـربا والشـباب
أما حان للعيس المناخ فقلت لا منا ... خ سوىٰ في سوح أعلى[1] المـراتب
وكم لك من بأسٍ يذوب لهوله الجـما ... د وفـــعلٍ صـادقٍ غـير كـاذب
وعــزم إذا أودعـته البـيض لم تـدع ... على الأرض من باغٍ لها أو مـحارب

ومن ذلك:

وأمّنت من فـي البـرّ والبـحر بـعد أن ... غدوا من عظيم الخوف في كفّ لاعب

ومن ذلك:

وأنسيت أخبار الملوك وما مضىٰ ... لهم من أحاديثٍ جرت ومـناقب
وعــذراً أطـال الله عـمرك أنّـني ... وإن طال مدحي لا يقوم بـواجب
فما كنت في مـدحيك إلاّ كـمعتدٍ ... يـحاول إحـصاءً لعـدّ الكـواكب
وإلاّ كـــباغٍ للـفرات أحــاطه ... لأكـنافه أو مـا بـه مـن عـجائب
بقيت بقاء الدهر يـا خـير مـاجد ... لتشـــييد عـــزٍّ أو لبـذل مـواهب

---

(١) في «ن»: عالي.

ولا برحت أيّامكم في سعادةٍ ... ومجدٍ وإقبالٍ ونيل مآرب

وسعيك مشكورٌ وأمرك نافذ ... وسوحك مقصودٌ منيع الجوانب

وهذا السيّد من أدباء العصر، ملك من الفصاحة زمام النهي والأمر، وله كلّ معنىً رائق في النظم والنثر. وما أحسن تضمينه لبيت أبيبكر الخوارزمي، وذلك بعد أن شرع سيّدنا وشيخنا الإمام شيخ الإسلام شرف الدين الحسين بن ناصر بن عبدالحفيظ المهلا في عمارة دارٍ له بمحروس الشجعة، فقال السيّد مخاطباً له ومضمّناً للبيت الآخر:

ستبلغ في علياك ما كنت آملاً ... وتكمل بنياناً كمجدك كاملا

وتسكنه في نعمةٍ وسعادةٍ ... وتضحي لأنواع المراتب(١) شاملا

أباني المعالي والفخار بهمّةٍ ... يقصّر عنها من يروم تطاولا

تمثّلت إذ شاهدت دارك هذه ... الجديدة يا بحر الفضائل وابلا

وقد برزت في حسنها ذات بهجةٍ ... وأضحت تسرّ الناظرين تكاملا

أكلّ بناءٍ أنت بانيه معجزٌ ... بنيت المعاني أن بنيت المنازلا

ومن التضمين الحسن فصيدة السيّد العلاّمة صلاح بن أحمد بن المهدي عادت بركاته، ذكره القاضي العلاّمة شمس الدين أحمد بن صالح بن أبي‌الرجال في تأريخه:

وصغيرة حاولت فضّ ختامها ... من بعد فرط تحنّنٍ وتلطّف

وقلبتها نحوي فقالت عند ذا ... قلبي يحدّثني بأنّك متلفي

المصراع الثاني في البيت الأخير لابن الفارض، قال القاضي: وهذا المعنىٰ

---

(١) في «ن»: المسرّات.

عجيب، وقائله في الزمان غريب.

ومن الحسن أيضاً تضمين السيّد الأديب عمادالدين عيسى بن لطف الله لبيت أبي الطيّب:

قلت لمّا رأيت من تبع الملك ... بدار المطهّر الملك مخلا

أبداً تستردّ ما تهب الدنيا ... فياليت جورها كان بخلا

ومن ذلك أيضاً تضمين السيّد الأديب جمال الدين محمّد بن علي بن حيدر المكّي الحسيني، أخبرني به الشريف الأديب بشر بن مالك حين اجتمعت به في حلب، فسألته عنه، فقال: هو حيّ يعيش بمكّة المشرّفة، وقد صدّر وعجّز هذه البيتين:

يروي وما لي جيرة ما استعنتهم ... على الدهر إلاّ وارتجعت معانا

أراشوا جناحي ثمّ بلّوه بالندىٰ ... فلم أستطع عن حيّهم طيرانا

قلت: وفي استعمال ارتجع بمعنىٰ رجع تأمّل؛ لأنّ أهل علم الصرف ذكروا مجيء افتعل للمطاوعة في غير العلاج والاتّحاد، وللتفاضل والتصرّف، ولم يذكروا مجيئه بمعنىٰ فعل، كما ذكروا ذلك في تفاعيل واستفعل، فقال السيّد المذكور مصدّراً ومعجزاً، وهما من التضمين علىٰ ما يعطيه كلام أهل البديع.

بروحي ومالي جيرة ما استعنتهم ... فخبت ولا ظنّي المصدّق خانا

ولا جئتهم مستنجداً صارخاً ولو ... على الدهر إلاّ وارتجعت معانا

أراشوا جناحي ثمّ بلّوه بالندىٰ ... لكي أتّقي في ظلّهم وأُصانا

وعندهم استوطنت ذكراً بروضةٍ ... فلم أستطع عن حيّهم طيرانا

قلت: وكلّه حسن إلاّ تعجيزه بقوله «أراشوا جناحي ثمّ بلّوه بالندىٰ» بقوله «لكي أتّقي في ظلّهم وأُصانا» كما لا يخفىٰ ذلك على المتأمّل العارف بمواقع

الألفاظ ولطائف المعاني .

يوضحه: أنّ قوله «جناحي» إستعارة مصرّحة، والأراشة ترشيح، وقوله «ثمّ بلّوه بالندىٰ» تشبيه لاتّصال النعم إليه، وترادفها عليه، بعد جبر حاله المنهاض بالبلّ للجناح الكامل الرشّ في ترتيب الطير، والمكث وعدم القدرة على النهوض بعد كلّ منهما، فهو استعارة مصرّحة تبعيّة .

وقوله «فلم أستطع حيّهم وطيرانا» تفريع على الاستعارة بما يلائم المستعار منه من عدم استطاعته الطيران، فالاستعارة مرشّحة. فما أبلغ هذ الكلام مع التئام صدره وعجزه غاية الالتيام .

وأمّا تعجيز السيّد له بما ذكره، فهو منفكّ عنه غير ملتئم به؛ إذ لا مناسبة بين البلّ للجناح والاتّقاء والصون، ولو قال: لكي أتّقين بنون التوكيد الخفيفة داخلة على المضارع لكان مناسباً، ويكون تجريداً لا ترشيحاً، ودخول نون التوكيد على المستقبل الذي هو خبر محض غير منفي، وإن كان غير جائز في الشفة، فللشعر أحكام مجوّز له ما يخطر علىٰ غيره، والله سبحانه أعلم .

وللشيخ جمال الدين محمّد بن نباتة ماجناً واصفاً ضعف آلته، مضمّناً مصراع امرىء القيس :

دنوتُ إليها وهو كالفرخ راقد ... فيا خجلي لمّا دنوت وإذلالي

فقلت امعكيه بالأنامل فالتقى ... لدىٰ وكرها العنّاب والحشف البالي [(١)]

المصراع الثاني في البيت الأخير لامرىء القيس، وصدره «كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً» والعنّاب لم يذكر تفسيره صاحب شارح التلخيص، ولا شارح

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٤٥ .

شواهده، وإنّما ذكره في شرح الأزهار في الايماق، فقال: هو ثمرة لا توجد في جهاتنا، قال في بعض الحواشي: وهو شيء يشبه الأصابع. قال في بعضها: ويكون أحمر. وأمّا الحشف فهو أردئ التمر، والضعيف الذي لا نوىٰ له، واليابس الفاسد.

وقد تمادىٰ بنا القلم، وخرج بنا عن المقصود، ولكن لا يخلو ذلك عن فائدة إلى الناظر المستيقظ، والشيء بالشيء يذكر.

ثمّ أخذ الشريف في المعاقبة لمن اتّهمه بالخداع، والرضا بما نزل به من المكروه، فحبس جماعة، منهم: الأمير الشهير خيرات بن حسن بن عزّالدين القطبي، وسلّط علىٰ بيته نقيباً من نقباء الإمام استولىٰ علىٰ ما فيه.

وكان بنو شعبة لمّا فرغوا من تصبيح قرية الحسيني للتأريخ المتقدّم، استطعموا أهل القرى الشامية، والشريف حينئذ في شغل شاغل عن الالتفات إليهم بما نزل به من فتنة الدولة المشرقيّة.

ولمّا كانوا من بالمكان المعروف من القوّة، لم يستطع أهل القرىٰ الإباء عن ضيافتهم، وإن كانوا أعداءً للشريف، وعقوبته غير مأمونة، ولبثوا ينتقلون من قرية إلىٰ قرية، وهمّوا بدخول صبيا، وكان بها نائب خلّفه الشريف علي بن حسن، فولّىٰ دبره، وأقام ببيتة، وأخذ أهل صبيا بالحزم، وصمّموا على المقاتلة والدفاع، وقام فيهم الشريف الأكرم الأنبل شمس الدين أحمد بن محمّد بن حسين، وحاميا لذماره، وقاصداً للذبّ لمن يقصد إلىٰ دياره، وركب إلىٰ بني شعبة بعض الأعيان، فنطحهم بما كان سبباً لاندفاع شرّهم، ورجعوا عمّا كانوا أرادوا.

ولمّا انجلت عن الشريف غراماً، ألمّ به من أنكر به، وطلع واطّلع علىٰ ما صنع أهل القرىٰ الشامية من الضيافة لبني شعبة، وجّه إليهم النقيب قاسم بن غاضب، ومعه نحو مائة وخمسين لقصد تأديبهم، غير ملتفت لما هو لهم في ذلك من

المعاذر، ومن أوضحها وأجلاها أنّ المستطعم لهم قوي قادر، ووجّه إلىٰ مدينة صبيا الشريف علي بن حسن، وإلىٰ قرية الشقيري وهجرة ضمد الوزير سنبل.

ولمّا شاع وامتلأت به أهل هاتين القريتين الاسماع أنّ الشريف كان أباحها للوزير وأجناده، لاتّهامه بأهلها بالسرور بمكروهه، والتقاعد عن نصرته وإعانته أيّام كان الحصار عليه، فرجّح له من رجّح استهلاك ما يملكونه على التدريج، ليكون ذلك أعظم نفعاً، وأوفر جمعاً، فوجّه الوزير سنبل وقد أضرب عن تلك النيّة.

ولمّا شاع خبر وصوله، وما كان استحسنه الشريف أوّلاً من الإباحة، هرب من هجرة ضمد من هرب، وأمسى الوزير ليلة الخامس أو السادس من شهر شعبان بضمد، وكان بجنده عجب وخيلاء مساوها اعتقاد غلبتهم لتلك الأجناد المشرقيّة، فبات أهل القرية من أجلهم بليلة نابغية[1]، وأحزان يعقوبية، وانفصل صبح تلك الليلة إلى الشقيري.

وكان قد هرب من أهله خلق، خوفاً من ذلك الأمر الذي شاع، فاستدرجهم الوزير من حيث لا يعلمون بكتاب، مضمونه: إن الجائي إليكم للذبّ عنكم والحماية لكم، كيف يليق بكم الفرار منه خوفاً من شرّه؟.

وأرسل بذلك رسولاً وتلطّف لهم الرسول، فرجعوا ورفضوا ما كانوا صمّموا عليه من الإجلاء، فلمّا مضىٰ عليهم نحو عشرة أيّام أقبل عليهم يؤدّبهم بالأموال الجليلة، ويعزّرهم جنده بأنواع التعزير، فكانوا كما قيل:

وكم رافض أمراً وفيه نجاته ... ومدّخرٍ نفعاً وفي نفعه الأفعا

والنقيب قاسم بن عاصب فعل بأهل القرى الشامية نحو هذه الأفعال، وقد

---

(١) في «ن»: نابعية.

مكروا مكرهم وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

نعم، وبالغ الشريف في إدخال الضرر علىٰ أهل المشرق، بقطع الموادّ، ومنع الصادرين والواردين، وانقطع اتّصال أهل الأسباب بالأسواق المشرقيّة، وأدّب من بيّتهم بذلك بالأدب الكبير، وكذلك آل عمر وآل حسن منعهم الموادّ، وأكثر من ذلك علىٰ أهل القرى الأرصاد .

وكان المسلمون في عناء وتعب، وعدم الملح علىٰ أهل الجبل، وارتفع لديهم ارتفاعاً لم يعهدوه من قبل، وتنكّرت منَ الشريف بعد هذه الفتنة معارفه، وجهل حتّىٰ من كان أوّلاً يعرفه، وانقاد لهوىٰ نفسه بزمامٍ، وظهر منه ما كان يجنّه في سالف الأيّام، فعظمت في القلوب هيبته، وترقّبت في كلّ وقت سطوته .

عمارة قلعة جازان :

وفي غرّة شعبان: ابتدأ الشريف عمارة قلعة جازان، وكانت الأشجار قد سترت أرضها، فأمر بقطعها، وكان يغدو إليها ويروح إلىٰ أبي عريش، ثمّ ضرب بها خيمه وأقام بغير سكن معه، وجدّ في ذلك واجتهد، وأقام وأقعد، وأكثر من الصنّاع والأُجراء، فامتلأ بهم ذلك الموضع بعد أن كان مقفراً .

ورویٰ لي بعضهم أنّها مسحت[1]، فجاءت ثلاثة معاود، وقيل: ثلاثة معاود وقيراطاً، وبالغ الشريف في إعادتها كما كانت، وكان لا يبني أمراً إلاّ علىٰ ما يريد من الوضع والإحكام، وقد ذرعت أُسّها من الجانب الغربي، فجاء بذراع السيّد سبعة أذرع ونصف ذراع، وكان بذلك الموضع باب قديم غربي سدّة الشريف .

ولم يزل مهتمّاً بأمرها وشأنها، مشغوفاً بالعناية في إحكامها، وتوثيق بنيانها،

---

(١) في «ن»: مسخت .

ولم يدع أمراً تدعو الحاجة إليه عند الحرب وشدّة الحصار إلاّ أمر بفعله، فجاء أُسلوبها غريباً، لم يهتد ملك هذه الجهات إلى الإتيان بمثله، وأنشده ناطقاً بالموعظة لسان الحال، وناهياً له عن الطمع في بقاء ما هو موضوع للزوال:

أتبني بناء الخالدين وإنّما مقامك فيها لو عقلت قليل

وقد كان في ظلّ الأراك كفاية لمن كلّ يومٍ يقتضيه رحيل

واعلم أنّي طالعت بغية المستفيد[(١)]، تأريخ مدينة زبيد للربيع[(٢)]، مطالعة مستقصاة، فلم أره ذكر عمارتها القديمة، مع ذكره لملوك زبيد، وعماراتهم إلىٰ مدّة بني طاهر رأس المائة التاسعة.

وطالعت قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون[(٣)]، له أيضاً، مطالعة إمرارٍ لا استقصاءٍ، ولا أخاله ذكر عمارتها.

وطالعت الغربال[(٤)] للعامري، ولم أره ذكر عمارتها. وبعض تأريخ أبي الحسن الخزرجي[(٥)]، ولم أر فيما رأيت ذكراً لعمارتها.

ولا أظنّ العامر لها غير الأمير خالد بن قطب الدين وأولاده، ولو كان لملوك

---

(١) هو كتاب بغية المستفيد في أخبار زبيد، تأليف الشيخ وجيه الدين عبدالرحمٰن ابن عمر بن علي المعروف بابن الديبع اليمني، المتوفّىٰ سنة (٩٤٤) وهو مجلّد، مرتّب علىٰ مقدّمة وعشرة أبواب، وكان أعظم البواعث لتأليفه بيان أحوال بني طاهر. كشف الظنون ١: ٣٠٦.

(٢) كذا في النسختين، ولعلّ الصحيح: لابن ديبع.

(٣) راجع: إيضاح المكنون ٥: ١٩١.

(٤) تقدّم الكلام عنه.

(٥) تقدّم الكلام عنه.

زبيد فيها عمارة لما أغفله الربيع[١]، مع ذكره لعمارة البرك، وهو أحقر منها قدراً وأبعد مسافة، وأوّل خراب وقع عليهما فيما علمت في مدّة الشريف السلطان أبي‌الغوائر أحمد بن دريب بن خالد بن قطب الدين في شهر ربيع الأوّل من سنة اثنين وثمانين وثمانمائة .

وكان ذلك ـ علىٰ ما ذكره في بغية المستفيد ـ بسبب وحشة شديدة حصلت بين الشريف أحمد بن دريب والشريف محمّد بن بركات، فتجهّز الشريف محمّد بن بركات من مكّة في جمع عظيم، وصحبته جميع أهله من الزوجات والذراري والسراري، فوصلوا إلىٰ وادي جازان، وتردّدت الرسل بينه وبين صاحبها، فلم ينتظم صلح، ووقع بينهم وقعة عظيمة .

فانهزم فيها صاحب جازان، وقتل من أصحابه جمّ غفير، وانتهكت الحرمات، وانكشفت العورات، وجرىٰ علىٰ نساء صاحب جازان من الذلّ والإهانة وكشف الحجاب، ما لم يكن لأحد في حساب، وانتهبت خزانته، وفيها من الكتب النفيسة شيء كثير، وأُخذ من السلاح ما جمعه أبوه وجدّه، ونهبت جازان، وأحرقت، وهدّمت دور الخلافة وسور البلاد، وأصبحت البلاد خاوية علىٰ عروشها[٢]. إنتهىٰ .

والحراب الثاني: كان في مدّة عامر العزيز، أظنّه سنة ثلاث أو أربع وأربعين وتسعمائة، وهو آخر ملوك الأُمراء القطبة، وعدّة ملوكهم تسعة: أوّلهم الأمير خالد ابن قطب الدين، ثمّ ابنه دريب بن خالد، ثمّ ابنه أحمد بن دريب، ثمّ ابنه يوسف العزيز بن أحمد، ثمّ أخوه المهدي بن أحمد، ثمّ أخوهما عزّالدين بن أحمد، ثمّ

---

(١) ابن الديبع، وهو صاحب كتاب بغية المستفيد وغيره .

(٢) بغية المستفيد لابن الديبع، لم أعثر عليه .

محمّد بن يحيىٰ، ثمّ أحمد بن المهدي، ثمّ عامر بن يوسف العزيز .

ومدّة ملكهم مائة سنة وأربعون سنة، كلّها صافية إلاّ أربع سنين في أيّام عامر العزيز، فإنّها ترعرت، وكان أُمراء جازان قتلهم الشطوط، بشين معجمة فمهملتين بينهما واو، وهم من ذرّية غانم بن يحيىٰ، وآخر ملوكهم المقلَّم علىٰ صيغة اسم المفعول من التقليم، وكانت ابنته حليلة للأمير خالد .

غزوة قبيلة النحوس :

وفي آخر العشر الوسطىٰ من شهر شعبان: نهض الوزير من قرية الشقيري غازياً قبيلة النحوس من قبائل بني شعبة، وكانوا بناحية نبش، وكتب إلى الشريف علي بن حسن، وكان قد خرج من مدينة صبيا إلىٰ قرية الدهنا يخبره بما عزم عليه من الغزو للمذكورين، ويعرّفه بموضع معيّن يجتمعان فيه[١]، ونبّه الشريف علي بن حسن على النقيب قاسم بن غاضب بما يريد الوزير، وكان السبب بقرية المحلّة، فاجتمعوا بالموضع الذي قد كان عيّنه الوزير .

واجتمع معهم من الخيل والجند عدد مستكثر، وقدم أهل الخيل على العسكر، واستولوا علىٰ أنعام تلك القبيلة، وكانت أنعاماً واسعة تقرب من الألف وتنيف، ثمّ جعلوها بين أيديهم وكرّوا راجعين، والتقت العسكر وتلك القبيلة، فحمي بينهم الوطيس، وثبتت تلك القبيلة ثباتاً عظيماً، حتّىٰ كادت أن تهزم الدولة، وقتلوا من العسكر نيفاً وخمسين رجلاً، وغنموا أسلحتهم وما كان معهم من المال المستفاد من مال أبي عريش .

وأمسى الوزير تلك الليلة بنبش، وأحسبه بات به ليلة أُخرىٰ، ثمّ ولي مدبراً ولم

---

(١) في «ن»: به .

يعقّب، وكانت هذه الغزوة إيقاظاً لنائم الفتنة، وقرعاً لبابها، وغراباً نعق لتفرق شمل أهل القرىٰ، وأذن بخرابها .

ولمّا ارتحل الوزير من نبش، خاف أهله ووجلوا؛ لعلمهم بعدم القدرة علىٰ دفاع العدوّ؛ لأنّه يعدّ أهل القرىٰ بعضاً من الدولة، والآخذ لهم عنده آخذٌ لها، مع زيادة أمر آخر عرف من دأب الشريف، وهو أنّ من وقف من أهل القرىٰ في بلدته متّكلاً في دفع العدوّ عن نفسه علىٰ جبلته[١] كان عنده من الخاطئين، ويلحقه بالعدوّ في وجوب معاداته، واستباحة مملوكاته، وهذا أقوى العلل، وأعظم الأسباب في الاتّساع للخراب .

وبعد ارتحال أهل نبش، ارتحل من يليهم من أهل القرىٰ، ثمّ لم يزل الآخر يتبع الأوّل فيما فعل للعلّة التي كان سببها ارتحال الأوّل، وارتحل الشريف علي بن حسن من قرية الدهناء بعد أن كان مريداً للإقامة بها، وكذلك النقيب قاسم بن غاضب ارتحل من قرية المحلّة، وقد كان نواها دار إقامة، قصداً منه للتأديب، وإرادة للتحكّم في أهلها بنوع التعذيب .

وأوّل صباح وقع بعد هذه الغزو صباح القوز، وأظنّه كان في شهر رمضان، ولا علم عندي بكيفيته، وحصل في قرية الدهناء، ولا علم لي في أيّ شهر كان .

وحكى بعض السادة الفضلاء بأنّه وقع صباح الدهناء ليلاً وهو بها، وأقبل عليه رجل من الأعداء شاهراً لخنجره، وانفردا ولم يكن مع السيّد سلاح، وكان ذلك يريد أن يسطو بالسيّد وهو في وجل، يظنّ أنّ مع السيّد سلاحاً أو رداءً، والسيّد في وجل منه لا يريد إلاّ إدباره، فتشابة حالهما، وتضاهي وجلهما، حتّى انثني السيّد

---

(١) في «ن»: حيلته .

يريد أخذ ما يستدفع به شرّ ذلك الرجل من سلاح أو عصاً، فأدبر ذلك الرجل إدباراً لم يتعقّبه منه إقبال، وكان في ذلك لهما فرجة كحلّ العقال .

وفي شهر شوّال: وقع صباح العداية والأثلة، وانتهى الحراب من قرية نبش إلىٰ مدينة صبيا، وكانت طرفاً، والوزير بعد رجوعه من هذه الغزوة إلىٰ قرية الشقيري أقبل علىٰ ظلم الرعيّة، فكان كلّ داهية من الظلم والضرّ يشفّعها بما هو أدهىٰ منها وأمرّ، واستباح أعراض المسلمين، وما حازته أيديهم من كلّ منقول بالأسباب التي يمجّها السمع، ويخيّلها المعقول، وأخاف السبيل في غير المصروفية، وضاق كلّ منزل من أجل ظلمه وجوره علىٰ ساكنيه .

وانتهت به الحال إلى أنّ الكذب على الناس، والنقل عليهم بخلاف الواقع، وبالأسباب التي لا توجب التأديب من الأُمور الموجبة لمرتكبها القرب منه، والمحبّة له، وارتفاع المنزلة لديه، فسرىٰ ذلك في الخلق، وسارعوا إلى الاتيان به لقلّة من تجده منهم علىٰ طريقة الحقّ؛ لأنّهم كائل[1] مائة لا تجد فيها راحلة، وكان إذا أحسّ تقصيراً ممّن عهد منه ذلك الإعزاز، أو ذلك الكذب، تهدّده وعدّه ممّن لا مصلحة فيه، وممّن يحقّ أن لا يلدك نعمة بفيه .

ومن قبيح أفعاله: أنّ صبيّاً مميّزاً ورد بئراً من آبار هجرة ضمد يستقي بدلو ورشا، فزلّت به قدمه، فهوىٰ فيها، وأُخرج منها حيّاً لا بأس به، فجعل الوزير يؤدّب بالمال جيران تلك البئر، حتّىٰ أُمّ ذلك الولد أدّبها بمال كثير، ولبث في قرية الشقيري نحواً من ثلاثة أشهر ونصف، جاعلاً هذا الفعل ديدنه ودأبه، غير مراقب

---

(١) في «ن»: كامل. وكائل مكائلة: قال له مثل قوله أو فعل معه كفعله، شاتمه فأربىٰ عليه وزاد

لمن ولاّه، ولا خائف ربّه الذي خلقه فسوّاه، وشمخت به أنفه، واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحقّ، وكانت له أفعال غير ظلم العباد، فيها نكارة وشناعة تسمح بنا ذكرها اتّخذها خلقاً وعادة.

مساوٍ لو قسمن على الغواني　　　لمـا أمـهرن إلاّ بـالطلاق

والشريف لم يزل بقرية أهل الأحن والضغائن، بعداوة أهل الفضل وذوي الأقدار، فتغيّر قلبه عليهم، ونظر بعين البغضاء شزراً إليهم، فكان يسرّه ما ساءهم، ولا يقبل لهم عثرة، ولا يرحم لهم عبرة، واتّهمهم وهم الأُمناء، واستصفا من أصمّ لهم في قلبه عداوة وأحنا، الأرب نصح يغلق الباب دونه، وغشّ[1] إلىٰ جيب السرير متسرّب[2].

وكان للسانه ذربة عليهم، تكلّم بها أعراضهم الوافرة، وتذمّ بها شمائلهم المحمودة العاطرة[3]، والشريف علي بن حسن توجّه إلىٰ مدينة الزيديّة والياً، أظنّه في شهر رمضان، وتولّىٰ بعده مدينة صبيا الشيخ علي حضير، وليس له في هذا الدور جمل ولا ناقة، ولا مقدمة ولا ساقة، وكانت أفعاله مضاهية لأفعال الوزير.

ومن غريب ما وقع لأهل هذه القرىٰ من الشدائد: أنّ العدوّ كان يطلب سفك دمائهم، وأخذ أموالهم، إدخالاً للنصرة على الشريف، والشريف يطلب أموالهم، ويبالغ في أخذها منهم، وانجرارها إليه، كما قدّمنا في فعل الوزير، ويعلّل ذلك

---

(١) في «ن»: وعش.

(٢) في «ن»: مقرب.

(٣) في «ن»: العطرة.

بكراهتهم له، وعدم النصيحة منهم في دفع العدوّ، وصرّح في بعض مجالسه بأنّ أهل القرىٰ لم يدفعوا العدوّ عن أنفسهم، مع أنّه يقتلهم، وينهب أموالهم، إرادة منهم لإكادته، وعذّر الناس في عدم دفع العدوّ، والعجز عن دفاعه، ومن ذا يكيد غيره بقتل نفسه وأخذ ماله، وفي كراهة الشريف أفعاله القبيحة.

والحاصل أنّه كان يعلّل إساءته إليهم بكراهتهم له، وهم يعلّلون كراهته لهم بإساءته إليهم،فاستحكمت العلّة، وعدم دواؤها.

ولم أر ظلماً مثل ظلمٍ ينالنا يساء إلينا ثمّ نؤمر بالشكر

وكان له أعوان مساعدون له علىٰ مذهبه، فمن أحسّوا منه إرادة الرفع إلى الإمام أغروه به، وكان ينبذ الخطوط[١] الإماميّة وراء ظهره، ويجعلها مؤخّرة عمّا يريد تقديمه عن أمره، فقصرت الآمال، وترقّبت النفوس الفرج[٢] من الكبير المتعال، وأنشد لسان الحال من كلّ أحد بهذه الديار بعين مبرحة، ودمع مدرار:

أقول كما يقول حمار سوءٍ وقد ساسوه حملاً لا يطيق
سأصبر والأُمور لها اتّساع كما أنّ الأُمور لها مضيق
فإمّا أن أموت أو المكاري وإمّا ينقضي عنّا الطريق

حكم معاقبة الإمام لرعيّته:

واعلم أنّ المجري للعمّال على التتابع في نهب الأموال، هو قول العلماء: إنّ للإمام الجامع للشروط المعتبرة أن يعاقب من أخطأ خطيئة يحتمل المعاقبة عليها، والزجر عنها، بأخذ المال منه.

---

(١) في «ن»: الحطوط.

(٢) في «ن»: الفرحة.

وقد خالف في جواز ذلك للإمام كثير من العلماء، واستدلّ المخبر بحديث أنّ سعد بن أبي وقّاص سلب عبداً وجده يصيد في حرم المدينة، وقال: سمعت النبي ﷺ يقول: من وجدتموه يصيد فخذوا سلبه عند أئمّتنا وسلّم [١].

وأُجيب بأنّ العقوبة حدّ، والحدود إلى الأئمّة، فتولّىٰ سعد لها وليس بإمام ولا والٍ، مخالف للأُصول.

ومن أدلّة المجيز تضمين من أخرج غير ما يأكل من التمر المعلّق مثليه، وحديث كاتم الضالّة يردّها، وقرينتها مثلها، وحديث تضمين عمر بن الخطّاب لحاطب بن أبي بلتعة مثلي قيمة الناقة التي غصبها عبيده وانتحروها.

وأُجيب بأنّ الإجماع استقرّ علىٰ عدم استحقاق المجني عليه لما ذكر؛ لأنّه مخالف للأُصول بتضمين المثلي والقيمي بأكثر من قيمته ومثله.

وأيضاً فهو غير محلّ النزاع؛ إذ النزاع في أحد مال المذنب لبيت المال، ولذا روىٰ محمّد بن الهادي إلى الحقّ بإسناده إلىٰ علي عليه السلام: إنّ الله أدّب هذه الملّة بالسيف والحجر. فلو كان التأديب بالمال مشروعاً لذكره؛ لأنّه باب مدينة العلم.

وتعقّب هذا شيخنا المجتهد شرف الإسلام الحسين بن ناصر بن عبدالحفيظ بن عبدالله المهلا في مواهبه القدسيّة [٢]، بما معناه: أمّا لو فعل الإمام أو نائبه اجتهاداً

---

(١) كنز العمّال ٤: ٤٣٤ برقم: ١١٢٨٠، رواه عن ابن جرير، عن سعد بن أبي وقّاص، قال ﷺ: من وجدتموه يصيد في شيء من هذه الحدود فمن أخذه فله سلبه.

(٢) هو كتاب المواهب القدسيّة شرح البوسية في الفقه كالشاطبيّة، في سبع مجلّدات، تأليف الحسين بن ناصر بن عبدالحفيظ المعروف بالمهلا الشرفي اليمني الزيدي، المتوفّىٰ سنة (١١١١). ايضاح المكنون ٥: ٥٠١.

أو تحرّياًللمصلحة علىٰ وجه لا يراد به طلب الدنيا ولا اتّباع الهوىٰ، بل علىٰ حدّ ما يسلكه الأئمّة الذين علم إعراضهم عن الدنيا، وشدّة ورعهم وزهدهم فيها، وعلىٰ وجهٍ لا يلحق معه تهمة، توخّياً لما يقصد بالتأديب من الزجر عن المعصية، وكان التأديب بالمال أشدّ في الزجر من التأديب بغيره، لكن لا على الوجه الذي عليه العمّال والعرفاء من قصد جمع الحطام، وارتكاب الآثام، وتوجّه النقائع والآداب المحرّمة في الأُمور المشكوك فيها بمجرّد النقولات الكاذبة التي لا تحلّل مال المسلم الثابت تحريمه قطعاً، وذلك ـ أعني: ما صدر لا علىٰ هذا الوجه ـ ممّا ترجي السلامة منه في الآخرة.

ثمّ قال: والورع يصدّ عن ذلك، ويحمل على البعد منه، وعليه المانعون.

وأمّا المعاقبة بإحراق المال وإفساده، فأجازه المانعون، بحيث همّ النبي صلى الله عليه وآله بتحريق بيوت المتخلّفين عن الجماعة عليهم، وتحريق علي عليه السلام مال المحتكر، كما رواه عنه قاضي القضاة.

وروي أنّه حاز نصفه إلىٰ بيت المال لأمر خاصّ في تجويز ذلك، وهدمه عليه السلام لدار جرير بن عبدالله البجلي؛ لأنّها كانت مجمع أعداء أميرالمؤمنين. إنتهىٰ ما ذكره سيّدنا مختصراً بالمعنىٰ.

وهاهنا فائدة لا ينبغي إهمالها نطّلعك عليها، وهو أنّ كثيراً من الناس يجهل ما هو فرضه في مثل هذه البلوى الصادرة من مخلوق، والواجب علىٰ من نزل به شيء من هذه البلايا التي ذكرناها في سيرة هؤلاء القوم مع هذه الرعيّة، أن يعرف أنّ لها طرفين:

أحدهما: التخلية الكائنة من الله سبحانه لهذا الظالم، فيجب على العبد الصبر عليها، واعتقاد أنّها كانت منه سبحانه لضرب من المصلحة، وأنّه سبحانه لا يرضىٰ

بها؛ لأنّ التخلية منه لظالم، أي: تركه وشأنه ليس رضىً بفعله؛ لأنّه قد بيّن له قبح فعله، ونهاه عنه في آياته، وعلىٰ لسان نبيه، ولكن لم ينته .

والطرف الثاني: أنّها صادرة من عبد مخلوق منهي عن اتيانها، فيجب على الشخص المعاملة لهذا العبد المقدم علىٰ ما نهاه عنه سيّده بالدفع والجهاد، والنهي عن منكره الذي ارتكبه بشروطه المعتبرة عند أهل العلم، أو الهجرة بشروطها أيضاً.

هذا الذي يؤخذ من الأدلّة، وتعطيه أقوال العلماء، وتقضي به قواعدهم وأُصولهم، والظاهري أيضاً والأشعري والمعتزلي في ذلك الذي ذكرنا؛ لأنّ الأشاعرة القائلين بالكسب، وإن أطلقوا القول بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله، فمرادهم ذات الأكوان التي هي الحركة والسكون، مجرّدة عن الوجوه والاعتبارات التي تعلو بها قدرة العباد، ويوقعونها عليها، فالواقع بقدرة الله عندهم هو الحركة من حيث هي حركة مجرّدة، ولا قبح فيها من هذه الجهة إجماعاً، والواقع بقدرة العبد هو أنّ كون الحركة طاعة أو معصية، أو حجّاً أو صلاة .

الذي ألجأهم إلىٰ هذا، أنّ الحركة والسكون عندهم من الأشياء الحقيقية مثل الأجسام، وأنّه لا يقدر علىٰ إيجاد الأشياء الحقيقية إلاّ الله تعالىٰ، فكون الحركة طاعة أو معصية، هو أثر قدرة العبد المقابل بالجزاء عندهم، لا حدوث الحركة ووجودها؛ لأنّها صفة مشتركة بين الحسن والقبح، غير مطلوبة من العبد، ولا ممنوعة عنه، ولا محمودة، ولا مذمومة .

وقالت المعتزلة: الحدوث والوجود هما أثر قدرة العبد، وهما متوقّفان علىٰ همّة وداعية، وليستا بحقيقتين يتعلّق بهما الخلق، كالأجسام علىٰ أن يكون الشيء الحقيقي لا يقدر علىٰ إيجاده إلاّ الله غير مسلّم .

كيف؟ وقد يخالف فيه إمامهم الكبير أبوالمعالي الجويني، والشيخ أبوإسحاق الشيرازي، وقالا: يقدر علىٰ ذلك من أقدره الله عليه ومكّنه منه. هذا ملخّص اختلافهم علىٰ سبيل الاختصار.

وصرّح بعض محقّقي المتأخّرين، أنّ الخلاف بينهم في هذه المسألة خلاف في العبارة بعد التحقيق، قال: والكسب الذي يقوله الأشاعرة هو ما عنته المعتزلة بالفعل، وإنّما الخلاف المعنوي للجبرية الخلص جهم بن صفوان وأتباعه، وقد أجمع المعتزلة والأشعريّة وأهل الأثر علىٰ ضلالهم، والردّ لقولهم، واختلف العلماء في إمامتهم، وفي المشبّه تشبيهاً، مجمعاً علىٰ ثلاثة أقوال مذكورة في كتب السير من متن الأزهار.

تنبيه

عدم إرادة الله تعالىٰ للمعاصي

وقول أئمّة الأشعريّة: إنّ المعاصي مرادة لله تعالىٰ يريدون بها إرادة مجازيّة، لما كانت أسبابها التي هي القدرة والدواعي مرادة جعلوها مرادة مجازاً، تنزيلاً لها بمنزلة عرض المعرض.

وخطّأهم في هذا الإطلاق بعض العلماء لوجهين:

أحدهما: أنّه وقع لكثير من جهلتهم مغترّاً بهذا الإطلاق منهم، توهّم أنّ المعاصي مرادة حقيقة، وأنّ المراد محبوب، ثمّ أطلق أنّ المعاصي محبوبة لله مرضيّة.

وقد سمعت بعض جهلة الشافعيّة يسند الرضا بالظلم إلى الله، تعالىٰ عن ذلك، والظاهر أنّه شافعي الفروع، أشعري الأُصول، مخبّط خبط عشواء، وركب متن عمياء.

والثاني: أنّ شرط المجاز، وهو العلاقة المسوّغة، مفقود.

قلت: لم لا يقال بأنّه من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب كرهينا الغيث ؟

واعلم أنّ إرادة الشيء لنفسه من غير معارضة كراهة لها بوجه من الوجوه هي الإرادة الحقيقيّة بالإجماع، وهي الملازمة لمحبّة المراد، كإرادة الواجبات والمستحبّات والقبائح، لا تكون مرادة بهذا المعنىٰ اتّفاقاً، ولا يعرف للإرادة معنىٰ غير هذا عند الأئمّة والمعتزلة .

وقالت الأشاعرة: لها معنىٰ ثانٍ، وهي الإرادة الدالّة علىٰ نفي ما يستلزم العجز من وقوع ما يكره الله وقوعه في ملكه من غير سبق قدر منه، وذلك لكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وعدم ربوبيته، فوقوع المعاصي عندهم يسمّىٰ مراداً بهذا المعنىٰ، ولا تسمّى المعاصي مرادة بمثل وقوعها، بل تسمّىٰ مكروهة، وتسمّىٰ عندهم إرادة وقوعها إرادة كونيّة .

قال بعض الفحول: وهذه التسمية لو ثبتت بالنصّ، وإنّما الثابت به أنّ ذلك مقدّر، وليس كلّ مقدّر مراداً، فإذن الأحوط في ذلك النظر إلى الدليل، فالنصوص في المعاصي قاضية بأنّها مكروهة لأنفسها، فلا تسمّىٰ مرادة لأنفسها؛ لتضادّ ذلك، وعدم الدليل عليه .

فائدة أُخرىٰ
في حكم وجوب الهجرة

إعلم أنّ الهجرة زمن اصطلام هذه البلية حقّت علىٰ كثير من المسلمين، ولم يفعلها إلاّ من وفّق إليها، وقليل هو، وعموم الظلم لكلّ موضع غير مسلّم، وإن سلّم بوجود المواضع التي قلّ فيها الظلم، وخفّ لا يمكن إنكاره .

وتقرّر أن يكون وجوب الهجرة علىٰ من كلّف بتسليم المال، وهو الأكثر من الناس متّفقاً عليه إلاّ من له عذر شرعي؛ لأنّ تسليم المال إلى الظالم معصية، ومن

حمل علىٰ معصية وجبت عليه الهجرة اتّفاقاً بين العلماء، صرّح بذلك غير واحد منهم.

وقيّد بعضهم قوله تعالىٰ ﴿إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها أُولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً﴾[1] علىٰ من حمل علىٰ معصية، قال: بدليل الاستضعاف. وجعلها بعضهم علىٰ أنّه عامّ له ولغيره ممّن لم يحمل.

قلت: ورودها على الأسباب الخاصّة التي ذكرها المفسّرون لا يمنع عمومها.

وصرّح الإمام القاسم بن محمّد، أنّ من أخذ منه السلطان مالاً ظلماً وعدواناً وهو يتمكّن من الهجرة، فإنّه يستحقّ بذلك النكال والخلود في النار؛ لأنّ ذلك ممّا يتقوّىٰ به الظالم، فكان من أعظم المعاونة على الظلم والعدوان؛ للنهي عنهما بصريح القرآن[2]، وإذا صرّح العلماء بأنّ إعانة الظالم علىٰ إقامة معروف أو إزالة منكر إذا أدّت إلىٰ قوّة ظلمه، فما الظنّ بتسليم المال الذي لولاه لم يستقم للظالمين شوكة.

قال: وزعم بعضهم أنّ ذلك إنّما يكون إعانة مع القصد، وهو باطل؛ لأنّ الله تعالىٰ جعل الكافر علىٰ عبادته غير الله معيناً عليه، حيث قال: ﴿وكان الكافر علىٰ ربّه ظهيرا﴾[3] أي: معيناً، ولا قصد للكافر في الإعانة؛ لأنه يقول: ﴿ما نعبدهم إلاّ

---

(١) سورة النساء: ٩٧.

(٢) قوله تعالىٰ ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ سورة المائدة: ٢.

(٣) سورة الفرقان: ٥٥.

ليقرّبونا إلى الله زلفىٰ﴾[(١)] .

وأوجب العلماء علىٰ صاحب الجدار المائل علىٰ طريق المسلمين رفعه، وضمان ما أفسد، ولا اشترطوا في ذلك قصد إثم، قال: علىٰ ما ذكرته إجماع أهل البيت. إنتهىٰ كلامه بالمعنىٰ .

قلت: ذكر في الأزهار[(٢)] والأثمار جواز بيع العنب إلىٰ من يتّخذه عصيراً، والخشب إلىٰ من يتّخذه مزامير، وعلّلوا الجواز بأنّ العاصي هو المستعمل لا البايع، قالوا: وليس بإعانة إذ لا تكونها إلاّ مع القصد، إلاّ أنّه مكروه من حيث شبهه بالإعانة .

ولقائل أن يقول: المأخوذ من قوله تعالىٰ ﴿ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم﴾[(٣)] إنّ الحسن يصير قبيحاً إذا أدّىٰ إلىٰ قبيح، ويجب تركه، وإن لم يكن هناك قصد، وفرّع أهل الفروع علىٰ هذا مسائل :

منها: أنّ من أراد طلب الماء للوضوء، وخشي علىٰ ماله أن يأخذه مكلّف، حرم عليه الطلب، توقّياً لهذا المنكر المخوف؛ لأنّ طلبه يصير سبباً للمنكر، وعدم قصده لحصوله معلوم بالضرورة .

ومنها: ما ذكره قاضي القضاة وأبورشيد وأبومضر، كما رواه في الثمرات عنهم:

---

(١) سورة الزمر: ٣.

(٢) هو كتاب الأزهار في فقه الأئمّة الأطهار، علىٰ مذهب الزيديّة، لأحمد بن يحيى بن مرتضى اليمني المتوفّىٰ سنة (٨٤٠) من أئمّة الزيديّة، وهو صاحب كتاب البحر الزخّار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، مطبوع .

(٣) سورة الأنعام: ١٠٨ .

إنّ المودّع إذا عرف أنّ صاحب الوديعة يستعملها في المعصية، لم يسلمها إليه وله جحدها، والحلف علىٰ أنّه ليس عنده، وينوي يجب عليه تسليمها، فجعلوا تسليمه إليه مع علمه بأنّه يستعملها في معصية حراماً ولا قصد له.

فمسألة الأزهار والأثمار مخالفة لهذه المسائل، غير مطابقة لمقتضىٰ هذا الدليل، علىٰ أنّه روىٰ في الثمرات عن الهادي والوافي عدم الجواز أيضاً.

ولا يخفىٰ عليك أنّ ما ذكره الإمام القاسم من الدليل، إنّما يقوم حجّة علىٰ كون الفعل معصية، لا علىٰ كونه كبيرة توجب دخول النار، فلعلّ جزمه باستحقاق الفاعل النكال والخلود في النار إنّما هو لترك الهجرة مع التمكّن منها، ومع إجبار السلطان له علىٰ ذلك الفعل الذي قام الدليل علىٰ أنّه معصية وحمل عليه، ودليل ذلك ما قدّمنا.

نعم، وأمّا ما ذكره في الثمرات من قوله «أمّا إذا أراد سفر الحجّ أو غيره، وعرف أنّه تؤخذ منه الأتاوة، فقال الشافعي: إنّ ذلك يمنع وجوب الحجّ، ومذهب الأئمّة أنّه لا يمنع؛ لأنّ هذا شيء يشبه السكون في الأرض الذي تحكّم فيها الظلمة بما شاؤوا من أخذ الشيء من المال، فهذا جائز، ولا تجب الهجرة لهذا عند الأكثر متىٰ قال ذلك كالإجماع، ويحكى الخلاف لبعضهم» فهو مع أنّه مناقض لما ذكر فيها من أنّ من حمل علىٰ معصية وجبت عيه الهجرة وفاقاً، مدفوع بما هو المروي عن الهادي والقاسم والناصر من وجوب الهجرة عن دار الفسق.

قال المنصور بالله: وهو الظاهر من مذهب أهل البيت.

ولا شكّ أنّ الأرض التي يحكم فيها الظلمة بما شاؤوا من أخذ شيء من المال دار فسق، سواء فسّرناها بما ظهر فيها من المعصية من غير إمكان نكير، كما هو

تفسير الإمام المهدي في شرح الأزهار والقلائد[١].

أو فسّرناها بما ظهر فيها من الفسق من غير نكير، كما هو تفسير غيره؛ لأنّ السلطان المتحكّم في أهل بلده يأخذ المال ظلماً من عشرة دراهم فصاعداً وله منعه، مرتكب لكبيرة، فهو ظالم فاسق، والدار التي هدمها دار فسق، وهذا هو مذهب الإمام الناصر، والإمام يحيىٰ، والإمام المؤيّد بالله، والإمام شرف الدين، والإمام الشافعي.

وحجّتهم صدق إسم المحارب المذكور في الآية[٢] عليه؛ إذ المحاربة معناها إخافة السبيل من غير تخصيص بالمصر أو غيره، واشتراط كونها في غير المصر ـ كما هو المذكور في الأزهار ـ ليس إلاّ قول الهادي وأبي‌حنيفة، وقد ضعّفه الإمام شرف الدين، وتأوّل الإمام أبوطالب قول الهادي، وأبوبكر الرازي قول أبي‌حنيفة، بأنّ المخيف للسبيل في المصر إنّما لم يكن محارباً عندهما؛ لأنّه يلحقه الغوث من المسلمين في الحال.

قلت: ولذا علّله في شرح الأزهار بهذا، وأمّا من لم يحصل منه الغوث، كسلاطين الظلم وأُمراء الجور، فهو محارب، وقد قال المؤيد بالله: أمّا سلاطين

---

(١) كتاب القلائد في العقائد (في تصحيح العقائد) علىٰ مذهب الزيديّة، لأحمد بن يحيى بن المرتضى اليمني المتوفّىٰ سنة (٨٤٠) فيه تدقيقات غريبة، وذكر أقوال الفرق بأجمعها، وأجاب عنها علىٰ طريقة مختصر ابن الحاجب في الإيجاز. كشف الظنون ٢: ٥٧٣.

أقول: قد طبع هذا الكتاب في ضمن كتابه البحر الزخّار في المجلّد الأوّل.

(٢) سورة المائدة: ٣٣.

الأمصار، فقد زادوا على المحاربين، كما زاد الكفّار على البغاة .

قال الدواري: مراده من لا يوجد منه الغوث، كما هو الغالب من حالهم .

قال بعض المتأخّرين: ومجرّد الإخافة كافٍ، وإن لم يكن منه قصد لقطع الطريق .

فائدة

في حكم المختلس والطرّار والغاصب

أمّا المختلس والطرّار والغاصب لقدر عشرة دراهم، وكانوا ممّن لا منعة له، بحيث يحصل منهم الغوث، وكان أخذهم لذلك القدر علىٰ غير وجه السرقة الموجب للحدّ، فهل فعلهم هذا كبيرة يوجب الفسق؟ نصّ في شرح القلائد جاعلاً له قول الجمهور علىٰ أنّه كبيرة توجب الفسق، وجعل مثلهم الممتنع علىٰ قضاء دين عشرة دراهم وهو واجد، أو ردّ وديعة قدرها ذلك .

وروي عن بعض المعتزلة أنّ الغصب مطلقا كبيرة، وسواء فيه القليل والكثير، قيل: وهو مذهب الناصر، وعزّي إلى الهادي، وولده أحمد، ولا أعلم لذلك كلّه دليلاً، إلاّ القياس على السرقة، وشرطه عند المفسق به أن يكون قطعياً، وقطعيته هنا غير متّضحة؛ لجواز أن يكون هتك الحرم[1] جزء من العلّة، والله سبحانه أعلم .

وقد أجبت متابعة القلم، إستكمالاً للبحث، وإيقاظاً للناظر الغرّ علىٰ ما يقبح منه الجهل به، اللّهمّ إنّي أسألك بذاتك العظمىٰ، وأسمائك الحسنىٰ، أن توفّقني إلىٰ مطابقة العمل للعلم، بإتيان أسباب النجاة، واجتناب أسباب الإثم، وأن تجعلني معرضاً عن نزهات هذه الدار، مقبلاً على الاشتغال بما ينجي من الهلكة يوم

---

(١) في «ن»: الحرر .

تشخص الأبصار.

بقيّة الحوادث:

نعم، وفي العشر الوسطىٰ من شهر ذي‌القعدة: أغار الوزير علىٰ قوم من آل عمر وآل حسن، أخذوا أنعاماً، فقتل منهم ثلاثة، وقتلوا من أصحابه رجلاً، وقبض منهم رجلاً، ثمّ شنقه بقرية الشقيري.

وفي يوم الخميس لتسعة عشر يوماً خلون من ذي‌القعدة: توجّه بنو شعبة من الدرب، ومعهم الشيخ علي بن جابر ثائراً بأخيه الشيخ محمّد بن جابر الزريقي، وهو قائد الجيش، بعدّة قويّة من الرجال والخيل، قاصدين الوزير بقرية الشقيري، وشاع خبرهم في القرىٰ، وكان مظنّة قدومهم الشقيري وصبيا وصلهبة، وكان بصلهبة الشريف حسن بن غالب، وبصبيا الشيخ علي حضير، وأخذ كلّ منهم حذره.

ولمّا جاء الوزير الخبر، وسوست نفسه بالتواني؛ لظنّه أنّ قصدهم لدفع[1] ما هو عليه من القوّة والمنعة بعيد جدّاً، وأمر العسكر وأهل الخيل بالأهبّة خشية علىٰ غير موضعه الذي هو به ساكن.

فلمّا كان قبل الشروق من يوم الأحد الثالث والعشرين من الشهر المتقدّم، وكان قد خرج بها بعسكره وأهل خيله وهم كثيرون إلىٰ قبلي القرية أقدموا عليه، وحملت الفرسان منهم وذوو الثبات على الدولة حملة لم يكن لهم معها بأنفسهم حاجة.

والخيل تصهل والفوارس تدّعي   والبيض تلمع والأسنّة تزهر

---

(١) في «ن»: لدمع.

فصدّقوهم الجلاد، ورووا من دمائهم الرماح السمر والبيض الحداد، فثلم من الوزير غراره، وأقبل بالمساءة عليه نهاره، وهرب أكثر العسكر عنه، ولاذ هو وجماعة منهم بدار حصنت بشوك السلم، وكانوا واقفين عنده، يحمونه وأنفسهم بالبنادق والفوارس تتخطّفهم، وكان علىٰ صهوة دابّته بينهم، وأمروه بالنزول خشية أن يراه فرسان بني شعبة، فيقتحموا من أجله المسالك الصعبة، ويقتلوهم معه، فنزل وجثىٰ علىٰ أقدار مطهر كان هناك، غير مبال بلؤم لائم، وغير ملتفت إلىٰ قول أبي فراس:

ولا خير في ردّ الأذىٰ بمذلّةٍ   كما ردّه يوماً بسوءته عمرو

ودخل منهم من دخل داره، فأحرقها، ونهب منها ما يحلّ قدره، ويعسر ضبطه، وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً، كريماً عند المسلمين محموداً، طابت به منهم النفس، وقرّت به العين، وأحيا مآثر بدرٍ وخيبر وحنين.

وروي عن بعض أهل الشقيري حكىٰ عن نفسه: أنّه كان واقفاً مع الوزير في موضعه الذي لاذ به بعد انهزامه من المعركة، فقال: وددت أن لو دخل العدوّ إلى الوزير ليقتله، ولو آل الحال إلىٰ قتل من هو واقف معه وهو من جملتهم، لشدّة ما قد نزل بالمسلين من جوره وظلمه، وبلغ عدد من قتل في هذا اليوم نحواً من تسعة عشر رجلاً، الأكثر من العسكر، والباقي من أهل القرية، ومن الخيل نحو أربع.

وروي أنّ بني شعبة لم يألوا جهداً في التوصية لأجنادهم، والتحريض عليهم في عدم قتل غير أجناد الدولة، ولولا ذلك لكان المقتولون من أهل الشقيري أكثر من هذا القدر، ونهبت علىٰ أهل الشقيري أموال كثيرة جليلة خطيرة، وسلب كثير من النساء والرجال، وكفت الحرب بعد ارتفاع الشمس، وخلت القرية من أهلها، وأقام الوزير بها إلىٰ وقت العصر في حال سيّيء، وذلّ وضيع.

وروىٰ من روىٰ أنّ عينيه ذرفتا بعد منصرف أعدائه من شدّة ما نزل به من الذلّ والهوان، وما شاهده من خذلان أصحابه له، وكان قد غذّاهم بأموال المسلمين، ولا يستقبح هتكهم لعرض من لا يستحقّ، وذلك لأنّه كان يعدهم لمهمّاته، فأضاعوه أحوج ما كان إليهم.

وانصرف بنو شعبة وأجنادهم لابسين ثوب المجد والفخار، مسرورين بما أمدّهم الله به من كسر راية أُولئك الأشرار، والشيخ علي بن جابر تبرّق أسارير وجهه من الفرح، وأنشد لسان حاله إنشاد من له النصر قد وضح.

يهني المفاخر أنّي قد ضمنت لها ... حمل الحقوق وقد أوجبت ما يجب

أرعى الولي ويرقىٰ خلفه مطرٌ ... وأرعوي ودخاني[1] تحته لهب

وقتل من جيشه من قتل، ولكن لمّا كانت الغلبة لهم لم يؤثر ذلك في جانبهم.

ومن ظنّ ممّن يلاقي الحروب ... أن لا يصاب فقد ظنّ عجزا

وبات الوزير ليلة الإثنين، أوّل ليله بعد هزيمته بهجرة ضمد، ومعه من بقي من جنده، وهم قليلون مستضعفون، وارتحل يوم الإثنين إلىٰ سيّده الشريف بقلعة جازان، والشريف يوم وقعة الشقيري تزعزع، وعظم عنده ما أقحمته بنو شعبة.

وأمر في ذلك اليوم بإيصال الشيخ محمّد بن جابر الزريقي إليه، وكان الشيخ بقلعة أبي عريش، وقد كانت حصلت له فرصة، فاغتنمها وسرىٰ من قلعة أبيعريش ومعه ثاني، وكان النهار لمّا أدركه مع ما قد كان فيه من الضعف لطول السجن، أقام بموضع شرقي مدينة أبي عريش علىٰ نحو ميلين أو أكثر، وفارقه ثانية وكان مطلقاً كأنّه يستنجد من يعينه علىٰ حمله، وشاع خبر مسرّاه، وأخذت

---

(١) في «ن»: وزحاني.

الخيل والرجال في طلبه من الجوانب الأربعة، حتّىٰ وقع عليه من وقع منهم بذلك الموضع الذي ذكرناه .

ولمّا جيء به، أمر بتغليظ السجن علىٰ من فيه، وكان الزمان زمان حرّ، فأصبح في اليوم الثاني نحو ثلاثة عشر رجلاً من المسجونين أمواتاً لا حراك بهم، وكان لهذه الواقعة موقع عظيم في قلوب أهل التقىٰ .

نعم، وروي أنّ الشريف بعد وقعة الشقيري حرض على الصنّاع في تنجيز أبواب القلعة، وانتهرهم على التراخي في ذلك، وبات هو وجنده ليالي لا يكتحل لهم بالمنام ناظر، ولا تمسي خيلهم إلاّ مشدودة السروج، يروعها وأهلها طيران الطائر .

وحكي أنّ فرساً قطعت وثاقها ذات ليلة، فركضت، وارتاع أهل القلعة وانزعجوا، وولي من ولي منهم مدبراً .

فصل

في ارتحال الشريف حسن إلىٰ مدينة صبيا

فلمّا أخلوا قرية الشقيري، وأجلا أهل هجرة ضمد، وارتحل منهم الأكثر، وتقلقل الشريف حسن بن غالب وكان بصلهبة، وهجر المنام، وأمر أصحابه وأهل صلهبة بملازمة السهر، وأخذ الأهبّة واستشعار الحذر .

ثمّ صمّم على الارتحال إلىٰ مدينة صبيا، فارتحل ليلة الثالث من وقعة الشقيري، وظنّ بأهل القرية الخداع لبني شعبة، وفهم منه بعض من يلازمه أنّهم إن لبثوا بعدنا ولم يرتحلوا، فهم مخادعون، وسوف يلحقهم من الأدب ما يكرهون، وفشي ذلك في أهل صلهبة، فلم يقدروا على الإقامة بعده خوفاً منه .

وكانت قد وصلت إليهم كتب من بني شعبة، مضمونها: أن لا تخافوا ولا تحزنوا،

فالغرض المطلوب والحاجة التي في نفس يعقوب إنّما هي الدولة، ولكنّهم لمّا أتوا من مأمنهم، وخرج عليهم العدوّ من مكمنهم، لم يصطبروا على الإقامة، مع ما قد بلغهم من الشريف حسن بن غالب أنّهم إن تخلّفوا بعده في قريتهم عاقبهم، فلهذا أخلوا عنها .

فلمّا كان بعد الشروق من يوم الثلوث، أقبلت أخبار بني شعبة تـملأ الفـضاء، فأتوا علىٰ قرية صلهبة خاوية علىٰ عروشها، فأقدموا إلىٰ مدينة صبيا، وكان بها جند عظيم من الخيل والعسكر، ولكن قد خامرهم الجـبن، وحـلّ بأفـئدتهم ذلّ الظلم، والأمير بها الشيخ علي حضير، وبقيّة الأجناد والرؤساء تبع له، فلم يركن[١] منهم من له همّة علوية وشهامة عنترية تحمل علىٰ لقاء العدوّ قبل وصوله، ليندفع شرّه ومعركته عن الضعفاء قبل دخول المدينة، بل استترت تلك الأجناد وأُمراؤها والقوّاد بالبيوت، ومن خرج منهم للقاء العدوّ، فهو عندهم ممقوت .

ولمّا كانت المدينة متّسعة بعيدة الأطراف، وقفت أجناد بني شعبة علىٰ جوانبها، وكان ذلك الوقوف منهم كهزّ جذع النخلة، وكان الهارب من أهل المدينة من ذكر وأُنثىٰ يقع في أيديهم، فغنموا من الهاربين أموالاً جليلة، ودخل بعضهم ما كان من البيوت علىٰ طرف، فنهب نهباً واسعاً، والدولة وأجنادها لم يكن في همّهم شيء سوى الرمي لمن وقف تحت دارهم، دفعاً عن أرواحهم وأموالهم .

وكلٌّ يرىٰ طرف الشجاعة والندىٰ ولكن طبع النـفس للـنفس قـائد

ثمّ ولّوا راجعين، وكان مرورهم علىٰ قرية صلهبة، ونهبوا من مخازنها ما نهبوا، وكان في ذلك أكذاب لما ذكروه لأهلها قبل من التسكين والتأنيس .

---

(١) في «ن»: فلم يكن .

غاض الوفاء فما تلقاه في أحدٍ وأعوز الصدق في الأخبار والقسم

وقيل: لم يكن الفاعل لذلك إلاّ آل عمر وآل حسن، ولكن كانوا في صحبتهم، وكان الواجب علىٰ بني شعبة الحرص على الوفاء لأهل صلهبة أن يمنعوهم من ذلك، لما سبق لهم من التأمين.

وروي أنّه قتل منهم في صبيا ثلاثة رجال، كأنّهم لقربهم وعدم خبرتهم وقعوا فيما لا يهتدون إلى الخروج منه.

ولمّا حصل من بني شعبة هاتان الفعلتان بالشقيري وصبيا، اهتزّت الأرض بأهلها ومادت، وبلغت القلوب الحناجر من شدّة الخوف وكادت، وخفت[1] العقول، وسفهت الأحلام، واضطربت أُمور الخلق اضطراباً يعجز عن التعبير عنه الألسنة والأقلام، وأنشد لسان حال الناظر إليهم في تلك الأيّام:

أرى الناس مخسوفاً بهم غير أنّهم على الأرض لم يقلب عليهم صعيدها

ورجع من أجلا من أهل هجرة ضمد إليها في عشر ذيالحجّة، وامتلأت بهم، ولم يبق منهم القليل، وكذلك أهل الشقيري.

غزوة المخبزة:

وفي ليلة ثاني النحر: توجّه الوزير سنبل من القلعة، ومعه السيّد حسن بن أحمد المرتضىٰ بأجناد كثيرة، غازين قوماً من القبائل بموضع يسامت جبال آل عمر وآل حسن، تواجه وادي ضمد.

ولمّا بلغ القبائل الخبر ارتحلوا، فلحقتهم الدولة، وأخذت أنعامهم، واستحوذ عليهم الطمع في اللحوق لرواحلهم وأخذها، فوافوهم بموضع يقال له: المخبزة ـ

---

(١) في «د»: جفت.

بميم مفتوحة، فخاء معجمة ساكنة، فموحّدة مفتوحة، فزاي فتاء تأنيث ـ وأخذت القبائل بالحزم، واستصرخوا بمن أمكن الاستصراخ به، واجتمع على الدولة منهم جيوش كثيرة، وقد كان في قلوبهم للدولة من البغضاء ما هزّ من عطفهم، وحرّك من نشاطهم، وأحاطوا بالدولة، وظهروا عليها، فأدبرت الدولة إدبار ذلّ وذعر، وكان هذا عاقبة ما سوّلته أنفسهم من الطمع .

ومن لم يتّق الضحضاح زلّت ... به قدماه في البحر العميق

وأثخنت القبائل القتل، ومع تعذّر الموضع وحصول الهزيمة، وتشتّت أصحاب الدولة، كان الرجل من القبائل لا يمنعه من القتل إلاّ الأعياء والتعب من كثرة الضرب، وهم كأنّهم خشب مسنّدة، وكثر المقتول من أصحاب الدولة كثيرة لم تعهد في أيّام الشريف، والأقوال مختلفة في القدر، فقيل: بلغ من قتل أرباب الدولة مائة وخمسة .

وفي اليوم الثاني أو الثالث: نهض الشريف مطاعن بن أبي طالب من قرية الشقيري بعد أن رجع أهلها إليها كما قدّمنا، ومعه آخر لأخذ ذمّة من القبائل بها يسكن نفس الراجع إلىٰ وطنه منهم علىٰ تخوّف من الشريف؛ لأنّ ذلك لا يرضيه كما قدّمنا، من أنّ من أراد أن يسكن في بلده متّكلاً علىٰ حيلته كان عنده من الخاطئين، فوقعا علىٰ قوم من القبائل لا يعرفونهما، فوثب عليهم من وثب .

فخرج الشريف مطاعن، فقال لهم: إنّما الغرض أخذ ذمّة منكم ولسنا بعدوّ، فقالوا: لا ذمّة لكم عندنا، ولا نفقة كثيراً ممّا تقول، وشدّوا لهما الوثاق[١]، وحصلت للشريف فرصة فاغتنمها وفرّ .

---

(١) في «ن»: الوثائق .

فلمّا وصل إلىٰ قرية الشقيري أنذرهم، وقال: الرأي أن لا يبقي منكم أحد، وأنّ هنا أقواماً قد تجمّعت كثيرة، ولم يعطوني جواباً فيما عزمت من أجله، ولا أُخالكم تنجون، والحزم على الارتحال، وأنّ البقاء علىٰ غير ذمّة مع اشتعال نار هذه الفتنة غير مستحسن، فارتحل أهل القريتين عنهما، ولم يبق إلاّ من لا يعتدّ به،كأرملة لا كافل لها .

ولمّا مضىٰ نحو ثلاثة أيّام، ولم يكن لما حسبه الشريف مطاعن حصول طمع من أجلا من أهل ضمد ومن طمع، في العود راجياً للسلامة فرجع .

ولمّا كان عصر يوم الجمعة ثامن عشر شهر ذي الحجّة الحرام: أقبل عليهم من الجانب اليماني جيش نحو المائتين، ومعهم من الخيل نحو ثلاث، ولم يكن في القرية من سما طرفه(١) وعبل ذراعة(٢) ممّن يدفع به ملمّة، أو يرجىٰ لكشف غمّة، وكان بعض من فيها من الشيعة أصناف المعذورين عن القتل شرعاً .

ففعل العدوّ بهم ما أراد، ولم يرده عن ذلك مراد، وسلب النساء، وأخذ ما وجد من الأنعام، وقتل نحو اثني عشر رجلاً، وجرح نحوهم، وبعدها ارتحل من بقي منهم، وخلت القرية عن أهلها خلوّاً أعظم من الأوّل .

حوادث سنة خمس ومائة وألف :

وفي آخر شهر ذي الحجّة أو أوّل شهر محرّم: توسّط بعض الأعيان قصداً لخمود نار الفتنة بين الشريف وبني شعبة علىٰ فكّ الشيخ محمّد بن جابر الزريقي،

---

(١) يقال: رددت من سامي طرفه، أي: حقّرت إليه نفسه. السما: الصيت البعيد الحسن، يقال: شاع سماه، أي: صيته .

(٢) يقال: رجل عبل الذراعين، أي: ضخمهما .

وتسليم قدر من الأرب[1] معروف يكون بعضه مسلّماً من بـني شـعبة، وبـعضه يحصّص علىٰ أهل القرىٰ، معونة لبني شعبة لكفّ شرّهم، والتزم الشريف الوفـاء بذلك إن تمّ دخولهم فيه، فعزم ذلك المتوسّط إلىٰ بني شعبة بعد مواطأة الشـريف علىٰ ذلك، فامتنعوه من الدخول في ذلك، وثنّوا عـطفه عـنه، فـطلب مـنهم ذلك المتوسّط ذمّة لأهل القرىٰ، قيل: بشهر، وقيل: بشهرين .

ففعلوا وشاع الخبر في أهل القرىٰ المطرودين عـنها، فسـرّوا بـذلك سـروراً عظيماً، ورجع منهم من رجع إلىٰ وطنه، وكان أهل الشقيري وهجرة ضمد مـمّن رجع، وكان بوادي ضمد خصب عظيم، فانجذب معهم من الأجانب من انـجذب طمعاً في ذلك الخصب؛ لأنّ رجوعهم في العشر الأُولىٰ من شهر محرّم .

ولمّا كان أوّل العشر الوسطىٰ منه، حصلت من القبائل غزوة علىٰ أهل الشقيري وقت العصر، فأغاروا وأغار معهم أهل الضمد، وكادوا أن يظهروا على الغـازين، واستردّوا ما أخذوا، أو أنّه فات .

واتّصل الخبر بمن بقي من القبائل في المراح، وكان فيهم من بني شعبة جماعة أهل حيل، فأغاروا وحملوا حملة قويّة، ودخلوا قرية الشقيري، وقـتلوا رجـلاً، ونهبوا وسلبوا، وتزعزع أهل القريتين، وعلموا أنّ تلك الذمّة المعقودة غير مبنيّة على الصحّة، وارتحلوا، وكان هذا ارتحالاً ثالثاً من أكثرهم، ومن أقلّهم أربعاً بعد وقعة الوزير .

وبعد مضي نحو خمسة أيّام من هذا الارتحال، غزا من العدوّ من غـزا انـاساً كانوا بقرية حضيرة وكوكب من المجلين من أهل هجرة ضمد وغيرهم، وكان ذلك

---

(١) أرب إليه: احتاج، وبالشيء: كلّف به .

ليلاً، فنهبوا ما وجدوا من الأنعام وغيرها، وقتلوا نحو ثلاثة، وأجلوا من بقي منهم، ثمّ خلّي بعد هذه الغزوة وجه وادي ضمد عن القطّان، ودخل هو وأهله في خبر كان، وكان الحراب مبتدءاً من نبش، منتهياً إلىٰ قلعة جازان، وجاوز عدد القرى التي خلت من أهلها الخمسين، يجيب بها البوم الصدا، ولا ترىٰ فيها من السكّان أحدا[١].

كأن لم يكـن فـيها أوانس كـالدما ... وإقبال حـربٍ فـي بسـالتهم أسـد
تداعي بهم صرف الزمان فأصبحوا ... لنا عبرةً تدمي الحشـا ولمـن يـغد

ولم تبق إلاّ مدينة صبيا، وارتحل من الساكنين أيضاً كثير وجلاً وخوفا، وفي القرى التي تليها من العرب واليمن اناس قليلون متخوّفون، بالليل وآخر النـهار يظهرون، وبأوّل النهار يستترون.

ومن غريب ما وقع من الخوف والاضطراب والوجل الذي يخطر علىٰ جـلد ذوي الألباب، أنّه حصل فزع وروع على الساكنين بوادي جازان من الهاربين من أهل القرىٰ ومن أهله، أوّل عصر من تلك الأيّام، فـقيل: جـاءكم العـدوّ، فـولّوا مدبرين من دون أن يتحقّقوا صدق الخبر أو كذبه، وكان كذباً، وعمّ هذا الفزع وهذا الإدبار مدينة أبي عريش، ونحواً من عشر قريات من قرىٰ وادي جازان.

وروي أنّه عمّ قرية الحربة وحضيرة، وكلّ ذلك في ساعة من النهار، وانـذعر أهل الحوانيت بأبي‌عريش، ففرّوا عنها مفتّحة الأبواب، والتجأ أكثرهم إلىٰ ثلاثة بيوت أو أربعة، محصّنة يظنّ فيها النجاة، وفي القلعة بأبي‌عريش هرب الشـريف راجح بن محمّد عمّ الشريف أحمد بن غالب من دار الجون إلى القلعة المذكورة

---

(١) في «ن»: من السكّان الأنيس أحدا.

مذعوراً، وكان بعضهم يقول لصاحبه: إرم بالبندق كي يسمعه العدوّ، فيرتدع عن الإقدام إلىٰ موضعنا، فإذا رمي به، قال السامع له من أهل المدينة: هذا العدوّ دخل المدينة، وضجّ البندق شاهد علىٰ ذلك، فوقعوا في حيص بيص، ثمّ حصلت الإفاقة من ذلك الإغماء بعد ذلك الوقت .

حوادث يبديها العيان كما ترىٰ وإن نحن حدّثنا بها رفع العقل

وفي أوّل العشر الأواخر أو آخر الوسطىٰ من شهر محرّم من سنة خمس ومائة وألف: صمّم الشريف على الخروج بنفسه على القبائل العادية له، فجمع الجمال، وحشد الأجناد، وأخذ في التأهّب لذلك والاستعداد، واجتمع له من العسكر أهل البندق نحو ستمائة، ومن غيرهم نحوهم، وألزم القبائل الموافقة له، كدكوان والأخادعة بالمحاذاة له، بأموالهم وأهليهم ليرتفق بذلك الأجناد الذين معه ويمتازوا، فكان إذا سار قليلاً سارت الأمزجة كسيره، وكانت طريقه من جهة المير ولا يسير إلاّ زحفاً .

بلغت مدّة خروجه من القلعة إلىٰ وصوله وادي صبيا نحواً من خمسة عشر يوماً، وتزعزع من خروجه البدو وفرّقوا، واتّصل الخبر ببني شعبة فوجلوا، وكان قد حالف آل حبيب على الانتقام من بني شعبة، ودخل تحت وطأته في خروجه هذا قوم من قبائلهم التي بها فعلوا تلك الأفعال .

والحاصل أنّه كان قد أعدّ من الأمور بما يظنّ ظهوره علىٰ بني شعبة لو أمهله المقدور، وكانت القبائل لمّا فعلت تلك الأفعال العظيمة بأهل القرىٰ، ولم تر أحداً منهم إلاّ مولياً ومدبراً، وقدر ما قدّر لها من الظهور علىٰ سرايا الشريف التي يوجّهها إليهم أوّلاً وآخراً، ثمّ رأته ساكتاً مطرقاً عن الأخذ بالثأر فيما قد جرىٰ، اعتقدت أنّ ذلك منه عجز أو ذلّ، وكذلك أهل القرىٰ اعتقدوا فيه ذلك الاعتقاد .

فلمّا كان منه هذا الخروج على الصفة التي ذكرناها، تحقّق أنّ سكوته وإطراقه فيما مضىٰ ليس بعجز ولا ذلّ، وإنّما هو لأمر آخر، وأنشد لسان حاله في حال سفره وارتحاله :

نحن بنو الحرب إذا شمّرت ولاح عنوان سناها وضاع
وإنّما أوقفنا موجب عنها وقد يطرق قلب الشجاع

وذلك الموجب الذي أوقفه: إمّا التشفّي علىٰ أهل القرىٰ والإكادة لهم، لما ذكرنا من كراهتهم له، وحمله لهم علىٰ خلاف ما هم عليه، والنقص الحاصل في سراياه أهون من النقص الحاصل في أهل القرىٰ. وإمّا أنّه كان يترقّب فرصة لم تحصل له إلاّ في وقت خروجه لهم وبروزه، فلمّا خرج ولّوه الأدبار، وصدّقوا ما تضمّنه البيت السيّار :

وإذا ما خلا الجبان بأرضٍ طلب الطعن وحده والنزالا

نعم، وبينهما هو في ثوب أمانيه رافل، وبالأسباب المعينة له على الظفر بأعدائه متشاغل، إذ دهمه العلم بنزول الأمير الشهير عزّالدين بن الحسن القطبي إلىٰ مور، وقاسم بن الحسين المهدي إلىٰ بلاد الشرفين، فتنغّصت لذّته، وولّت مدبرة فرصته، وكرّ راجعاً إلىٰ قلعة جازان، وسرّ الملسمون بذلك سروراً عظيماً، راجين زوال ملكه، ومؤمّلين عتق رقابه، وخروجها عن ملكه، فهو بذلك في حزن عظيم، وهم به في سرور ونعيم .

بذا قضت الأيّام ما بين أهلها مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد

واعلم أنّ الأمير عزّالدين لمّا انفصل من جانب ابن الإمام علي بن أحمد، واتّصل بالشريف، أنصفه كما قدّمنا، وأنزله منزلته .

ولمّا طلع أخوه الشريف حسن بن غالب، والشريف أبوطالب بن أحمد بن

محمّد العواجي إلىٰ جبل رازح، أيّام دخول أولاد الإمام إلىٰ صعدة، وطلع الأمير معهم، وصابر ورابط، وفعل ما يتوجّه علىٰ مثله رعايةً لحقّ الإمام الشريف.

ولمّا انقضت فتنة الجبل، ونزل الشريف حسن بن غالب، نزل الأمير عزّالدين، واجتمع بالشريف وهو بخلب، فقصر معه فيما يجب له، وترك ما كان فعله له من الانصاف، وسامه خطّه، لا يصبر عليها مثله.

ولم تـزل قـلّة الانـصاف قـاطعةً   بين الرجال وإن كانوا ذوي رحـم

فلم تساعده نفسه الأبيّة على الإقامة، ورأىٰ أنّ اللبث مع هذا خسّة ومـلامة، وارتحل إلى الحضرة الإمامية الناصرية، منشداً لسان حاله، ومخبراً بما قضت به همّته العليّة:

أبت همّتي أن ترام الضيم وارتقت   إلىٰ مـــذهبٍ بـالأريحيّة مـذهب
وقوبلت فـي عـمٍّ وخـالٍ مسـوّدٍ   كريمٍ وفي جدٍّ حسيبٍ وفـي أب
تــعوّدت تـعقيد الأُمـور وحـلّها   وتقليبها مـن حـوّل القـلب قـلب

ولمّا انتهت ركائبه إلى الحضرة الإماميّة، تلقّاه ربّـها بـالانصاف، ومكث بـها عزيزاً محترم الجناب، ولم تزل الأسباب الموجبة لرفـع يـد الشـريف تـتظاهر، والقرائن بجوره وحيفه لدى الإمام تتظافر، وحصل في هذه الجهة ما قدّمناه من نهب الأموال، وقتل النفوس والخراب، وغير ذلك من الأُمور العظام الصعاب.

فكبر ذلك عند الإمام، ورأىٰ أن تبقية الشريف هدم لقاعدة الإسلام، فمدّ بقلمه للأمير مدّة، وقال: اذهب مكان هذا الجائر، وسنفعل لك ما يعنيك من العُدّة، فأبى الأمير من استصحاب العُدّة من العسكر، وأقبل علىٰ ولاة الشريف بـالزيديّة[1]

(١) في «د»: الزندية.

والضحى ومور وحرض والأمروخ والمعرض[١]، مع قدوم قاسم بن الحسين، فأجلوا وفرّوا ولم يستقرّوا، ولم يكن مع الأمير حينئذ غير ذلك المدّة بقلم الإمام، ولكنّه كما قيل:

فلم يفلّ الجيش وهو عرمرم　　　والبيض ما سلّت من الأغماد

ولمّا اتّصل الخبر بمسامع الشريف، كان سبباً في رجوعه من المير، بعد خروجه كما قدّمنا، ووصل الأمير إلىٰ حرض ثالث عشر شهر صفر.

وفي هذا الشهر: بعد رجوع الشريف من المير، وشيوع خبر الأمير عزّ الدين، حصل علىٰ اناسٍ قليلين بهجرة ضمد صباح[٢] بالليل، وجرح من جرح، وأخذ العدوّ من الأنعام ما أخذ، ثمّ وقع بعد ذلك أيضاً صباح آخر العصر وقتل العدوّ رجلين من أهل ضمد، وربما نهبوا ما نهبوا، ورجل ثالث ضربه العدوّ في الصباح الأوّل، ثمّ كان ضرب في الصباح الثاني، فمات بسبب ذلك.

والسبب في تعدّد ذلك: أنّ أهل القرية لم تيأس أنفسهم عنها، فكان من لا يجد من المرافق ما ينفعه في غيرها، يعود[٣] إليها مع لوعة الوطن الجاذبة للطبائع، والعدوّ يطمع بالعائد مع قلّته، وحصل علىٰ قرية أهل صلهبة في هذا الشهر صباح بالليل بعد عودهم إليها.

وقد كان أهلها جعلوا أنفسهم ثبتين: وجلاً من العدوّ، وعملاً بالحزم، فافترق العدوّ فرقتين، كلّ فرقة قصدت ثبتة من الثبات، ولم يأل أهل القرية جهداً في الدفع

---

(١) كلّ هذه المواضع من نواحي اليمن.

(٢) يوم الصباح: يوم الغارة.

(٣) في «ن»: فعود.

للعدوّ، وثبتوا ثباتاً لا يظنّ مع ما قد خامر أهل القرىٰ من الفشل، والانزعاج الفضيع والوجل، وشهد ذلك المقام لبعض السادة بثبات جنانه، وحقّ له أن ينشد قائلاً بلسانه :

أنا الذائد الحامي الذمار وإنّما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

وقتل العدوّ ثلاثة من أهل صلهبة، ولم يمسّهم سوء سوىٰ هذا القتل .

وفي آخر هذا الشهر أيضاً: حصل علىٰ أهل نبش صباح، وكان الشريف حسن ابن رضي الفليتي مقيماً عند الشريف بالقلعة، مع جمّ غفير من أهل نبش، فهزمهم الشوق، وجذبهم لاعج هوى الوطن والتوق .

واستأذن الشريف حسن المذكور الشريف في الرجوع إلى الوطن، وكان قد بذل جهده في عقد الذمم من القبائل، حتّىٰ ظنّ مع ذلك أن لا بأس عليهم في السكون ببلدهم، فأذن له الشريف بعد أن قد كان أبدا له أنّك لا تثق بما يقعده ذلك العدوّ من الذمّة، وإن وثقت لك ووفا لك بنو شعبة، لم يف الغير من القبائل، وخوّفه كأنّه يرجو إقامته لديه، فلم يعرج علىٰ ذلك العذل من الشريف، وارتحل إلىٰ نبش ومعه من أحبّ من أهل القرية، وأقاموا بها أيّاماً، وارتحل إليهم من ارتحل من أهل المواشي رغبة في الخصب الكائن بتلك الجهة .

فلمّا كان ذات يوم من الأيّام في آخر الشهر المذكور، صبّحهم من العدوّ بكرة عذاب مستقر، وانكشف لهم أنّه في عقدة الذمّة لهم مخاتل غادر، فقتل منهم نحو ثلاثة عشر، وفيهم الشريف حسن بن رضي، ونهبوا من المواشي ما يعسر ضبطه، وحصل علىٰ ما بالمحلّة ومشرف والعالية ممّن رجع بعد الإجلاء رغبة في الوطن

صياح وأخاله قبل صياح نبش ....[1] .

قتل سيّد ذكر ثباته لم يحضرني وقت الرقم اسمه، وبعد ذلك خلت القرى الشامية عن السكّان، وعاد ربعها مقفراً كما كان .

نعم، وحصل علىٰ جماعة من الأشراف الحوازمة كانوا بناحية قرية شقربا ـ بشين معجمة مضمومة فقاف ساكنة فراء مضمومة فباء موحّدة فألف تأنيث، من أسفل وادي ضمد ـ صباح بالليل، ولكنّه قبل خروج الشريف إلى المير، وثبتوا ثباتاً يليق بشرفهم، ويعلو به مجد سلفهم، وكانوا أجلوا عن بلدهم، واستحسنوا الإقامة بهذا الموضع وهو قفر لبعده، وغضّ النظر من الطامع إليه،فدهمهم من العدوّ من دهمهم، وقتل رجلاً أو رجلين من المقيمين بهذا المكان، وامتنع من ذكرناه من السادات علىٰ مواشيهم، وأدبر العدوّ بعد أن يئس عن الظفر بها ....[2] .

إلى القلعة اهتمّ بأمر بنائها، وبالغ في إتمامه على الصفة التي يكون بها الانتفاع والثقة مع الحصار، وأدار عليها سوراً، وتصوّب علىٰ أهل بادية من بوادي أبي‌عريش نحو المحاضين ـ بحاء مهملة بعد ميم وضاد معجمة بعد الألف فياء تحتية فنون ـ واستولىٰ علىٰ أكثر ما بأيديهم من الأطعمة يأخذها بالثمن البخس، وربما يوفي الثمن أو يقرب إليه فينقصه عمّاله، وجعل يكاتب الإمام في شأن الأمير عزّالدين، ووجّه رسلاً .

ولم يصرّح له الإمام في شيء من جواباته بأنّه معزول، وربما شنع عليه في بعضها بما جرىٰ من الخراب، وقتل النفوس، وكلّ ما جاءه جواب غير مونس شفع

---

(١) بياض في النسختين .

(٢) بياض في النسختين .

كتابه بآخر، ولمّا حصل له الظنّ بإعراض الإمام عنه، كاتب صاحب صعدة وبايعه علىٰ أن يوليه البلد إلىٰ مدينة زبيد.

وليس بأوّل ذي همّةٍ دعته إلىٰ ما ليس بالنائل

فقبل صاحب صعدة بيعته، ومنّاه بنزول أجناد كثيرة تعينه علىٰ دفع ما جاء من عند الإمام، فاستروح الشريف بذلك وأنس، وفي إجابة صاحب صعدة له مع ما قد علمه من حاله الذي كان يشنّع عليه فيه للاعتراض مجال، وكان اللايق به أن يقول له لمّا بايعه: إنّ رجوعك إلينا ليس اعترافاً بحقّنا، واعتقاداً لوجوب طاعتنا، بل لغرض دنيوي ومآربه، لا جفاوة[1] جاءت بك، وكيف؟ وقد تواتر لديه عدم صلاحيته، وأنزل عليه بالأمس أجناداً قصداً لاستئصال شافيه.

وممّا يقضي به العجب، ويضيق به وجه التأويل، أنّه قبل أن يبايعه الشريف بأيّام قلائل، كتب إليه كتاباً، مضمونه التأنيب له، والتشنيع عليه في أفعاله القبيحة، وذاكره في شأن الشيخ العوسجي، وامتناعه من فكّه، وامتنّ عليه بفكّ الترجمان فيما مضىٰ من غير إحواج مراسلة ولا فدا، واستشهد له بقول ابن الصيفي، حيث قال:

ملكنا فكان العفو منّا سجيةً ولمّا ملكتم سال بالدم أبطح
وأحللتم قتل الأسارىٰ وطالما عدونا على الأعداء نعفو ونصفح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا وكلّ إناءٍ بالذي فيه ينضح[2]

ولمّا بايعه أقبل يتهدّد بني شعبة في المعاونة للأمير علىٰ إزالته، ويصفه بأنّه سيف الإسلام، من دون أن يتحقّق منه التوبة فيما ارتكبه من الكبائر العظام.

---

(١) في «ن»: حفاوة.

(٢) ديوان صفي الدين الحلّي ص ١٩٣.

ولهذه الأبيات نكتة ذكرها في الغربال في ترجمة الشيخ نصر بن مجلي، أحببت ذكرها لغرابتها، قال فيه: قال ابن خلّكان: وكان من ثقاة أهل السنّة.

ثمّ قال: روي عنه أنّه قال: رأيت في المنام علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت له: يا أميرالمؤمنين تفتحون مكّة، وتقولون: من دخل دار أبي‌سفيان فهو آمن، ثمّ يتمّ علىٰ ولدك الحسين عليه السلام يوم الطفّ ما تمّ؟

فقال: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ فقلت: لم أسمعها منه، ثمّ استيقظت فبادرت إلىٰ دار ابن الصيفي[1]، وذكرت له ذلك، فشهق وأجهش بالبكاء، وحلف بالله ما خرجت من فيه ولا من خطّه إلىٰ أحد، ولا نظمتها إلاّ في ليلتي هذه، ثمّ أنشدني[2]. إنتهىٰ.

قال في شرح بانت سعاد لابن هشام: النظخ بالخاء المعجمة أكثر من النطح بالمهملة، ولهذا قالوا: النضح بالمهملة الرشّ، وقالوا في قوله تعالىٰ ﴿نضّاختان﴾[3] قوارتان. إنتهىٰ.

وأرسل الشريف إلىٰ أبي‌عريش محطّة، وإلىٰ بندر جازان محطّة، وأقام الأمير في حرض نحو شهر، ثمّ توجّه إلى البدوي، ولمّا ظهرت قرائن قدومه، وتواترت الأخبار به، أمر الشريف بطمّ آبار أبي‌عريش، ولم يبق منها إلاّ بئراً أو بئران، وخرج أهل المدينة عنها، وكان هذا هو الخروج الثالث منهم، وأرسل الشريف بالأموال للعسكر الذين بأبي‌عريش إرهاصاً لما يريد، وتثبيتاً لهم على النصيحة،

---

(١) في الوفيات: دار حيص بيص.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢: ٣٦٤.

(٣) سورة الرحمٰن: ٦٦.

وعملاً بقول القائل:

وإذا رأيت صعوبةً في مسلكٍ فاحمل صعوبته على الدينار
وابــذله فـيما تشـتهيه فـإنّه حجرٌ يـليّن قـوّة الأحـجار

وألزمهم بحفظ المتارس، وجعل عندهم أخـاه الشـريف حسـن بـن غـالب، والشريف علي بن حسن، واستنجد الأمير ببني شعبة، وأرسل إليهم رسولاً، ومكث الرسول لديهم أيّاماً، ثمّ توجّهوا معه من الدرب.

مــقلّدون صــفائحاً هــنديةً يتركن من ضربوا كأن لم يولد
وإذا دعــوتهم ليــوم كـريهةٍ وأتــوك بـين مكـبّرٍ ومـوحّد

ولمّا أحسّ بهم النائب بصبيا، كتب إلى الشريف يعرّفه بذلك، ويطلب منه في أمرهم رأياً من المقابلة أو الإجلاء، فأمره بالقدوم وترك المدينة، فدخلها بنو شعبة في أوّل شهر ربيع الأوّل بأجناد كثيرة، وأمدّهم الأمير بما استطاع، وجعل بها نائباً من قبله.

وفي هذه الأيّام فكّ الشريف الأمير خيرات بن حسـن القـطبي، وحـالفه(١) وكساه، وأقام بنو شعبة في صبيا أيّاماً، ثمّ ارتحلوا إلىٰ قرية الريّان ضدّ الضمآن من قرىٰ وادي جازان، وبعد استقرارهم بوادي جازان فكّ الشريف الشيخ محمّد بن جابر الزريقي، وحالفه(٢) وأعطاه مركوباً أو ملبوساً، واجتمع بـإخوانـه وآبـائه بالوادي، فسرّوا به سروراً عظيماً.

ووصل الأمير إلىٰ قرية القرفي والبديع من وادي جازان في يـوم الربـوع أو

---

(١) في «ن»: وخالفه.

(٢) في «ن»: وخالفه.

الخميس حادي عشر شهر ربيع الأوّل، وكان قد وافاه وهو بالبدوي الحاج محمّد التركي رسولاً من الإمام إلى الشريف، فحين أن توجّه الأمير إلىٰ وادي جازان، فارقه الحاج محمّد إلى القلعة .

ولمّا وصل إلى الشريف أفضىٰ إليه ما أوصاه به الإمام، وحاصل ما قال الشريف علىٰ ما روىٰ لي الثقة، مسنداً إلى الشريف: إنّ الإمام يقول: إنّ ولاتك جاروا على الرعية وظلموا، فسيجعل الإمام من قبله في البلد ولاة، ويأمرهم بدفع الجبايات إليك، يكون لك معونة علىٰ جهاد صاحب صعدة، فعرف الشريف أنّ ذلك تكليف له بما يعجز عنه سعيه إلى الدرب؛ لأنّي لا آمنهم إذ ارتحلت وهم بوادي جازان، ولا تطيب نفسي إلاّ مع بعدهم .

فوصل الحاج محمّد التركي إلى الأمير وهو بقرية البديع، وأخبره بما قال الشريف، فامتنع الأمير عن ذلك، وارتحل هو وبنو شعبة إلى العقدة لقصد حصاره، وجعلوا من القبائل الذين مع بني شعبة كثيراً في قرىٰ وادي جازان، ويجمعهم الداعي عند الحاجة إليهم، والقلعة من العقدة مشرفاً بنحو فرسخ، والشريف لم يزل ينتظر مواعيد صاحب صعدة، وبالغ عليه في تنجيزها وإتمامها، واشتدّ عليه الحصار، وضاقت أحواله، وانقطعت موادّه .

وكان في ابتداء الحصار أن خرج جماعة من أصحابه الذين بأبيعريش إلىٰ قرية المخاضرة ـ بميم مفتوحة فخاء معجمة وألف فضاد معجمة مكسورة فراء مفتوحة فتاء تأنيث ـ بعد أن بلغهم أنّ بها اناساً من بني شعبة، فأخذوا من أطرافها أنعاماً لينجز لهم من ينجز إلى المتارس فيرموه، فبلغ ذلك الأخذ بني شعبة بقرية العقدة، فأغار منهم من أغار، وممّن أغار البطل الضيغم شار بن شريفة، والشريف الشجاع الضرار النقّاع مهدي بن محمّد أبو صالحة .

وأوّل من ورد حوض المنايا، المترع كأسه بالرزايا، شار بن شريفة، فاسترجع المأخوذ، ولجّ العدوّ إلىٰ مكمنه، ليفعل ما هو من دأبه وديدنه، من الرمي في الخفية، ولمّا ولي الشيخ سار راجعاً بعد الظفر، تصوّب[١] له منهم من تصوّب، فرماه فلم تخط الرمية فؤاده، وسقط إلى الأرض من فوره.

قناةٌ صدت للطعن حتّىٰ تقصّدت   وسيفٌ أطال الضرب حتّىٰ تثلّما

وكان الشريف مهدي بن محمّد أبو صالحة مقبلاً، فلمّا رآه سقط بادر ليحميه عن المثلة والسلب، وفي حال حمايته له رماه من رمىٰ، فأصاب مارن أنفه، وأغار بقيّة المغيرين بالشيخ شار، وسقط في أيديهم لمّا أصابه ودهاه، وكان أحدهم أحقّ لو أُعطي المرء مناه، وحملوه علىٰ أعناقهم، وودّوا لو كان محمولاً علىٰ أحداقهم.

ولمّا انتهوا به إلىٰ نصف الطريق خرجت روحه، ووصلوا به قرية العقدة ميتاً، وفاضت أعينهم عليه بدمع كان دهراً مكتوماً، وفضّوا من الحزن رقّه الذي كان بنفايه مختوماً.

وروي أنّ الرامي له كان من أضعف العسكر، ولو برز له أضعافه لظهر عليهم وانتصر.

فالليث أكبر أن يصطاده جردٌ   والنسر أعظم أن يغتاله خرب

وكان أصحاب الشريف مع شدّة الحصار، يخرجون إلىٰ قرية الجربة[٢] وحضيرة للمير، فيكلّفون أهل تلك القريتين بإيجاد الطعام، ويأخذونه منهم، وكانت الأخبار تتّصل بالأمير، فنهاهم عن هذا الفعل فلم ينتهوا، وأخرج إليهم

---

(١) في «ن»: بصوب.

(٢) في «ن»: الحربة.

الأمير خيرات بن حسن بجند، وفيه من بني شعبة اناس، فباتوا ليلة خروجهم بنحو قرية المخاضرة، ثمّ أصبحوا مرتحلين .

فبيناهم كذلك إذا الصارخ يستغيث بهم علىٰ قوم من أصحاب الشريف القاطنين بأبي عريش، قد أخذوا علىٰ أهل الخبت مواشي، فنهض الأمير خيرات ومن معه من الجند، وولج الآخذون قبل الالتحام وبعد البراء، فأقدم المغيرون غير مغولين، ودخلوا أباعريش، وركضت خيلهم في شوارعه، وأخال أنّه سلم مترس من المتارس، وكاد المغيرون أن يظهروا، وجاء الخبر إلى الأمير، فسرّ بذلك واغتبط، وأغار من بني شعبة من أغار .

وربما رام الأمير أن ينهض بنفسه، أو أنّه نهض فرحاً، ومسرّة واستقبالاً، لما فادته وجوه السعادة، من الفتح بوجوه مفترّة، وجاءت الغارّة من القلعة ومن تلقاء الشريف .

وقد كان الشيخ مسعود بن جابر نزل من صهوة دابّته آمناً بتأمين بعض العسكر، أوكأنّه قد ظنّ الملكة والظهور، فحين أحسّ العسكر إقبال الفارّة من القلعة، قبضوا الشيخ مسعود، وأشعلوا نار الفتنة، وقامت الحرب بينهم وبين أصحاب الأمير علىٰ ساق، ورمىٰ أصحاب الشريف فيمن رموا رجلاً من بني شعبة، يقال له: ابن أبي جمح، ففاضت روحه .

وقيل: إنّ غارة القلعة لم تأت إلاّ وقد قبض الشيخ مسعود، وأدبر أصحاب الأمير بعد غارة القلعة إدباراً مذموماً، وتبيّن ما كان يظنّ بهم من الثبات موهوماً، وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً، أوّل خبره مبشّراً، وآخره مزعجاً منذراً، أُلبس المسلمين ثوب النكاية والحزن، وأظهر منهم ما كان من الغمّ قد استكنّ، وأوصل الشيخ مسعود إلى القلعة، وأمر الشريف بإيداعه السجن .

وبعدها أرسل الأمير أخاه خيرات بن حسن إلى اللحية لاستئجار موادّ أمر بها الإمام معونة في هذا الجهاد، وربما شاع أنّ عزمه كان للمجيء مدافع ولم يصحّ، وفي بعض أيّام الحصار سلمت الطائفة التي ببندر جازان، فملك الأمير البندر .

وفي هذه الأيّام أعني أيّام قبض الشيخ مسعود فما بعدها تظاهرت الأخبار بنزول السيّد الرئيس حسين بن علي إلى البار والمعنق، وربما هزّ ذلك من عطف الشريف وأصحابه، رجاءً لكشف الغمّة التي آلت بهم .

ولم تزل أيدي الرجاء منهم لذلك العارض ممدودة، وسحاب ذلك العارض بضمّ حبال المشرق مشدودة، ومن قوّة رغبة[١] الشريف في التنفيس لذلك الضيق، ومبالغته في أن لا يجد صاحب صعدة في الاخلاص له والانقطاع إليه من طريق، أرسل ولده أباطالب إلىٰ ولده السيّد الرئيس حسين بن علي كالوثيقة، وبقي عنده بالمعنق أيّاماً، ولم يكن لذلك جدوىٰ ولا نفع .

ولم يزل الشريف ينتظر تلك المواعيد، ويحرص علىٰ صدقها الحرص الشديد، حتّىٰ تبيّن الصبح لذي عينين، ورجعت آماله فيه بخفي حنين، وكان في طين عقم خريم زرع، فلمّا أضرّت الحاجة بنخيل الشريف، استمدّ أصحابه منه إغاثة لها، فبلغ ذلك الأمير، فأذن للناس في استهلاكه؛ لئلاّ يظفر بذلك الشريف وأصحابه .

وخرج ـ أعني: الأمير ـ بنفسه، ومعه أكثر الجند أو كلّه، إرادةً لذبّ أصحاب الشريف عن الأخذ من ذلك الزرع، وحمايةً للتصرّف من أصحابه، وأهل القرىٰ من أن يمسّهم أصحاب الشريف بسوء .

وكان ذلك الخروج يوم الخميس تاسع عشر شهر ربيع الآخر بعد مضي شهر

---

(١) في «ن»: رعبة .

وثلاثة أيّام من وصوله إلى القعدة، وانتشر الجند، وأقدم أُولي الحامية من الحيل[١]، حتّىٰ قربوا من القلعة بنحو ميل .

فلمّا راهم الشريف وأصحابه مع ظهور النفع الذي أثاره الجند، وقع في أنفسهم أنّ هذا قصد لهم واستعدّوا، وخرج منهم من العسكر والفرسان من خرج، فالتقىٰ جماعة من أصحاب الشريف، وجماعة من القبائل التي مع الأمير، والتحم القتال، وانهزم أصحاب الأمير، فولّوا مدبرين، واصطدم جماعة من أصحاب الأمير، وجماعة من فرسان الشريف، وشمّرت الحرب بينهم عن ساقها، وتجالدوا مجالدة عوفيت عن مذاقها .

ولمّا طال بينهما المصاع، وظهر الأمير وكان مقيماً بعيداً عنهم عنوان المصادمة وضاع، حمل بمن معه حملة نكص معها أصحاب الشريف علىٰ أدبارهم، ورشّ بما حملته علىٰ ما أشعلوه من نارهم، وكان ذلك هو الفرجة، وانقلب أصحاب الشريف مهزومين، وأصحاب الأمير مسرورين، وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً، ضيّع فيه الأمير الحزم بعدم الإكثار من عدّة الرمي، لظنّه أنّ الحال لا تؤول إلىٰ ما إليه آلت، ولكن الله سلّم، إنّه عليم بذات الصدور .

ولم تزل أحوال الشريف تشتدّ وتضيق، ولم تجد إلى انفكاك ذلك من سبيل أو طريق، فعرج له العسكر الذين صابروا معه، وكان عدّتهم نحو سبعمائة، بأن لا طاقة لهم بعد هذا الضيق على الإقامة .

لكن لمّا قد أسداه إليهم من النعم السابغة، ولمّا انقضىٰ به حقّ الصحبة الكاملة

---

(١) في «د»: الجبل .

البالغة، قالوا: أنت مخيّر في ثلاث: إحداها أن نحرجك[(١)] ممّا وقعت فيه، ونسيرك إلىٰ أيّ مكان أردت، باذلين أنفسنا قبل نفسك.

وثانيها: أن تقدم علىٰ هؤلاء القوم الذين سدّوا عليك طريق المبرّة، وفعلوا في جانبك الأفعال الكبيرة، فإمّا أن تظفر بهم، أو يبلغوا فيك قصارىٰ رأيهم[(٢)].

وثالثها: أن تأذن لنا في الارتحال، بطيبة نفس منك وسكون بال، أو لأنّهم اقتصروا على الاثنين الأوّلين، أو أنّ الثالثة غير ما ذكرت غاب عنّي حقيقة ذلك، فأخاله[(٣)] طلب المهلة في ترجيح أحد الثلاث.

ثمّ رجّح بعد ذلك الاقدام، والقصد لأُولئك الأقوام، وأمر من بأبي‌عريش بالتأهّب لذلك والاستعداد، وواعدهم بالتحرّب لليوم الذي أراد، وخرج من القلعة صبح يوم السبت تاسع وعشرين شهر ربيع الآخر بمن معه من الأجناد متنمّراً، ولخلق الحديد مستشعراً، بجأش أثبت من الصخر، وعدّة تسهل ما صعب من الأمر، ولسان حال ينشد مخاطباً لنفسه، ومعرّفاً لها بما هو آيل إليه من الحلول في رمسه:

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لا تراعي
فإنّك لو طلبت بقاء يومٍ	على الأجل الذي لك لم تطاعي
فإنّ الموت غاية كلّ حيٍّ	وداعيه لأهل الأرض داعي

وكتب ـ أعني: الشريف ـ إلى الأمير وبني شعبة في ذلك اليوم كتباً، مضمونها:

---

(١) في «ن»: يخرجك.

(٢) في «ن»: آرائهم.

(٣) في «ن»: فأحاله.

إنّكم توسّعون لنا في الطريق للمضي فيها. وخرج من بأبي‌عريش من أجناد الأُمراء بخروجه علىٰ حسب ما بينهم من المواعدة، وجاء الأمير بذلك الخبر اليقين الذي لا شكّ يمازجه، ولا كذب يشوبه أو خالجه، وقد كانت أجناده وإن كثرت، كما قال من له الوجوه عنت: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّىٰ﴾[1].

وأخذ في جمعهم للقيا الشريف، فاجتمعوا بصفة مؤذنة بالخذلان، ومعلنة بعدم الثبات أي إعلان، وصفّوا بما في قرية العقدة وشرقيها، صفوفاً تملأ الفضاء كثرتها، وكان بعضهم يتسلّل لواذاً بين الصفوف، وبعضهم يرجع إلىٰ موضع إقامته بالقرية، يدّعي أنّ له غرضاً سيأخذه ويعود، وكان الأمير ميسرة الجيش، والنقيب سنبل الميمنة، وبنو شعبة وأجنادهم القلب، وكان الشريف وأصحابه يمشون زحفاً مقدمين، وأجناد بني شعبة يقهقرون مدبرين.

فلمّا تراءىٰ جمع أصحاب الشريف المقبلين من أبي‌عريش، وأصحاب النقيب سنبل، ارتموا بالبندق، وبعد ارتمامهم نكصت القبائل علىٰ عقبها مولية، والأمير مقيم بموضعه، وذوو الثبات من بني شعبة كذلك، حتّىٰ خذلهم الجيش قبل المصادمة والالتحام، ونطقت لهم ألسن القرائن بالانهزام، وعمل أصحاب الشريف بعد أن ظهرت لهم قرينة الظفر، وأعطاهم العيان من ذلك ما لا يعطيه الخبر[2]، فولي من ثبت من الأمير وأصحابه، ودخل أوّل الجيش من أصحاب الشريف القرية.

ولمّا علم صاحب خزانة الأمير بظهور الشريف، حرق البيت الذي كان فيه

---

(١) سورة الحشر: ١٤.

(٢) في «ن»: الحسين.

الأمير علىٰ ما فيه، وصادفه بعض أصحاب الشريف هناك فقتله، وأشعل النار في غيره من البيوت، وانتشر أصحاب الشريف في القرية طلباً للطمع، وانكشفت عورات نساء العقدة، وسلبن أثوابهنّ، وتبع أصحاب الشريف الهاربين من جيش الأمير وغيرهم، فقتلوا من لحقوا، وأخذوا ما وجدوا من المواشي وغيره، وكان بقرية العقدة أموال جليلة نهبها أصحاب الشريف .

وانتشر خبر الهزيمة في وادي جازان، فوجم لذلك المسلمون، وأيقنوا بأنّهم هالكون، وخفّ منهم العقل وطاش، وأثبتوا علىٰ ظهر البسيطة كانبثاث[1] الفراش، وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً، يشهد معاينة بأنّ بالمسلمين حتفاً نزل، وأنّ الساعة قامت، فالآخر من هذه الأُمّة يتبع الأوّل .

وروي أنّ الشريف كان في آخريات الجيش، لمّا اتّصل به الخبر بانهزام الأمير، وثب من صهوة دابّته وسجد لجهة المشرق شكراً، وأمر العسكر أن تكفّ عن متبع الهارب، وحطّ ركابه بمدينة أبيعريش، وجاء للعسكر في يومه هذا بما ينيف عن سبعمائة دينار .

وانتهى الأمير في إدباره إلىٰ قرية الريّان، ورام أن يقيم بها عوضاً عن العقدة، فرأىٰ بالناس فشلاً وذلاًّ لم يبق معه بالإقامة فيها، ولم يبق معه من تلك الأجناد إلاّ نحو الربع أو أقلّ، وكان من عسكره جماعة ممّن به النفع، لمّا حصلت الهزيمة تحصّنوا بدار من دور العقدة، وحاط بهم عسكر الشريف واستسلموا، فقبضوهم وأوصلوهم معهم إلىٰ أبيعريش .

وقتل في ذلك اليوم جماعة لم أقف علىٰ حقيقة قدرهم، وتفرّقت الأُمم القاطنة

---

(١) في «ن»: كانفثاث .

بوادي جازان شذر مذر، وفقد الأخ أخاه، والولد أُمّه وأباه، ولم يجتمع شمل الناس إلاّ قريب أُسبوع، وبعضهم بعد يومين أو ثلاثة وقد أضرّ به الجوع، واهتزّت من هذه الواقعة الأرض، وضاقت علىٰ من بظهرها مع طولها والعرض.

وفي يوم الأحد أصبح أصحاب الشريف منتشرين بوادي جازان للطمع، وقد كان الشريف ألزم أخاه الشريف حسن بن غالب بالتقدّم إلى الأمـير لاسـتئصال شاقته، بعد أن بلغه استقراره بقرية الريّان.

فلمّا رأى الرائي أوّل أصحاب الشريف المنتشرين لقصد الطمع، جاء إلى الأمير وقال: هذا الشريف وصل، فركب الأمير لقصد اللقاء، ورأىٰ ممّن بقي معه توانياً لا يظنّ معه ثبات، وصمّم على الارتحال خشية من حصول ما هو أعظم مـمّا قـد جرىٰ، فصرف عنان دابّته مدبراً، وانتهىٰ في إدباره إلىٰ حرض، وكان بمن وصل معه من الجند لا يبلغون المائتين، والخيل نحو العشر، وكلّ ذلك أقلّ من العشر ممّن كان مجتمعاً بقرية العقدة معه.

وبنو شعبة لمّا بلغهم أنّ أصحاب الشريف منتشرون بالوادي، ركبوا آخذين في طلبهم، ولم يرجعوا إلى الريّان بعد ارتحال الأمير، وارتحلوا من فورهم إلىٰ مدينة صبيا، وقد كان بعضهم أظنّه ارتحل في اليوم الأوّل، ثمّ ارتحلوا في اليوم الثاني من وصولهم إلى الدرب، والشريف حسن بن غالب كأنّه بلغه إدبار الأمير، فقعد عمّا ألزمه الشريف به من نهوض في ذلك اليوم.

وكان من لطف الله عزّوجلّ، وحلول بعض الآمن في الوجل، أن أظهر الشريف الصفح والعفو عن جميع الناس، وصاح بالأمان، فسكن ما في القلوب من الروع، ورجع من كان فرّ علىٰ سبيل الطوع، وكلّ من اجتمع بالشريف لا يروي عنه إلاّ ذلك الذي ذكرناه من الصفح، فقرّت بذلك العـيون، وآنست النـفوس إلى القـرار

والسكون.

وبعد أيّام أرسل إلىٰ صبيا أحمد بن محمّد بن حسين والياً، وكان قد تجرّع معه مصاب الحصار، وأسلمته فيما يكره من ذلك الأقدار، وبعث الأمير الرسل بالكتب إلى الجهات التي يرجو منها الإغاثة تعريفاً بما جرىٰ، ووجّه إلى الإمام أخاه الأمير خيرات بن حسن يستنجده ويعرّفه ويستمدّه، فخرج من حرض أظنّه يوم الربوع ثالث يوم من شهر جمادي الأُولىٰ، ولمّا رأيته بعد الاجتماع به في حرض في همّة العزم إلى الإمام، أنشدته قول عبادة بن مسلمة معبّراً عنه:

فلئن بقيت لأرحلنّ لغزوةٍ　　　نحو الغنائم أو يموت كريم

فقال: بل لأقبلنّ. فلمّا اتّصل بالإمام الخبر كبر ذلك عليه، وأخذ في توجيه الأجناد، والحثّ في ذلك بالإقامة والإقعاد، وكانت السرايا تصل إلى الأمير تترىٰ، والشريف يمكث إلى العشر الوسطىٰ من جمادي الأُولىٰ.

وجهّز الشريف علي بن حسن ومعه من الخيل ما ينيف على الثلاثين، وانتهىٰ إلىٰ قرية الصمدي بوادي ليّة.

وكان بقرية التاهرة عسكر من قبل الأمير في شأن واجب كان، فكاتبوا الأمير يخبرونه بقدوم الشريف علي بن حسن إلىٰ قرية التاهرة، وقد تفرّق أهلها منها خوفاً، وألزمهم بإرجاع من يحتاج إليه للطحن ونحوه من النفاعات، وكان يظلّ النهار بالقرية، ويبيت الليل بعيداً عنها.

ثمّ توجّه الوزير سنبل، والسيّد حسن بن أحمد المرتضىٰ بجيش، وأقاموا بقرية سامطة[١]، وتصوّبوا علىٰ تلك القريات، وأخذوا أطعمتها، وألزموا بإقامة سوق

---

(١) في «ن»: سافصة.

هناك، وكان من يظهرونه أنّ الغرض افتتاح أرض اليمن، وكانت الخيل قد تقصد إلىٰ طرف حرض لأخذ ما أمكن أخذه.

وبنى الأمير بذلك الموضع متارس، خوفاً من بادرتهم، وأخذاً بالحزم، ولو أنّه فعل مثل ذلك بقرية العقدة لرجي له عدم الانهزام، واجتمع لديه في حرض من الأجناد، ما يكثر قدره، ويعسر ضبطه وحصره.

ثمّ صمّم في يوم من الأيّام في شهر جمادي الأُولىٰ أو أوّل الآخرة على القصد للشريف علي بن حسن، وقد كان أله في أخذ الوزير وتابعيه، فجمع أجناده، وحمل حملة هي له معتادة، فانهزم الشريف علي بن حسن، وقد كان لمّا بلغه إقدام الأمير استدعى الوزير، فرحل إليه.

ولما بلغ نصف الطريق غشيه من يمّ جيش الأمير ما غشيه، فولّىٰ مدبراً ولم يعقّب، وانذعر جيشه انزعاراً عظيماً، ومرّوا بقريتهم التي كانوا بها مقيمين هاربين، كأن لم يغنوا فيها بالأمس، واضمحلّ جمعهم الذي كان بعين الاعتزاز مرقوماً، وزهق ما روّجوه من القعقعة من الباطل، إنّ الباطل كان زهوقاً، ومات بعضهم من الطرد والظماء المفرط، ونهبت الأموال التي كانت بقرية سامطة، وكانت أموالاً جليلة.

وكادت هذه الواقعة أن تضاهي وقعة القعدة لولا عموم المصيبة بتلك، وخصوصها بهذه وبعدها تفاقد من الشريف ريشه، وأيقن بالعجز، وأعمل الفكرة في كيفيّة المخلص، وضاقت به مسالك الرأي، وعاد حائراً فيما وقع فيه حيرة من أسلمه البغي، واستشار بعض أعيان الزمن ممّن كان قد قلب له ظهر المجن.

وكان قد جلب الدهر سطوته[١]، وتأدّب بصروفه، فأفضىٰ إليه حقيقة حـاله، واستمدّ منه رأياً يهديه إلىٰ فعل ما فيه حسن مآله .

فقال له ذلك المستشار: هل بقي لك طمع في الإمام؟ قال: لا، قال: هل بقي لك طمع في صاحب صعدة؟ فقال: لا .

وأوقفه علىٰ خطّ صدر منه، مضمونه: إنّ الأهلين والأولاد الذين اشتدّت بهم أيدي النوىٰ ساروا في الطريق مقبلين، وقد أذن الإمـام بـفكّهم وإيـصالهم، ولا يحسن التحرّك للنصرة مع هذا .

ثمّ قال الشريف للمستشار: هل بقي في أهل هذه القرىٰ نجدة؟ فقال له ما معناه وحاصله: لا تطمع فيهم لنيل أرب، ولا تؤمّل فيهم نجاحاً لمطلب[٢]، فقال: لِمَ؟ قال: لأنّهم مع ما في قلوبهم لك من البغضاء شوكتهم وعمدتهم أُمراء صبيا، وقـد علمت ما هم عليه الآن من الضعف، فقال له: المال إن بذلته رجوت خلوصك، فقال ما معناه: يبق عندنا ما ينفع؛ لأنّ لنا أشهراً نخرج ولا ندخل .

فقال له: إذن لا يكن نظرك إلاّ إلى الله، وحسّن ما أضمرته من النيّة بينك وبينه، فقد ضاقت عليك المسالك، وأسلمك المقدور .

وصرّح له الشريف بأنّ من بقي من أصحابي لست بواثق بهم، وانّهم أوّل مـن يمسّني بسوء عند زلّة النعل، وليست إقامتهم الآن من أجلي، بل من أجل أغراض لهم خاصّة، فارتحل من لديه المستشار، وهو من الفكر في بحار .

وفي هذه الأيّام: فكّ الشريف الشيخ مسعود بن جابر، وكان قد استشار هـذا

---

(١) في «ن»: شظرته .

(٢) في «ن»: لطلب .

المستشار في أمره، فأشار بفكّه .

ثمّ تعقّب هنا وصول السيّد الأجلّ، فخرالدين عبدالله بن محمّد المحرابي من عند الإمام، مأموراً بتجهيز الشريف، وتكليفه بما يحتاج إليه، وكان ذلك للشريف من السعد، وإقامة ما كاد أن ينهدم عليه من بنيان الجدّ .

وأقام السيّد عبدالله بحضرة الشريف فوق عشرين يوماً يجمع له ما يجهّزه من المال والجمال، فروي أنّ الذي سيّره إليه من النقد ثلاثة آلاف قرش، ومن الجمال نحو المائتين أو أكثر .

ولمّا كمل تجهيزه، ارتحل من أبي‌عريش ثالث عشر شهر رجب سنة خمس ومائة وألف، فكانت مدّة لبثه باليمن منذ دخل إلىٰ أن خرج ثلاث سنين ونحو عشرة أشهر، فأقام بصبيا يومين، ثمّ ارتحل إلى الدهنا، ثمّ من الدهنا إلى الشام يوم الإثنين سابع عشر شهر رجب المذكور .

إنتهى النقل من تأريخ الأديب الفاضل نورالدين علي[1] بن عبدالرحمٰن بن حسن

---

(١) لم أعثر في هذه العجالة علىٰ ترجمته، نعم هناك جماعة من البهكليين، ذكرهم ابن زبارة في كتابه نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر من هجرة سيّد البشر، نذكر جملة منهم :

١ ـ القاضي أحمد بن الحسن بن علي البهكلي التهامي، ولد بمدينة صبيا سنة (١١٥٣) وتوفّي في مدينة أبي‌عريش سنة (١٢٣٣) نيل الوطر ١: ١٧٠ ـ ١٧٥ .

٢ ـ القاضي أحمد بن محمّد بن الحسن البهكلي المتوفّىٰ سنة (١٢٢٧) نيل الوطر ١: ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

٣ ـ القاضي إسماعيل بن عبدالرحمٰن بن حسن البهكلي التهامي، المتوفّىٰ سنة ⇩

ابن شمس الدين البهكلي المتقدّم ذكره، وبيان وفاته[١]، النـوادر[٢] والغـرائب الحادثة في دولة الشريف أحمد بن غالب.

ولقد أطلنا النقل منه إلى الغاية، وتعدّينا فيه حدّ النهاية، وإنّـما السـبب الذي ألزمنا بذلك هو التحاصي علىٰ نقل مآثر الشريف أحمد الصادرة عنه في شرافته لمكّة، ثمّ ارتحاله إلى اليمن وتلك الممالك، ثمّ ولا يخلو هذ النقل من أن ترد في

(١٢٤٢) نيل الوطر ١: ٤١٢.

٤ ـ القاضي الحسن بن أحمد بن الحسن بن علي البهكلي، المولود بصبيا سـنة (١١٩٤) والمتوفّىٰ بأبي‌عريش سنة (١٢٣٤) نيل الوطر ١: ٤٥٠ ـ ٤٥١.

٥ ـ القاضي خالد بن علي بن محمّد بن إسماعيل بن حسن البهكلي، المـتوفّىٰ سنة (١٢٩٠) نيل الوطر ٢: ٣.

٦ ـ القاضي عبدالرحمٰن بن أحمد بـن الحسـن بـن عـلي البـهكلي الضـمدي الصبيائي، ولد بصبيا سنة (١١٨٢) وتوفّي سنة (١٢٤٨) نيل الوطر ٢: ٤٠ ـ ٤٢.

٧ ـ القاضي عبدالرحمٰن بن حسن بن علي البهكلي حاكم أبو عريش، ولد سنة (١١٤٨) وتوفّي سنة (١٢٢٤) نيل الوطر ٢: ٤٤ ـ ٤٥.

٨ ـ القاضي علي بن محمّد البهكلي، ولد بـضمد سـنة (١٢١٢) وتـوفّي سـنة (١٢٦٠) نيل الوطر ٢: ١٩٠. وغيرهم فراجع.

(١) لم يتقدّم ذكره ولا ذكر وفاته ولا ذكر كتابه هذا، ولم أعثر علىٰ ترجمته حسب وسعي في كتب التراجم والمعاجم، وهو مسلّم من المعاصرين للسيّد رضي الدين مؤلّف هذا الكتاب ووالده.

(٢) لعلّ اسم تاريخه هو كتاب النوادر والغرائب الحادثة ...، أو لعلّ العبارة أن تكون هكذا: وبيان وقائع النوادر والغرائب الحادثة ... الخ، والله العالم.

أثنائه فائدة شريفة، ونكات لطيفة، وقطع شعرية، ولمع نثرية، وبحوث أدبية، وأمثال عربية، والجمع يتبع المناسبة، لا المشاحّة والمحاسبة، وممّا قيل في هذا الباب :

إن لم أقل هذا وهذا وذا　　　بأيّ شيءٍ كنت أملا الكتاب

ونرجو الله أن يكون عذرنا هذا مقبول، عند ذوي الانصاف من أرباب العقول .

فصل

في الجواب عن الاعتراض علىٰ والد المؤلّف

تقدّم في أثناء مانقلناه من هذا التأريخ[1]، إعتراض من مؤلّفه المذكور علىٰ والدنا وسيّدنا العالم العلاّمة، والفاضل الفهّامة، ذي الأدب الوافر الغضّ، والنسب الواضح المبيض، المنشد فيه لسان ابنه الأبي، لكلّ عارف وغبي :

هذا أبي حين يدعىٰ سيدٌ لأبٍ　　　هيهات ما للورىٰ يا دهر مثل أبي

السيّد الأجلّ الأمجد الأفخر، السيّد محمّد بن علي بن حيدر، أدام الله شريف وجوده، ومنيف آبائه وأجداده، وذلك عند زبره لتصديره وتعجيزه، للبيتين المشهورين :

بأهلي ومالي جيرة ما استعنتهم　　　على الدهر إلاّ وارتجعت معانا

أراشوا جناحي ثمّ بلّوه بالندىٰ　　　فلم أستطع عن حيّهم طيرانا

فقال أوّلاً معترضاً علىٰ صاحب هذين البيتين، بما صورته :

قلت: وفي استعمال «ارتجع» بمعنىٰ «رجع» تأمّل؛ لأنّ أهل علم الصرف ذكروا مجيء افتعل للمطاوعة في غير العلاج والاتّحاد، وللتفاعل وللتصرّف، ولم يذكروا

---

(١) أي: تاريخ الأديب نورالدين علي البهكلي .

مجيئه بمعنىٰ فعل، كما ذكروا ذلك في تفاعيل واستفعل، ثم قال بعد إيراد التصدير والتعجيز، وهو :

بروحي ومالي جيرة ما استعنتهم ... فخبت ولا ظنّي المصدّق خانا
ولا جئتهم مستنجداً صارخاً ولو ... على الدهر إلاّ وارتجعت معانا
أراشوا جناحي ثمّ بلّوه بالندىٰ ... لكي أتّقي في ظلّهم فأصانا
وعندهم استوطنت وكراً بروضةٍ ... فلم أستطع عن حيّهم طيرانا

وكلّه حسن، إلاّ تعجيزه بقوله «أراشوا جناحي ثمّ بلّوه بالندىٰ» بقوله «لكي أتّقي في ظلهم فأصانا» كما لا يخفىٰ ذلك على المتأمّل العارف بمواقع الألفاظ ولطائف المعاني .

يوضحه: إنّ قوله «جناحي» إستعارة مصرّحة، والأراشة ترشيح، وقوله «ثمّ بلّوه بالندىٰ» تشبيه لاتّصال النعم إليه، وترادفها عليه، بعد خبر حالة النهاض بالبلّ للجناح الكامل الرشّ في ترتّب التحيّز والمكث، وعدم القدرة على النهوض بعد كلّ منهما، فهو استعارة مصرّحة تبعيّة .

وقوله «فلم أستطع عن حيّهم طيرانا» تفريع على الاستعارة بما يلائم المستعار منه من عدم استطاعة الطيران، فالاستعارة مرشّحة، فما أبلغ هذ الكلام مع التئام صدره وعجزه غاية الالتئام .

وأمّا تعجيز السيّد له بما ذكر، فهو منفكّ عنه غير ملتئم به؛ إذ لا مناسبة بين البلّ للجناح والاتّقاء والصون، ولو قال: لكي أتّقين بنون التأكيد الخفيفة داخلة على المضارع لكان مناسباً، ويكون تجريداً لا ترشيحاً، ودخول نون التوكيد على المستقبل الذي هو خبر محض غير منفي، وإن كان غير جائز في الشفة، فللشعر أحكام تجوّز له ما يخطر علىٰ غيره، والله سبحانه أعلم. إنتهىٰ كلام السيّد المؤرّخ .

فاتّفق أن وصل هذا التأريخ إلىٰ مكّة المشرّفة، وعرض علىٰ سيّدي الوالد دام بقاه ما أورده السيّد المذكور، فأجاب عن الإيراد بما هو كالصبح وضح لذي عينين، وكنت رأيت الجوابين مكتوبين علىٰ حاشية تلك النسخة بخطّه الشريف ومنه نقلت، فكان جوابه عن الإيراد الأوّل ما هذا صورته :

قال ابن مالك في التسهيل: ومنها تفاعل، وهو للاشتراك في الفاعليّة لفظاً، وفي المفعوليّة معنىً، ولمطاوعة فاعل، وللظهور في صفة ما تخييلاً، وقد يوافق إفعل وتفعّل وإفتعل، وإن تعدّىٰ هو أو تفعّل دون الثاني إلىٰ مفعولين تعدّىٰ معها إلىٰ واحد، وإلاّ لزم، وربما ساوت هذه الخمسة المجرّد، وأغنت عنه. إنتهىٰ .

قلت: وهو نصّ علىٰ مجيء إفتعل بمعنىٰ فعل .

وفي المفصّل للزمخشري: وبمنزلة فعل إفتعل، نحو قرأت واقترأت .

وإنّما الإيراد الذي كان ينبغي للمورد أن يتنبّه له: أنّ مثل هذا موقوف علىٰ السماع، وليس بقياسي، ولم يسمع ارتجع بمعنىٰ رجع اللازم، ألا ترىٰ أنّه ليس لنا أن نستعمل كلّ فعل علىٰ وزن فاعل، أو استفعل بمعنىٰ فعل، فلا نقول ضاربت وعاملت وراجعت، بمعنىٰ ضربت وعملت ورجعت، وإن جاء من العرب سافرت بمعنىٰ سفرت، وقس علىٰ ذلك غيره، فكلّ هذا الباب سماعي، فمنه بكثرة، ومنه بقلّة .

ويمكن أن يجاب عن ذلك: بأنّ ارتجعت متعدّ، والمفعول محذوف، أي: ارتجعت نفسي، كما قالوه في قوله تعالىٰ ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[1] والله أعلم .

---

(١) سورة البقرة: ١٩٥ .

وجوابه عن الإيراد الثاني هذا صورته أيضاً: قوله «جناحي» استعارة مصرّحة، والأراشة ترشيح عجيب، فإنّ الترشيح لا يكون إلاّ بعد تمام الاستعارة، وكيف تتمّ الاستعارة من مجرّد لفظة «جناحي» حتّىٰ تكون الأراشة ترشيحاً لها؟

والصحيح أنّه من الاستعارة بالكناية، شبّه نفسه في المعاش بالطائر في القدرة على الطيران تارة، وعدمها أُخرىٰ، وأثبت لنفسه الجناح تخييلاً، كالأظفار في قوله «وإذا المنيّة أنشبت أظفارها» وأراشوا مثل أنشبت، وليس من الاستعارة المصرّحة إلاّ علىٰ رأي عبدالقاهر الذي نقله في المطوّل في أبحاث الاستعارة بالكناية، فراجعه يظهر لك.

وقوله «ثمّ بلّوه بالندا تشبيه» الخ، هو استعارة تحقيقية تبعية؛ إذ قد طوي ذلك ذكر المشبّه لفظاً وتقديراً، لكن شبّه جودهم عليه وإنعامهم بالبلّ للماء[١] في الشمول والسريان في المبلول، وجعل البلّ للجناح ترشيحاً للاستعارة السابقة، لا كما ذكره المورد في وجه التشبيه والترشيح.

ثمّ رشح هذه الاستعارة المتضمّنة لترشيح الاستعارة السابقة بترتيب قوله «فلم أستطع عن حيّهم طيرانا» عليه.

ومثله في هذا الترشيح بلا فرق قوله «لكي أتّقي في ظلّهم فأصانا» بل هو أبلغ ترشيحاً وأنسب بالمدح؛ لأنّ الاتّقاء للطائر يشعر بالبلل الحاصل من الغيث المتواصل، بخلاف عدم القدرة على الطيران، فإنّه كما يحصل بذلك يحصل أيضاً بصبّ الماء على الطائر دفعة واحدة من غيث أو غيره، ولأنّه ادّعى أنّهم قصدوا ببلّ الجناح حمايته وصيانته في دارهم، بخلاف «فلا أستطع» الخ، فإنّه لا يفهم ادّعاء

---

(١) في «ن»: بالماء.

قصدهم إقامته فهو أمدح، فقول المورد «فهو منفكّ عنه» الخ من التغيير[١] في وجوه الحسان.

وأمّا قوله «ولو قال: لكي أتّقين بنون التوكيد» الخ، فلم أفهم منه معنىً إلاّ إخراج الشطر عن الوزن، والله تعالىٰ أعلم بمراده. إنتهىٰ كلامه رفع مقامه.

قصيدة والد المؤلّف في الشريف أحمد:

وممّا بعث إلى الشريف أحمد من المدائح الشعريّة بعد ارتحاله إلى اليمن، ومفارقته للعشيرة والوطن، قصيدة فريدة، كالعقود النضيدة، أصدرها إليه سيّدنا الوالد، لا زال حائزاً للطرائف[٢] من المفاخر والتالد، وهي أعراض قصيدة ابن هانيء الأندلسي التي مطلعها:

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدّكم فلق الصباح المسفر

وهي من أشهر القصائد الطنّانة التي أودعها ناظمها محاسنه وإحسانه، والقصيدة المشار إليها هي هذه:

بسقت بكم قضب الحديد الأخضر في روض عزٍّ من نداكم أنضر
أدنت قطوف النصر نحو أكفّكم تحلو بمرّان الوشيح السمهري
وتلاحمت بكماتكم أُجم القنا لمّا غدت غيلاً لكلّ غضنفري
فتواثبوا بعزيمةٍ تفري دجىً نقع الوغا عن صبح فتحٍ أنور
وغدت بهم قتب الجياد كأنّها الأطواد تحمل كلّ طودٍ شمّري
من كلّ مأمونٍ أغرٍّ محجل يعدو بميمونٍ أغرٍّ مشهري

---

(١) في «ن»: التغبير.

(٢) في «ن»: للطريق.

متدرّعٌ بجنابه متلفّعٌ بدلاصه   متبرقعٌ بالعنبري

بدرٌ يقارن من شهير حسامه   مرّيخه ومن السنان المشتري

فإذا عدىٰ في جحفلٍ عصفت به   هوج الذواري من قوائم أشقر

وإذا انتدىٰ في محفلٍ فانظر إلىٰ   علمٍ أشمّ من الأنام مصوّر

من آل طه كلّ أبلج ممكنٍ   في حلم أحمد بأس صولة حيدر

بشرٌ تسير الجنّ تحت ركابه   جيشاً بطاعة أمرهم لا يمتري

كلٌّ يرىٰ بذل الحشاشة مغنماً   في نصرهم ووسيلةً في المحشر

يلقى الكريهة دونهم إن أنعموا   كرماً بذاك بعزّه المستبشر

من خير عدنان الذين تفرّقت   بولايتهم قحطان أهل المفخر

قومٌ ظهور العاديات حصونهم   دع بطن حصنٍ بالقلال معمّر

ولهم حصونٌ كالكواكب رفعةً   ومناعةً من نيل باغٍ مجتري

عزّت فلم يعلق بذيل بنائها   عزم البيوت إلىٰ مطار الأنسر

خاضت فضاء الجوّ حتّىٰ خالها   متخيّلٌ فوق البسيط العنصري

فغدت لأقواس البروج كأسهمٍ   ركّبن إلاّ أنّها لا تندري

ولهم صواعق من بنادق أرسلت   برد السحائب من رصاصٍ مسعر

لو رام راميهم إصابة ذرّةً   لم تحمها حجب العجاج الأكدر

يسمو بهم رتب المعالي سيدٌ   هو في الزمان فريد عقد الجوهر

فكأنّها القدر المتاح إذا رمىٰ   لم يخط قطّ ودفعه لم يقدر

فإذا تبدّىٰ بينهم حجب النهىٰ   عن أن تصوّر تبّعاً في حمير

والاعتبار لهم نذير مشاهدٍ   عن ذكره الوضّاح وابن المنذر

ملكٌ أقلّ الناس من أتباعه   يسمو علىٰ كسرى الملوك وقيصر

فـيه عُـلا آل الرسـول تـبلّجت وتأرّجت بشـذا الثناء الأعـطر
قدسٌ حكيمٌ قد حوىٰ من حكـمةٍ خـيراً كـثيراً شـاده بـتذكّر
فـطنٌ أريبٌ لو تـقدّم عـصره أضحىٰ به المـنصور كـالمستنصر
شـهمٌ قـويٌ فـي المراس مـحاله يبدي عـجائب جـدّه فـي خـيبر
نـدبٌ جـوادٌ قـبل إمـعان الندا يـنسي بـه مـعنىً كأن لم يـذكر
بـرٌّ تـقيٌ قـاهرٌ سـطواتـه مـتذلّلاً للـقاهر المـتكبّر
مـستنمّرٌ لله مـنتصراً له مـتلطّفٌ فـي الحـادث المـتنمّر
قـطب السـعادة قـد عـلا إقـباله في علم هرمس طـالع الاسكـندر
مـا زال مـنصوراً وحسـبك آيـةً بـالناصر المـولى الإمـام الأكـبر
لمّـا انـتضاه فـارتضاه صـارماً كانت ضـرابـته رقـاب الأعـصر
دع ذكر كسرىٰ وابن ذي يزن فقد مـحت القـديم جـلاله المـتأخّر
مـا أفـصح التأريـخ فـي أمـثالها هممأ سمت أعـلىٰ مـدا المـتصوّر
هـذا ولي الأمـر مـلجأ هـاشمٍ ووليّـه فـي الودّ والنسب السـري
والجوهر الفرد العظيم تـواصـلت أسـبابه بـقسيمه فـي الجـوهر
أولاه مـنه عـنايةً مشـمولةً بأشـعّة النـظر السـديد الأنـور
لو لاحظت أُفق المـطالع مـا بـدا مـنه عـلينا غـير سـعدٍ أكـبر
يا أحـمد الأمـلاك صـفوة أحـمد نـطق الوجـود بـحمدك المـتكرّر
ما إن أسـاء الدهـر إلاّ كـنت فـي ربّ الثـنا يسـر الزمـان الأعسـر
خلق الإله لذاك ذاتك فـي الورىٰ أبشـر فأنت إليـه خـير مـيسّر
فاستجل أبكـار السـعود وعـونها أبـداً ورح فـي شكـرهنّ وبكّـر
واهـنأ بشـهرٍ مـثل ليـلة قـدره أسرار مـجدك فـي خـفاءٍ مـظهر

واسـلم ودم عـوداً عـلىٰ أعـياد   والعود أحمد فـي جـميع الأشـهر
هـذا وتأخـير المـدائـح عـذره   بـاد وصـفحك ستر كـلّ مـقصّر
فلئن ملأت بـها الصـفائح سـابقاً   فـلأجرينها لاحـقاً كـالأبحر
ولئن قصرت علىٰ علاكـم نـظمها   فـلذاك خـلقٌ لست عـنه بـمقصر
والشوق عـندي للـمثول لديكـم   شـوق الغـريق إلى الفـضاء النـيّر
قد جال بين البـاز والطـيران فـي   جوّ المنىٰ حصّ الجـناح المـقدر
دام البقاء لكـم عـلىٰ نـيل المـنىٰ   بصعود مجدٍ في النعيم الأنـضر[1]
وإذا بكـم ريش الجـناح فـإنّه   تـعيا الجـوارح خـلفه إذ تـنبري
حسبي من النظر الشريف إشـارةً   فـيها اسـتقامة نـجمي المـتحيّر

وله فيه قصيدة أُخرىٰ، قدح فيها زند بلاغته وأورىٰ، وهي هذه :

جـياد العـلا غـاياتها الفـخر والذكـر   ومـضمارها غـرّ الخـلائق لا القـفر
ومـيدانـها روض النـفوس ورأيـه   مـخالفة العـادات كـي يـحلو المـرّ
وحبّ الثـنا مـثواه صـدر مـهذّبٍ   فسيحٍ إذا مـا ضـاق بـالحادث البـرّ
وما افتضّ أبكار المعالي سوىٰ امرىءٍ   إذا رامـها فـالروح يـبذلها المـهر
ومـا عـنت تـلك العـذاري لو أنّـها   تـميل لمـا تـصبو بـه الخـرد الخـفر
ولكـنّها تـصبو إلى البـاسل الذي   له الزغف قمصٌ والدمـاء هـي العـطر
مضىٰ في اعتناق السمر والبيض عمره   وما هـي إلاّ البـيض والأسـل السـمر
ومـا سـاد إلاّ مـن يسـود بـهمّةٍ   ونـفسٍ هـما مـاء الغـمامة والخـمر
تـوزّع بـين البـذل والبـطش كـفّه   كـما قـلبه فـي كـلّ هـمٍّ له شـطر

---

(١) في «ن»: بصعود مجدٍ في خفاءٍ مظهر .

عــزائــمه الشـهب الثـواقب حـيثما ... هوت لشـياطين الخـطوب بـها ذعـر
ودون اقــتناء المـجد مـصعد أخشبٍ ... ترىٰ تحته الأعلام وهي الصوى الشغر
مــنيعٌ تــزلّ العـصم عـن صـهواتـه ... ويــعجز أن يــرقىٰ أواسـطه النسـر
ألا ربّ عـــزمٍ قــد نــحاه فــدكّه ... كــما انــدكّ حــفقٌ بـالرياح له نـبر
ومــا زال مــن سـنح الجـبال وإنّـما ... هو الرأي ثمّ البطش والجـود والصـبر
ومصداق ما قلت الشريف ابن غـالب ... فشاهده يـوضح صـحّة الخـبر الخـبر

قلت: لم أجد من هذه القصيدة الغرّاء إلا هذا المقدار، وإن كان كلّ بيت مـنها يرحل إليـه ويـزار، وخـصوصاً بـيت المـخلص، فـهو الذهب الخـالص، وسـيّد المخالص، وإن نظرت إلىٰ هذا الشعر وما قبله بعين الانصاف في الاختبار ألحقت ناظمه بمصاقع البلغاء، وبواقع الفصحاء من طبقة بشّار.

وله في هذا السيّد الشريف الأغرّ، مدائح هي في جباه الأعصار غرر، ولأجياد المعالي قلائد درر، ولولا خشية الملال، لأوردت لك جميع ما له فيه من الأقوال.

عود الشريف أحمد بن غالب إلىٰ مكّة:

عوداً إلىٰ ذكر حضرة الشريف المشار إليه، لا زالت هواطل الرحمة مترادفـة عليه: وهو أنّه لمّا ظعن(١) من أراضي اليمن، توجّه إلىٰ مكّة المشرّفة فـي عـدد عظيم، ومدد جسيم، وأقبل علىٰ صاحبها الشريف سعد بن زيد، ومـن بـها مـن السادة الأكارم، والقادة الخضارم، في أواخر سنة خمس بعد الألف، ونـزل فـي محلّه المعروف به وهو الركاني، وأقام به إلى انقضاء موسم السنة المذكورة، وفيه عزل الشريف سعد بالشريف عبدالله بن هاشم، كما تقدّم بيان ذلك فـي تـرجـمة

---

(١) ظعن ظعناً: سار ورحل، يقال: ظعنوا عن ديارهم، أي: رحلوا عنها.

الشريف سعد .

ثمّ بعد أن اعتقل الشريف عبدالله بن هاشم المذكور، بعث إلى الشريف أحمد بن غالب بالدخول إلىٰ مكّة المشرّفة، فدخلها في أوائل سنة ستّ بعد الألف، فاجتمع هو والشريف عبدالله ومحمّد باشا صاحب جدّة المتقدّم ذكره في ترجمة الشريف سعد في بطن الكعبة المشرّفة، وتعاهدوا فيها .

ثمّ استمرّ بمكّة المشرّفة متداخلاً هو والشريف عبدالله، يتعاضدان في المهمّات، ويتساعدان في دفع الملمّات، واستمرّا علىٰ هذه الحالة، وهو في غاية العزّة والجلالة، إلىٰ أن عزل الشريف عبدالله بالشريف سعد، فتوجّه إلى الديار الروميّة هو وصاحبه الشريف عبدالله بن هاشم، واستمرّ ثمّة إلىٰ أن توفّي بها في سنة ثلاث عشرة ومائة وألف، رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة .

أعقاب الشريف أحمد بن غالب :

وأعقب من الأولاد: السيّد أباطالب، والسيّد جسّاس، والسيّد عبدالمطّلب، والسيّد الظاهر، وولداً صغيراً شقيقاً للظاهر درج. وكلّ هؤلاء السادة قد ظهرت عليهم بعد الكبر مخائل الرئاسة والسيادة، مع نفوس أبيّة، وزعامة قرشيّة، وشجاعة حيدريّة، وهمم إسكندريّة، وكرم متواصل، يهزأ بالغيث الهاطل .

بيض الوجوه كريمةً أحسابهم   شمّ الأُنوف من الطراز الأوّل

كيف لا؟ وهم :

شربوا بمكّة في ذرا بطحائها   ماء الخلافة ليس فيه مزاج

فأبت أنفسهم الأبيّة إلاّ تسنّم ذروة المعالي، وكان ذلك محالاً لمناقضة أحكام الأيّام والليالي، اختار كلّ واحدٍ منهم مصراً من الأمصار، وتفرّقوا شفربغر في سائر الأقطار .

فتوفّي أبوطالب وجسّاس بالروميّة، والظاهر بالهند بقضاء الله المحتوم، ولم يمت بمكّة إلاّ عبدالمطّلب، وهذا حكم الدهر المنقلب، فرحمهم الله تعالىٰ ورحم أباهم، وبوّأهم دار الخلد، وبألطافه العميمة أولاهم.

يا بني الزهراء واهاً لكم   ولأيّامكم المقبلة
كانت الدنيا عروساً بكم   فهي اليوم ثكولٌ أرملة

إلىٰ هنا انتهى الجزء الأوّل من الكتاب حسب تجزأتنا، ويتلوه الجزء الثاني من ترجمة السيّد الشريف محسن بن حسين بن زيد بن محسن بن حسين بن حسن ابن أبي‌نمي صاحب مكّة المشرّفة، وأنا العبد الفقير السيد مهدي الرجائي عفي عنه.

فهرس مواضيع الجزء الأوّل